



أرني أنظر إليك



أرني أنظر إليك

د.خولة حمدي

رواية

إهداء

إلى أطفالي الأحبّاء، مرام ولينة ويوسف

لم أدرك أنّ الدّنيا قد تكون مخيفة حتى رزقتكم

حفظكم الله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

«قليل من الفلسفة يؤدي إلى الإلحاد،
لكن التّعمّق في الفلسفة يؤدّي إلى الإيمان»

فرانسيس بيكون

الرّياض في ١٤ نوفمبر ٢٠١٠،

السّيد المحترم (........)،

سررت بالجلوس إليك مساء الأسبوع الماضي عند السّيد (........) وسررت أكثر بالرّسالة المفاجئة التي وصلتني منك حالما رجعت إلى بيتي! في الحقيقة، لقد استمتعت بالاستماع إلى قصّتك في حضور صديقنا المشترك، ورغبت في الاستزادة، لكنّني علمت أنّ الحياء يمنعك من الخوض في تفاصيل كثيرة. وقد أسعدني طلبك بتشريف قلمي المتواضع بصياغة قصّتك بشكل روائيّ.

لقد سألتك في جلستنا تلك بكلّ وضوح: لماذا لا تكتب قصّتك وتنشرها؟ إنّ فيها من المغامرات والصّراعات الفلسفيّة ما يكفي لصناعة نصّ ناجح يحقّق مبيعات وفيرة! ناهيك عن تماهيها مع اهتمامات شباب اليوم وتقديمها لإجابات وافية عمّا يؤرق الكثيرين منهم من تساؤلات وجوديّة! كما أنّ رصيدك اللّغوي والمعرفيّ يجعلانك مؤهلا تماما للكتابة بشكل محترف.. فلِمَ لا تفعل؟

لكنّك رددت بانكسار وصراحة:

- أخشى أنّني لن أكون محايدا في الطرح وسيغلبني هوى نفسي في تزكيتها أو الدّفاع عنها. لذلك أرى أنّ قلما موضوعيّا هو الأقدر على نقل القصّة.

خشيت في تلك اللّحظة أن تكون قد عهدت إلى أحدهم بتلك المهمّة وأنّ الفرصة قد فاتتني، لذلك لم أتجاسر على السّؤال. لكنّك شرّفتني بثقتك وعرضك الذي وافيتني به بعد الجلسة مباشرة.

لقد اطّلعت بشغف على الملفّات التي أرسلتها خلال الأيّام

الماضيـة بشـكل متواتـر. وشرعـت في تدويـن ملاحظـاتي بخصوصهـا. أتفهّم رغبتـك في تحويـر المعلومـات الأساسـيّة الـتي تخـصّ عائلتـك لمـا فيهـا ممّـا يمكّـن المطّلعـين مـن التعـرّف إلى هويّـة والـدك وأخوالـك، وبالتـالي الاهتـداء إلى شـخصك بالـذّات. ولا أمانـع إطلاقـا مـن اعتمـاد الأسـماء المسـتعارة الـتي اقترحتهـا، لتكـون أنـت «مالـك الشّريـف»، وصديقنـا المشـترك «نديـم المغـربي».. وأشـكر لـك الحريّـة الـتي تركتهـا لي لأضـع أسـماء مناسـبة لبقيّـة الشـخصيّات.

أمّـا بالنّسـبة إلى الأحـداث، فأصدقـك القـول. إنّ مـا سردتـه يعرضـني إلى معضلتـين: إنّ الدّوافـع الـتي ذكرتهـا لبعـض الأفعـال تبـدو غـير منطقيّـة مـن حيـث البنـاء الرّوائيّ! في الرّوايـة، ينبغـي لـكلّ حـدث أن يُبـنى عـلى سلسـلة مـن الأحـداث الـتي تمهّـد لـه فـلا يكـون مفاجئـا أو شـاطحا بالنّسـبة إلى القـارئ -مهمـا كان ذلـك حقيقيّـا بالنّسـبة إلى مـن يعيـش الحـدث- لذلـك فاسـمح لي بالتّمهيـد بمـا أراه مناسـبا في سـياق الرّوايـة. أمّـا المعضلـة الثانيـة فهـي مـلء الفجـوات فيمـا يتعلّـق بالخصوصيّـات الـتي لا ترغـب في كشـفها، ولكنّـك صارحتـني بهـا في مذكّراتـك.. فوجـب إذن تعويضهـا بمـا يناسـب مـن أحـداث متخيّلـة، دون الإخـلال بجوهـر القصّـة ومقاصدهـا.

سأرسـل إليـك فصـول الروايـة بشـكل متتابـع لتطّلـع عليهـا وتعلمـني بملاحظاتـك، ويهمّـني بشـكل خـاصّ رأيـك في أحاديـث النّفـس الـتي تـدور في خلـد البطـل ومـدى تطابقهـا مـع مـا عشـته أنـت مـن صراع داخـليّ.

في انتظار ردّك سريعا، لك منّي كلّ الودّ.

تحياتي.

الفصل الأول

- حنين -

-١-

باريس، ٢٠٠٤/٠٥/٠٢

وأنت تعبر بوابة الصّعود رقم خمسة عشر من مطار باريس «شارل دي غول»، وتسير باتّجاه الطائرة الرّابضة في نهاية الممرّ، ينتابك إحساس بالخفّة لم تستشعره من قبل. يتلاشى قلق الفترة الماضية ويتحوّل إلى غلالة رقيقة، قريبا تتكسّر قشرتها الهشّة.

هذه الرّحلة، ينتظرك الخلاص على طرفها الآخر.

تستقرّ في مقعدك في الدّرجة السياحيّة، وتغمض عينيك. تستعجل انقضاء الساعات الثمانية التي تفصلك عن وجهتك، وما يليها من الانتظار حتّى حلول الموعد المرتقب. لكن ما وزن تلك السّاعات القليلة أمام سنوات أمضيتها تتقلّب على جمر القلق؟ عبر مساحات اللايقين التي تغمر فضاءك، يراودك يقين واحد.. ذاك الرّجل الذي ستلقاه هناك، في نيويورك، يملك الإجابات الشّافية على كل تساؤلاتك. سينتهي الاضطراب وترجع السّكينة لتحلّ بين جنباتك بعد أن تتّضح رؤيتك.

ستجد عنده ما يرضي شقّيك المتنافرين المتناقضين.. قلبك وعقلك.

هكذا تمنّي نفسك.

تنادي جارة سفر على ابنتها. سارة. فيحتقن وجهك وترتبك نظراتك. تبحث عن خيالها الذي تعلم ألّا وجود له في الجوار، وترتسم ابتسامتها بين عينيك في إلحاح مزعج. حنين سخيف إلى فترة تعرف ألّا مجال لعودتها. لكنّ القلب يهفو، وتضطرب دقّاته عند

ذكـر اسـمها، أو سـميّها، ومـا أكثرهـنّ! خليـق بـك بعـد كلّ هـذا الوقـت أن تسـلوها وتلتفـت إلى غيرهـا، ومـا يباعـد بينكمـا أكـثر بمسـافات ممّـا جمعكمـا في زمـن مـا. ألقيـت بنظـرة بعيـدة عـبر نافـذة الطائـرة.. فألفيـت كتـلا مـن السـحاب الأبيـض عـلى مرمـى بـصرك، تلتقـي بأفـق سـماوي ذي تـدرج لـونيّ أزرق.

هيـج الاسـم الحنـين، فرحـت تترنّـم بأبيـات لا تـزال روحـك الشّـقيّة تطـرب لتردادهـا، كمـا كنـت دومـا تفعـل:

أحِبُّ مِنَ الأَسماءِ ما وافَقَ اِسـمَها أو أشبَهَهُ أَو كانَ مِنهُ مُدانِيـا

وَلا سُمِّيَت عِندي لَها مِن سَمِيـَّةٍ مِنَ الناسِ إِلّا بَلَّ دَمعي رِدائِيا

أرجعـت بـصرك وهـو حسـير، وألقيـت برأسـك إلى ظهـر المقعـد. ومـا تكـون هـذه الرّحلـة غـير إتمـام لانعتاقـك مـن ماضيـك وذكرياتـه الممضّـة؟ قريبـا سـتخلّفها وراءك مـع سـنوات عمـرك الـتي شـطبتها مـن سجّلات وعيـك. والأهـم مـن ذلـك، سـتثبت لهـا أنّـك عـلى حـقّ.. وهـي عـلى باطـل.

ارتسـمت عـلى شـفتيك ابتسـامة سـخرية تليهـا غصّـة أسى في حلقـك.. أمـا زلـت تسـتعمل كلمـات المعجـم نفسـه؟ الحـقّ والباطـل. وهـل تملـك معجمـا غـيره وقـد نشـأت عـلى القـرآن، تلاوتـه وحفظـه وتدريسـه وإمامـة النّـاس بـه قيامـا وخطابـة؟ هـل تملـك أن تضغـط عـلى زرّ إعـادة التشـغيل، فتعـود صفحـات روحـك بيضـاء نقيّـة تكتـب فيهـا مـن جديـد بلغـة أخـرى، وبمعجـم آخـر؟

ليتك تفعل.

لكنّك تعلم ألا سبيل إلى مسح الذاكرة.

في وقـت مـا مـن شـبابك الأول، كانـت لديـك نظريـة وجوديّـة مفادهـا أنّ العقـل وفيّ لوجـدان صاحبـه. فلـو أنّ شـخصا مـا فقـد الذاكـرة، وألفـى

نفسه في محيط لا يعرف عنه شيئا، بعيدا عن نقاط ارتكازه الأساسيّة وأهله وبيئته، فإنّ استدلالا عقليّا محضا سيؤدّي به خلال وقت قصير إلى الوصول إلى نفس معتقداته الفكريّة السّابقة! كنت منذ صغرك تعتبر نفسك تجسيدا لـ(حي بن يقظان) في العصر الحديث، فلا تعارض في رأيك بين الفلسفة والدين، ولا العقل والشريعة.. كنت تزعم أنّ رؤيتك للعالم حينها تتكامل في صورة مثالية.

كنت واثقا من نظريّتك تلك، فخورا بها.. فاتك أن تضع تصوّرا لما تؤول إليه حياة الإنسان الذي يغيّر عقله مساره ويضبط البوصلة على اتّجاه غير مألوف! أيّ الاتّجاهين سيسترجع إن هو جرّب العزلة على جزيرة مهجورة، نقيّا من أيّ ذاكرة؟

لكنّك تخطّيت كلّ ذلك الآن. تعتقد جازما بأنّك فعلت. لم تعد أنت كما أنت. لكنّها هي ما زالت كما هي. لم تعد ذاتك الجديدة منسجمة مع الماضي الذي جمعكما. في الحقيقة، لم تعد ذاتك تنسجم مع أيّ شيء انتميت إليه في وقت سابق. أنت الآن حرّ من قيود العرف والعادة والمجتمع والعائلة والدّين جميعا!

أنت تؤمن بعقلك وحده.. وتتبع دليله إلى حيث يقودك.

-٢-

هل تذكر، حين رأيتها أوّل مرّة؟

كان ذلك في مطلع السّنة الدّراسيّة الثانية لك في باريس، سبتمبر ١٩٩٨. كنت قد حقّقت إنجازك الأوّل واجتزت اختبار دخول كليّة الطبّ، دون أن تعبر معضلة السّنة التحضيريّة المضنية. ذاكرتك رغم مواتها كانت قد احتفظت بمخزون عالي الجودة بعد سنوات تردّدك على كليّة الطبّ التّونسيّة، فقُبلت في حين رجع نحو ألف ومائتي طالب خائبين، وتوزّعوا على اختصاصات أخرى كان الطبّ في أعلى قائمتها.

مرّت سنتك الدّراسيّة الأولى هادئة باردة، خالية من أيّ معنى. كنت تدرس لتملأ فراغ وقتك وخواء قلبك، ولا تفكّر في أيّ شيء آخر. تجربتك الباريسيّة الميتة استمرّت لسنة واحدة، قبل أن تدبّ الحياة مجدّدا في شرايينك.

في الأسبوع الأوّل لسنتك الدّراسيّة الثانية، رأيتها.

كانت قاعة المحاضرات تغصّ بالبشر، لا تكاد تجد موطئ قدم بين الطلبة الثلاثمائة الذين يتزاحمون لحضور درس «التّشريح» ذاك. ومع ذلك رأيتها، ورأتك. لم يكن من الصّعب تمييز شخصين غريبين مثلكما في بحر متلاطم من الشقرة والسّفور. كان حجابها علامتها المميّزة. هل صوّبتَ بصرك تجاهها ترمقها مأخوذا في دهشة، حتّى انتبهتْ هي إلى نظراتك الملحّة فالتفتت؟ لعلّك فعلت. فقد التقت عيونكما بعدها، ولم تحوّل بصرك عنها حتّى أشاحت بوجهها، وقد تناسيت قاعدتك الذّهبيّة بغضّ البصر عن الأجنبيّات. ولكنّها بدت

في تلـك اللحظـة قريبـة بشـكل لـم تسـتوعبه. وهـل تبقـى أجنبيّـة، وهـي الـتي تشـاركك الانتمـاء في جـوّ مشـبع بالغربـة؟

اسـترقت النظـر إليهـا خلسـة، تسـجّل ملامحهـا في دفاتـر ذاكرتـك، وتبحـث في ثنايـا وجههـا عـن سرّ احتبـاس أنفاسـك ووجيـب قلبـك. هـل كانـت عيناهـا الكسـتنائيّتان الواسـعتان كثيفـتي الرمـوش؟ أم ثغرهـا الصّغـير الباسـم كأنّـه معلّـق في وضـع الابتسـام؟ أم هـو وشـاحها الحريـريّ محكـم التثبيـت حـول هالـة بيـاض فاتنـة؟

كانـت الـدرّة المصونـة اللائـذة بقوقعتهـا، ومـن حولهـا مئـات الأذرع العاريـة والشـعور المكشـوفة. وأنـت، كانـت لحيتـك الكثّـة علامتـك الخاصّـة. لا شـكّ أنّ ذلـك الإحسـاس الصّميـم بالألفـة قـد أدركهـا هـي الأخـرى، فقـد اسـتدارت بعـد دقائـق قليلـة، لتنظـر في اتّجاهـك. تلـك المـرّة، غضضـت بـصرك في ورع وتظاهـرت بالتّركـيز عـلى كلمـات المحاضر.

الأولى لك، والثانية عليك.

سـتراها بعـد ذلـك كثـيرا. في قاعـات المحـاضرات، في معامـل التجارب، في غـرف التشريـح أو في أروقـة المستشـفى الجامعي، وحـول أسرّة المرضى، وفي غـرف العمليـات، أو في سـاحة الكليّـة وعنـد المـشرب. كان مـن اليسـير أن تعـرف اسـمها. سـارة. تناديهـا رفيقتهـا فتلتفـت.. لتسـتمرّ أنـت مـن بعدهـا في ترديـد الاسـم بصـوت خفيـض، مسـتعذبا همـس السّـين ورقّـة الـرّاء عـلى طـرف لسـانك. سـتراها وتتمـنّى أن تجـد قدمـاك طريقـا إليهـا، ولكنّـك سـتحجم حيـاء واحترامـا. سـتقف عـلى مسـافة، حيـث تستشـعر وجودهـا وتنتبـه إلى حركتهـا، ولكنّـك لـن تقـترب. كنتمـا في الصـفّ الثالـث معـا، ثـمّ الرّابـع.. تسـتمرّ في مراقبتهـا وترقّـب حضورهـا في شـغف، ولا تجـرؤ عـلى مواجهتهـا أو اقتحـام عالمهـا.

كنتما في الصفّ نفسه.. وأنت تكبرها بثلاث عشرة سنة.

كان فرق السنّ واضحا آنذاك. يكفيك أن تطالع وجهك في مرآتك، لتلمح التجاعيد التي وجدت طريقها إلى جبينك وزاوية عينيك، والشّيب الذي خطّ فوديك وأطراف لحيتك، وأنت لم تتجاوز الثلاثين إلا بسنوات ثلاثٍ! كيف تبرّر لها مكوثك حتّى تلك السنّ دون شهادة؟ وكيف تفسّر سنوات عمرك المتسرّبة مثل قطرات ماء بين الأصابع؟

ستنتظر في صبر، أن يهيّئ لكما القدر فرصة.. ستنتظر طويلا.

لم تصطدم بها صدفة، فتسقط الأوراق والدّفاتر بينكما، فتلتقي النظرات أو تتلامس الأيدي عفوا وأنتما تجمعانها عن الأرض.. ولم تدافع عنها من عصابة شباب مستهتر حاولت مضايقتها، مع أنّك كنت تتوق لاستعراض مهاراتك القتالية أمامها! لم يجمعكما أيّ من مشاهد السينما التي تمنّيتها سرّا وهدهدتها في أحلام المنام واليقظة.

كانت صدفتك من نوع آخر.

كنت طالبا جادّا، ودفاترك الثمينة محطّ أنظار الزملاء والزميلات على حدّ سواء. خطّك الجميل المنمّق، الذي تراعي فيه تناسق الخطّ العربيّ -الذي تعلّمت فنونه مراهقا- حتّى وأنت تكتب بالفرنسيّة، كان يجعلك قبلة الجميع حين تقترب الاختبارات ويحتاج المتغيّبون لنسخ المحاضرات الفائتة. صديقة مقرّبة منها طلبت دفترك ذات يوم. وحين أعادت إليك أوراقك، كانت من بينها ورقة إضافيّة، لا تدري إن كانت قد وقعت منها سهوا أم عمدا! كانت قائمة أرقام هواتف وبريد إلكتروني لعدد من الزّملاء والزّميلات. لا تدري على وجه الدّقة ما كان الدّاعي لاجتماعها على تلك الصّفحة. ربّما كانوا يرتّبون لمجموعة مراجعة؟ أو يخطّطون لاستمرار التّواصل بينهم خلال الإجازة؟ ولعلّ الفتاة طلبت أرقام من تثق فيهم من الزّملاء حتّى تتصّل بهم وقت الحاجة، للاستفسار عمّا يستعصي عليها فهمه من الدّروس؟

لكنّ كلّ ذلك لم يعنك في شيء. كانت تلك الورقة هناك، وكان

اسـمها ورقمهـا وبريدهـا مدوّنـين عليهـا. قبـل أن تعيدهـا إلى صاحبتهـا، حرصـت عـلى تدويـن الرقـم والبريـد عنـدك. وبقيـا لديـك ردحـا مـن الزّمـن، تتأمّلهمـا كلّ ليلـة، تمـرّر أصابعـك عـلى الحـروف كأنّمـا تناجـي صاحبتهـا بـلا كلمـات، ولا تفعـل بعـد ذلـك شـيئا.

استجمعت شـجاعتك خـلال الإجـازة الصيفيّـة التّاليـة. احتميـت بالغيـاب، وتجـرّأت عـلى الكتابـة إليهـا. فكّـرت أنّـك لـن تواجـه نظراتهـا إلّا بعـد أسـابيع مـن قراءتهـا لنصوصـك، وربّمـا تكـون آنـذاك دهشـتها قد فـترت وردّة فعلهـا قـد نضجـت، فـلا تقابلـك بعيـون متّسـعة عـن آخرهـا. كان عليهـا قبـل ذاك أن تفـكّ الشـيفرة وتحـزر هويّـة المتـواري خلـف العنـوان المجهـول. أنشـأت بريـدا جديـدا، لا يحمـل أدنى تلميـح لاسـمك أو انتمائـك، مجـرّد رمـوز متراصّـة لا تعـني شـيئا، إمعانـا في التّخفـي. كان بريـدا خاصّـا مـن أجلهـا.. تفتحـه في اليـوم عـشرات المـرّات بارتجافـة في السـبّابة، وترقـب الشاشـة الخاليـة مـن أيّ بريـد وارد.

هل كنت تتوقّع ردودا على ضجيجك وثرثرتك؟

كتبـت لهـا تلـك الصّائفـة عـن أيّ شيء وكلّ شيء. عـن نفسـك وأفـكارك ومشـاغلك ومخاوفـك، عـن وحدتـك وضياعـك وذاكرتـك المثخنـة بالهزائـم.. لكنّـك لـم تذكـر كليّـة الطـبّ مـرّة واحـدة. ولـم تـشر إلى معرفتـك بهـا مـن قريـب أو بعيـد. كانـت أقـرب إلى الخواطـر منهـا إلى الرّسـائل.. فبـم عسـاها كانـت تـردّ؟

تـدرك الآن أنّـك لـم تكـن تنتظـر منهـا ردّا، بقـدر مـا كنـت تنفّـس عـن اضطراباتـك الدّاخليّـة.. حـتّى لا تقـودك أفـكارك القاتمـة إلى محاولـة انتحـار أخـرى. كنـت حزينـا مكتئبـا في تلـك الأيّـام، بعـد أن وصلـك نعـي خالـك الأقـرب إلى قلبـك، وأنـت غـير قـادر عـلى السّـفر لوداعـه. خالـك عمّـار قـضى نحبـه عـن سـنّ يناهـز الخامسـة والسّـبعين، أمـضى عقدهـا الأخـير في الحبـس الانفـراديّ.

-٣-

١٩٩٩/٠٧/١٣

يا من تقرئين رسالتي، إليك مفاتيحها.

لا أتوقع منك ردودا أو تجاوبا، وأنا الذي وصلت دون سابق إعلام، واقتحمت خلوتك دون استئذان. سيكفيني أن تقرئي. وربّما تتساءلين في حيرة بينك وبين نفسك، من ذا الذي يجرؤ؟ وذلك غاية ما أرجو، أن أثير قدرا من فضولك واهتمامك.

سأكتب إليك، كأنّني أكتب إلى نفسي، بلا حواجز أو اعتبارات. وذلك ممكن لأنّك لا تعرفين من أكون. واختفائي وإخفاء هويّتي قد يبدو لك جبنا.. لكنّه يمنحني مساحات من الحريّة لا تتوافر في الظروف الطبيعيّة لأيّ محادثة بين اثنين، وتحرّرني من الحياء والخوف، وتفتح بوابات الصّراحة على مصاريعها.

دعيني أؤكد.. أنت لا تعرفينني! لا تبحثي عن وجهي في دائرة معارفك والمقرّبين منك، فإنّ موقعي حتما خارجها. خارجها تماما. حتّى أنّني لا أعرف كيف يكون صوتك. لكنّني أحفظ الملامح والابتسامة. ولا تتساءلي أين سبق والتقينا، لأنّنا لم نلتقِ. لذلك لا تشغلي نفسك بمن أكون، فإنّني لا أريد أن أكون أمام عينيك.. سوى كلمات.

ها أنّني قد سلّمتك المفاتيح، فافتحي الأبواب!

***

١٩٩٩/٠٧/١٥

الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، والنعاس يجافيني. لديّ الكثير لأحكيه.. لكنّني ترقبت بعد رسالة الأمس، علّك تردّين. لكنّك لم تفعلي. أيّ تناقض في ألّا أتوقّع منك ردًّا، لكنّني في حقيقة الأمر أطمع في أن تفعليها وتردّي؟!

أنت لن تردّي إذن، وأنا سأثرثر كما أشاء.

لو كنت عرفتني في حياتي السّابقة، منذ سنوات، لما خلت جملة في نصّي من «أنا» و«أنا». لعلّها نرجسيّة شفيت منها؟ أو ربّما فخر مشروع بما حباني الله به من نعم؟ أمّي كانت تقول أنّ «عقلي يزن البلد»، وتتنبّأ لي بمستقبل لا تضاهى نجاحاته. كنت قد بدأت السلّم من منتصفه، لا من أسفله، متفوّقا على أقراني في بنية الجسم ورجاحة العقل وجمال الخلقة. أترين؟ أقول «كنت». لم أعد أثق بما أنا عليه الآن. بلى، أعلم أنّ جسمي ما زال على متانته وعقلي على نجابته وملامحي تحتفظ بوسامتها رغم ما مرّ عليها من نوائب.. لكنّ المشكلة في قلبي، فقد شاخ قبل الأوان. وها أن لقاءك ينفض ما علاه من رماد ويحرّك جذوة قد انطفأت.. أو كادت تنطفئ.

هل تعلمين؟ لقد توقفت عن الإيمان بالأشخاص منذ سنين، منذ خيبتي الأولى. بل لعلّي انتظرت الخيبة الثانية لأتوقّف عن الثقة في الآخرين. لست انطوائيا منعزلا سريع التأثّر، ولا متهوّرا مندفعا غزير العاطفة، ولست أحمّل الأمور أكثر ممّا تحتمل. لكنّني بُليت بطعنات متتالية دفعتني إلى مشارف الهاوية. حتّى فكّرت في إنهاء حياتي مرّات، وحاولت مرّة. فلماذا أتعلّق بك؟ وأنت شخص فانٍ كالآخرين.. وقد تخذلينني مثلهم؟ وما أدراني بأنّك أهل لثقتي ومشاعري وأنا لا أعرف

عنك إلّا أقلّ القليل؟ لكن ليس بيدي حيلة. أعلّق قلبي بك عمدا، كمرساة تشدّني إلى الحياة.. حتّى لا أفقد الأمل، مرّة أخرى.

حين دخلت السّجن، بدا ذلك ابتلاءً يكشف عن أصالة معدن الرّجل. فرحت بالاختبار على صغر سنّي وأبديت من الجلد ما أغاظ جلّادي. الصّبر والثّبات على أرض المعركة، معانٍ تشرّبتها طفلا ومراهقا ودغدغتني آمال البطولة، حتّى آن أوان الاختبار على أرض الواقع. لكنّ تكرار المحنة واجترار الألم يفعلان بالقلب الأفاعيل. مرّة تلو مرّة أعبر الممرّ طويل، بطول الصّراط يوم القيامة -في عينيّ آنذاك- وأدخل غرف التحقيق التي فيها تهدر الإنسانية، ولا يتردّد في جنباتها غير الأنين والصراخ. وتفتر الابتسامة عن وجهي، مع إلحاح السّؤال القاسي.. إلى متى هذا العذاب؟

كنت أعود إلى زنزانتي -بعد ساعات التحقيق المرعبة- يقودني جلاد فظ، يطاردني بالسّياط والسّباب. وفي الزنزانة التي تشبه القبر، أتكئ بظهري إلى جدارها الحجري، واهن الجسد، معذّب الرّوح منهك الحواسّ من شدّة الضّرب والتعذيب. أضع رأسي بين ركبتي، أختبئ من نفسي ومن العيون التي ترقبني. أتمنى ألا يرى ضعفي أحد من رفقاء المحنة. لكنّ عجزي مفضوح رغم العتمة، الخور يتسلّل حتّى يسيطر على ذاتي المحطّمة.

وتسيل دموعي الحرّى، وتتساقط على أرض المهانة، التي خلتها يوما مُوطني الذي أحب. لقد سرقوا الأوطان وسرقوا معها مشاعرنا الجميلة. ثمّ حين تهدأ لوعتي، تجري على لساني كلمات أبيات من النونية الشهيرة للشيخ القرضاوي، فأرفع بها صوتي قليلا.. وكأني أعزّي بها نفسي الممزقة، وأضمّد جراح روحي، وأشد من أزر عقلي المهزوم المشتّت، مردّدا -بين دموعي- في صوت شجي:

تالله ما الدَّعــواتُ تُهزَمُ بالأذى   أبدًا وفي التـــاريخِ بِـــرٌّ يميني
ضع في يديَّ القيدَ ألهِب أضلُعي   بالسَّوطِ ضع عُنُقي على السّكّينِ
لن تستطيعَ حصـارَ فكريَ ساعةً   أو نزعَ إيمـــاني ونـــورَ يقيــني
فالنورُ في قلبي وقلبي في يـــدَي   ربّي وربّي حـــافظي ومُعــــيني
سأظلُّ مُعتصمًا بحبلِ عقــيدتي   وأمــوتُ مُبتسِمًا ليحيا ديـــني

وأنتبـه عـلى صـوت نشـيج مكتـوم مـن رفقـاء الزنزانـة، وقـد هيّـج النشـيد مشـاعرنا فعـرّى مـا نكتمـه عـن بعضنـا مـن ضعـف. ويبـكي الـكل في صمـت، فقـد كانـت الدمـوع أبلـغ مـن أي قـول.

حـين حُرمـت مـن مواصلـة الدّراسـة، ورأيـت آمـال المسـتقبل تتحطّـم أشـلاء، غلبـت المـرارة عـلى طعـم البطولـة الموهومـة. هـا أنّـني قـد دفعـت سـنوات الشـباب الغاليـة لأحصـد علامـات شـائهة عـلى البـدن وجروحـا غائـرة في الكرامـة ونزيفـا مسـتمرّا للأمـل. بعـد أن كنـت أسـدا يصـول ويجـول في سـاحة الكليّـة، أصبحـت عاطـلا متبلّـدا لا يغـادر غرفتـه. هـل يبقـى للحيـاة معنـى بعـد ذلـك؟

قلـت أنّـني خُذلـت مـن قِبـل مـن أهديتهـم ثقـتي، أولئـك الذيـن شـاركتهم القضيّـة. بعـد فـترة سـجني الثالثـة، بحثـت عـن رفـاق الأمـس، فلـم أجـد لأحدهـم حسّـا. ألفيـت قسـما منهـم قـد سـارع بالهجـرة قبـل أن تطالـه ألسـنة اللهـب. يهـرب مخلّفـا البـلاد رمـادا وقـد وارى الـثرى كلّ أحـلام الأمـس.. وقسـم لفظـه السّـجن بعـد سـنوات مـن العـذاب كانـت كفيلـة بـوأد بـذرة الحيـاة داخلـه. يتجاهـل بعضهـم اتصـالات البعـض الآخـر، ويشـيح بوجهـه ويقطـع الطريـق إذا مـا جمعهـم رصيـف واحـد. الـكلّ مراقـب والوشـاة كـثر، والـكلّ يشـكّ في الـكلّ. أنـت لا تُجلـب إلى غرفة التحقيـق إلّا إذا وشى بـك أحدهـم أو جـاء ذكـرك عـلى لسـان آخـر، ولـو عرضـا.. الـكلّ مضطـرّ لذكـر اسـم أو أكـثر ليخفـف عـن نفسـه جرعـات

الألـم، ولـيرضي نهـم المحقـق السـادي لمزيـد مـن الأسـماء، فيكـف عنـه الـضرب، وتتوقـف طاحونـة العـذاب الجهنميـة ولـو مؤقتـا. وكلّ اسـم يذكـر سـيأتي عليـه الـدّور عاجـلا أم آجـلا. يعتـذر إليّ والـد أخ عزيـز.. «اغفـر لأخيـك، فقـد ذكـر اسـمك في التحقيـق مضطـرّا، يجـب أن تتـوارى عـن العيـون!».

أتوارى عن العيون؟! إلى متى؟

إن لـم نكـن صفعـة عـلى وجوههـم وشـوكة في حلوقهـم، فمـا جـدوى العيش؟

حين ألفيتني لا أصلح شوكة في حلق أحد، قرّرت إنهاء حياتي.

كان ذلك بعد أن خُذلت للمرّة الثّانية.

كنـت قـد خطبـت زميلـة لي في الكليّـة، سـبقتني في إنهـاء دراسـتها مـع توقـف مسـاري الـدّراسي مـرّة إثـر مـرّة بينمـا واصلـت هـي صعـود السّـلم الـذي تركتُـه غـير بعيـد مـن الثلـث الأخـير. كنـت قـد رأيـت فيهـا مواصفـات فتـاة الأحـلام، مـن خلـق رفيـع وأدب جـمّ ونسـب شريـف وشـكل حسـن. بعـد أن صـدر بحقـي الحكـم الأخـير بقضـاء ثلاث سـنوات وراء القضبـان، أرسـلت مـع أخيهـا تبلّغـني ألا طاقـة لهـا عـلى الصّـبر أكـثر!

هـل تعلمـين؟ لا ألومهـا. ومـن تـرضى بـزوج خرّيـج سـجون، مـا يـكاد يغـادر السّـجن إلا وحـنّ إليـه مـن جديـد؟! كلّ امـرأة تبحـث في نصفهـا الآخـر عـن اسـتقرار وأمـان وسـكن.. ومـا كنـت عليـه كان غـير ذلـك. أأكـون حمّلتهـا مـا لا تطيـق، حـين طمعـت في بقائهـا في انتظـاري؟ أأكـون قـد غاليـت في أحلامـي حـين تمنّيـت أن تكـون ذكراهـا بلسـما يورثـني الرّضـا في ظلمـة سـجني؟ وأن يبقيـني بريـق الأمـل متيقظـا، مترقّبـا مسـتقبلا جميـلا يجمعنـا؟ ليسـت كلّ النّسـاء تتحمّـل أن تكـون شـاطئ الأمـن الـذي يرنـو إليـه الرّجـل، ويتـوق إلى أن تـبرأ جراحـه عـلى يديهـا. أم لعـلّ جراحـي

أخافتها؟

لم أسألك بعد، وأنت هل تخيفك جراحي؟ لا أبحث الآن عن جواب. لن أقترب حتّى لا تجفلي وتنفذي بجلدك. لكن فكّري في هذا.. ما الجدوى من حياة لا نكون فيها جزءًا من شيء عظيم؟ هذه الحياة التي أعيشها منذ تلك الآونة، تتساوى والعدم. أن أعيش من أجل نفسي وحدها، أيّ سموّ في هذا؟ لذلك لست نادما على ما قدّمت وما خسرت. ولو رجع بي العمر إلى الوراء لكرّرت الأمر نفسه. كنت لأندم لو أنّني لم أحاول ولم أسخّر نفسي من أجل قضيّة آمنت بها.

الهزيمة مرّة.. لكنّ العجز أمرّ.

***

١٩٩٩/٠٧/١٦

حين تلاشت كلّ آمالي في تحسّن الوضع، اشتريت علبة حبوب منوّمة، وابتلعت حبّاتها واحدة إثر الأخرى، في هدوء تام. ثم استلقيت على السّرير، راجيا أن أستيقظ في مكان آخر.. في مكان بعيد عن حياتي الموبوءة. في العالم الآخر، حيث لن تطالني أيدي البشر الآثمين الظالمين.

لكنّني فتحت عينيّ، لأجدني في نفس الموضع، بعد أن غرقت في غيبوبة عميقة لساعات طويلة! لم أستوعب أبدا كيف فشلت تلك الكميّة المركّزة من المخدر في القضاء عليّ! تعرّقت أنهارا وتقيّأت مرارا، ثمّ فقدت الوعي تماما، لأستيقظ بعد ساعات على صداع حادّ واضطراب شديد. اكتشفت مذّاك مهربا مثاليا لمعاناتي. كنت في الفترة التي سبقت تلك المحاولة أعيش اكتئابا حادّا يصيبني بالأرق معظم اللّيالي. الحرمان من النّوم كان شديد الأثر على مزاجي، وتلك

التّومة الطويلة -التي أردت لها أن تكون الأخيرة- كانت بداية إدمان خارج عن السّيطرة. كنت في حاجة إلى النوم، الكثير منه.

بعد أسبوع أرغمت فيه عقلي على راحة قسريّة، عبر الحبوب المنوّمة، اتّصلت بوالدي وقلت في حزم: لم أعد أطيق صبرا على هذه الحال.. سأهاجر!

وهكذا هاجرت.

عدت أصعد السلّم من بدايته وقد فقدت الأسبقيّة وكلّ الامتيازات القديمة. عدت أكافح يوما بيوم، أقاتل لأبقى.. عَلِّي ذات يوم أحيي القضيّة التي ما عادت تهمّ أحدا. حين يمرّ المرء بما مررت به، يصبح الحاضر هو كلّ شيء. اللحظة الرّاهنة هي كلّ ما أملك. لا خيال. لا أحلام. لا آمال زائفة. حتّى وأنا أكتب إليك، أنحّي كلّ أمل مغرٍ بأن تقبليني وتهتمّي لأمري. أضع تركيزي على الكلمات التي نتشاركها وحدها.

أرى كوابيس منذ أيّام. أرى جلّاد الأمس، وظلمة الحبس.

لكنّ أسوأ مخاوفي، هو غد لا أراك فيه.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٢

أخّرت هذه الرّسالة متعمّدا.. أترك لك المجال لتستوعبي الرسالة الأخيرة،

كم أبدو يائسا ومثيرا للشفقة، بعد كلّ الأزمات التي مررت بها وتخطّيتها، حين يكون منتهى رضاي في رؤية وجه لا يبالي بوجودي. فقط رؤيته والإحساس بابتسامته الدّافئة، وأنا أمرّ على مقربة دون إحداث جلبة أو جذب انتباه.

هذا مخيف. لا شكّ أن هذا يخيفك!

وربّما يملؤك غرورا.

سـبق أن قلـت أنّـني لا أتوقّـع منـك ردّا. وأنـت محقّـة في تجاهـلي. ولكنّـني أطمـع في يـوم، نتحـدّث فيـه وجهـا لوجـه.. وإن كنـت لا أسـتعجله. فأمامـي مشـوار طويـل، وأريـد أن أقطعـه وحيـدا. حـين أصبح جاهـزا لمواجهتـك، سـأظهر أمـام عينيـك.

انتظريني، رجاء.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٥

رحلـة الفـرار مـن بلـدي كانـت قاسـية وطويلـة. لـن أسـمي بلـدي، ولا البـلاد الـتي عبرتهـا حـتّى حططـت الرّحـال في باريـس، فـإنّي مـصرّ عـلى الغمـوض كمـا تريـن. لـن أتـرك بـين يديـك خيطـا تتبّعينـه لاكتشـاف هويّـتي. هـل أثـرت فضولـك؟ أتمـنى ذلـك.

خرجـت في صنـدوق سـيّارة نقـل، مثـل بضاعـة مهرّبـة، وعـبرت الحـدود. وبعـد شـهور انتقلـت إلى بلـد آخـر بهويّـة منتحلـة. تنقلـت لشـهور بـين مواطـن شـغل مختلفـة، وتعلّمـت مهـارات حرفيّـة عـدّة، مـع مجموعـة مـن الشّـباب المهـرّب في ظـروف مشـابهة لظـروفي، وانتظرنـا في صـبر أن تتـاح لنـا فرصـة المواصلـة إلى أوروبـا.

كانـت أوروبـا حلمـي، لسـبب وحيـد. كنـت قـادرا هنـاك عـلى مواصلـة تعليمـي الـذي حرمـت منـه في بلـدي. والـدي كان قـادرا عـلى توفـير تعليـم خـاصّ لي في أيّ مـكان مـن العالـم يقـع عليـه اختيـاري. لكنّـني في عنـاد شرس -سـتعلمين أنّـه طبـع أصيـل فيّ- أصررت عـلى إعالـة نفسي والإنفـاق عـلى دراسـتي حـتّى الرّمـق الأخـير.

كانـت مسـألة كرامـة واحـترام للـذّات، ولـو أنّـني تراجعـت في أيّ لحظـة

وأقررت بعجزي، لتلقفتني شبكة الحماية الأبويّة بترحاب لا يكلّ. أعترف مع ذلك أنّني طلبت معونة والدي في مرحلة واحدة، مرحلة الهرب. لم أكن قادرا من موضعي داخل البلد أن أدبّر وسيلة هجرة مناسبة، وأنا الممنوع من مغادرة تراب الوطن. وقد تدخّل معارفه بحنكة في مختلف مراحل رحلتي حتّى تمّ تسليم الطّرد البشريّ الذي كنته إلى صديق باريسيّ كان في انتظاري.

في باريس، بدأت رحلة أخرى، من الوحدة، الوحدة الشديدة.. رغم وجود أصدقاء كثر من حولي. كنت وحيدا في تدبّر أموري المالية ومقاومة أمواج اليأس التي تتردّد بإصرار على شاطئي. ولو أنّني طلبت المعونة في أيّ وقت، لوجدت من يلبّي. لكنّني أخفيت ظروفي الحالكة عن رفاقي بعنادي المعهود، وامتنعت عن الشّكوى. أشكو للمرّة الأولى، إليك أنت. فالوحدة قاسية، والليل شديد الظلمة على القلوب الوحيدة.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٧

الليلة عيد مولدي.

الأجواء من حولي ليست احتفاليّة أبدا. فوطأة السّنوات التي تمرّ بي غير عابئة ثقيلة على صدري. لا معنى للاحتفال لمن هم مثلي، يهابون رحيل الشّباب. لم أحتفل كثيرا حتّى في الماضي. لم يكن تقليدا معتبرا في عائلتي. ربّما كان احتفالي الأوّل والأخير حين أحرزت شهادة ختم التعليم الثانوي، وتهيّأت لوداع عائلتي والرّحيل إلى الجامعة. كان أشبه بحفل وداع.

لكنّني اليوم تلقّيت الكثير من الاتّصالات التي تتمنّى لي يوم مولد سعيدا. شعرت بوحدة أقل، وابتسمت أكثر. لكنّ هذا لا ينفي

الإحساس بسنة أخرى قد ولّت.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٩

ما زلت مصرّة على التّجاهل؟

تمنّيت أمنية منك بعام سعيد، لكنّني قد لا أحصل عليها في وقت قريب.

ولأنّني قد ثرثرت كثيرا واستنزفت رغبتي في الاسترسال، سأتوقّف الآن.

-٤-

توقّفتَ فجأة عن الكتابة كما بدأت. كنتَ مدفوعا برغبة ملحّة للفضفضة، وقد انحسرت الرّغبة مثلما جاءت. كأنّك شعرت بثقل تلك المحادثة أحاديّة الجانب، وانتابك خجل من نفسك. كم كنت يائسا ومثيرا للشفقة!

أم لعلّه وعيك بسنتك الثالثة والثلاثين وهي تصير حقيقة، وأنت ما زلت على مقاعد الدّراسة؟

في الأيّام الأولى التي تلت تفريغ شحنتك من الكلام، سيطر عليك إحساس بالنّدم. ما على هذا نشأت وتربّيت! كيف تقتحم حياة الفتاة الغافلة عنك وبأيّ صفة؟ ألست تفتنها وتفتن نفسك بحديثك المتهوّر عن المشاعر والتعلّق؟ ألا تشبه الآن الشباب المائع والمتهوّر، تتسلّل من الباب الموارب وأنت لا تملك نيّة في ارتباط رسميّ؟ تريد أن تحجز قلبها، فلا يسرقها منك أحد؟ ما هكذا تكون شيم الرّجال!

ثمّ فترت الملامة شيئا فشيئا. أنت لم ترتكب إثما. لم تواعدها سرّا ولم تختل بها، لم تغازلها صراحة ولم تدعها إلى ما يغضب الله. سيغفر الله لك فيض العاطفة الذي لم تملك السّيطرة عليه. استمررت تفتح البريد بشكل يوميّ. تعيد تلاوة رسائلك البليدة طالما لم يرد ردّ من طرفها. ثمّ تتوقّف أمام كذبتك الصّغيرة. كنت تكذب بشأن الصّوت. فقد سبق لك سماع صوتها.

كان رقمها معك، وكان صوتها متاحا على الطّرف الآخر. وماذا فعلت بالرّقم الثّمين بعد أن غنمته؟ لا أنت طرقت الباب حتّى تسمع جوابها، ولا أنت حاولت حتّى المعاكسة الهاتفية المنتشرة

تلك الأيّام بين صفوف الشّباب والمراهقين. كنت أجبن من الإقدام على الاقتراب من دائرتها، فقنعت بالفتات. كنت تتّصل بها بعد أن تحجب رقم المتّصل، وتستمع في صمت وأنفاس محبوسة إلى صوتها وهي تقول مرّة بعد مرّة: ألو؟ من معي؟!

نعم، كانت تلك أولى كلمات بصوتها تصل إلى سمعك موجهة إلى ذاتك أنت دون غيرك!

أيّ اكتفاء بلغته بمحاولاتك اليائسة تلك؟ ظللت ما يقارب سنة، تواظب على تلك الاتّصالات السّخيفة. كلّما أصابك أرق أو شغلك شاغل، وجدت نفسك تتسلّى بالاتّصال بها، تستمع إليها تقول «ألو» ولا تردّ بحرف واحد. وما الذي كنت لتقوله بأيّ حال؟ إنّي يا فتاة أكبرك بثلاث عشرة سنة، ولكنّني لمّا أتخرّج في الجامعة بعد. أدرس صباحا وأعمل مساء. أغسل الأطباق في مطعم. سجين سابق وممنوع من زيارة بلدي، لكنّني أطمع في ودّك؟ كان تقديرك لنفسك منخفضا حينها. قبل بضع سنوات، كان تقديرك في أعلى مراتبه. كنت ترى نفسك شيخا حافظا، وطبيبا في المستقبل القريب، ومجاهدا في سبيل الله.

تلك التّجربة كسرت نفسك.

لكنّك قرأت في نظرتها حينما التقيتما في المدرّج مرّة أخرى ما أرعبك. إنّها تعرف! أوّلت نظرتها القصيرة المتواطئة وبسمتها الخفيفة حين لمحتك أعلى المدرّج في مكانك الاعتياديّ، وجزمت بأنّها حزرت، فتعرق جبينك، وتسارعت دقات قلبك. تستعيد الآن المشهد بتفاصيله بالتّصوير البطيء.. التفتتْ بعفويّة، تحدّث زميلتها الأقرب إلى مجلسها، ثمّ ارتفعت عيناها إلى الصّفوف الخلفيّة. وخلال ثوانٍ التقت عيناها بعينيك. كانت تعلم أنّك هناك.. مثل عادتك. هل

كانـت الابتسـامة تخصّـك، أم أنّهـا بقايـا محادثتهـا الحديثـة مـع جـارة المـدرّج؟ لـم تكـن واثقـا البتّـة مـن أيّ شيء، لكنّـك أيّهـا المريـب تـكاد تقـول خـذوني! لـو أنّهـا لـم تشـكّ ولـم تحـزر، فـإنّ ارتبـاكك لحظتهـا قـد يكـون حـرّك رمـاد الشـكّ فحوّلـت انتباههـا إليـك.

هـل كانـت صدفـة أخـرى، أن تكـون أوّل محادثـة مبـاشرة بينكمـا بعـد ذلـك بأيّـام؟

كنـت في المكتبـة، تنسـخ اختبـارات السّـنوات الماضيـة. كنـت تضـع أوراقـك عـلى المنضـدة، تتناولهـا واحـدة إثـر الأخـرى وتضعهـا عـلى اللـوح الزّجاجـي للماسـح الضـوئي، ثـمّ تطبـق عليهـا غطـاء الآلـة، حـين ظهـرت أمامـك. ألقـت نظـرة عـلى المنضـدة، ثـمّ بادرتـك دون تفكـير:

- هل يمكنني أن أنسخها منك حين تنتهي؟

هـل باغتتـك مبادرتهـا؟ فقـد ارتبكـتَ، وتلعثمـتَ. لكنّـك تداركـت الأمـر سريعـا. أعـددت نسـخة إضافيّـة للرّزمـة مـن أجلهـا، ثـمّ أخذتهـا إلى طاولتهـا. حـين صرت عـلى بعـد خطوتـين منهـا، سـمعت صوتهـا خافتـا وهـي تهامـس جارتهـا:

- انقطعت الرّسائل فجأة. ربّما لأنّني لم أردّ.

سـتحبس أنفاسـك مـرّة أخـرى وأنـت تطالعهـا في جمـود، مثـل تلـك اللحظـات الـتي تقبـع فيهـا سـاكنا عـلى طـرف الخـطّ تسـمعها تقـول «ألـو»، بينمـا تحـاول صديقتهـا التكهّـن:

- هل تظنينه معنا.. في الكليّة؟

تهـزّ كتفيهـا علامـة الجهـل ثـمّ تسترسـل غـير منتبهـة لوجـودك خلفهـا تماما:

- إحسـاس غريـب، أن تكـوني مراقبـة! قـد يكـون في أيّ مـكان.. في نفـس الوقـت، أشـعر بأنّـني سـأتعرف إليـه إن لقيتـه.. شـخصيّته حـاضرة بشـدّة

في رسائله، ولا شكّ أنّ شيئا ما سيدلّني عليه! سأعرفه حين أراه!

تسمّرت مكانك، ترتجف فرقا. تتحيّن التفاتتها التي ستؤكد شكوكك. عرفتك!

لكنّها ستلتفت، وتبتسم في امتنان لا تشوبه شائبة وهي تتسلّم منك رزمة الورق، لتتبيّن أنّ فراستها المزعومة محض أوهام. بعد أن تبخّر القلق، ستحتفظ بذكرى الابتسامة المنعشة لوقت طويل. كما ستمتدّ جسور التواصل بينكما منذ ذلك اللقاء. ستحظى بمرآها كثيرا في فضاء المكتبة الذي تبيّن أنّه المكان الأمثل لمحادثات عفويّة وقصيرة متكرّرة. تعليقات ساخرة من المحاضرة، أو استفسارات سريعة عن نقاط مبهمة من الدّرس الصّباحيّ. كم أخذت من الوقت لتستوعب أنّها كانت تخلق الفرص وتمهّد الطريق التي ستسلكها أنت باتّجاهها؟

ومع ذلك، فقد بقي السّؤال الملح معلّقا طيلة تلك الفترة. هل عرفتْ لاحقا -في وقت ما- أنّك أنت مراسلها المجهول؟ لم تكن قد ردّت على خواطرك مرّة واحدة. وكنت قد توقّفت عن هلوستك الصيفيّة إمعانا في الحذر. أيّ رسالة إضافيّة قد تكون فخّا تنصبه لنفسك فتكشفها.

الفصل الثاني

- ازدواج -

-١-

كانـت عائلتـك في تونـس قـد عرفـت فجـر الصّحـوة الإسـلاميّة الأولى. فقـد كان خالـك عمّـار -أقـرب أخوالـك إليـك- ذا صلـة وثيقـة بـروّاد حركـة «الاتّجــاه الإســلاميّ» أو «الجماعــة الإســلاميّة» الــتي عرفــت خطواتهــا الأولى في أواخــر السّــتينيات وبدايـة السّــبعينيات. وقــد جمعتــه برموزهــا ومؤسّسـيها الأوائـل علاقـات وديّـة، تصـل إلى الزيـارات العائليّـة والتّواصل الاجتماعــي. كان ذلــك قبــل أن يُنفــى مــن نفــي ويُســجن مــن ســجن، وينفـرط العقـد في أصقــاع الأرض.

لكنّـك تذكـر في طفولتـك الغضّـة تلـك كيـف كانـت حلقـات الدّعـوة ومجالـس العلـم الـتي تُعقـد في مـنزل خالـك أحيانـا، فتحضرهـا وأنـت الصبيّ الـذي لـم يبلـغ الحلـم، متلصّصـا أولا، ثـمّ كجـزء لا يتجـزّأ منهـا في وقـت ثـانٍ، منتبهـا لـكلّ حـرف يقـال، تكتشـف العالـم بعيـون نضجـت قبـل أوانهـا.

كان خالـك عمّـار ينتبـه لوجـودك عنـد المدخـل، مـتردّدا في الولـوج، فيناديـك مبتسـما:

- تعال يا مالك!

ثمّ يقدّمك لضيوفه في فخر، ويبادرك مشجعا:

- هلّا أسمعتنا شيئا من حفظك؟

فتـنزل عـلى ركبتيـك، وتأخـذ ترتّـل آيـات ممّـا تحفـظ مـن ذكـر الله. فـإذا مـا فرغـت، ربّـت عـلى كتفـك مستحسـنا ودعـاك إلى الجلـوس عـلى يمينـه، وهـو يهمـس لـك:

- أصغ في سكون، وتعلّم.

ستذكر تلك المجالس لاحقا بكلّ زهو أمام أقرانك في كليّة الطبّ، بعد أن يصل مدّ الدّعوة إلى الجامعات وتستوطن الحركة في الأنشطة الطلّابيّة، أنّك عرفت الطريق قبلهم جميعا، وجاورت الرموز الذين يتطلع إليهم الشباب المبهور باهتمام، بل طعمت من نفس الموائد وحاذيتهم في المجالس!

ولعلّ تلك الذكريات البعيدة لم تكن لتظلّ قويّة واضحة في ذهنك لولا هجرة خالك المستعجلة وأنت في سنّ الثامنة. فكلّما ذكرت طفولتك ومغامراتك الأولى في تونس، ظهرت أمام عينيك بسمة خالك عمّار تفترّ عن صفّ من الأسنان البيضاء الناصعة، وهو يربّت على رأسك ويقدّمك لضيوفه في مجلسه ذاك. ستحتفظ لتلك الذكريات بطعم حامض، تماما كطعم الزيتون الذي تلتقط حبّاته خلسة من أطباق المقبّلات المقدّمة للضيوف.

هاجر خالك أوّلا، ثمّ مهّد لوالدك الطّريق وعبّدها، وحثّه على الالتحاق به بعد أن استقرّ في الرّياض، يدرس الوضع ويقيس الفوائد بمقاييس الدّنيا والدّين، حتّى خلص إلى أنّ المملكة السّعوديّة هي الموقع المناسب للمرحلة.

إذن سافرتَ وعائلتك إلى المملكة سنة ١٩٧٥، حيث استقرّ بك المقام زهاء عقد من الزّمن، أو دون ذلك قليلا، ولعقود طويلة أخرى بالنسبة إلى والديك. أمّا خالك عمّار فقد سبقك بالعودة كما سبقك بالهجرة.

كان والدك مهندس بترول، في زمن احتلّ فيه النّفط مركز اهتمام العالم، وكانت الفرص مواتية هناك. ولم يكن ما اجتذب والدك إلى المملكة بريق الذّهب الأسود وحده، فقد كان كذلك رجل علم

ودعـوة. وقـد تمـنّى لـك وإخوتـك أن تنهلـوا مـن منابـع العلـم الشرعـيّ علـى أيـدي مشـايخ لا تطاردهـم الحكومـة ولا ينظمـون حلقاتهـم خفيـة!

في وقـت مـضى، كان جامـع الزّيتونـة العريـق في تونـس العاصمـة ينافـس الأزهـر الشريـف مـن حيـث الإشـعاع الدّيـني عـلى المنطقـة. كان رجـال العلـم مـن مشـارق الأرض ومغاربهـا يقصدونـه لإكمـال دراسـتهم العليـا في الدّراسـات الشرعيّـة والأدبيـة، وقـد لعـب دورا تاريخيّـا في مقاومـة الاسـتعمار الفرنـسيّ. لذلـك فقـد رأى المسـتعمر وهـو ينفـض كفّيـه مـن المسـألة التونسـيّة رافعـا حمايتـه المزعومـة، أن يـترك مسـؤوليّة هـدم الكيـان الزيتـونيّ للتونسـيّين أنفسـهم. لـم يفلـح الاسـتعمار في اجتثـاث الثقافـة الإسـلاميّة مـن جذورهـا، لكنّـه فـوّض المهمّـة لحكومـة الزعيـم «بورقيبـة» النّاشـئة. خـلال السّـنوات الأول مـن تاريـخ الاسـتقلال، سـيعمل بورقيبـة عـلى تقويـض «الرّجعيّـة» وتدعيـم أسـس «الحداثـة» فيمـا يُسـمى سياسـة «تجفيـف المنابـع». سـيغلق الجامعـة الزيتونيّـة؛ لينتهـي عهـد التعليـم الزّيتـونيّ مـرّة واحـدة، وتصبـح واحـدة مـن أعـرق الجامعـات في العالـم الإسـلاميّ طـيّ النّسـيان. وبعـد أن كانـت تونـس تُصـدّر الفكـر والثّقافـة، سـيلجأ مثقفوهـا في سـتينيات القـرن العشريـن إلى اسـتيراد فكـر «مالـك بـن نـبي» مـن الجزائـر و«سـيّد قطـب» مـن مـصر، لتتشـكل الخليّـة الأولى لمـا عرفتـه طفـلا بالجماعـة الإسـلاميّة.

كان لخالـك عمّـار أبلـغ الأثـر في تكويـن لبنـات الأسـاس لشـخصيتك في تونـس طفـلا وفي الرّيـاض مراهقـا وشـابّا. كان الشّـمس الـتي سـطعت في سـنوات عمـرك الأولى فملأتهـا ضيـاءً ونـورا. وكان القمـر الـذي بانعكاسـه اهتديـت في فـترة شـبابك المتخبّـط المندفـع. فقـد كان لعلاقتـك بـه مـن الخصوصيّـة والشّـأن مـا أثـار طويـلا غـيرة الكثـير مـن الأقـارب والأقـران. رغـم فـارق السـنّ، الـذي يتجـاوز الأربعـين عامـا، كان أحدكمـا للآخـر صاحبـا مقرّبـا وأمـين سرّ لا ينـازع منزلتـه أحـد.

أينما حلّ خالك، كان مجلسه قبلة للسّياسيين والعلماء والدّعاة والمفكّرين. وكما تفتّحت براعم عقلك في صالون منزله في الضّاحية الشّمالية للعاصمة التّونسيّة، فقد نضجت ثماره في مجلس فيلته الفخمة في العاصمة الرّياض.

وقد كان يحتفي بك بشكل ملحوظ، ويستقبلك استقبال النّدّ للنّد في مجلسه العامر على الدّوام بزوّار ذوي شأن في الحركة الإسلاميّة من كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ. كان ينصت باهتمام لما تقول، ولا يصغّرك أبدا في عيون ضيوفه ولا عيني نفسك، وأنت الأصغر سنّا غالبا في ذلك المجلس، وبالطبع مقاما.

وكان يخلو بك كثيرا في مكتبه الخاصّ حين يخلو المجلس من الزوّار، يجاذبك أطراف الحديث. فتطرح أسئلتك كما يحلو لك، عن الأوضاع السّياسيّة والقضايا الفكريّة والشؤون الفقهيّة والمسائل العقديّة.. فتنهل من بحر علمه وتستزيد من واسع معرفته واطلاعه. لم يكن يخفي عليك أشدّ الأمور حساسيّة وأكثرها حرجا وأهميّة، فتستشعر المسؤوليّة تجاه تلك المعلومات التي لم تكن في متناول أيّ كان.. فقد كانت تمسّ الشأن السّياسيّ لعديد الدّول من أحداث كانت تجري في ذلك الحين، كالثّورة الإسلاميّة في إيران، وحرب الخليج الأولى، ومأساة الإخوان المسلمين في سوريا وانطلاق شرارة الجهاد الأفغاني.

يقول لك في لهجة جادّة:

- نحن لا نقرأ التّاريخ.. وإذا قرأناه، كانت قراءتنا سطحيّة. لا نعتبر ولا نتعلّم الدّروس. لذلك تُكرّر الأمم الأخطاء ذاتها، وتتكرّر المآسي والنّزاعات الخرقاء!

فتردّ معترضا:

- أيّ تاريخ نقرأ يا خال؟ أليس ما نتعلّمه تاريخا مزيّفا مغلوطا يكتبه المنتصر؟ قبل أن نقرأ التّاريخ، وجب أن نحقّق تاريخنا ونعيد كتابته!

يبتسم مستحسنا ثمّ يضيف في ثقة وتؤدة:

- تذكّر يا مالك أنّ النّاس على صنفين.. فئة قليلة تصنع الحدث، ليكون هو التّاريخ.. وأخرى كثيرة تحرّره أو تقرؤه. ونحن يا بنيّ ممن يصنعون التاريخ.

لكنّك تردّ في إصرار:

- مشروع إعادة كتابة التّاريخ.. ألا يبدو هذا هدفا ساميا يستحقّ العمل عليه؟

- ليس الآن يا بنيّ، وليس أنت.. ستكون جرّاحا عظيما أوّلا. ألم نتّفق؟

ثمّ تضحكان في مرح. لم تكن حينها قد جاوزت السّادسة عشرة. لكنّه يحدّثك مثل رجل راشد ومسؤول.

خالك عمّار وحده كان واحتك الخصبة التي استظللت بظلها لسنوات، فما جفّت ينابيع روحك في صحراء المملكة القاحلة، بل تدفّقت وازداد معينها. كنت تعلم بلا ريبة أنّ ما كنت عليه من قدرة هائلة على الإبحار في علوم الدّين والتمكّن من ناصية اللغة وعلوم السيّاسة والمجتمع، كان الفضل فيها بعد الله إلى هذا الخال العظيم. وسيبقى الأمر كذلك طويلا، حتّى رحيله سنة ١٩٩٩ بعد أن أقعده مرض عضال لحقه جراء سنوات السّجن الطويلة. لذلك، كان من المحتّم أن تتكفئ على وجهك كالأعمى، بعد أن انطفأت شمسك وغاب قمرك، دون أن تتسنّى لك فرصة وداعه مرّة أخيرة.

كان من المخطّط لك منذ البداية أن ترجع إلى تونس، بعد ما

يقارب العقد من التّحصيل المكثّف على جميع الأصعدة، لمواصلة تعليمك الجامعيّ. مثلما توقّعت، وتوقّع الجميع من حولك، أحرزت المجموع الذي فتح أبواب الخيارات أمامك، فانتقيت كليّة الطبّ. فتغرّبت للمرّة الثانية، في وطنك.

رجعت صيف ١٩٨٣، وأنت ذاك الشاب اليافع ذو الثمانية عشر ربيعا إلا نيف، مسلّحا بإيمان عميق راسخ، وذخيرة فكريّة تزعم أنّها لا تتوافر للكثيرين ممّن هم في مثلك سنّك. كنت تحفظ المتون الشرعيّة من الكتب بهوامشها وأرقام صفحاتها، فضلا عن القرآن الكريم كاملا، وأنت لمّا تجاوز الخامسة عشرة. وكان شغفك بالقراءة لا حدود له، ونهمك العلميّ الذي غذّاه المحيط الأسريّ يتواثب في صدرك. كانت أختك الكبرى قد دخلت قبلك كليّة الصيدلة في مدينة المنستير، وأخوك الأكبر قد انتسب إلى كليّة الهندسة في مدينة سوسة، غير بعيد عنها، في حين استقرّ بك الحال في تونس العاصمة وحيدا.

كان ذلك رصيدك الذي واجهت به عالم الجامعة المثير، مغتربا عن أسرتك، بلا رقيب ولا سائل، وكلمات خالك عمّار، الذي استقبلك في المطار ووضعك تحت جناحه حتّى تجاوزت صعوبات الاندماج الأولى، تتردّد في ذهنك:

- أن تعيش تجربة الجامعة في مجتمع منفتح، وتحافظ فيه على مبادئك، فأنت مأجور أكثر ممّن ينأى بنفسه عن هذه التحدّيات.

قرّرت منذ البداية أن تحافظ على سمتك الإسلاميّ الذي اعتدته في المملكة. فتركت لحيتك الغضّة كما هي، وكانت بلا جدال تنبئ مباشرة عن هويّة صاحبها، في مجتمع لا يعتبر اللحية في تلك السنّ المبكّرة أمرا طبيعيا. وقد كانت الجامعة حينها تمور وتثور بمختلف تيّارات الفكر السّياسيّ التي بدأت نشاطها على استحياء منذ عقد،

حين خلّفت البلاد مهاجرا، وعرفت سنواتها الذّهبيّة أوان رجعتك.

كانت الحركة الإسلاميّة التي تحاشت حتّى ذلك الوقت الدّخول في صراع مباشر مع السّلطة، تستقطب زرافات من الشّباب في المدارس الثانويّة والجامعات والمساجد. فشهدت في تلك الأيّام تظاهرات طلّابيّة جامحة، ولم تكن ذكريات «ثورة الخبز» ببعيدة عن الأذهان. لم تكن للحركة آنذاك أهداف سياسيّة واضحة المعالم، بل كان تركيزها يقتصر على الصعيدين الثقافيّ والاجتماعيّ. ورغم أنّك لم تُضمر انضماما لكيان أو لآخر، فقد وجدت نفسك تُبحر مع التيّار وأمواج الحماس تجرفك. كانت تجربة مختلفة عن كلّ ما سبق. وكأنّك تتوّج مسيرة طالب العلم الذي كنته بالعمل الحركيّ الذي تمنّيته وأنت تقرأ عن الفتوحات والغزوات!

بيوت أعمامك وأخوالك كانت مفتوحة أمامك، لكنّك آثرت استئجار شقّة مفروشة لك وحدك. كانت إمكانات والدك المادية في الرّياض تسمح بتوفير ذلك المستوى من الرّفاهية، ولم تكن في تلك الفترة تمانع العيش في كنف رعايته المادّية. وسرعان ما تحوّلت شقّتك إلى مقرّ دائم لاجتماعات الحركة الطلّابية التي نشطت فيها بإثارة متّقدة. كنت تتلمّس الطّريق، تكتشف الحرّيّة والمسؤوليّة، وتعاني لكبح لجام نفسك الجامحة. وقد تهوّرت، وذقت الألم، وعرفت لحظات نصر شخصيّ لا تقدّر بثمن. كنت تتوق إلى القيادة، وإن عزفت عن الانخراط في الحركات السّياسيّة التي حاولت اجتذابك. أعرضت عن السّياسة، لكنّك لم تعرض عن مقاومة الظلم، واحتفظت طويلا بصفتك كمستقلّ غير قابل للامتصاص أو الذوبان في كيان لا يشبهك.

كنت تعدّ نشأتك في بيت عامر برجال الدّعوة مبنيّ على أسس عقائديّة سليمة، ميزة فريدة لا يعرفها السّواد الأعظم من المحيطين بك من «المهتدين الجدد». فالحال العامّة يسيطر عليها جهل دينيّ

مدقع، نتيجة عقود من الهيمنة الاستعماريّة والعلمانيّة. وقد استمرّ يراودك ذلك الإحساس العميق بالتميّز، طفلا وشابّا، كلّما انتشرت وإخوانك في الشّارع بعد صلاة الجمعة بجامع «صاحب الطابع» وسط العاصمة، بأقمصتكم البيضاء، وشعوركم الطّويلة ولحاكم النّابتة، وبعضكم يعتمر العمائم. تنفتح أبواب الجامع على مصاريعها ويتدفّق الخلق خارجها، مثل مدّ جارف يغمر الطرق المجاورة، كأنّما سقطتم مباشرة من كتاب التّاريخ، من القرون الهجريّة الأولى! كنت ترى نظرات التّعجب والذهول في عيون الناس على المحطة وداخل القطار، وكان ذلك الإحساس بدهشة النّاس الصّادقة يُشبع غرورك ويملؤك زهوا.

رغم عمق مشاعرك الإيمانية آنذاك وصدق طهارتها، فإنّك تستحضر تلك المشاهد من الذّاكرة بطعم سكّريّ حلو، كطعم تمرات الإفطار التي تلازم جيبك يومي الإثنين والخميس. كنت ترى نفسك ذا شأن عظيم. كنت تعتقد في إحرازك مرتبة عليا، ترفعك عن مستوى الجهلة والخطأة.

كنت...

مجدّدا، برعاية خالك عمّار، عدت لتجتمع بأولئك الذين عهدتهم طفلا طلّاب علم، وقد أضحوا في الثمانينيات زعماء وقادة. ستدخل بيوتهم هذه المرّة، وتتباسط معهم، يشاركونك اهتماماتهم، وتخرج محمّلا بالكتب. تروي شغفك للمعرفة وتتجرّأ بأسئلتك على تخطّي حدود اللّياقة أحيانا كثيرة، وتستغلّ سماحة مضيّفيك وسعة صدورهم، ثمّ تغيّر شيوخك كلّ فترة، إذا ما شحّ نبع الاستفادة المرجوّة، وتتحيّن فرص تحصيل جديدة أينما أتيحت. كنت تستزيد من العلوم في نهم، وتشبع اهتمامك تجاه الأشخاص الذين يذكرون في الاجتماعات الطلّابيّة بمزيج من الإعجاب والفضول. كنت قد غدوت

خلال وقت قصير موسوعة متنقّلة، وقد ألممت بمعالم التيّارات التي تحرّك الجامعة وفكرها وسبرت أغوارها عن قرب.

رغم اطلاعك على كل تلك الأفكار والأدبيّات، ولقاء الكثير من قيادات العمل الإسلامي في الثمانينيات، وتشبّعك بالفكر الإسلاميّ، وحصيلتك القويّة التي تمثّل النّواة الصلبة لعقيدتك، وهي الفكر السّلفي.. رغم كلّ ذلك، لم تنخرط في عمل تنظيميّ، وبقيت معتزًّا بفردانيتك وأنت تستمتع بالتّغريد خارج السّرب. ولأنّ جزءًا واضحًا من شخصيتك كان «التّمرّد على القيود»، فقد عزف كلّ من تعامل معك عن قرب وعرف طبعك عن إغرائك بالعمل التّنظيمي، فنأيت بنفسك عن كلّ شدّ وجذب.

كانت حصيلتك الفكرية ما تنفكّ تتضخم يوما بعد يوم. كنت تقرأ، وتناقش، وتحّلل، بل في أحايين كثيرة تخطب الجمعة في مصلّى الجامعة، وتؤمّ الطلبة. وكنت تعتكف سنويّا العشر الأواخر من رمضان سواء في مساجد العاصمة أو أحيانا في الرّياض حيث ظلّت تقيم العائلة، كنت شديد الثقة في إيمانك، وقريبك من الله.. ما عدا تلك الأوقات التي تعذّبك فيها قصّة حبّ هوجاء، فتتعلّق بإحداهنّ، زميلة أو جارة، وتهيم بها.. ثمّ ما تلبث أن تفرّغ طاقتك العاطفيّة غير المنضبطة، وتثوب إلى رشدك، فترجع ذلك الشابّ المثالي مستقيم الأدب والخلق.

لم يكتب لك أن تحتفظ باستقامتك تلك إلى الأبد. فقد اقترن اسمك سريعا بحركات الشّغب. لولا تكرار دخولك السّجن وخروجك منه، لكنت قد تخرّجت طبيبا في بلدك. لكنّك بقيت على عتبات السّنة الخامسة. تعود إلى الكلّية وتعتقل فيها، وتستعدّ لاختبارات السّنة الرّابعة.. عبثا. كانت الجامعات مراقبة عن كثب، وغدت الاعتقالات في صفوف النّشطاء السّياسيّين روتينا يوميّا. وبعد أن اعتقل رموز

الحركـة الإسـلاميّة وصـدرت بحقّهـم أحـكام بالسّـجن المؤبّـد، عـمّ الهـرج في صفـوف الطّلبـة، واعتقلـتَ بـدورك، للمـرّة الأولى. كان حكمـك مخفّفـا، مراعـاة لسـجلّك النّاصـع حـتّى اللّحظـة، ولحداثـة سـنّك وسـلامتك مـن تهمـة «الانتمـاء». فقـد كان حسـاب «المنتمـين» إلى الحركـة الإسـلاميّة عسـيرا. دخلـت السّـجن شـهرا واحـدا، عرفـت خلالـه أهـوالا مـا كنـت تصـدّق وجودهـا. واعتـبرت نفسـك بطـلا، وأنـت تغـادر أسـوار الحبـس سـليم الجسـد والعقـل، مـا عـدا خـدوش بسـيطة في البـدن وجـراح في الكرامـة.

لـم تسـتطع بعدهـا أن تدخـل اختبـارات الفصل الـدّراسي، وانشـغلت بالعمـل السّـياسيّ حـتّى النّخـاع بقيّـة السّـنة. فقـد جـاء انقـلاب نوفمـبر ١٩٨٧ ليغـيّر مفاهيـم عالمـك ويرسـم مسـارات جديـدة في مخيّلتـك مـا كنـت تجـرؤ عـلى مغازلتهـا في وقـت سـابق. وأعـدت سـنتك الثالثـة في كليّـة الطـبّ. حـين جـاء الانقـلاب الأبيـض، حسـبتَ وحسـب رفاقـك أنّ زمنـا أسـود قـد ولّى، وزمنـا آخـر مشرقـا قـد أقبـل. فقـد أخـلي سـبيل عـدد مـن القـادة الذيـن زجّ بهـم نظـام بورقيبـة في المعتقـلات، وبـدأت السّـلطة حـوارا مـع الاتّجـاه الإسـلاميّ لإشراكـه في «صناعـة التغيـير».

سنتان، هما عمر الأمل.

بعـد ذلـك ظهـر وجـه آخـر للجـنرال المنقلـب، حـين انقلب مـرّة أخرى عـلى وعـود التّسـوية والشراكـة ووضـع اليـد في اليـد مـع جميـع الجهـات، لبنـاء مسـتقبل البـلاد! انحـسر الأمـل حـين مـرّت موجـة اعتقـالات ثانيـة سـنة ١٩٨٩، لتحصـدك فيمـن حصـدت. أقمـت في حبسـك ثلاثـة أشـهر هـذه المـرّة، بينمـا بلغتـك أنبـاء هـروب بعـض القـادة إلى الجزائـر. كانـت تفاصيـل الكابـوس الأسـود تتكـرّر مـن جديـد. فكّـرت حينهـا أنّهـا ضريبـة لا بـدّ أن تُدفـع لآخـر ملّيـم قبـل أن يسـتتبّ الأمن ويعـمّ الاسـتقرار، فقبلت بالتّضحيـة عـن طيـب خاطـر. كان لا بـدّ مـن تخطّـي عقبـة الانتخابـات

التشريعيـة الحـرّة الأولى مـن نوعهـا، والـتي سـتعطي الشرعيّـة لمـن يختـاره الشـعب حقّـا، بعـد دهـور مـن الرّئاسـة المحتكـرة والزّعامـة المزيّفـة.

وكثيرا ما جلست تراجع النفس، تموج في ثنايا عقلك أسئلة كثيرة.

هل تراك تتشبث بأوهام؟

أم أنها ضريبة الثبات؛ لا بد أن يدفعها أهل الحقّ في كل مكان؟

هل تستحق الثّمرة كلّ هذه التّضحيات؟

وهل تراك تقطفها يوما ناضجة شهيّة، تلك الثمرة؟

أم أنها أرض السّراب؟

كنـت تغيـب -في حديـث النفـس هـذا- حـتّى وأنـت تجتمـع برفقـاء الـدّرب، في بعـض الأمسـيات الصيفيـة، في خلوتكـم عـلى الشـاطئ، وفي الهزيـع الأخـير مـن الليـل، والقمـر بـدر كقـرص مـن الفضـة، يتهـادى انعـكاس ضوئـه عـلى وجـه البحـر أمامكـم.. حـتّى يقاطعـك أحدهـم في حمـاس:

- أنشدنا يا مالك!

وسرعـان مـا يؤيّـده آخـرون، فتبتسـم في رضـا وتنـشئ تصـدح بصوتـك العـذب، منفّسـا عمّـا يجيـش في صـدرك مـن لوعـة، وهـم يـردّدون مـن بعـدك:

يا رسول الله هل يرضيك أنّا

إخوة في الله للإسلام قمنـــا

ننفض اليوم غبار النّوم عنا

لا نهاب الموت لا بل نتـمنى

أن يرانا الله في سـاح الفداء

ثم جاء الاعتقال الثالث سنة ١٩٩١ ليصيبك بضربة قاصمة. ثلاث سنوات كانت المدّة التي قضيتها سجينا بعد أن ترشّحت للانتخابات التشريعيّة ضمن قائمة مستقلّة. كان لا بدّ أن تفعل شيئا، حتّى وأنت تتأخر عن ركب زملائك من الخرّيجين وتضيّع سنة أخرى في كليّة الطبّ. كنت تؤمن أن شخصا مثلك قادر على إحداث تغيير إذا ما وصل إلى مجلس النوّاب. لكنّ آمالك تبخّرت، حين طورد المرشّحون المحسوبون على التيّار الإسلامي، وامتلأت بهم السّجون. لقد تجرّؤوا على المجاهرة بأحلام غير مشروعة! فما كان من السّلطة إلا أن أخرجت شريط إثارة رديء النّوعيّة، عن محاولة اغتيال الرّئيس، لتحصد رؤوس المعارضة مرّة واحدة، وتكبّل أقدام القواعد الحركيّة التي قد تواصل منها النّضال السّياسي.

وبينما كنت خلف القضبان، بلغك نبأ تنفيذ حكم بالإعدام على المتّهمين في «قضيّة باب سويقة». شباب في عمر الزّهور، اتّهموا بإضرام النيران في مقرّ لحزب التجمّع الحاكم في باب سويقة، فراح حارس المبنى ضحيّة الفعلة. كانت العبثيّة التي تلفّ عالمك تهزّك من الدّاخل. كان ثباتك يُختبر، وقوّة عزيمتك تمرّ بأزمة وجود. بعد سبع سنوات من بدء نشاطك في ساحة الجامعة، كمستقلّ ثوريّ الفكر والعاطفة، انتهت رحلتك الشّبابيّة الطائشة، ليشيب قلبك موؤود الأحلام.

خلال فترات اعتقالك الثلاث، قاومت الملل والإحباط في السّجن بتدوين دروسك على علب السّجائر التي لم تدخّنها يوما، ومغلّفات قوارير المشروبات. تفكّ صمغها برفق وترفعها عن القارورة البلاستيك. ثمّ تمضي السّاعات تعتصر الذّاكرة وتكتب بخطّ دقيق كلّ ما تستحضره عن المناعة وعلم البكتيريا والتشريح. يطلق سراحك فتتحفّز للاختبارات، ثمّ لا تلبث أن تعاود الكرّة.

لكنّك على الأقلّ استثمرت معرفتك الطبيّة في خدمة المساجين. كان جيران زنزانتك مثلك، ممّن يسمّون «سجناء الرأي». لم يرتكب أحدكم شيئا ممّا يجرّمه القانون، لكنّ أفكاركم وآراءكم لا تناسب الدّولة والقائمين عليها. لذلك فإنّ معاملة السّجانين لكم كانت تتراوح بين الخشية والقسوة. يخشون عقولكم التي رفضت العبوديّة وتمرّدت على النّظام وقلوبكم الثابتة التي لم يردعها التعذيب الوحشيّ المستمرّ.. لكنّهم لا يتورّعون عن ممارسة القسوة في كلّ سياق، انتقاما لنفوسهم الخانعة الذليلة. لذلك كانوا يحرمونكم من حقّكم البديهيّ بعلاج جراحكم بعد كل «حفلة» تعذيب. فكنت أنت طبيب الزنزانة الرّسميّ، وكلّ ما بحوزتك أدوات مرتجلة ممّا يتوفّر بحوزة المساجين، وزاد طالب في السّنة الرابعة من العلوم الطبيّة.

حين غادرت السّجن تلك المرّة، لم يسمح لك بالتّسجيل في الجامعة من جديد. كنت قد انقطعت لوقت طويل، فسقط عنك حقّك في التعليم! حُرمت من دخول الجامعات التونسيّة، وبقيت طبيبا إلا ثلث!

تذكر الآن تلك الفترة بمزيج من الألم والحقد. ما جدوى نضالك السّياسيّ وقد نُفي القادة وهُجّروا إلى أوروبا وخلّفوا أمثالك من الشّباب المندفع حطاما؟ لا أنت حقّقت الحريّة التي من أجلها دفعت سنوات شبابك، ولا أنت نجحت في مشوارك التعليميّ وأصبحت طبيبا. لا تزال هزيمة انتخابات ١٩٨٩ مرّة في حلقك، بطعم الخبز الكالح الذي يقدّمونه في الحبس.

-٢-

لـم تكـن ابـن المدينـة الصّاخبـة، وإقامتـك في العاصمـة بعـد أن ترعرعـت طفـلا في قريتـك الوادعـة عـلى ضفـاف وادي «مجـردة»، أمـرا مسـتجدّا لـم تألفـه آنفـا، إلّا لفـترة وجـيزة قبـل رحيلكـم إلى الجزيـرة العربيّـة.

ولـدت عـام ١٩٦٦ في قريـة صغـيرة في ريـف «تسـتور»، العـروس الأندلسيّة العريقـة، عـلى مبعـدة سـاعة وثلـث مـن العاصمـة. كانـت دُور القريـة كمـا عرفتهـا دائمـا، صغـيرة متفرّقـة متباعـدة، مبنيّـة بالحجـارة في معظمهـا، تلمـح عـن بعـد قبابهـا البيضـاء المنخفضـة الـتي تنبئـك حالمـا تـنزل في المحطـة أنّـك قـد وصلـت. ولـم تكـن عينـك تخطـئ، وأنـت عـلى بعـد مئـات الأمتـار بعـد، مبـنى «فيـلا» جـدّك الشّـامخة، المرتفعـة عـن كلّ مـا عداهـا، تتوسّـط مسـاحات شاسـعة مـن الأراضي الزّراعيّـة وغابـات الزّيتـون وأشـجار الخـوخ والمشـمش واللّـوز والبرقـوق.

ولـم يكـن مـن العجـب، وأنـت سـليل عائلـة عريقـة النسـب شـديدة الغـنى، أن يكـون مسـكن العائلـة مبنيّـا بالآجـر الأحمـر عـلى الطّريقـة العصريّـة لمسـاكن العاصمـة. تطـلّ شرفـات الفيـلا عـلى الجهـات الأربـع، لتـشرف عـلى ممتلـكات جـدّك متراميـة الأطـراف، وعـلى الجبـال البعيـدة المكلّلـةُ بالثلـوج شـتاءً، المكسـوّة بالخـضرة بـاقي فصـول السّـنة. ولـئن بقيـت القريـة طويـلا محرومـة مـن الكهربـاء والمـاء الصّالـح للـشراب، فقـد حظـي مسـكن عائلتـك بالإنـارة في وقـت مبكّـر، ومـدّت إليـه أنابيـب المـاء قبـل الجميـع! وكثـيرا مـا مـلأك الزهـو طفـلا، وأنـت ترقـب عـودة الجـرّارات سـاحبة صهاريـج المـاء المعبّـأة مـن روافـد الـوادي والعيـون

القريبة، لتسقي عطش باقي دور القرية، أو تراهم ينزعون بطاريات الجرّارات نفسها لتشغيل أجهزة التلفاز الصّغيرة مساءً.

آمنت مبكّرا وأنت الفتى الغرّ السّاذج أنّ الغنى والنفوذ إذا اجتمعا، كانا مفتاحا لكلّ الأبواب المغلقة.

تبدو ذكريات تلك الفترة القديمة بعيدة شاحبة، لكنّك تحتفظ منها بطعم الاعتزاز والاستعلاء. ألم تكن كريم المحتد، طيّب النّسب والعرق، ابن أسرة ضاربة الجذور في السّلطة والنّفوذ؟ أينما يمّمت وجهك في ربوع قريتك الصّغيرة وما جاورها من القرى في جهة «تستور»، كان يكفي أن تذكر اسم جدّك أو أبيك ليغدق عليك من التّرحاب والتّوقير ما لا يتناسب وسنّك الصّغيرة. وحيث كنت في روحاتك وجيئاتك مصحوبا بخالك عمّار غالب الوقت، فلم يكن أحد يحتاج إلى سؤالك من تكون، بل تمتلئ جيوبك بقطع الحلوى والأوراق النّقديّة من حيث لا تحتسب.

كانت عائلة أمّك كذلك ذات نسب كريم يكاد يكون مكافئا لمنزلة عائلة أبيك، لكنّها عرفت برجال العلم أكثر من الجاه. فبينما كان جدّك لأبيك وأعمامك من بعده ذوي مناصب حكوميّة، أو مسؤولين في الجيش والشّرطة، فقد كان جدّك الأوّل لأمّك طبيبا شرعيّا، درس الطبّ في فرنسا، وأولاده وأحفاده مهندسو بناء وزراعة، أرسلهم إلى تركيا وروسيا وإنجلترا ليعودوا محمّلين بشهادات ترفع الرّأس وتزيد من شأن العائلة.

حين رجعت بعد اغتراب دام عشر سنوات في المملكة السعودية، وزرت بيت جدّك القديم، وجلست تحت ظلال الشجر الوارفة، وتنسّمت عبير زهور النّارنج الفوّاحة، أحسست برقّة عجيبة تغمرك. أدركت في عجب أنّ الغلظة التي ظننتها فيك أصيلة، والقسوة الظاهرة

التي تغلّف سلوكك، لم تكن إلّا قشرة هشّة أورثتك إيّاها سنوات عجاف من العيش في صحراء قاحلة، لا لون يداخلها إلّا صفار الرّمل والصّخر، ولا تستنشق في هوائها غير الغبار، ولا إحساس إلا بشواظ الشّمس الحارقة معظم فصول السّنة. تبدّد انطباعك الزّائف عن نفسك وقلبك خلال أسابيع قليلة من عودتك إلى وطنك، واكتشفت في نفسك تذوّقا استثنائيّا لآيات الجمال.

كانت الشّقة الفاخرة التي استأجرتها في ضاحية «المرسى» غير بعيدة عن البحر. وكان من العادات المستجدّة التي اكتسبتها بعد رجوعك، الجلوس لساعات طويلة قبالة البحر. تعلّقت سريعا بأشكال الجمال التي كنت غافلا عنها لسنوات مديدة.. جمال الشّواطئ وعذوبة نسيمها العليل. لقد ذهبت إلى الشواطئ من قبل.. شواطئ جدّة والخُبَر. لكن شتّان بينها وبين الشّواطئ التّونسيّة!

كنت تمكث سارحا، قرب مرفأ «سيدي بوسعيد»، متأمّلا الكائن الخرافيّ، ذي درجات الأزرق والأخضر المدهشة، الممتدّ إلى الأفق!

وجدت ملاذا في مقهى صغير مطلّ على البحر مباشرة. لم تكن تدرك أين سينتهي بك المطاف وأنت تنزل درجات السّلّم الحجري المؤدّي إلى الشّوارع الخلفيّة الضيّقة التي لا يسلكها إلّا العارفون بالمكان. ولم تكن لتصبح من ضمنهم إلّا بعد هيمانك الطّويل بين الطّرقات بلا هدى. لم تكن واجهة المقهى العاديّة لتشفّ عمّا يخبّئه جانبه الآخر. لكنّ موقعه المتفرّد البعيد عن الزّحام والضّوضاء أغراك بالتّجربة، لتتعرّف عمّا سيصبح فيما بعد معتكفك الخاصّ والدّائم. انزواؤه عن الشّوارع السّياحيّة العامرة بالزوّار يوفّر خصوصيّة استثنائيّة تجعل منه المأوى المثالي للعشّاق الباحثين عن خلوة! لذلك فقد كان جلوسك بالسّاعات إلى طاولة منفردة، ناظرا إلى الأفق، أمرا مستغربا سريعا ما استرعى انتباه موظّفي المكان. شابّ وسيم تظهر

على هيئته علامات الثراء، ولا يصطحب معه أحدا كما يفعل أقرانه، هل هناك أدعى من هذا للاستغراب؟ ولم يكن يضاهي شكلك غرابة إلّا رجل أشيب يرتدي حلّة رسميّة كاملة، وربطة عنق، يضع على عينيه نظارات شمسيّة طيلة الوقت، ويطلب فناجين القهوة واحدا إثر الآخر، فيحتسيها ببطء ونظراته تتردّد بين الماء، وبين منديل حريريّ تعبث به أنامله. كنتما أنتما الاثنان زبائن المقهى الدّائمين.

كان مكانك المفضّل على الشّرفة المكشوفة، قواعدها الضخمة تنبت من الماء وكأنّها جذوع أشجار خراسنيّة، لحاؤها طحالب وفطريّات لزجة خضراء. وقد كان من الطّريف أن يشرع موظّفو المكان في معاملتك باحترام غريب، بعد أسبوع واحد من ارتيادك المتكرّر للمقهى. لاحظت في مزيج من الاستغراب والرّضا أنّ النّادل يترقّب قدومك في نفس موعدك اليوميّ، فيستقبلك عند المدخل ويقودك بحفاوة إلى مقعدك المفضّل عند الشّرفة. ثمّ راودتك الرّيبة والحرج حين أصبح يرفض أخذ الحساب على المشروبات التي تحتسيها ببطء طيلة جلستك المطوّلة! وكنت تصرّ في عجب على الدّفع، وينحني النّادل بدوره ملحّا على ألّا تفعل! فإذا طالت المساومة واستمرّ الإلحاح من الجانبين، أردف النّادل بخضوع وهو يتناول منك الورقة النّقديّة:

- ما تراه مناسبا يا سيّدي!

خالجك شكّ ذات مرّة بأن يكون صاحب المقهى على معرفة ببعض أعمامك أو أخوالك. لكنّه بقي مجرّد شكّ لم يبلغ مرتبة التّأكيد. ولم يكن الغموض لينجلي عن المسألة، إلّا بعد أن توطّدت العلاقة بينك وبين نادل شابّ لم يبلغ العشرين، كنت تمازحه مثل أخ أصغر من حين إلى آخر وتغدق عليه البقشيش رغم تمنّعه الغريب. تجرّأ ذات يوم وسألك بشيء من الرّهبة:

- ما هو عملك يا سيّدي؟

أجبت ببراءة:

- أنا طالب في كلّيّة الطبّ.

فردّ في صدمة وارتياب لم تخطئهما عينك:

- فقط؟!

قلت بنفس البراءة والعجب:

- هل من المفترض أن أكون شيئا آخر؟!

- إذن لست من المباحث؟!

بينما ظهرت على وجهك علامات الدّهشة مردفة برغبة عارمة في الضّحك، كتمتها بصعوبة، تراجع الولد وولّى راكضا، ليبلّغ بقيّة زملائه بالاكتشاف. سيطر عليك الذّهول لبرهة، وقد اكتشفت سرّ المعاملة فوق العاديّة التي حظيت بها خلال الأسابيع الماضية! أسرعت تلملم أشياءك المنثورة على المنضدة، واندفعت لا تلوي على شيء. حين بلغت المرفأ لاهثا، ألقيت بنفسك على أحد المقاعد الخشبيّة، وانتابتك موجة ضحك هستيري!

انقطع حضورك لأيّام ريثما واتتك الشّجاعة لتواجه النّادل من جديد. وقد سرّك أن تُستقبل بابتسامة متواطئة هذه المرّة، بدل الاحترام الزّائف المشوب بالرّهبة. وسريعا ما تباسطت مع كلّ العاملينْ الذين كانوا يخشون حضورك قديما، لتصبح بالنّسبة إليهم «الدّكتور»، فقط بدون اسم. لكنّهم عرفوا عنك أيضا عشقك للهدوء والسّكينة، فلم يكن أحدهم ليقاطع خلوتك مع البحر ما لم ترفع كفّك طالبا خدمتهم.

هل تدري ما سرّ ولعك بالبحر؟

كنت تجد الرّاحة على حافّته. تلقي بهمومك بين أذرعه المفتوحة على مصاريعها، وتستقبل موجاته الهادرة أو الحانية، لتجرف معها آهاتك وأوجاعك وكلّ ما يثقل الرّوح والعقل والضمير. لا أحد يعلم كم من الآلام يحتضن ذلك الكيان الهائل المشبع بالأسرار، وكم ينطوي ظاهره وباطنه على خبايا ألقيت إلى جوفه منذ آلاف السّنين! كنت تبثّه شجونك العميقة، بلا كلمات.. وكان عقلك يمور بين يديه بحوارات لا تنقطع.. وكان وحده يسمعك، يعي ما تهمس به، ويخفّف عنك. وكنت تغادر شاطئه. وقد أورثك من سكينته وحكمته الكثير. وكأنّما كنت تتلقّى الموعظة على يدي معلّم خبير.

احتفظت بعادتك الغريبة تلك لنفسك، حتّى لا يقتحم الفضوليّون عالمك، وحتّى لا تشوّه كثرة الزّوّار سكينة معتزلك. وحين كنت تستأذن من رفاقك في اتّحاد الطلّاب، أو من زملائك في المحاضرات لتنفرد بنفسك والبحر، كانت تتواثب التعليقات المازحة واللّامزة على ألسنتهم، عن سرّ اختفائك الغامض. وقد احتفظت بالسرّ لنفسك أبدا، حتّى قال أحد الظّرفاء يوما:

- أتمنّى أن أفهم أين تختفي كلّ مرّة؟ أتراك قد تزوّجت ونحن لا ندري؟!

وراق لك ما افترضه مازحا، فاعتمدته حجّة لهروبك، كلّما رغبت في الانسحاب داخل قوقعتك، فلم تكن تتوانى أن تلقي على مسامعهم وأنت تغادر الجلسة، بلهجة ذات معنى:

- أترككم الآن يا معشر العزّاب.. فأنا رجل متزوّج وعليّ واجبات!

فتلاحقك الضحكات والنّكات من البعض، ونظرات الغيظ والحسد من البعض الآخر!

وذات عصر يوم ربيعيّ، كنت شاردا ببصرك بعيدا، تتلقّى باحتفاء

خيوط الشمس الأخيرة، وقد آذنت بقرب المغيب. كنت في تأمل عميق كعادتك، تصغي إلى هدير الموج الذي يتحطّم في صخب عند قدميك، يقاطعه صوت أغنية يأتي خافتا من المقهى. انتبهت إلى كلماتها، بعد أن سرى اللّحن الشجيّ في ثنايا عقلك. أنت تعرف جيّدا تلك القصيدة.

لا تشغل البال بماضي الزمان	ولا بآت العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته	فليس في طبع الليالي الأمان

ابتسمت في سخرية وأنت تستمع إلى رباعيّات الخيّام. يا لها من حالة بائسة رخيصة، أن يعيش الإنسان لحظته فقط! وهل يعقل أن تقطع ذاتك عن جذورك ومجد أمتك وتاريخ أسلافك؟ ولا تحلم بمستقبل الأجيال القادمة من بعدك؟ لا يمكن لعاقل أن يحتمل العيش منبتا عن ماضيه، منفصلا عن مستقبله!

لا توحش النفس بخوف الظنون	واغنم من الحاضر أمن اليقين
فقد تساوى في الثرى راحل	غدا، وماض من ألوف السنين

أشفقت على الشّاعر الشقي الذي يعيش حالة تيه وضياع لا شكّ. لكنّ الأسئلة تولّدت في ذهنك، ورحت غصبا عنك تتأمّل في كلماته باهتمام. شعرت فجأة بأنّ الكلمات منطقيّة نوعا ما. أليس كلّ النّاس إلى فناء، في نهاية الأمر؟

لبست ثوب العيش لم أستشر	وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عني ولم	أدرك لماذا جئت؟ أين المفر؟

حين وصلت إلى هذا الحدّ، رحت تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. ما هذه الشكوك؟ أنت تعرف لماذا جئت، إيمانك راسخ كالجبال الرّواسي، ولا تعرف تلك الحيرة التي لا تصيب إلا أهل النّفوس الضعيفة! قلت لنفسك في ثبات، ورحت تلملم أشياءك

لتمضي من المكان. كانت خطواتك في الخروج متسارعة كأنّك تفرّ من ساحة معركة!

وأنت تهرول فرارا من المقهى والأغنية والأفكار الدّخيلة التي أخذت تسيطر على وعيك، تساءلت في ريبة.. لماذا؟ هل هزّت الكلمات أعماقك؟ هل كانت حجرا ألقي في بحيرة ساكنة هادئة.. فنشر موجات من الشكوك؟

لم تكن تشقيك في ذلك الوقت أسئلة وجوديّة، ولم يكن عقلك قد تمرّد على شيء بعد، لا من المقدّس الموروث ولا من أحداث الحياة السّياسيّة الصّاخبة، لكنّها كانت البداية لكلّ ما تلاها. وحدتك المزمنة وخلواتك الطّويلة بنفسك، دونما شاغل يشغلك، لا هي ذكر وتسبيح ولا عبادة وتأمّل.. قد تكون الخلوة الطّويلة علاجا روحيّا بالنّسبة لآخرين، لكنّها بالنّسبة إليك قد ولّدت عادة خطرة.. «الإكثار من التّفكير»، ما قادك بعد ذلك إلى جحيم مقيم.

-٣-

وإلى جانب البحر، كانت هناك القرية. كان بداخلك حنين جارف على الدّوام يشدّك إلى القرية. فما إن تلوح فرصة إجازة ولو لأيّام قليلة، أو حتّى في نهايات الأسبوع العاديّة، وأحيانا بلا سبب أو مناسبة،إلا تترك أشغالك وكليّتك ومواعيدك، وتهرع إلى محطّة سيّارات الأجرة بـ«باب سعدون» وتمضي إلى ملاذك الثّاني.

في الثّمانينيات، كانت قريتك لا تزال تحتفظ بسحر ورونق ما يسمّى «قرية». خضرة يانعة على مدّ البصر، وحدائق غنّاء تخلب الألباب، وكتل سكنيّة محدودة. ما إن تلفظك سيّارة الأجرة على الطّريق الرّئيسيّة، حتّى تستنشق عبير القرية الذي تستجيب له جيوبك الأنفيّة بشكل خاصّ. هو مزيج من رائحة التّراب والطّين، وعبق الزّهر والعشب وروْح النّهر. نعم، لم يكن ذلك وهما. كنت مثل الطير تجد للماء رائحة تميّزها على بعد كيلومترات!

وبعد أن أقمت عقدا في صحراء الجزيرة العربيّة، عدت غريبا إلى قريتك، لا يكاد يميّز سكّانها فيك «مالكا» الفتى القديم، الصبيّ ذا السّنوات العشر، في آخر زيارة لك. كنت تسير على الطّريق غير الممهّدة، فتقابلك الدّور بأبوابها المشرعة. فقد كان إغلاق الباب في ذلك الزّمان علامة شحّ وانعدام مروءة! تفتح البوّابات الخشبيّة على مصاريعها من بعد صلاة الفجر من كلّ يوم، وتظلّ نسوة الدّور يرحن ويجئن ويقضين شؤون بيوتهنّ بمرأى ومسمع من المارّة والضّيوف المحتملين.

وكانت العيون تتابعك في عبورك مشيا إلى فيلا العائلة، وترقبك

الـكلاب وتتمطّـى، ثـمّ تهـمّ نابحـة وقـد اسـتفزّها مـرور الغريـب الـذي يتخطّـى حـدوده. كنـت غريبـا، والـكلاب نفسـها تـدرك غربتـك! غريبـا بهيئتـك ولهجتـك، وعطـرك الباريـسيّ الـذي تغـدق منـه عـلى ياقتـك وكلّ قطـع ثيابـك، وحـتّى بلحيتـك الكثيفـة وشـعرك المسترسـل عـلى كتفيـك!

ولـم يكـن غريبـا أن يقطـع طريقـك عجـوز مسـنّ يضـع برنسا صوفيّا عـلى كتفيـه، فيهتـف بـك في غلظـة:

- ابن من أنت؟

ومـا أن تفصـح عـن نسـبك، حـتّى ينقلـب العبـوس بـشرا، وتجـد نفسـك مدعـوّا إلى مائـدة إفطـار، عليهـا عسـل وسـمن، وبيـض «عـربي» وخـبز «طابونـة» سـاخن.

كنـت مصحوبـا بهيبـة اسـمك ومكانـة عائلتـك أينمـا حللـت. ومـع تكـرار الزّيـارة، وجـدت لـك مكانًـا في قلـوب أهـل القريـة، فتعـوّدوا عـلى لكنتـك وتقبّلـوا هيئتـك، وحظيـت منهـم بالاحـترام والتّبجيـل.

كان مـنزل جـدّك، عـلى بهائـه وضخامتـه، فارغـا! إلّا مـن حـارس، تقـوم زوجتـه بأمـر أهـل البيـت إذا مـا حلّـوا زوّارا. فقـد تفـرّق ذووك في أرض الله الواسـعة، ولـم يتسّـلم أحدهـم مشـعل الزّراعـة عـن جـدّك رحمـه الله. كانـت شركـة خاصّـة، في تلـك الآونـة، تسـتثمر الأرض الزّراعيّـة الممتـدّة عـلى ملـك العائلـة، وتدفـع إيجـارا لعمّـك الأكـبر القائـم بشـأن مـيراث جـدّك، مـا عـدا المزرعـة المحيطـة بالفيـلا الـتي بقيـت تحـت رعايـة الحـارس وزمـرة مـن العمّـال الموسـميّين تحـت إمرتـه.

وكانـت لـك شرفـة أخـرى، في مـلاذك الثّـاني، يحلـو لـك فيهـا الجلـوس المسـتمرّ، منـذ الفجـر وحـتّى تطلـع الشّـمس مـن مشرقهـا، ومنـذ العـصر وحـتّى تـؤذن الشّـمس بالمغيـب وراء الجبـال. شرفتـك تلـك تقبـع في الباحـة الخلفيّـة للـدّار، تظلّلهـا سـقيفة خشـبيّة، تعانقهـا سـوق شـجيرات الـورد

الـتي تنمـو عنـد قواعدهـا.. فتنـشر في الفضـاء رائحـة سـاحرة، وآه مـن الرّوائـح الـتي تظلّـل ذكرياتـك! ولـم يكـن يؤنسـك في سـاعات السّـحر، إلّا شقشـقة العصافـير المبكّـرة، وهـي تـترك أعشاشـها وتنطلـق مسبّحة.. ثـمّ وهـي تعـود إليهـا زرافـات ووحدانـا سـاعة الغسـق، وكأنّ تسـبيحها لـم ينقطـع.

في صبيحـة ذلـك اليـوم الهـادئ، أديـت صـلاة الفجـر في مسـجدك المحبّـب، وتلـوت أذكار الصبـاح كمـا تعـوّدت منـذ نعومـة أظفـارك، ثـمّ عـدت وحيـدا إلى مـنزل جـدّك. أعـددت كوبـا مـن القهـوة التركيـة -الـتي كان يحلـو لـك ارتشـافها كل صبـاح حـتى أدمنتهـا- وهممـت بالصّعـود إلى غرفتـك. كان ذلـك طقسـك اليومـيّ المفضـل مـا دمـت في قريتـك الوادعـة، تجلـس في شرفـة غرفتـك تراقـب تصاعـد بخـار القهـوة الحـارّ ليلامـس بـرودة صبـاح ربيعـي غائـم، وأنـت تطالـع كتابـا. كانـت متعـة رائحتهـا الثقيلـة، تسـبق متعـة طعمهـا السـخيّ، وأفـرع أشـجار حديقـة المـنزل الخلفيـة، الـتي تطـل شرفـة غرفتـك عليهـا مـن الطابـق الثـاني، تتمايـل وكأنهـا ترغـب في مصافحتـك، تـكاد تلامسـها يـداك.

عرّجـت عـلى المكتبـة في طريـق صعـودك، لتنتقـي كتابـا. وقـد كانـت المكتبـة أثمـن مـا في المـنزل العامـر مـن كنـوز. فقـد حـرص والـدك عـلى أن يقتـني عـبر عـشرات السـنوات آلاف الكتـب، مـن شـتى صنـوف المعـارف. فاكتسـت جدرانهـا الثلاثـة رفوفـا خشـبية متينـة امتـلأت عـن آخرهـا بالكتـب المتزاحمـة. أمّـا الضّلـع الرابـع مـن الغرفـة فقـد كان يشـغله مكتـب أنيـق مـن خشـب الـزان.

اتجهـت نحـو رفّ يضـمّ كتبـا أدبيـة، ودواويـن لأشـهر شـعراء العـرب، واسـتقرّت عينـاك -دون قصـد- عـلى ديـوان يضـمّ أشـعار الفيلسـوف أبـو العـلاء المعـري «رهـين المحبسـين»، ذلـك أنّـه كان رهـين العمـى ورهـين بيتـه لا يـكاد يغـادره.

ارتجفت. لم تلبث أن تناسيت أبيات الخيام المربكة لأفكارك، والعابثة بصفاء نفسك في الأسابيع المنصرمة، حتّى يظهر في طريقك اسم آخر يشوّش عليك هدوء عقلك! أنت لا تجهل أبا العلاء المعري، وموقفه الرافض لوجوده في الحياة، وأنّ فكرة توريط نفس أخرى بالوجود بسببه جناية عظيمة، فقال بيته الشهير:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

لكنّك كنت دائما تتجنّب قراءة شعره، لأنك تأثرت مبكرا برأي أهل الحديث فيه، وأنه كان ربوبيا يؤمن بالإله، وينتقد الأديان والشرائع، ووصمه بعضهم بالزندقة! لكنّ مزاجك يتوق إلى بعض الفلسفة، في هذا الصباح الرّائق، ذي الجوّ الضبابيّ البارد.

صعدت الدّرج متأبطا الديوان، وبيدك قهوتك الشهية حارة طازجة. جلست في استرخاء في شرفة غرفتك في هدوء مطبق، إلا من حفيف أوراق الأشجار تميل بها النسائم المنعشة، والطير يستقبل نور الصباح صادحا بالنغم. وفي جوّ من السّكينة العذبة، رحت ترتشف قهوتك، وتقرأ:

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلّتي واعْتِقادي نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنّمُ شادِ

وشَبِيهٌ صَوْتُ النّعيّ إذا قِيسَ بِصَوْتِ البَشيرِ في كلّ نادِ

...

ضَجْعَةُ المَوْتِ رَقْدَةٌ يُستريحُ الجِسْمُ فيها والعَيشُ مِثلُ السّهادِ

رحت تقول لنفسك، هذا رجل ساخط تستوي عنده الحياة والموت، السّعادة والشقاء! إنّه يعتقد أنّ في الموت راحة من مصائب الدّنيا، وينسى أنّ بعد الموت حسابا يترقّبه. أم تراها حياته كانت عصيّة بلا لحظة هناء فهانت مقارنة بها أهوال الآخرة في نظره القاصر؟ هل يا ترى ستحصّل أنت من الحياة غير ما حصّل أبو

العلاء؟ ألن توقظك خيبات الأمل، وكذب الرجاء، وظلمة اليأس، وحرقة القنوط، من زيف الأماني وخداع الأحلام، ووهم السعادة، وحتى من بهجة الحب؟

لكنّك كنت مفعما بالتّفاؤل في تلك المرحلة، منتشيا بالشّباب والأمل. لا يمكنك أن تستوعب ما يدّعيه من ظلم الحياة!

يَرتَجي الناسُ أَن يَقومَ إِمامٌ	ناطِقٌ في الكَتيبَةِ الخَرساءِ
كَذَبَ الظَنُّ لا إِمامَ سِوى ال	عَقلِ مُشيرًا في صُبحِهِ وَالمَساءِ
فَإِذا ما أَطَعتَهُ جَلَبَ ال	رَحمَةَ عِندَ المَسيرِ وَالإِرساءِ
إِنَّما هَذِهِ المَذاهِبُ أَسبا	بٌ لِجَذبِ الدُنيا إِلى الرُؤَساءِ

لا إمام سوى العقل؟ فهل تكون النبوّات والشرائع في نظره سوى أباطيل؟ هززت رأسك في استياء. لقد أسرف في الإيمان بعقله فشقي به، وأسلمه إلى اليأس والجزع، ولم يظفر بشيء سوى العذاب. برمت بهذا الفيلسوف البائس، وضقت ذرعا بشعره. لقد اكتفيت! أغلقت الكتاب في ضيق لا تدري مصدره. رفعت رأسك إلى السّماء.. فألفيتها قد اكفهرت وتلبّدت بالغيوم! تجمّعت سحب سوداء كثيفة، كأنما تعكس ما جثم على صدرك من همّ. أغمضت عينيك، وقد شرعت قطرات خفيفة من المطر تتساقط، أنبأك بها وقعها على ورق الأشجار الكثيفة من حولك، وملمسها الندي على بشرة وجهك المتطلع نحو السماء.. كأنه يلتمس منها ما يطمئن روحك القلقة.

رحت تتلو في خشوع، مغمضا عينيك في ابتهال:

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ).

-٤-

أمّا ملاذك الثّالث، فهو المسجد.

وقد كان مسجد القرية الوحيد، مسجد عائلتك أيضا! هو مسجد موروث عبر الأجيال، بناه الأسلاف على مقام وليّ من أولياء الله، هو جدّكم الأكبر، وبقيت مفاتيحه بيد أهلك يتوارثونه أبا عند جدّ، كأنّما هي مفاتيح الكعبة! كان مسجدكم الأقدم والأجمل كذلك في كلّ المنطقة، ترتفع جدرانه الحجريّة السّميكة خمسة عشر مترا عن الأرض. وكان ما يميّزه، إلى جانب ضخامته وهيمنته على الهضبة التي أقيم عليها، طابعه الأندلسيّ الأصيل الذي ينضح كلّ ركن فيه بتاريخ ممتدّ من العراقة، وقبّته الهائلة التي تعدّ تحفة معماريّة بحدّ ذاتها. وكنت تطيل الجلسة فيه، منتظرا الصّلاة، وبعد الصّلاة، وتغرق في أفكارك، تحيط بك السّكينة، حتّى يهيأ للنّاظر إليك في تحليقك الرّوحاني العميق أنّك تنتظر وحيا سيهبط لا محالة!

وكان أهل القرية ينسبون لصاحب المقام الكرامات والمعجزات، ويشتطّون في سردها، فتهتف بالإمام ما إن تنفرد به:

- يا مولانا، ألا ترى أنّ علينا منع الزّيارة عن المقام؟ هذا شرك!

فيبتسم ويقول مترفّقا:

- نحن نشرح للنّاس كلّ فترة وفترة في خطبة الجمعة، ونذّكرهم ببشريّة صاحب المقام، ونعظهم في التوحيد.. لكنّ النّاس يحبّون تناقل الحكايات والكرامات، وليس في ذلك شيء طالما اقتصر الأمر على الحكي!

- وماذا عن الذّبائح والعطايا؟

- النّاس يتصدّقون باللحم والطّعام في مناسباتهم، ويقصدوننا لتوزيعها على المحتاجين.. فننصحهم بإخلاص النّيّة لله، فهل علينا غير ذلك؟

تنسحب في غير اقتناع، تغالب نزعتك لتقويم سلوك العامّة المنحرف. لكنّ نظراتك كانت تتسلّل دون وعي منك، في لحظات خلوتك، إلى النّافذة الوحيدة المشرفة على المقام من داخل المسجد. كنت تجد في نفسك سكينة غريبة وأنت تقبض بكفّيك على الأعمدة المعدنيّة للشبّاك، وتقف متأمّلا الكيان الخشبيّ المزخرف المحيط بالقبر المرتفع مترين تقريبا عن الأرض. تقف هناك، ما لا تحصي من الوقت، لتجد الدّمع يجري على وجنتيك بلا شعور منك، وكأنّك تشتكي عذابات قلبك لصاحب المقام! لقد كنت موجوعا منذ ذلك الوقت، وقد كنت شقيّا بفؤادك طيلة الوقت، وحزنك القديم يشقي روحك فلا تجد له شفاءً. وكنت تخشى أشدّ ما تخشى أن يضبطك أحد الأهالي متلبّسا، وأنت تقول ما لا تفعل، ولا تنتهي عما تنهى عنه!

في تلك السّويعات التي تنزوي خلالها عن أهل القرية، كنت كثيرا ما تتفكّر في أمرهم. يدهشك أشدّ ما يدهشك، الصّفاء النّفسي الذي يرفلون في نعيمه! هؤلاء النّاس ببساطتهم وضنك عيشهم -كما تحسب- كانوا أسعد منك. لم يكن أحدهم قد تلقّى ما تلقيته من علم شرعيّ، ولم يبلغ أحدهم ما بلغته من الثّراء المادّيّ، ولا نسبه يضاهي عراقة نسبك. ولكنّهم يبدون، ممّا لا جدال فيه، أوفر اطمئنانا وراحة بال.. فيما أنت تصارع التّناقض داخلك باستمرار، ولا تنقطع عن التفكير المزمن.

وكانت الصّلاة الأعظم مكانة والأشد تأثيرا في نفسك في تلك المرحلة، هي صلاة الفجر. وكان أهل الفجر، أهل السّحَر، يتربّعون في

المسجد قبل الأذان بساعة أو ساعتين ربّما. فمهما بكّرت قبل الأذان، كنت تجد الإمام، الشيخ إسماعيل، هناك، كأنّما هو يقوم اللّيل كلّه، من العشاء إلى الفجر. كان شيخا طاعنا في السّنّ، على مشارف الثّمانين من عمره، وجهه الأبيض مشرب بحمرة، ولحيته الكثّة بلون الحليب الصّافي، حسن الصّوت نديّه، ونور الإيمان يشعّ من قسماته. كان شيخا زيتونيّا، من الرّعيل الأوّل ممّن حمل شعلة التعليم، فكان مدرسا لوالدك، وللأجيال التي تلت في القرية. ولم يكن في القرية كلها من يعلوه مقاما في علوم القرآن إلا الشيخ الضّرير عبد الجليل، مؤدّب القرية. لا أحد يدري تحديدا كم يبلغ الشيخ عبد الجليل من العمر، لكنّ الشيخ إسماعيل تتلمذ على يديه طفلا وحفظ القرآن في كتّابه. وجهه الأبيض مغضّن مثل قطعة فاكهة جافّة، لكنّ ماء الحيّاة لمّا يفارقها.

وكنت تدعو في نفسك فترة ما قبل الفجر «محضر الملائكة». كنت تتخيّلهم وقد تجسّدوا، في تلك السّويعة قبل أذان الفجر، والشيخ إسماعيل يتلو القرآن بصوت رخيم، وقد انطفأت أنوار المسجد كلها إلا من مصباح وحيد يتوسّط المحراب، فيلقي بظلال من السكينة.. والشيخ عبد الجليل يهزّ رأسه مع التلاوة مطرقا، وكأنّه في عالم علوي، وليس لكم منه نصيب إلّا جسده.. أمّا روحه فمحلقة تهيم في ملكوت الله.

لم يكن يرتاد المسجد في ذلك الوقت من السّحر عادة سوى نفر لا يتجاوزون الخمسة، كنت أنت سادسهم، أو ستة أنت سابعهم.. فيغمرك إحساس قويّ بأنّكم من وصفهم الله في كتابه بالـ «مصطفين الأخيار». وكنت تستشعر حضور الملائكة حقّا، (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا).. ومن أصدق من الله قيلا؟

كنت ترتدي ثوبك القصير نسبيا، حفاظا على السّنة، وتضع

عطـرك المحبّـب، وتحتفـظ في جيبـك بسـواكك الـذي لا يفارقـك.. فتشـعر بروحــك تطــير، تســابق قدميــك إلى المســجد. وحــين تتجــاوز العتبــة، تـرى بـأمّ عينـك المشـهد الملائـكي، فتخطـو بهـدوء مهيـب إلى الدّاخـل، وتنضـمّ في خشـوع إلى «رفقـة الجنّـة». عـبر الظلمـة الخفيفـة، يتجـلّى شبح الشـيخ إسـماعيل بجـوار المنـبر يسترسـل في تـلاوة لا تنقطـع، تثـير الشـجون وتذيـب قسـوة القلـب.. وهيئـة الشـيخ عبـد الجليـل مسـندا ظهـره لسـارية المسـجد، وبجـواره مـن يقـوده مـن أبنائـه، والشـيخ يهـزّ رأسـه -شـأن الحفـاظ- لأعـلى وأسـفل، في حالـة مـن الوجـد.

كان يطيـب لـك أن تحمـل في جيبـك عـلى الـدّوام زجاجـة مـن المسـك الأبيـض، يأتيـك بـه الأهـل مـن الريـاض في إجازاتهـم.. وكنـت تحـبّ أن تهـادي بـه مـن تبجّلهـم مـن كبـار القريـة، وتخـصّ الشـيخ عبـد الجليـل بأغلاهـا وأطيبهـا رائحـة. وكان أجمـل مـا يكـون، حـين تفـرغ مـن صـلاة الفجـر، ويهـمّ الشـيخ عبـد الجليـل بالانـصراف، فتقـوم مسرعـا لتعـترض طريقـه، فتقبّـل رأسـه وظاهـر كفّـه، فيتعـرّف عليـك مـن رائحتك المميّـزة، وقـد كنـت تلـوت عليـه خـلال أشـهر الإجـازات الصيفيـة، القـرآن كلّـه، عـلى مـدار سـنوات عـدّة. كنـت تسـلّم عليـه بمـا يسـتحقّ مـن تكريـم، ثم تخـرج قـارورة المسـك الأبيـض، لتضـع قطـرات عـلى ظهـر يـده، فيشـمّها ويمسـح بهـا لحيتـه، ومـا يلبـث وجهـه أن يـشرق صفـاءً ونـورًا، وتعلـو شـفتيه ابتسـامة ملائكيـة ثـم يرفـع رأسـه ويمـدّ صوتـه هاتفـا:

- ياروااااائح الجنة!

كنـت تشـعر في تلـك اللّحظـة، مـن فـرط تأثّـرك، وكأنّمـا أخـذت صـكّا بدخـول الجنـة مـن ذلـك الرّجـل الرّبّـانيّ! فتغمـرك السّـكينة، وتفيـض عينـاك هيامـا وشـوقا إلى الجنّـة، وألمـا وحزنـا عـلى شـقاء نفسـك، وشـعث قلبـك.. وتقـول بضراعـة:

- ادع لي يا مولانا!

فيرفـع يديـه، وقـد تعلّـق مقبـض عصـاه برسـغه، ويلهـج لسـانه بأطيـب مـا سـمعت مـن دعـاء أب حنـون لابنـه. فيتضاعـف السّـيل مـن مقلتيـك، وينتابـك نشـيج لا تـكاد تسـيطر عليـه، يطفـئ نـارا كانـت تشـتعل في صـدرك منـذ ذلـك الوقـت.

ولم تكن تعلم يقينا، ما مصدر ذلك الألم الذي يدمي فؤادك.

منـذ البـدء، كنـت تصـارع المتناقضـات بداخلـك، وتنتهـي إلى الاستسـلام.

كنـت مجبـولا عـلى الطّهـر والنقـاء، والنّزعـة الملائكيـة! تعـذّب نفسـك عـلى الصّغائـر، وتجلـد ذاتـك طويـلا عـلى النّظـرة المحرّمـة لإحـدى الفتيـات.. ومـع ذلـك تشـعر باسـتمرار أنّـك مـا زلـت ملوّثـا بالذنـوب.

كنـت كثـيرا مـا تقـول لنفسـك، في خلواتـك الطّويلـة تلـك، عـلى حافّـة البحـر أو في شرفـة بيـت جـدّك، لـو أنّ نفـوس البـشر تسـامت عـلى متـاع الدّنيـا الفانيـة لكانـوا عنـد الله في مكانـة أعـلى مـن الملائكـة، كـون الملائكـة مفطوريـن عـلى الطاعـة، ولا تنازعهـم نفوسـهم إلى المعصيـة! لـذا، فقـد كنـت في حلبـة سـباق لا ينافسـك فيهـا بـشر، بـل ملائكـة!

كنـت تقـول في تصميـم: سـأجعل الله يباهـي بي الملائكـة.. وأثبـت للملائكـة أنهـم أخطـؤوا حـين جادلـوا وراجعـوا الله سـبحانه في خلـق أبينـا آدم، ووصفـوا جنسـنا بالإفسـاد وسـفك الدمـاء!

ومـع تلـك المحـاولات شـديدة النّرجسـية في منافسـة كائنـات نقيّـة مـن الملكـوت الأعـلى، كنـت دائـم النّقمـة عـلى ضعفـك البـشري، دائـم الحـزن والحـسرة، شـديد الاحتقـار لهـوى نفسـك وشـهواتك! كنـت تشـعر بالتقـزّز مـن جسـدك ورغباتـك! وأنـت تلعـب هـذه اللعبـة الخطـرة، كان ينتابـك في أحايـين نـادرة، إحسـاس بالنّدّيّـة للملائكـة.. لكـن غالبـا مـا كنـت

تعترف بالهزيمة المرّة، يتلوها تداعٍ في غياهب النّقمة على الذات، ورغبة ملحّة في التّطهّر، من أبسط الذنوب وأقلّ التّقصير.

كنت في صراع مستمرّ، بين كائن علويّ يحدوه شوق الرّوح للملأ الأعلى، وآخر سفليّ تجذبه رغبات الجسد وثقل الخطيئة. لكنّ هذا الصّراع انتقل، بعد مرحلة قصيرة من عودتك إلى تونس ودخولك عالم الجامعة، من العالم الروحي إلى العالم المادي المحسوس والملموس. كيف لا، وأنت عاشق الجمال بجميع أشكاله؟ وكيف يمكنك أن تغمض عينيك عن حسناوات الجامعة اللّواتي يتهادين من حولك؟

عشت بوادر صدمة ثقافيّة حادّة. انتقلت من بلد عربيّ إلى آخر عربيّ، لكن الفوارق المجتمعيّة والحضارية كانت صادمة. وكان ذلك التفتّح المفاجئ يرهبك ويغمرك جزعا. كان البون شاسعا بين المجتمع السّعوديّ المحافظ إلى الدّرجة القصوى، والمجتمع التونسيّ الذي تبدّى أمام عينيك غير بعيد عن المعايير الأوروبية في لباس البنات وفتنتهنّ! لم تكن تلمح فيما مضى إلّا خيال امرأة متّشحة بالسّواد، تشدّ على ردائها وتغضّ البصر. أمّا في جامعتك تلك، فالجميلات الكاسيات العاريات يتمايلن في دلال وغنج، ويواجهن النظرة بأحرّ منها. ستعرف في تلك الفترة وأنت الغرّ الساذج، قصص حبّ أحاديّة الجانب، تعشّش في ذهنك وحده، بسبب نظرة عابرة وابتسامة جريئة. وهل الذّنب ذنبك؟ وقد تربّيت على أنّ الأنثى لا تختلط ولا تضاحك ولا تخاطب الغرباء.. فإن فعلت، فهو الحبّ إذن! ستمضي شهور، تخلّفك محمّلا برصيد غير هيّن من العواطف المحبطة وقصص الحبّ الفاشلة، قبل أن تلملم شتات نفسك الحائرة وتستردّ تركيزك على ما يهمّ.

في ذلك الأوان، كان التّواصل الثّقافيّ والفكريّ في تونس مع الغرب

محدودا، ولم تكن القناة الفرنسية الثانية قد شرعت في بثها على الهوائيات التونسيّة إلا في أواخر الثمانينيات. وكانت هناك مكتبة وحيدة في شارع الحبيب بورقيبة وسط العاصمة، تعرض أمام مبناها عشرات المجلات والصّحف الأجنبيّة. ولم يكن زبائن تلك الصّحف والمجلّات إلا نفرا قليلا من مدرّسي المعاهد الثانوية الخاصّة من الأجانب، أو أبناء بعض الأسر الفرنسيّة التي استقرّت في العاصمة إبّان الاستعمار.

وكان أن تعرّفت على مقاعد كليّة الطبّ إلى زميل كانت والدته ذات أصول فرنسيّة، وكانت تعمل في سفارة بلدها بالعاصمة التّونسيّة. وقد فتح لك ذلك الزّميل نافذة لم تكن تحلم بها على الثّقافة الفرنسيّة. كانت ثقافتك حتّى لحظة عودتك إلى تونس عربيّة - إنجليزية، بحكم إقامتك الطويلة في الرّياض. ولم يكن حظّك من الفرنسيّة يتجاوز حفنة من العبارات والكلمات المتفرّقة، كنت تحفظها في الإجازات على يد مدرّس خصوصيّ، استعدادا لعودتك المرتقبة إلى الوطن. كنت تعلم أنّ دراسة الطبّ في تونس تحتاج الإمساك بزمام اللغة الفرنسيّة التي كانت آنذاك، ولا زالت، تعتبر في تونس لغة العلم. ومع ذلك فإنّك لم تنضبط في تعلّم اللغة بشكل جادّ حتّى أتيحت لك فرصة دخول المركز الثّقافيّ الفرنسيّ الملحق بالسّفارة. فلبثت أسابيع تصارع الكلمات وتلوي لسانك بها بصعوبة، فتقاطع المحاضرات تارة وتحضرها طورا حتّى لا تضيّع الفصل الدّراسيّ.

إذن قمت في وقت مبكّر من وصولك إلى تونس بالاشتراك في المركز، وعزّزته باشتراك ثانٍ في المجلس الثقافي البريطاني، حتّى لا تقطع علاقتك بالثقافة الإنجليزية. كنت تدرك أنّ ولوج تينك المنشأتين في ذلك الوقت يعدّ ميزة لا تتاح إلّا لنفر يسير من التونسيّين، أبناء علية القوم والطبقة المخمليّة! ولعلّك لا تنكر أثر تردّدك عليهما على

شخصيّتك الازدواجيّة الفريدة! كنت تنهل من معين الثقافات الأجنبيّة من منبعها، وتستزيد من الفكر السّلفيّ والإخوانيّ والجهاديّ بحكم النشأة واللقاءات الدّوريّة في منزل خالك. وقد كان توفّر كلّ ذلك في متناول يدك شيئا استثنائيّا حقّا، في عصر لم يكن العلم مكتسبا ديمقراطيّا بعد، ولم تكن الشبكة العنكبوتيّة الكونيّة توصل المعلومة إلى كلّ بيت بعد!

كنت تحضر بانتظام أهمّ الأنشطة الثقافية في كلا المركزين، وتطالع في نهم ما حوته المكتبة الورقية من كتب ومجلات وصحف، وتشاهد الأشرطة في قاعة السينما التي كانت تعرض الأفلام الأجنبيّة متزامنة مع عرضها في الدّور الأوروبيّة، دون ترجمة ودون أن يطالها مقصّ الرّقيب! وكنت تخالط حين تدخل المركز صفوة الصّفوة من الجامعيّين والمثقّفين، فلا تسمع أذنك إلا الفرنسيّة أو الإنجليزيّة بلكنة أهلها، لأنّ روّاد المكان من الطلّاب إمّا أجانب وإما هجين عربي أوروبيّ، وإما تونسيّون ولدوا في أوروبا وأمريكا وعاشوا هناك سنوات طوال حيث كان ذووهم إمّا ديبلوماسيّين وإما رجال أعمال، ثمّ عادوا واستقرّوا في تونس. فيهيّأ إليك ما إن تطأ قدماك المركز أنّك قد قطعت الحدود وسافرت عبر الأجواء، لتحطّ في التوّ واللحظة على أرض أجنبيّة، وأنت لم تغادر الأراضي التّونسيّة! كان الجوّ أوروبيّا صرفا، والجميع -بما في ذلك العاملون- على هيئة ولغة وسلوك غربيّ في الصّميم، ولا شكّ أنّ ذلك قد أسهم إلى درجة كبيرة من تمكينك من الأخذ بناصية اللغة الفرنسيّة بأسرع من المتوقّع.

كنت تداوم الحضور، خاصّة يوم الأحد، يوم إجازتك الأسبوعيّة الوحيد، لتعيش فصلا من فصول الملهاة المستمرة التي انغمست فيها، وحلقة من حلقات انفصام الشخصيّة الفكريّة التي كنت تمارسها دون وعي، وكأنّك منوّم مغناطيسيّا، ولا حيلة لك في تحديد

هويّـة واحـدة لنفسـك! كان يومـا مشـهودا بالفعـل، يجـدّد المأسـاة بتفاصيلهـا.

كنـت تحـرص عـلى صلاة الفجـر، تغـادر شـقتك قبـل الفجـر بنصـف سـاعة أو أكـثر، وحينهـا لا تجـد في شـوارع ضاحيـة المرسى الـتي تقطنهـا سـوى مـن لـم يحالفهـا الحـظ مـن بنـات الليـل الـلاتي يقفـن في زوايـا مظلمـة وفي مداخـل العمـارات، يرتديـن أشـبارا قليلـة مـن الثيـاب، وحـين يشـعرن مـن مكمنهـنّ بمـرور رجـل يظهـرن أمامـه فجـأة في ذلـك العـري الفاضـح ويسـتعرضن مفاتنهـنّ في غنـج. فكنـت تحـث الخطـى، غاضـا بـصرك، حـتّى لا تدنّـس عينيـك بذلـك المشـهد الشـنيع وأنـت تقصـد المسـجد، تسـأل الله أن يجعـل في قلبـك نـورا وفي بـصرك نـورا وفي سـمعك نـورا وفي لسـانك نـورا وعـن يمينـك نـورا وعـن يسـارك نـورا، ومـن فوقـك نـورا ومـن تحتـك نـورا وأمامـك نـورا ومـن خلفـك نـورا. كانـت اللحيـة والثـوب القصـير كفيلـين بحمايتـك، لكنّـك كنـت تخـشى عـلى طهارتـك أن تبطلهـا نظـرة تلهـب الغرائـز، وتعكّـر طمأنينتـك وتشـوّشـك لأيّـام.

كان المسـجد يقـع عـلى بعـد شـارعين مـن مسـكنك. لـم يكـن بالمسـجد الكبـير، إلّا أنّ إمامـه طبيـب الأسـنان الشـابّ الـذي لا يكـبرك سـوى بسـنوات قليلـة قـد حبـاه الله بحنجـرة ذهبيّـة، تهـتزّ لهـا الأفئـدة وتطـرب لهـا الأسـماع، ويحفـظ القـرآن كلّـه عـن ظهـر قلـب، لا يـكاد يخطـئ. وحـين يحلّـق بـك ذاك الصـوت الملائـكيّ في صـلاة الفجـر، تستشـعر الـبركات تنهمـر عليـك مـن السّـماء، مثـل شـلّال يغمـر صـدرك وينعشـه.

كنـت تمكـث في المسـجد مـع رهـط مـن شـباب الحيّ، سـلفيي التوجّـه في الغالـب، مـن بعـد الصّـلاة إلى طلـوع الشّـمس، تقـرؤون أذكار الصّبـاح ثـمّ تتلـون مـا تيـسّر مـن القـرآن، كلّ بمفـرده، مسـتندين إلى حيطـان المسـجد أو متكئـين إلى سـارية مـن سـواريه. وبعـد أن تراجـع جـزءا أو

جزءين من ذكر الله الحكيم، لتتسنّى لك مراجعته كلّه مرّة كلّ شهر، كنت تغادر المسجد مع شابّ أو اثنين، فتيمّمون وجوهكم شطر مطعم «الصفصاف»، مطعمك المحبّب، حيث تتناولون إفطارا يسيل له اللّعاب.. «صحن تونسيّ» قوامه سلطات وهريسة حارّة وبيض وزيتون وفلفل مخلل، أو «صحن كفتاجي» من الخضار والبطاطس المقليّة، بالإضافة إلى قطعة أو اثنتين من فطائر «البمبلوني».

ثمّ تعود إلى الشّقة، تستحمّ وتتعطّر، وتغيّر هندامك استعدادا إلى القسم الثّاني من نهارك الحافل! على السّاعة الثالثة عصرا، تغادر الشّقة مجدّدا، ليبدأ مشهد مختلف مغرق في السرياليّة. يخرج إنسان آخر، بسمت آخر وعقل آخر ولهجة أخرى، ومشاعر أخرى!

تستقلّ قطار الضاحية إلى المركز الثقافي الفرنسيّ، مولّيا وجهك قبل الغرب، لتلقى هناك رفاقا آخرين، شبابا وفتيات، كنت قد واعدتهم لمشاهدة شريط أو حضور عرض، أو جلسة لهو بريء. وبعد إغلاق المركز، حوالي الساعة التاسعة، تخرج مع مجموعة مختلطة من الشباب لتناول العشاء في أحد المطاعم الفاخرة في ضواحي العاصمة، وتسهرون حتّى وقت متأخر من الليل!

ثمّ تعود إلى شقّتك وحيدا. تلقي بجسدك على فراش من شوك، منهك الفكر حائر العقل، تعاني صراعا نفسيّا حادّا وضياعا وجدانيّا، وتمزّقا في الهويّة، تكاد جمجمتك تنفجر من وطأة الألم.

لم يكن أحد ممّن عرفك في أحد العالمين، هذا أو ذاك، يتخيّل ولو لوهلة واحدة ما تكون عليه حين تعبر الحاجز الفاصل بين شقّي ذاتك المنفصمة.

كنت تجمع المتناقضات ذاتها في ما تأتيه.. فكانت لك هيئتان مختلفتان.. هيئة حين تصاحب من تعدّهم من الأخيار، من أتباع

التيّارات الإسلاميّة داخل الكلية وخلال النّشاط الدّعويّ، أو خارجها في مجالس خالك عمّار ومن امتدّت إليهم علاقاتك بفضله.. وهيئة أخرى حين تكون في محاضراتك ونشاطك الطّلابيّ وناديك الثّقافيّ. الأولى، ثوب أبيض قصير وعمامة وسواك.. والثانية جينز من الماركات العالميّة، وأقمصة مستوردة وعطور باريسيّة هي أبلغ ما يعبّر عمّا كنت فيه من ترف زائد، وشعور بالزهو وحظ النفس، حين تبدو علامات الإعجاب في عيون من تتوق إلى محادثتهنّ من الفتيات!

هل تذكر آسيا، غادة الكلية وفاتنة القلوب فيها ذلك الحين؟ كانت هجينا تونسيّا فرنسيا، حسناء بشكل لم تألفه، وأنت من يأسرك الجمال ويسبي روحك، وقد كانت معك في الفصل ذاته. وقد وجدت نفسك تنساق معها، وتنسى ذاتك، فتفتح لها قلبك، وتتقرّب إليها. وكان أن استلطفت حديثك واستعذبت صحبتك، وكثرت بينكما نظرات العيون والابتسامات. ورفرفت أجنحة الحبّ في سماء أحلامك، وأصبح الترنّم بأبيات شعر الغزل إحدى لازماتك في خلواتك.

هل تذكر يوم رآك بعض الإخوة تحادثها في ساحة الكلّيّة؟ اتّجه نحوك غاضبا وقد عزم على تأنيبك بشأن علاقتك بها. فلمّا وصل أمامكما هتف بلهجة صارمة:

- مالك، هل لي بكلمة؟

ثمّ استدارت آسيا، لترمقه بعينين واسعتين فاتنتين، فتسمّر مكانه وراح يتأتئ في تلجلج وتلعثم. فابتسمت في خبث وأنت تشاغبه:

- ما الأمر يا خالد؟ تكلّم!

تنحنح الرّجل في ارتباك وتمتم:

- سأراك لاحقا.

- طبعا.. الكلام لاحقا.

فـإذا وقفـت أمـام حسـنك صامتًـا.. فالصمـتُ في حَـرَم الجمـال جمـالُ!

ضحكت، بينما همس لك خالد وهو يبتعد:

- أيّها المحظوظ!

ثمّ هرول مبتعدا وأنت تواصل ضحكك.

استمرّ نعيمـك لشـهور، والدّنيـا لا تتسـع لسـعادتك، حـتّى كان يـوم لـه مـا بعـده.

كان صبيحـة يـوم أحـدٍ شـتويّ ماطـر، وكنـت قـد بكـرت مـع صديـق لـك إلى جامـع «صاحـب الطابـع»، حيـث بـدأت تحـضر درسـا أسـبوعيّا. ركبـت القطـار مـن محطّـة المـرسى، وقـد كانـت العربـات شـبه خاليـة في ذلـك الوقـت مـن اليـوم، والنّهـار لمّـا يتثـاءب. بعـد بضـع دقائـق، في محطـة قرطـاج، صعـدت فتاتـان، إحداهمـا تحمـل مظلّـة. تابعتهـا بـدون اهتمـام وهـي تطـوّح بهـا لتنفـض قطـرات المطـر، قبـل أن تغلقهـا. حـين طـوت المظلّـة الـتي حجبتهـا عنـك، التقـت نظراتكمـا عـلى حـين غـرّة. كانـت هـي، ملكـة الجمـال الـتي همـت بهـا حبّـا. اتسـعت عيناهـا الفاتنتـان ذهـولا، وهـي تـرى مـن شـاغل قلبهـا في أروقـة الكليـة بأناقتـه ووسـامته، وقـد تجـلّى أمـام ناظريهـا في هيئـة كأغـرب مـا تكـون.. كأنّمـا هـو أحـد أولئـك الذيـن لا تشـاهدهم قـطّ إلا في أفـلام التلفـاز الـتي تعـرض في ذكـرى المولـد النبـوي أو رأس السـنة الهجريـة، والـتي غالبـا مـا تكـون فيهـا السّـيوف والرّمـاح، والخيـل والـدروع.. و«هيـا يـا قـوم».. و«ويحـك يـا عكرمـة»!

كانـت تلـك نهايـة علاقتـك بهـا، حـين اكتشـفت الوجـه الثّـاني لشـخصيّتك المزدوجـة.

عرفـت بعـض الانضبـاط لاحقـا، وتحكّـم العقـل في اختياراتـك أكـثر،

فخطبـت زميلـة لـك حـين بلغـت الرّابعـة والعشريـن. كانـت تصغـرك بعامـين، ولـم تكـن مسـيرتها الدّراسـيّة قـد تعطّلـت مثـل مسـيرتك. ولـم تكـن باهـرة الحسـن، مثـل آسـيا، لكنّهـا جميلـة.. ذاك الجمـال الهـادئ الـذي لا يـأسر مـن النّظـرة الأولى، لكنّـه يسـتقرّ في النّفـس ويورثهـا ارتياحـا عنـد النّظـرة الثانيـة ومـا يليهـا مـن النّظـرات. وقـد راقـت لـك صفاتهـا الأخـرى الـتي تتجـاوز الجمـال الخارجـيّ، وقـد ازددت نضجـا واتّزانـا. كانـت ملتزمـة دينيّـا، ناشـطة اجتماعيّـا، ومتفوّقـة دراسـيّا. فمـاذا تطلـب بعـد؟

كنـت جـادّا والفتـاة ليسـت بلعـوب، فلـم تتأخّـر في التّقدّم لهـا. ورغم تعـثّرك الـدّراسيّ، فقـد كنـت واثقـا بـأنّ مثلـك لا يُرفـض. وقـد كانـت هناك خطبـة، ودبلـة ذهبيّـة لهـا وأخـرى فضّيّـة لـك، في حفـل عائـليّ مضيّق.

وبعد أسبوع واحد، كنت وراء القضبان.

امتـدّت المحاكمـة لشـهورٍ طويلـة، ثـمّ صـدر الحكـم بسـنوات ثلاث. خطيبتـك وأهلهـا أدركـوا أنّ مسـتقبلك قـد غـدا غائمـا ضبابيّـا. هـل يكـون لـك أن تصبـح طبيبـا يومـا مـا؟ بـل هـل بقـي لـك أيّ مسـتقبل في البـلاد وقـد مُهـر جبينـك بختـم «عـدوّ النّظـام»؟ كان التعلّـق القلـبيّ هشّـا بعـد، ولـم يكـن أحدكمـا متيّمـا بالآخـر. لعلّهـا أجـرت حسـابات كثـيرة، بالورقـة والقلـم، عـن الحظـوظ والإمكانـات والاحتمـالات.. ثـمّ رأت أنّهـا تسـتحقّ أفضـل ممّـا تهديهـا، فأرسـلت إليـك دبلتـك مـع أخيهـا، وأنـت في حبسـك.

الفصل الثالث

- هروب -

-١-

حاولت الانتحار.

لا، ليس بعد خيبتك العاطفيّة.. بل بعد خروجك الثالث من السّجن!

وهل ينتحر المؤمن؟

لعلّك بدأت تفقد إيمانك منذ ذلك الحين. لعلّ الخيبة صدّعت أركان عقيدتك. لعلّك لم تكن مؤمنا بتلك القوّة منذ البداية. ولعلّها كبوة الفارس.. لحظة ضعف عابرة تمالكت نفسك بعدها. وما السّقطات العظام إلّا نتاج لحظات ضعف عابرة كتلك. لو أنّك لقيت حتفك تلك المرّة، لانتهى كلّ شيء إلى غير رجعة.

تعلم منذ الأزل أنّ الإيمان يزيد وينقص. لكن هل كنت تعتقد قبل ذلك أنّه قد يختفي يوما؟ يتبخّر؟ هل ينضب معين الإيمان كما تجفّ منابع العيون في موسم الجفاف؟ وهل كان موسم جفافك ممّا يمكن التنبّؤ به وتوقّع عواقبه؟ تستيقظ يوما فلا تجد في قلبك إيمانا؟

كانت وحدتك بعد فترة الحبس الثالثة مفتاح الشّرور. كانت شقيقتك قد أنهت دراستها وتزوّجت وسافرت مع زوجها إلى ألمانيا، وشقيقك هو الآخر أنهى سنوات تعليمه وعاد إلى الرّياض حيث تنتظره وظيفة جاهزة هيّأتها معارف الوالد الكريم. أمّا خالك عمّار، فقد استمرّ سجنه سنوات بعدك. ولم يكن هناك من أقاربك بالعاصمة من يمكنك اللّجوء إليه. رفاق الأمس تنكّر بعضهم لبعض وانزوى كلّ في قوقعته درءًا للشّبهات وتضليلا لعيون المراقبة اليقظة. كنت ممنوعا من السّفر بعد الإفراج عنك، مقيّدا بإقامة جبريّة في مدينتك لا تبرحها. تسجّل حضورك في مركز الشّرطة صباحا ومساءً، كلّ

يـوم، بإمضـاء سـخيف عـلى دفـتر أصفـر. ورغـم الابتسـامة الـودودة الـتي يلاقيـك بهـا موظّفـو المكتـب، كيـف لا وأنـت زائرهـم اليومـيّ، فإنّـك لـم تـزد يومـا عـلى تحيّـة الإسـلام وأنـت تصلهـم وتغادرهـم مطأطـئ الـرّأس، لا تـرى عينـاك غـير الصفحـة الملعونـة الـتي تمهرهـا بإمضائـك.

هـل تراهـم افتقـدوك يـوم فقـدت الوعـي وغبـت عـن الدّنيـا سـاعات طويلـة؟ لعـلّ مشـاغل أخـرى ألهتهـم عـن ردّ الزّيـارة وتفقّـد وضعـك. لـم تصـل دوريّـة شرطـة إلى شـقّتك ذلـك الصّبـاح الـذي طالـت فيـه نومتـك إلى المسـاء. بـدا أنّ أحدهـم لـم ينتبـه إلى غيابـك. فاجـأك ذلـك الاكتشـاف. لـو أنّـك خططـت للهـرب مثـلا، لكنـت وصلـت إلى سـواحل أوروبـا أو حـدود الجزائـر الآن، دون أن تجـد دوريّـات غاضبـة تجـدّ في إثـرك. حـين ظهـرت في مركـز الشرطـة صبـاح الغـد، قـرأت علامـات الدّهشـة عـلى وجـه الموظّـف الـذي طالـع السّـجل في حـيرة مسـتفسرا عـن الغيـاب الـذي انتبـه إليـه لتـوّه. غمغمـت في شـبه اعتـذار:

- كنت مريضا.. لم أستطع مغادرة السّرير بالأمس.

يهـزّ رأسـه متفهّمـا، ثـم يوصيـك بلهجـة حـادّة ألّا تعيـد الكـرّة، حـتّى لا تواجهـك عواقـب وخيمـة.. ولعـلّ العواقـب تكـون مـن نصيبـه إن اكتشـف رئيسـه تهاونـه!

تلـك الصّدفـة فتحـت عينيـك عـلى حقيقـة الأمـر. أنـت لسـت مهمّـا. ذاتـك نفسـها لا أهميّـة لهـا بالنسبة إلى جلّاديـك. لـو أنـك قضيـت نحبـك في حفلـة تعذيـب في وقـت سـابق، لألقيـت جثّتـك في المجـاري دون تـردّد. لـو أنـك مـتّ وحيـدا في شـقتك ربّمـا لـم يكـن أحـد لينتبـه حـتّى تنفـذ رائحـة العفـن إلى الشّـقق المجـاورة. ذلـك التوقيـع المتكـرّر كان علامـة خضوعـك واستسـلامك. كان تنويمـا لا شـعوريّا لإرادتـك. سـتظلّ تسـعى صاغـرا جيئـة وذهابـا، صباحـا ومسـاءً، دون أدنى محاولـة لفـكّ قيـدك الوهمـيّ. آلاف مثلـك، يسـيّر الخـوف حياتهـم. وكان يمكـن لوضعـك أن

يستمرّ كما هو لسنوات طويلة أخرى، لولا استفاقتك المفاجئة. بعد أن فشلت محاولة الموت، فكّرت أن فرصة الحياة لا تزال ممكنة.

هاتفت والدك بعد أيّام قليلة. كان هناك قلق مترسّب من التّجارب الماضية يجعل المكالمات الهاتفيّة شبيهة بالأحاجي. الخطوط قد تكون مراقبة. إذا تناهت إليك خشخشة أو سمعت تكّة تسبق وصول صوت المُتّصَل به، فهذا يعني أنّ طرفا ثالثا يستمع إلى المحادثة. لكنّك كنت مشبعا بالتمرّد ذلك المساء. قلت في تحدّ:

- لقد فاض بي الكيل.. أريد مغادرة البلد في أقرب وقت.

حلّ الصّمت لبرهة على الجانب الآخر. تقرأ صدمة والدك الذي يفكّر حتما بأنّك جننت. لم يكن يخاف سلامتك وحدك، فالعائلة كلّها مهدّدة، حتّى في المهجر. لم يزر والدك تونس منذ سنين، ولعلّ اسمه يمثل في لوائح المطلوبين. ألم يرجع خالك عمّار إلى الوطن بعد غربة امتدّت زهاء عقد ونصف من الزّمن، لم يكن له خلالها أيّ نشاط سياسيّ، ليلقى عليه القبض في المطار فور وصوله! تهمته التورّط في تمويل «جماعة مشبوهة»، فقد استمرّ في إرسال حوالات ماليّة لعائلة صديق قديم في تونس، بعد أن ألقي بعائلها في السجّن بحكم مطوّل. لذلك لم يكن أحدكما في مأمن إن هو جاراك في حديثك اللّاعقلاني. أمام صمته، واصلت في عناد:

- أريد أن أواصل دراستي.

لم يكن من المناسب أن يناقشك على الهاتف. مجرّد الأخذ والردّ في الموضوع يؤكّد تورّطه في جريمة تهريبك المزمعة. تحزر سبب تردّده، لكنّك تعلم أنّه سيفعل شيئا حتّى لو لم يصرّح بالموافقة. يقول أخيرا في حذر:

- والدتك قلقة عليك.. تحدّث إليها قليلا.

تأخذ والدتك السمّاعة، وتتكلّم في لهوجة يخالطها الدّمع. هكذا

هـي كلّ اتّصالاتـك بهـا. سـيل مـن العاطفـة وطوفـان مـن العـبرات. ولدهـا الأصغـر، قـرّة عينهـا، بعيـد عنهـا ولا سـبيل إلى رؤيتـه. حـين أعـادت السّـماعة إلى والـدك، قـال بصوتـه الرّصـين الهـادئ:

- سأتّصل بك خلال يومين. اهتمّ بنفسك.

ذلـك الوعـد الضمـنيّ كان كافيّـا لتوقـن بأنّـه سـيفعل شـيئا بشـأن طلبـك.

جمعـت متاعـا قليـلا في حقيبـة ظهـر، ثلاثـة أثـواب ومصحفـا وسـواكا وقـارورة عطـر. ولـم تنـس إجازتـك في القـرآن الكريـم، فقـد كنـت تعدّهـا أثمـن مـن كلّ مقتنياتـك. نزعـت عنهـا إطارهـا المذهّـب، وحفظتهـا في ظـرف كرتـونيّ لتعيـد تأطيرهـا حـين تصـل إلى وجهتـك.

بعـد توقيعـك مسـاء السّـبت، كانـت سـيّارة خاصّـة داكنـة اللّـون في انتظـارك في الممـرّ الخلفـيّ لعمارتـك السّـكنيّة. لـن تعـرف أبـدا مـا لـون السـيّارة تحديـدا، فقـد انتشـلتك في الظـلام وخلّفتـك في الظـلام. وصلـت إلى المنطقـة الحدوديّـة قبـل انبـلاج الفجـر. طلـب منـك سـائقك أن تترجّـل، فـسرت خلفـه متعـثّرا في عتمـة اللّيـل. أنزلـك إلى وادٍ تـرابيّ جـافّ أشـبه بحفـرة عميقـة، وقـال: انتظـرني هنـا!

خلّفـك صاحبـك في ظلمـات ثـلاث، ظلمـة الليـل وظلمـة الحفـرة وظلمـة أفـكارك المتشـائمة. مـاذا لـو نسـيك ولـم يعـد؟ اسـتمرّ انتظـارك سـاعة أو نحوهـا، تقاذفتـك خلالهـا الظّنـون. ثـمّ لاح الفـرج مـع صـوت محـرّك قديـم يقـترب.

ظهـر صاحبـك برفقـة مهـرّب جزائـريّ في منتصـف الثلاثينيـات. كان الاتّفـاق قـد حُسـم بينهمـا، فجـرى اسـتلام الطّـرد البـشريّ في صمـت يضاهـي سـكون الخـلاء مـن حولكـم. ركبـت الصنّـدوق الخلفـيّ لشـاحنة نقـل بضائـع مكشـوفة. بـين خزّانـات الوقـود الفارغـة، اسـتقرّت بـك الجلسـة. مهرّبـو البنزيـن عـبر الحـدود التونسـيّة الجزائريّـة كانـوا قـد

انخرطوا في نشاط جديد في السّنوات الأخيرة، يشمل تهريب الآدميّين. كثيرون من المطلوبين أو الممنوعين من السّفر لا يجدون لهم مخرجا من جحيم الوطن إلّا بعبور الحدود. وهي رحلة طويلة مرهقة، وغير آمنة.

انطلقت بك الشّاحنة الجزائريّة مترنّحة عبر الطّرقات الرّيفيّة الوعرة، وكلّ شيء حالك من حولك. كان المهرّب قد أنهى عمليّات تبادل عدّة مع مهرّبين محلّيين. أفرغ حمولته من البنزين واستلم الطرد البشريّ وها هو يقفل راجعا في اتّجاه التّراب الجزائريّ.

تتقدّم الشّاحنة على مهل، مطفأة الأنوار الأماميّة، على طريق ترابيّة مدروسة. بغتة، تظهر في الأفق كشافات سيّارات حرس الحدود. كنت على أبواب العبور، ورحلتك المحفوفة بالمخاطر توشك على الانتهاء. لكنّ كلّ شيء مهدّد بالتّداعي خلال لحظات. رأسك مرجل قلق يغلي. تشعر بارتباك سائقك حين تضغط قدمه بعصبيّة على دوّاسة الوقود، لتنتفض العربة وتنفضك معها.

عبر مسافة كيلومترات عدّة، تندفع الشّاحنة المجنونة، تطاردها أبواق سيّارات الحرس التي تطوي الأرض وراءها، وزخّات رصاص حيّ وفيرة. تمرّ الرّصاصات قريبا منك، فوق رأسك، يهشّم بعضها زجاج الشّاحنة الخلفيّ ويستقرّ آخر في حاويات البنزين الخاوية. وفي لحظة ما، يفقد سائقك السّيطرة. عند منعرج ضيّق، اختلّ توازن العربة. مال ثقلها على الجانب الأيمن، ثمّ تدحرجت منقلبة رأسا على عقب. انُقذف جسدك خارج الحاجز المعدنيّ مسافة أمتار، وارتطمت بالأرضيّة التّرابيّة غير المريحة. أنت لا تزال واعيا. والظلام حالك على حاله. سيّارات حرس الحدود تقترب، تتوقّف عند العربة المنقلبة، وتسلّط كشافاتها على موقع الحادثة. تزحف بما تبقّى فيك من رمق، بطنك ملتصق بالتّراب، تحجبك عن الأضواء تلّة ترابيّة منخفضة. لا أحد يعلم بوجودك. جهودهم مركّزة على السّائق وحده. عليك أن

تبتعد. أن تبتعد إلى حيث الأسلاك الشائكة التي تفصلك عن الجهة الأخرى. ستفعل ذلك رغم الألم، وتودّع بنظرة مذنبة مهرّبك الذي استخرج من السّيّارة فاقد الوعي.

بعد ليلة عذاب مضنية، ستعثر عليك عائلة جزائريّة، تعيش في تلك البقعة المنعزلة من العالم. لم تكن تفقه سلفا معنى «أن تعيش على الحدود». لقد سافرت كثيرا، وقطعت حدودا جغرافيّة بين بلدين. تسلّم جواز سفرك لموظّف الجمارك ليمهره بختمه فتغادر بلدا وتدخل آخر. عرفت مجازا حدود اليأس والأمل، حدود العقل والجنون، وفي تلك الليّلة التي عشت فيها تفاصيل الترنّح بين حدود الحياة والموت، وعيت أخيرا كيف يكون «العيش على الحدود» بالمعنى الحرفيّ للعبارة. هناك أناس يعيشون على الحدود طيلة الوقت. ليست الحدود بالنّسبة إليهم تجربة عابرة، فهم هناك، في فضاء الـ«ما بين بين»، إلى ما شاء الله!

لا شيء مغرٍ في الحياة على الحدود. كلّ شيء شحيح، بداية بأبسط مرافق الحياة الضروريّة من ماء وغذاء وكهرباء. حتّى الأرض معظمها بور. البيوت أشبه بالأكواخ المتداعية، وكلّ شيء مقفر فيما حولها. وفي أفنية البيوت القليلة المكوّنة للقرية، تتكدّس حاويات بلاستيك تنتظر دورها للرّحيل. سكّان القرية بلا استثناء، يمتهنون التّهريب كحرفة أصيلة متوارثة عبر الأجيال.

جاد فقراء الحال بما لديهم بسخاء وإخلاص. شاركت العائلة مسكنها المتواضع لأيّام لبثت خلالها ممدّدا في إرهاق، وقد أنهكتك سقطتك وخلّفتك كتلة من الرّضوض والكدمات. حين استعدت عافيتك وتماثلت جراحك للشّفاء، خرجت تتمشّى في الأنحاء. لم يكن هناك الكثير لتراه. امتداد شاسع للقفر، وأسلاك شائكة، تظهر وراءها من حين إلى آخر دوريّة خيّالة تونسيّة تشرف على الشريط الحدوديّ ثم تقفل راجعة أدراجها. وراعٍ هائم بين التّلال الجرداء، صحبة

قطيعه الهزيل. الطريق التي يتبعها المهرّبون تتلوّى هناك، في عمق الغابة. تلمح المنطقة المشجّرة التي كان من المفترض بك أن تعبرها منذ أيّام، وتتنهّد. تتساءل، ماذا حلّ بسائقك؟ هل تراه نجا؟

حديث الرّصاص والشاحنة المنقلبة تناقله الجيران القلّة لأيّام، بمنتهى الإثارة. خرج معظمهم تلك اللّيلة حين تناهى إليهم دويّ الطّلقات. دفعهم الفضول للاقتراب والفرجة، غير عابئين بخطر الرّصاصات الطّائشة. فكتبت لك النّجاة، حين عثر عليك مسجّى غير بعيد عن الحدود. لكن لا أحد يعلم ما الذي حلّ بالسّائق المنكوب. ليس من المنطقة. لم يكن يفترض به المرور قرب هذه النقطة، فالمنفذ على الجهة الأخرى، داخل الدّغل.

اقترب منك الرّاعي بابتسامة سمحة وقد عرف قصّتك من أهل القرية -ومن لم يعرف قصّتك وأنت الغريب جليّ الغربة- جلس إلى جوارك على الأرض، وأخرج من جرابه قرص خبز من القمح وكوز لبن ماعز، ودعاك إلى تقاسم وجبته. قبلت الدّعوة دون تردّد، تناولت قطعة الخبز الجافّة وأخذت تلوك لقيماتها في تؤدة، وتحتسي جرعات اللّبن في صمت.

ترمي بصرك إلى الأفق، حيث تعانق خضرة الجبال زرقة السّماء. لكنّها سكينة ما بعدها سكينة، وخلاء ما بعده خلاء، وأمواج من الأفكار تهاجمك وقد انهارت دفاعاتك، تماما كما كانت تتمكّن منك فتصرعك على ضفاف بحر المرسى. تأخذ صورا من شريط حياتك في التدفّق من بوابّة الذاكرة، فتدمع عيناك جزعا لما مضى من عذاب، ولما سيأتي من مجهول.

هناك، في تلك الخلوة مع نفسك، في منطقة الحدود، بدأت الأسئلة الوجوديّة تتسلّل مرّة أخرى إلى روحك المنهكة. لقد اكتويت بلهيب المحنة لسنوات، غادرت موطنك شريدا، ودفعت ثمن إخلاصك

لعقيدتك، واصطفافك في خندق الحقّ، في مواجهة الباطل. وها أنت تقف على عتبة اللّاشيء، ترمق في حسرة مشاهد الفقر المدقع التي تملأ ناظريك. هؤلاء الأحياء الأموات على الحدود، على هامش الوطن والبشريّة، نسيتهم الحياة أو كادت، فما جادت عليهم من معانيها بأكثر من فتات.. بينما يعيش الظلمة المتجبّرون ذوو النّفوذ من خونة الدّين والوطن في ترف متبطرين. تتأمّل الأكواخ المتداعية وأسمال الأطفال المهلهلة، أين هي من القصور والجنّات التي يرفل فيها أصحاب السلطان؟ لا ذنب لهم إلّا أنّهم ولدوا على الحدود، فكان قدرهم الشّقاء!

تتصاعد المرارة إلى حلقك، وتتساءل في حرقة، أين الله من هؤلاء؟ وأين الله من أولئك؟ أوليس بيده أن ينصف هؤلاء، ويفتك بأولئك؟ فلماذا إذن؟

تضيق بك الدّنيا بما رحبت، ويشتدّ بك اليأس في ساعات الهجير، تحت لهيب الشّمس الحارقة يهيأ إليك من لفحاتها أنّ أبواب جهنّم قد فتحت على مصاريعها، فتفتك بك الهلاوس. يغلبك سوء الظنّ واليأس من رحمة الله، وتنتابك الرّيبة. هل كان جهادك مجرّد وهم؟ لماذا لم ينصركم الله وأنتم أولياؤه؟ لماذا تهجّرون من دياركم ووطنكم طوعا وقسرا؟ لماذا يترككم الله لآلة البطش تسحقكم ولا يحرّك ساكنا؟

يتقلّب مزاجك بين الصّباح والمساء، ويعتريك الشكّ.. هل أنّ مثلك كمثل الصّحابة الذين تكالبت عليهم الأحزاب من كلّ صوب (إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)؟ أم أنّك ممّن قالوا (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)؟

هل كان وعد الله لكم غرورا؟!

-٢-

خـلال أسـبوع، كنـت قـد اتّفقـت مـع مهـرّب آخـر. المسـيرة مـن القريـة إلى المدينـة أكـثر أمنـا. لـم تطـاردك الرّصاصـات هـذه المـرّة. وأنـت تبتعـد عـن الحـدود وتتوغّـل في الـتّراب الجزائـريّ، سـيلازمك إحسـاس غريـب بالحرقـة. تعلـم أنّـك لـن ترجـع في الاتّجـاه المعاكـس مـرّة أخـرى. أنـت مطـرود مـن بلـدك، محـروم مـن العـودة إليـه. أنـت تفـرّ مـن جحيـم السـجّن والتعذيـب والإقامـة الجبريّـة والحرمـان مـن حقّـك في مواصلـة دراسـتك الجامعيّـة.. لكنّـك مـترع بالمـرارة، متخـم بالحنـين.

كان تـركك للوطـن، وخروجـك منـه خائفـا تترقـب، طعنـة في قلبـك. ورغـم المـرارة الـتي تجدهـا في حلقـك، تهـوّن عـلى نفسـك.. أليسـت لـك أسـوة في رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) وصحبـه الكـرام؟ (الَّذِيـنَ أُخْرِجُـوا مِـن دِيَارِهِـم بِغَـيْرِ حَـقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُـوا رَبُّنَـا الله).

فمـا بالـك جزعـا كسـير الفـؤاد هكـذا؟ لقـد خرجـت ونفـذ سـهم القضـاء، فانـس أو تنـاسَ مـا اسـتطعت، لأن ليـالي الحرمـان مـن دفء الأهـل والأحبـاب، ومـن حلـو الذكريـات سـتطول، ومـا تلـك إلا البدايـة!

أوصلـك المهـرّب إلى مـنزل متواضـع في مركـز ولايـة «سـوق أهـراس» الجزائريّـة، حيـث كان عـدد آخـر مـن الحرّاقـة مجتمعـين. كان الإخـوة الجزائريّـون يجتهـدون لتوفـير الحلـول الممكنـة لإخوانهـم التّونسـيّين الفارّيـن مـن وطنهـم. تسـاررت مـع رفـاق رحلتـك ممـن قادتهـم خطواتهـم إلى ذات المـنزل. بعضهـم ينـوي البحـث عـن عمـل، والبعـض الآخـر سـيكتفي بالاختفـاء لفـترة ريثمـا يصلـه الخـبر اليقـين: هـل تجـدّ السّـلطات التونسـية في إثـره؟

اتّصلت بوالدك. كان من المفترض بك أن تتصل بالوسيط منذ أسبوع، واختفاؤك الغامض ملأه جزعا. حين وصله صوتك بعد أسبوع من التقلب على جمر القلق، انتحب على الهاتف دون مواربة. أنت الآن بأمان. استعدّ للخطوة التّالية. استلمت اسم الوسيط وعنوانه، واتّصلت به على الفور. كان كهلا جزائريّا سبقت له زيارة تونس سياحة، فتعرّف إلى والدك في ظروف لا تذكرها، لكنّ العلاقة بينهما وإن كانت سطحيّة فقد استمرّت ودّيّة، وكان بينهما من الارتياح والثقة ما جرّأ والدك على طلب هذه الخدمة من الرّجل.

وصلت إلى العنوان، فسألت عن صاحب الاسم حتّى دلّوك عليه. استقبلك الرّجل بترحاب وحفاوة لا نظير لهما كأنّك صديق حميم، وأبدى تفهّما لوضعك:

- ستكون ضيفا علينا ريثما ننظر في سبل مساعدتك.

لبثت عنده بضعة أيّام، بينما تواصل مضيّفك مع إخوة آخرين، ثمّ عاد إليك بمقترحه:

- بوسعي تدبير عمل مؤقت لك في مصنع قريب لي، حتّى تتمكّن من إعالة نفسك في الفترة المقبلة.. في انتظار حلّ أفضل.

في الأثناء اتّصل بك بعض الإخوة من الحرّاقة الذين لقيتهم في دار الضّيافة. كانوا قد انتقلوا في غيابك إلى منزل عمّ أحدهم، وهو مدرّس في مدرسة إعداديّة في مدينة جزائريّة قريبة. كانت شقّته خالية آنذاك لعودته إلى تونس أثناء العطلة الصيفيّة. فكّرت في الفرص المتاحة، ثمّ اتّخذت قرارك. غادرت منزل مضيّفك شاكرا، لكنّك لم تقبل بعرضه رغم ما تكبّده من عناء لتدبيره. شعرت أنّك إن انفصلت عن الحرّاقة وقبلت بالاستقرار والعمل، فقد تضيّع فرصا مقبلة. كنت تجهل أنّ تلك الأيّام في ضيافته كانت آخر عهدك بالرّاحة

والرّفاهية قبل سلسلة طويلة من الابتلاءات. لكنّك كنت تدرك حتما بأنّك منذ تلك اللحظة قد تمرّدت على الحماية الأبويّة وشرعت في تدبّر أمرك بنفسك.

التحقت برفاقك إذن، وأنت لا تملك تقدير فرص فوزك من خسارتك. في الأيّام التّالية، عاد اثنان منهم أدراجهما إلى تونس بعد أن وصلتهما أخبار مطمئنة بأنّ الملاحقات لم تشملهما. أمضيت أسابيع أخرى من الترقّب، حتّى اقترب موعد العودة المدرسيّة، وصار عليكم إخلاء شقّة العمّ الذي أوشك على الرجوع.

انتقلت من جديد، إلى مبيت جامعيّ في الجزائر العاصمة هذه المرّة. كنت متمسّكا بهويّتك كطالب وتتصيّد فرص الالتحاق بالجامعات، ورغم حيرتك بشأن خططك المستقبليّة فقد انتابك شعور بأنّ الفرص ستكون أفضل في العاصمة.

في المبيت الجامعيّ، تعرّفت إلى سامر، أحد شباب التوجّه الإسلاميّ من الضفّة الغربيّة. ارتاح أحدكما إلى الآخر وسارّه بأمره. وكانت بينكما محادثات طويلة باعتبار الاستئناس والصحبة. كان فيلسوفا، ولوعا بالجمال مثلك. لذلك لم يكن من الغريب أن تستمرّ مسامراتكما بالسّاعات، حتّى خيوط الفجر الأولى في متعة وانسجام. وقد كانت تلك الأوقات تسلّيك وتنسيك ما يشقيك من تفكير في مستقبلك وقادم أيّامك. كنت كالنّعامة، تدفن رأسك في رمال النّقاشات الفكريّة، وتنتظر فرجا قد يأتي قريبا.. وقد لا يفعل أبدا.

بعد أسابيع من مراوحتك مكانك دون أن يستجدّ شيء بخصوص ملفّك في الجامعة الجزائريّة، اقترح عليك سامر الانتقال إلى بيروت. كان عائدا إلى الضفة ويمرّ بالعاصمة اللّبنانية، ويمكنه تيسير قبولك في جامعة بيروت. لكنّك تردّدت. لبنان على مسافة شاسعة من الوطن،

لكنّها أقرب إلى المملكة العربيّة السّعودية، حيث العائلة. شكرت لطفه وطلبت مهلة للتفكير. كان عليك استيفاء جميع السبل الممكنة قبل اتّخاذ قرار التّرحال البعيد.

بإيعاز من زميل لك في السّكن، حاولت أن تجرّب حلّا آخر. غادرت إلى فاس عن طريق الدّار البيضاء لتحاول الالتحاق بالجامعة في المغرب الشقيق. غامرت بشكل لا يصدّق وأنت تستظهر على الحدود بجواز سفرك التّونسيّ ممهورا بختم مزيّف! على ممحاة بيضاء، رسمت بعناية ختم الحدود الجزائريّ بقلم حبر أزرق. لقد كنت ماهرا والحقّ يقال. لكنّ المجازفة فاقت كلّ مستويات الجنون السّابقة. كان يمكن لأمرك أن ينتهي عند تلك المغامرة، فتساق إلى السّجون من جديد. لكنّ لطف الله كان ملازما لك، لعلّها دمعة وجد صادقة ذرفتها ذات ليلة في قيامك؟ فعبرت جيئة وذهابا بسلام بعد فشل مسعاك.

أمضيت يومين يتيمين في فاس، زيارة خاطفة لالتماس فرصة ممكنة. قصدت الجامعة، حيث التقيت عميد كليّة الطبّ. كان لقاءً غريبا وملتبسا. وقفت أمام المكتب تصارع الارتباك والأمل الزّائف الذي تتشبّث بتلابيبه حتّى آخر رمق. أولم تصل إلى هذه الغرفة بطريقة ما؟ لعلّه الفرج إذن. عاين الرّجل شكلك باهتمام، ثمّ ألقى نظرة عابرة على ملفّك. رفع رأسه بابتسامة غريبة، ثمّ قال:

- لا بأس، يمكنك الالتحاق بالكليّة...

هل أشرقت الأنوار في ثنايا صدرك وصدحت البلابل في رأسك وهو ينطق بالكلمات التي تنهي معاناتك؟ لكنّ للحديث بقيّة.. وأيّ بقيّة! سمعت الرّجل يضيف، لتتلاشى علامات الانشراح التي غمرت ملامحك لبرهة:

- إذا صادقت القنصليّة التّونسيّة على ملفّك.

تلك الـ «إذا» الشّرطيّة كانت القاصمة. مصادقة القنصليّة كانت تعني ببساطة تسليم نفسك إلى جلّاديك. كان شرطا تعجيزيّا، وقد رمى الرّجل فأحسن التّسديد. فرجعت على عقبيك بخفي حنين.

دعني أصارحك بشيء لا يخفى عليك. لقد بليت بالحبّ والعاطفة الجارفة منذ الأزل.. لكن هل تعلم من كانت محبوبتك الأثيرة، تلك السّاكنة في السّويداء؟

إنّها نفسك!

أنت لم تحبّ أحدا كما أحببت نفسك، لا سارة ولا آسيا ولا غيرهما! ولعلّك عشقتهن لأنّك رضيت عن صورتك في عيونهن! كنت تتيه إعجابا بانعكاس قوامك في المرآة، وتستزيد من عبارات الإعجاب وحتّى الغيرة التي تنهال عليك أينما حللت. كنت تقتات على نظرات الانبهار التي تحيط بك كلّما وقفت في ساحة الكليّة تخطب، فتنمو الأنا داخلك وتتغوّل. كنت مغرورا نرجسيّا بلا مبالغة!

لكن ذاتك المستعلية تهبّ في المقابل تجادل عن نفسها: أليس لمثلك حق في هذه النرجسية؟ في زمن التردّي والهزيمة.. وقد عزّ فيه نظيرك! لسان حالك ينطق بقول الشاعر:

وَمَا الدّهْرُ إلّا مِنْ رُواةِ قَصائِدي إذا قُلتُ شِعرا أصْبَحَ الدّهرُ مُنشِدَا

لكن تلك التّجربة المريرة كلّها.. من السّجن إلى الهجرة، كانت تحطّم أناك وتسحقها. لم تعد تطيق صورتك الهزيلة في المرآة. سوء التّغذية خلّف جسدك كومة من العظام، بعد أن كان مثالا للكمال! أهملت وجباتك ولم يعد يدخل جوفك سوى ما يسدّ الرّمق. لقد حاولت التخلّص من حياتك واستعجلت المرور إلى العالم الآخر، وهل كنت لتفعل لو أنّك لم تصل إلى مرحلة متقدّمة من ازدراء

ذاتـك؟

وأنـت تواجـه الرّفـض والنّبـذ مـرّة إثـر أخـرى، كان تقديـرك لنفسـك يتضـاءل، واعـتزازك بذاتـك ينكمـش ويضمحـل. عـدت مـن رحلتـك تلـك وقـد ازداد داخلـك إظلاما واسـتحال قلبـك قطعـة مـن السّـواد.

عـاد صاحبـك سـامر مـن الضّفـة، وقـد تدبّـر لـك كمـا وعـد وثيقـة سـفر فلسـطينية!

عودتـه أنعشـتك. ووثيقـة السّـفر أوقـدت حماسـك، لا لوظيفتهـا في حـلّ مشـكلاتك، بـل لرمزيّتهـا. مـا زلـت تتلقـى الحـبّ رغـم كلّ شيء، وهنـاك مـن يهتـمّ لأمـرك! رفضـت لفتتـه الكريمـة شـاكرا، لكنّـك نفضـت عنـك غبـار اليـأس، وقـرّرت محاولـة شيء مـا. في الحقيقـة، كان اسـتخدام تلـك الوثيقـة مخاطـرة بالغـة. كان مـن الممكـن كشـف انتحالـك ببسـاطة، فأنـت لا تتقـن بـأيّ شـكل اللهجـة الفلسـطينية. لكـنّ اللهجـة الجزائريّـة، ذاك شـأن آخـر.

بدأت الحكاية بملاحظة عابرة من أحد الإخوة:

- هـل تـدري أنّ ياسـين يشـبهك كثـيرا؟ حـين رأيتـه بالأمـس في مدخـل المبيـت، حسـبته أنـت!

كان شـبها طفيفـا لا يصـل إلى حـدّ التّطابـق، لكنّـه قـد يخـدع عينـا غـير مدقّقـة. تبـدوان مثـل ابـني عـمّ، أو قريبـين بينهمـا رابطـة دم، لا أكـثر. سرعـان مـا نمـت الفكـرة في عقـل سـامر وأورقـت:

- إن كنـت ترفـض المخاطـرة باسـتعمال الوثيقـة الفلسـطينية، فالأمـر أيـسر بجـواز سـفر جزائـريّ!

أقنعـك. وبحـرج شـديد، صارحـت الشـبيه بطلبـك. قلـت في حـرج بعـد مقدّمـات طويلـة شرحـت فيهـا حساسـيّة وضعـك:

- مـاذا لـو طلبـت تأشـيرة السّـفر إلى لبنـان باسـمك، ثـمّ بلّغـت بعـد رحيـلي عـن ضيـاع جـواز سـفرك؟

كانت خطّة متهوّرة، لكنّ الأخ ياسين وافق!

وهكـذا أصبحـت «ياسـين عبـد الهـادي». في غضـون أسـبوعين، حصلـت عـلى جـواز سـفر وتأشـيرة دخـول إلى لبنـان، وأصبـح بمقـدورك المغـادرة مـتى شئت. أعـددت حقيبـة ظهـر صغـيرة، حـوت مقتنياتـك القليلـة منـذ وصولـك إلى الجزائـر. ودّعـت سـامر، رفيـق الـدّرب الـذي تقاطعـت طريقـه مـع طريقـك لشـهور يسـيرة، وانطلقـت.

في المطـار، سـجّلت في الرّحلـة ثـمّ قصـدت مكتـب مراقبـة الحـدود. مـررت بسـلام واسـتقررت في قاعـة المغـادرة تنتظـر الطائـرة مـع بـاقي المسـافرين. فجـأة، دخـل رجـل في بدايـة الكهولـة، يرتـدي معطفـا طويلا، إلى فضـاء الانتظـار ونـادى باسـمك المنتحـل «ياسـين عبـد الهـادي». ارتجفـت. فكّـرت للحظـة بالتّـواري عـن الأنظـار، التّـلاشي، وإنـكار علاقتـك بالاسـم وصاحبـه. لكنّـك وقـد عـبرت الحـدود، لـم يعـد يفصلـك عـن بغيتـك إلّا بوّابـة الصّعـود إلى الطّائـرة.. فكيـف تعـود أدراجـك وقـد غـدوت قـاب قوسـين مـن الهجـرة؟ تماسـكت، وأجبـت المنـادي رافعـا ذراعـك.

- تفضل.

ترتعش أنفاسك وأنت تترقّب حكما بإجهاض خطّة هربك.

- لقد نسيت ملء هذه.

تمتـدّ كـفّ الرّجـل إليـك ببطاقـة الخـروج الـتي أهملـت تعبئـة عـدد مـن حقولهـا مـن بـاب الحـذر والتّمويـه.

- آه، أنا آسف.

تنكـبّ عـلى الورقـة وتـشرع في مـلء الفضـاءات الفارغـة مسـتنفرا خيالـك الواسـع.

تمّـت المعجـزة وركبـت الطّائـرة. ولـم يقـترب منـك أحـد مجـدّدا حـتّى أقلعت.

يتكـرّر مشـهد الرّعـب عنـد شـبّاك مراقبـة الجـوازات في بـيروت. ترمـق

الموظّف الشّاب بابتسامة مهتزّة، بينما تتنقّل عيناه الفاحصتان بين ملامحك وصورة الجواز التي لم يكن من العسير كشف الفروقات بينك وبينها. يلقي عليك بعض الأسئلة. أنت تعرف كلّ ما تحتاج معرفته عن صاحب الجواز، ويمكنك تقديم مبرّر مقنع بشأن سفرتك. يهزّ رأسه وهو يملأ استمارة الدّخول، ثمّ يطلب توقيعك أسفلها. توقّع لاإراديّا، ثمّ تنتبه بغتة. لم يكن ذلك إمضاء صاحب الجواز، بل إمضاءك أنت يا مالك! وشتّان بين الإمضاءين! يطلب منك الموظّف مرافقته، فتنصاع وأنت تكاد تميّز شبح ابتسامة نصر مزهوّة على شفتيه. لقد كشف أمرك.

في المكتب الدّاخليّ، كان موظّفا أمن في انتظارك. طلبا منك الجلوس، وطرحا أسئلة أخرى.

- لماذا جئت إلى لبنان؟

- سياحة!

فتحا الحقيبة التي تحوي أغراضك القليلة، فوجدا وثائق دراستك.

- إنّها تخصّ صديقا.. يريد التّسجيل في جامعة دمشق.

سلّماك جواز السّفر وسمحا لك بالمغادرة. لم تصدّق أنّه قد سمح لك بالخروج من الشّرك الذي وقعت فيه بغباء بتلك البساطة. فكّرت حينها بأنّك لا تعتبر صيدا ذا بال بالنّسبة إليهما. وربّما يتسلّيان بمناكفتك ثمّ يطلقان سراحك في انتظار صيد أوفر قيمة.

خرجت من المطار، واستقللت سيّارة أجرة باتّجاه فندقك. وأنت تغادر السيّارة وتمشي نحو مدخل البناية، انتبهت إلى شابّ مفتول العضلات ينزل من سيّارة سوداء توقّفت عند المنعطف. كان يتجاوزك طولا، رغم سنتيمتراتك المائة والخمسة والثمانين، وبدا مثل جدار فولاذي متحرّك. راودك إحساس متشائم بأنه كان وراءك طيلة الرّحلة من المطار، واقتفى أثرك إلى داخل الفندق. تقاذفتك الظّنون، وأنت تنهي إجراءات التّسجيل في بهو الفندق، بينما يجلس حارسك بهدوء

في قاعة الانتظار. وحالما توجّهت إلى المصعد، تحرّك على أثرك فورا.

لم يطل ترقّبك للمواجهة كثيرا. ما إن التقت دفّتا المصعد لتحبس كليكما في المساحة الضّيقة، حتّى ضغط مرافقك على زرّ الإيقاف، ليظل المصعد معلّقا بين طابقين، بينما ارتفعت قبضة الرّجل باتّجاه صدرك. باغتتك الحركة رغم توقّعك لشيء ما، لكن هذا؟ لم تدرك ما الذي يحصل في البداية، ولم تملك أن تدافع عن نفسك وأنت الضليع في فنون الرّياضات القتالية. كان الموقف خارج توقّعاتك. ثبّتك مهاجمك على الجدار بذراعه الصّلبة، ثمّ شرعت كفّه الأخرى تفتّشك تفتيشا جسديّا حميما. ما لم تجرؤ قوات الأمن على اقترافه في فضاء المطار، تولّى الرّجل تنفيذه بين جدران المصعد. لقد أثرت شكوك ضباط الأمن في المطار في نهاية الأمر. ربّما حسبوك مهرّبا لبعض الممنوعات.

بعد دقائق طويلة من الاستسلام القسريّ، أفلتك رجل الأمن. فُتح باب المصعد، فجررت نفسك خارجه، دون أن تتبادل كلمة واحدة مع الرّجل. مضيت صامتا إلى غرفتك، مبتلعا المهانة والذلّ. حين بلغت الغرفة، توجّهت مباشرة إلى الحمّام وأنت تلهث. فتحت الحقيبة، أخرجت دفترك وشرعت تمزّق كل الأوراق التي تحمل عناوين الإخوة الجزائريّين الذين عرضوا مساعدتك وأرقام الاتّصال بهم. رميتها كلها في المرحاض وأغرقتها دون تردّد. ثمّ استلقيت على السّرير طلبا للرّاحة.. ونمت بعمق حتّى الفجر.

خرجت بعد الصّلاة لتتمشى في محيط الفندق. كانت الشّمس قد أشرقت، وأخذت تنير طرقات المدينة الخاملة. بعد مغامرة الأمس، كان من المنطقيّ أن يلازمك الحذر. أثناء سيرك، كنت تتوقّف بين الفينة والأخرى أمام إحدى الواجهات الزّجاجيّة، تتظاهر بالفرجة، بينما يمتدّ بصرك إلى المشهد المنعكس على الزّجاج، تختلس النظر إلى ما وراءك، تتثبّت إن كنت مراقبا. لكنّك لم تكن.

كانـت السّـاعة قـد شـارفت عـلى الثّامنـة صباحـا حـين أوقفـت سـيّارة أجـرة. أعطيـت السّـائق العنـوان. إلى مخيّـم صبرا. ثـمّ سرح ذهنـك في ملكـوت الله، تتجاذبـه هواجـس الهجـرة وهـلاوس المراقبـة. لـم تعـرف مـن بـيروت أكـثر ممّـا رأيتـه في رحلـة السيّارة القصـيرة تلـك، ثـمّ التهمتـك المخيّمـات المكتظّـة الخانقـة. سـتحتفظ في ذاكرتـك بوجـه قاتـم معتـم، هـو لـون تجربتـك، لمدينـة ملوّنـة نابضـة بالحيـاة.

انتهـت الرّحلـة عنـد مدخـل المسـجد، حيـث دكّان يبيـع الدّجـاج. تعرّفـت إلى الموقـع الـذي وصفـه سـامر. دخلـت الـدّكان، ولبثـت سـاكنا. كانـت بعـض النسـوة داخـل المحـلّ. انتظـرت مغادرتهـنّ قبـل أن تتقـدّم إلى البائـع وتسـأل عـن الشّـيخ «يحـيى».

- سيأتي بعد قليل.. تفضّل واجلس.

عـلى كـرسيّ خشـبيّ قديـم، جلسـت نحـو ثلـث السـاعة، تتابـع عينـاك في اهتمـام كلّ زبـون يدخـل المحـلّ ثـمّ يغـادره محمّـلا بقطـع الدّجـاج، دون أن يعـيرك انتباهـه. ثـمّ دخـل شـابّ في حـدود الخامسـة والثلاثـين، قصـير قمحـيّ البـشرة بلحيـة كثّـة، يلبـس زيّـا خفيفـا وعمليّـا ويضـع غطـاء الـرّأس الـرّوسيّ. ألقـى عليـك نظـرة واحـدة، ثـمّ اقـترب مبتسـما وحيّـاك باللّهجـة التّونسـيّة:

- عسّلامة يا راجل!

لـو أنّـك لـم تكـن متيقّنـا بأنّـك في بـيروت، لحسـبت نفسـك قـد انتقلـت فجـأة إلى تونـس. وقفـت في دهشـة، لتصافـح الرّجـل الـذي كان يتوقّـع مجيئـك. الشـيخ يحـيى. كان غزّاويـا فتحاويّـا ذا انتمـاء إسـلاميّ،

وصاحب نفوذ في المخيّم. درس الشريعة في تونس وتعلّم اللّهجة التّونسيّة. كانت لديه مهارة تقمّص شخصيّات متعدّدة والتمكّن من مختلف اللّهجات العربيّة بسهولة ويسر، وهي ملكة شائعة لدى الفلسطينيّين بشكل عام ستلحظها مع الوقت، نظرا لطول تهجيرهم وتفرّقهم في أصقاع الأرض.

أخذك إلى منزله ودعاك إلى وجبة غداء شعبيّة مشبعة، وقضيت الليلة عنده في انتظار ترتيب مكان إقامة جديد. سرعان ما توفّر المسكن، فقد جاءك الشيخ في الغد برفقة شابّ من معارفه:

- حسن لديه غرفة شاغرة فوق منزل أهله ذات مدخل مشترك مع العائلة. ستقيم هناك حتّى تسوّي وضعيّتك وتلتحق بجامعة بيروت.

لكنّ مساعيك باءت بالفشل. كان عليك تحقيق المعادلة المطلوبة من قبل وزارة المعارف اللّبنانيّة. لكنّ ردّ الوزارة جاء بعد طول انتظار برفض ملفك! كان رفضا غامضا وغير مبرّر، إلّا أنّ دخولك البلاد بأوراق هويّة مزوّرة كان يقفز أمامك كمبرّر قويّ وكافٍ! رغم أنّ طلبك يحمل اسمك الحقيقيّ، مالك الشريف، ورغم الشهادة وبطاقات النتائج لسنواتك الماضية في كليّة الطبّ! وإن لم يكن قد وقع الرّبط بوسيلة ما بينك وبين ياسين عبد الهادي، فهناك مبرّر قويّ آخر.. أن تكون الوزارة قد اتّصلت بالقنصلية التونسية وعرفت بحقيقة فرارك وأنّك مطلوب في بلادك. وهذا يعني أنّ بقاءك في المخيّم لم يعد آمنا.

كنت تتهيّأ للسّفر إلى دمشق برّا، حين وصل خبر للشّيخ يحيى يقتضي الاستنفار العامّ. كان ذلك يوم ١٣ أبريل ١٩٩٦. كانت المناوشات بين إسرائيل وحزب الله قد اندلعت منذ أيّام وتبادل الفريقان بضعة صواريخ في المناطق الجنوبيّة. وبالأمس، اقتحمت طائرات إسرائيلية المجال الجويّ السّوريّ وقصفت موقعا عسكريّا. ستنتشر الأخبار

سريعا ذلك اليوم بمحاصرة إسرائيل لموانئ بيروت وصيدا وصور. كانت الحرب قد أعلنت في المنطقة، وأغلق المطار عشيّتها. لم يكن بيدك إلّا العودة أدراجك.

التحقت بمجموعة الشيخ يحيى في مخيم صبرا وشاتيلا، فالبلاد في حالة حرب ولا بدّ من تنظيم المقاومة. كل من بالمخيّم يتذكّر حرب لبنان سنة ١٩٨٢ واحتلال الجيش الإسرائيلي لبيروت، لذلك فقد كانت حالة التأهّب في أقصى مستوياتها. لكن لا أحد من شباب المجموعة لديه خبرة في القتال أو دراية بالشّؤون العسكريّة والحربيّة، باستثناء الشيخ يحيى. فكان الخيار إيجاد نقطة استراتيجيّة للمراقبة وتنظيم نوبات حراسة.

وقع الاختيار على عمارة في مخيّم صبرا. كنت في الحراسة مع بعض الإخوة تلك الليلة. حفرتم خندقا قليل العمق في تراب الباحة الأماميّة يمرّ تحت سور العمارة ويسمح بالمراقبة من موقع متوارٍ عن الأعين. كنتم تسمعون أزيز الطائرات الإسرائيلية وهي تحوم حول المنطقة، وتقوم بدوران لولبيّ استعراضيّ.

لأول مرة تواجه الموت عن قرب.

في الحرب، هناك مفردات أخرى يتحدث بها العقل قبل اللسان. فإنّ للحرب لغتها. حين تحمل السلاح لتقتل، وتعلم أن عدوك بيده أيضا السلاح ليقتل.. تتيقن حينئذ أنّ الموت يحوم فوق رأسك، وأنه في كل مُنعطف حولك، وتتضح في ذهنك الصورة.

يا لهذه الحياة.. ننغمس فيها بكلّ ذواتنا وتجرفنا مشاغلها وأحداثها، وكأنّنا خالدون فيها! لا ندرك حقيقة سخافتها إلا حين نقترب كثيرا من الموت، فنصبح قاب قوسين أو أدنى.. نوقن بأنّ جزعنا على تفاصيلها الصغيرة حماقة. لمَ الجزع ما دمنا سنفارق كل

شيء بالمـوت؟

أيّتهـا الدّنيـا.. غـرّي غـيري! فلقـد عرفتـك وعرفـت قـدرك، فـصرت هيّنـة عـليّ!

شـقت الفضـاء مقاتلـة إسرائيليـة نفاثـة عـلى ارتفـاع منخفـض جـدا. كاد قلبـك ينخلـع مـن بـين أضلعـك لصـوت محرّكهـا الفتّـاك! هـل سيقصفون مواقعكـم الآن؟ هـل لديهـم إحداثياتهـا؟ تسـارعت أنفاسـك، وتعـرّق جبينـك، ورحـت تتخيـل كل لحظـة أن قذيفـة سـتهبط عـلى خندقـك فتدكـه وتمزقكـم أشـلاء.

تمنيـت فقـط لحظتهـا لـو أنـك تحتضـن أمـك للمـرة الأخـيرة وتقبـل يديهـا.. وأن تقبـل رأس أبيـك. مـرت أكـثر مـن مقاتلـة في غـارة أخـرى. اهـتزت العمـارة الـتي تجـاور الخنـدق، حـتى شـعرتم أن حوائطهـا سـتنهار عـلى رؤوسـكم، ليـس مـن قصـف حـدث، بـل مـن عنـف أزيـز المحـركات النفاثـة.

اضطـرب قلبـك مـرة أخـرى، ورحـت ترتجـز بيتـين، قفـزا إلى خاطـرك دون غيرهمـا -ومـا أكـثر مـا تحفـظ مـن الشّـعر- لـم تعلـم تأثيرهمـا عـلى نفسـك سـوى تلـك اللحظـة:

أذلُ الحـياة وعزّ الممَات   وكــلًّا أراه طــعاما وبــيلا

فإن كان لا بد من واحد   فسيروا إلى الموت سيرا جميلا

تبادلت مع أحد رفاقك نظرات قلقة، ثمّ اقترحت في ضيق:

- يجب أن ننسحب ونعلم الإخوة!

أومـأ موافقـا، فانسـللتما خـارج الحفـرة وركضتمـا نحـو المسـكن الآمن. بعـد تشـاور مـع أفـراد المجموعـة، كان القـرار بـضرورة الانسـحاب ضمانـا للسّلامة.

في تلـك الأيّـام، كنـت قـد تدرّبـت بشـكل مسـتعجل عـلى اسـتعمال

السّلاح، وكيفية تركيبه وتفكيكه. وأثناء عمليّة الانسحاب، كنت تحمل بندقيّة آليّة. كنتم مضطرين إمعانا في الحذر إلى سلوك طريق مواربة، تقتضي تسلّق سور المبنى والقفز إلى الجهة الأخرى. كانت عمليّة شاقّة بذاتها، فما بالك إذا أضفت السّلاح على كتفك. تقدّمت ببطء ترفع قدما إثر الأخرى حتّى صرت أعلى الحائط، تنظر إلى الارتفاع الشّاهق الذي ينبغي اجتيازه هبوطا وتتنهّد. تلك مهمّة يسيرة مقارنة بما انقضى. تحكم قبضتك على سلاحك حتّى لا يسقط أثناء الرّحلة وتهمّ بالانطلاق. في تلك اللّحظة، انطلقت زخّة من الرّصاص بصوت قويّ يصمّ الآذان. قفزت على الفور، أو بالأحرى اندفعت دون تفكير لتحطّ كومة واحدة. لقد كان الصوت قريبا. قريبا جدّا. كأنّه من سلاحك! تتفقّد صندوق الذخيرة، بينما يعمّ الهرج من حولك. سبع رصاصات. ذلك هو العدد النّاقص! في حركة لاإراديّة انفكّ صمّام الأمان وانطلقت رصاصاتك الطّائشة. لكنّها لحسن الحظ لم تسبّب سوءا غير الهلع. فكّرت حينها أنّك لن تكون رجل ميدان ولن تحمل سلاحا ما دمت مخيّرا. كنت قادرا على التعرّف على الأسلحة ومناقشة مزايا كلّ منها، لكنّك بعيد عن السّيطرة عليها!

في وقت ما من تلك اللّيلة، تناهت إلى سمعك أصوات انفجارات متتالية. هاجمت الطّائرات محطتي طاقة في بيروت، وانطفأت أنوار المدينة. تفرّقت المجموعة بعد ذلك. التحقت بفرقة دفاع مدنيّ قبلت إيواءك. كنت في منطقة هادئة بعيدة عن خطّ النّار. لم تحتج إلى حمل السّلاح مرّة أخرى، ولم يكن وجودك يشكّل مساعدة فعليّة. كانت الفرقة توفّر لك الإقامة لا أكثر.

بعد أسبوعين، وقّع الطرفان اللبناني والإسرائيلي اتّفاقية وقف إطلاق النّار.

كانت تجربة عملية ثرية لمثلك. لطالما داعب خيالك مصطلح

«الجهاد»، مثل الآلاف من أبناء الحركة الإسلامية. كان لجرس حروف الكلمة وقع سحريّ يحلق بك إلى آفاق علوية، ويشدك إلى مجد ماض تليد.. ولم يكن ينقصك -بعد تجربة السّجن- سوى خوض غمار حرب، وحمل شرف هذا المسمى «مجاهد في سبيل الله»، ليكتمل سجلّك الشّرفيّ!

ها أنت قد حملت السلاح، ورابطت على ثغر، وقاتلت -ولو نظريا دون اشتباك- أعداء الأمة من الغاصبين! صحيح أنك لم تواجه خطرا محدقا، ولم تشتبك بشكل مباشر، ولم تقتل، أو تلقَ جراحا. لكنّك وقفت ثابتا، وطائرات العدوّ تحلّق فوق رأسك! وقد كانت غزوة! وقد كان حلما وأضحى حقيقة!

كنتم تتواصون في مرحلة الفتوة، في الجامعة، وقبلها بفضل الرباط في الجهاد: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها).

فلتحمد الله.. أن أقرّ عينك، بنوال شرف الجهاد في سبيله!

كانت حالتك الإيمانيّة تتأرجح بشكل عجيب، مثل رقّاص ساعة يزور قطبين متناقضين كلّ ثانية! وقد كانت تلك الأيّام، رغم قسوتها، أيّام علوّ همّة وشحن مكثّف لبطاريّة الإيمان التي نفدت طاقتها أو كادت.

بعد يومين، جمعكم الشيخ يحي على عشاء شهي في منزله. كانت الدعوة لسريّتك الذين رابطوا معك، وكان يخاطبكم في فخر: (أيها المجاهدون)! ولم لا؟ ألستم وفيتم بما عاهدتم الله عليه؟ وكان الشيخ يحي «شيخ المجاهدين» آنذاك، قبل أن يرتقي إلى الله شهيدا بعد تلك الحادثة بسنة ونيف على أيدي الصهاينة، وهو يحاول

العبـور تسـلّلا إلى فلسـطين المحتلّـة.. بعـد رحيلـك عـن بـيروت بوقـت قصـير!

وبعـد العشـاء، اجتمعتـم في جلسـة معـدّة عـلى سـطح المـنزل، حيث تناثـرت الوسـائد المريحـة عـلى السـجّاد، وانسـاب شـعاع رقـراق مـن القمـر، أضفى جـوا مـن الجمـال والدّعـة، ودارت أكـواب الشـاي الأخـضر، ووريقـات النعنـاع المنعـش. التفـت إليـك الشـيخ يحـيى مخاطبـا، وقـد بلغتـه أصـداء ولعـك بالشـعر والإنشـاد:

- اشجنا بنشيد جهادي يا مالك!

واستحسن رفقاء سريّتك الطلب، فرحت تترنّم بصوت رخيم:

فوقَ المنابرِ قِفْ ونادي لبّيكَ يا صوتَ الجهادِ

لـبّيك إنّا ثائرون متى عَـــزَمْتَ على الأعـــادي

بالـــدّمّ نكتُبُ للألى ســرّا دفينا في الفـــؤادِ

لِيَلوحَ رَكْبُ محمّدٍ ركْبُ الغـــطارِفَةِ الشّـدادِ

نـــارٌ إذا حـــضر الوغى نـــورٌ يَدُلُّكَ للرّشـــادِ

سَمِعَ الهنا صوتَ الجهادِ وبِتَّ من ألمٍ تنادي

بعـد تلـك الأزمـة الدّوليّـة، راجعـت مخطّطاتـك الشّـخصيّة. صـار لزامـا أن تغـادر إلى أوروبـا. وعـدك الشّـيخ يحـيى مـرّة أخـرى بتدبّـر الأمـر، لكـنّ السّـبل ضيّقـة والإجـراءات طويلـة. في الأثنـاء، وجـد لـك عمـلا في مدرسـة تكويـن في اللّغـات والرّقـن عـلى الحاسـب الآليّ. كان صاحـب المدرسـة شـابّا مصريّـا عـلى صلـة بالشـيخ. كنـت تهتـمّ بتسـجيل الطـلّاب -ومعظمهـم مـن الإنـاث- تسـلّمهم بطاقـات الانخـراط وجـدول الـدّوام وتقـدّم التّوجيهـات الأوليّـة. وكثـيرا مـا كنـت تقـدّم أيضـا درسـا بسـيطا في الرّقـن، كلّمـا تغيّـب المـدرّس المـصريّ المسـنّ، وهـو كثـير الغيـاب نظـرا

لحالتـه الصحيّـة المتداعيـة. لـم تكـن معرفتـك النظريّـة السّـاذجة تزيـد عـلى مـا يلمّ بـه كلّ شـابّ في مثـل سنّك نشـأ عـلى الـتّرف ودخلـت الأجهزة الذكيّـة حياتـه في وقـت مبكّـر. وقـد كانـت تلـك المعرفـة السّـطحيّة كافيّـة لتعطـي دروسـا للغـير.

كنـت تبيـت في المدرسـة، وتقـوم بمهـام التنظيـف والكنـس أيضـا. وفي إحـدى اللّيـالي، وصلـك خـبر بتمشـيط الحـيّ مـن قبـل قـوات الأمـن اللّبنانيّـة، بحثـا عـن أمثالـك مـن المقيمين غـير القانونيّـين. قـرّرت المغادرة برفقـة صديـق فلسـطيني عـلى الفـور. أغلقـت المدرسـة في وقـت مبكّـر وخرجتمـا مشـيا عـلى الأقـدام. لـم تكـن لديكمـا وجهـة محـدّدة. مررتمـا بمقـبرة موحشـة. تبادلتمـا نظـرة متشـاورة. لـم يكـن دخـول المقابـر ليـلا يخيفـك، لكنّـك لا تمانـع إن توفّـرت فرصـة أوفـر رفاهيـة. اسـتقرّ بكمـا الـرّأي عـلى قطـع مسـافة مائـتي مـتر إضافيّـة، إن لـم يحالفكمـا الحـظّ بإيجـاد مـكان للمبيـت، تعـودان إلى المقـبرة.

بعـد حـوالي مائـة مـتر، توقّفتمـا عنـد عمـارة قيـد التّشـييد. كانـت هنـاك غرفـة حـارس مضـاءة، ثـمّ ظـلام حالـك يسـود البنايـة. تسـلّلتما في حـذر حـتّى المدخـل. كانـت الشّـقق بـلا أبـواب. تحسّسـتما الطّريـق عـلى ضـوء القمـر المنسـاب مـن شـقوق النّوافـذ. مـن حسـن الحـظّ، كان بالحمّـام حـوض اسـتحمام. كان مغـبّرا تعلـوه بقايـا مـوادّ البنـاء، لكنّـه كان سريـرا ملائمـا لتلـك اللّيلـة. رغـم كلّ شيء، نمـت بعمـق حـتى الصباح.

لـم يسـتمرّ عملـك في المدرسـة طويـلا. كان كلّ شيء ينـبئ بنهايـة قريبـة، بدايـة مـن صحّـة الأسـتاذ المترديّـة وصـولا إلى تشـغيل أمثالـك للاضطـلاع بأكـثر مـا يمكـن مـن المهـام مـن بـاب التوفـير. كان صاحـب المدرسـة يعـاني مـن أزمـات ماليـة متكـرّرة، وبعـد شـهرين مـن إقامتـك في المبـنى، تقـرّر إغلاقهـا. اسـتعاد صاحـب المؤسّسـة المفاتيـح، وبـتّ بـلا مـأوى مـرّة أخـرى. أقمـت لأسـابيع مـع بعـض الشّـباب اللّبنـانيّ في مخيّـم

لـم تتوفّـر فيـه أدنى مرافـق الحيـاة الكريمـة. ثـمّ توسّـط الشـيخ يحـيى -مرّة أخـرى- لمعالجـة وضعـك، فالتحقـت بمسـجد هـو جـزء مـن جامعـة بـيروت العربيّـة.

منـذ غـادرت شـقّتك في ضاحيـة المـرسى، تنقّلـت بـين مسـاكن عـدّة، كلّهـا تتنافـس في تعليمـك الزّهـد والتّواضـع! أنـت المزهـوّ بمكانـة عائلتـك الاجتماعيّـة وإمكاناتهـا الماديّـة، لقـد كان كلّ حديـث مـن الأجهـزة المنزليّـة يصلـك إبّـان ظهـوره، ومفروشـاتك الجميلـة الفاخـرة يتـمّ تغييرهـا كلّ سنة بأخـرى جديـدة. كنـت تعيـش ترفـا حقيقيّـا. وتلـك الغـرف الخاليـة تقريبـا مـن كلّ أثـاث، ذات الجـدران المتـآكل طلاؤهـا، تتضـوّع في فضائهـا رائحـة نفّـاذة هـي مزيـج مـن رائحـة السّـجائر والمجـاري والأنفـاس الكريهـة لسـوء تهويتهـا.. كيـف يمكـن أن تكـون مـأوى لأمثالـك؟ كنـت تـنزل دُركا إثـر آخـر، حـتّى وصلـت إلى الحضيـض.

وقد كان الحضيض مقصورة إمام الجمعة!

أقمـت بتلـك المقصـورة الضيّقـة الخانقـة، وقـد كانـت عـلى ضآلتهـا تحـوي مكتبـة ودورة ميـاه. لكـنّ المكتبـة المهملـة كانـت قـد غـدت مرتعـا للقـوارض الـتي تتسـلّل مـن المرحـاض. لـم تكـن تدخـل مخدعـك إلّا في سـاعة متأخـرة مـن الليـل، بعـد أن يتـمّ إغـلاق المسـجد، وإلّا فإنّـك كنـت تؤثـر السّـهر في مجالـه الرّحـب، حـتّى يـؤذن لـك بالمغـادرة. ومـا إن تغلـق عليـك بـاب المقصـورة حـتّى يتملـكّك الجـزع. كنـت تـرصّ الكتـب والمجـلّات عـلى الأرض وتضـع حشـيّة نومـك عليهـا خوفـا مـن الفـئران الـتي يأتيـك حفيـف أقدامهـا كلّ ليلـة وهـي تـذرع فضـاء الغرفـة جيئـة وذهابـا، فـلا يـزورك النّعـاس إلّا بعـد لأي.

ذات يـوم، زارك الشـيخ يحـيى الـذي أهمّـه أمـرك. قدّمـت لـه عـلى اسـتحياء كوبـا مـن الشـاي، مقرونـا ببعـض قطـع الكعـك والحلـوى

اللبنانيـة، وكان كل مـا تملـك في غرفتـك البائسـة مـن طعـام. وشـق عليـك حالـك، وأشـفقت عـلى نفسـك الـتي أزرى بهـا الدّهـر.. وأنـت الكريـم ابـن الكـرام. كان جـود يـدك، وكـرم ضيافتـك مـضرب الأمثـال أينمـا حللـت.. فطفقـت تعتـذر لضيفـك عـن تواضـع مـا قدمـت إليـه، لضيـق ذات اليـد، الـذي يعلمـه دون حاجـة منـك لـشرح.

زفرت متأوها:

- آه يا شيخنا، لقد ضاقت الدنيا في عيني وكأنها ثقب إبرة.

ثم رغبت في تلطيف ذاك الجوّ الحزين، فقلت ممازحا:

- هـل أنشـدك شـعرا؟ فأنـا أحفـظ الكثـير.. هـل تطـرب للشـعر يـا شـيخ؟

قال الشيخ مبتسما، ولم يكن جاهلا بهوايتك تلك:

- هات ما عندك!

أدخلـت أصابـع يديـك كلتيهمـا -كعادتـك- في خصـلات شـعرك، تتخللهـا لتـأتي بهـا للخلـف، والتمـع بريـق في عينيـك، وتلـك عـادة لازمتـك حـين تتحمّـس لفعـل أمـر تهـواه نفسـك، وتمثلـت أبياتـا لأبي فـراس الحمـداني قالهـا في الأسر، وهـو مكـروب محـزون، في ذلّـة القيـد، وهـو الفـارس الأمـير:

سَيَذْكُرُني قَوْمي إذا جَدّ جِـدّهُمْ ... وفي الليلة الظلماءِ يفتقدُ البـدرُ

ولوْ سدَّ غيري ما سددتُ اكتفوا بهِ ... ما كانَ يغلو التِّبرُ لو نفقَ الصفرُ

وَنَحْنُ أُنَـاسٌ، لا تَـوَسُّطَ عـندنا ... لَنَا الصّدرُ دُونَ العالَمينَ أو القَبرُ

وَإنْ مُـتّ فالإنْسَانُ لا بُدّ مَـيّتٌ ... وإنْ طَالَتِ الأيّامُ وَانْفَسَحَ العُمْرُ

ضحك الشيخ في هدوء وعلم ما يجيش بفؤادك.. ثمّ قال مترفّقا:

- أعلـم يـا مالـك أنّ هـذا وضـع ليـس لمثلـك.. لقـد طالـت فـترة

إقامتـك هنـا دون هـدف. وقـد صـار مـن الـضّروري لـك أن تتعلّـم صنعـة تقتـات منهـا وتعيـل نفسـك بـدل التنقّـل المسـتمرّ مـن مـأوى مؤقـت إلى آخـر.

ولـم يكـن بوسـعك إلّا أن توافقـه الـرّأي. كنـت قـد مللـت الانتظـار والترحـال بـلا فائـدة ترجـى. وكان لـدى الشّـيخ يحـيى مـرّة أخـرى خطّـة مناسـبة مـن أجلـك. كنـت تتحـرّج كلّمـا سـدّت الأبـواب في وجهـك مـن طلـب مسـاعدته، لكنّـه لـم يكـن يعـدم التّدبـير، فيخـرج مـن «جـراب الحـاوي» كلّ مـرّة حـلّا جاهـزا لأزماتـك المتكـرّرة. تنقّلـت بـين المخيّمـات والمسـاكن الـتي تتفـاوت مسـتويات تجهيزهـا والرّفاهيـة فيهـا، لكنّـك بفضـل الشـيخ لـم تعـان الوحـدة والتـشرّد. مـن أجـل كلّ ذلـك، أومـأت في استسـلام، وبـاشرت مـن الغـد عملـك الجديـد.

كان قـد وجـد لـك مكانـا في ورشـة كهربـائيّ، تتعلّـم عنـده تلفيـف المحـرّكات. لـم تبـارح مسـكنك في مسـجد جامعـة بـيروت، وبـدأت الـتردّد عـلى المحـلّ مـن الثامنـة صباحـا وحـتّى الخامسـة مسـاء. بعد ستّة أشـهر -وقـد صـبرت كثـيرا إكرامـا للشـيخ يحـيى- أيقنـت أنّـك لا تتقـدّم في تعلّـم الحرفـة. كان صاحـب الورشـة شـديدا في المعاملـة، ولـم يكـن يهتـمّ بمـا تتقنـه طالمـا كان المحـرّك يعمـل! فوجـدت نفسـك تتعلّـم بتقليـب محـرّكات الحرفـاء، تفتحهـا وتجـرّب كلّ شيء لعلّهـا تعمـل! نعـم هـذا مـا كنـت تفعلـه. وقـد حالفـك الحـظّ -أو لعلّـه تفكـيرك المنطقـيّ السّـليم- فأصلحـت معظـم المحـرّكات الـتي عهـدت إليـك، دون أن تقـرأ مرجعـا واحـدا في الهندسـة الكهربائيّـة أو تتلقـى تدريبـا مـن أيّ نـوع. كان بوسـعك أن تصبـح كهربائيّـا، مثـل معظـم الكهربائيّـين في سـوق المهنـة، تخاطـر لتصلـح الأجهـزة وتتهـوّر أحيانـا، وتعتـذر في بـرود إذا مـا أفسـدتها. لكـنّ سـاعات انكبابـك عـلى المحـرّكات طيلـة الشّـهور السّـتة المنصرمـة، غـذّت في صـدرك حلمـك القديـم. أنـت تريـد أن تكـون طبيبـا، وسـتفعل

مهما كلّفك ذلك.

كانت وضعيّتك القانونية في بيروت غير قابلة للتّسوية. أما والأمر كذلك، فلا مفرّ من هجرة جديدة. كانت باريس تناديك، بملء صوتها، كلّ ليلة في منامك، وكلّ صباح في صحوتك وأنت تزاول عملك في الورشة.

في الأثناء، كنت توهم عائلتك بأنّك قد وصلت إلى باريس بالفعل. كان تواجد الحركة الإسلاميّة قد غدا كثيفا في المهجر بشكل عام، وفي باريس بشكل خاص. وكان الشيخ يحيى قد يسّر لك توصيل الرّسائل عن طريق ملتفّة تمرّ بالأردن ثم فرنسا، حيث يقطن قريب له يعيد إرسال الظّروف بختم فرنسيّ. لم تكن اتّصالاتك بهم كثيفة في تلك الفترة، بل لعلّه كان خيارا استراتيجيّا منك، فلا تعلمهم بأنّك في بلاد حرب فتقلقهم عليك، ولا تعلمهم بموقعك المحدّد فتؤكّد تواطؤهم في تهريبك. لم تكن تصلك منهم ردود إطلاقا. أنت بلا عنوان بالنّسبة إليهم. ورسائلك لم تكن سوى إشارات طمأنة مقتضبة، حتّى يدركوا أنّك حيّ ترزق. لم ترفع سمّاعة الهاتف لتتصّل مرّة واحدة. كنت تؤجّل ذلك حتّى تسوّي وضعك، تستقرّ وتباشر الدّراسة من جديد. لكنّ التّأجيل استمرّ ثلاث سنوات كاملة، هي عمر رحلة العبور عبر قارات ثلاث.

لم تكن المغادرة من مطار بيروت متاحة، حتّى لا تتعرّض إلى سين وجيم من النظام الأمنيّ، لكنّها ممكنة عبر طرابلس لبنان. انتقلت إذن إلى طرابلس، حيث توفّر قارب صيد مستعدّ للمجازفة. ودّعت الشّيخ يحيى ورفاق المخيّم بحرارة وحسرة، وسالت عبرات الإخوة سخيّة وأنت تشاركهم الأحضان والعناق. لقد كانت مرحلة لبنان «مؤقّتة» منذ اليوم الأوّل، لكنّها طُبعت في فؤادك لما صاحبها من أحداث مثيرة ومواقف مؤثّرة وصداقات صادقة.

كان هناك أخوان لبنانيان يرافقانك، أحدهما يقصد السّعوديّة، والثّاني يروم بعض السّياحة في قبرص. هل خامر تفكيرك حينها أن تحذو حذو الأوّل وتصاحبه في رحلته إلى الرّياض؟ لا شكّ أنّك فعلت، ولو لوهلة بسيطة. لكنّ تركيزك عاد لينصبّ على الهدف الواضح الذي تريده: كليّة الطبّ في باريس.

أفضى الرّبّان إلى ثلاثتكم بما يتكهّنه من خطر محدق بالرّحلة. كان من الوارد أن تعترض سبيلكم دوريّة بحريّة إسرائيلية، فيلقى القبض على أربعتكم. لكن من لطف الله بك -مرّة أخرى- وبرفاق رحلتك، أبحر القارب في سلام، ولم يلح أيّ تهديد في الأفق. وفي تلك الأوقات كنت تتساءل عمّا يخفيه قدرك بعدُ، من مراوحة بين اللّطف والابتلاء. كانت فترات عصيبة تعتصرك، ثمّ يسبغ الله رحمته.. لعلّه يبتليك أتشكر أم تكفر؟ وقد كنت تتقلّب بين الاثنين، تمرّ بك ساعات تكون فيها شاكرا حامدا متقبّلا لاختبارك الدّنيويّ القاسي.. وساعات أخرى تنقم فيها على حياتك البائسة التي لا تساوي جناح بعوضة!

وصلتم إلى شواطئ جزيرة نائية غير بعيد عن سواحل اليونان. تطوّع صاحب المركب رغم الأجر الزّهيد الذي نقدتموه لتدبير وثائق دخولكم إلى البوّابة الأوروبيّة. ترككم طيلة النّهار وقضى يومه في السّمسرة والاتّصالات يمينا وشمالا حتّى وفّر تأشيرات دخول إلى التّراب اليونانيّ لك وللشابّ اللّبنانيّ الثاني! حصلت على وثيقة سفر قانونيّة من نقطة عبور جنوب البلاد. قضيت ليلتين في فندق رخيص قريب من البحر، وفي اليوم الثالث كانت هناك رحلة باتّجاه باريس عبر الخطوط الألمانيّة.

بعد أن تجاوزت شبّاك الجمارك بوثيقتك اليونانيّة، اتّجهت إلى أقرب جهاز هاتف عموميّ. كوّنت الرّقم في لهفة تصارعك منذ ثلاث سنوات، وهمست بصوت مزيّف الاتّزان، مثقل بالعاطفة، ما إن

وصلـك الـردّ مـن الجانـب الآخـر:

- أمّي.. كيف حالك؟

الفصل الرّابع

- لقاء -

-١-

كانت هناك تجربة النّضال السّياسي، والسّجن المتكرّر، ومحاولة الانتحار، ثمّ الهرب برّا وجوّا وبحرا، والجهاد في سبيل الله، والشّتات التّام عن نفسك ومحيطك، قبل أن تجد نفسك مجدّدا على مقاعد الدّراسة! كان من اليسير عليك بعد كلّ ذلك اجتياز اختبار التّأهيل لدخول كلّية الطبّ بباريس «ديديرو» دون المرور بمقاعد المدرسة التحضيريّة. ما تحتاج أن تعرفه كنت قد خزّنته في ذاكرتك منذ زمن بعيد، حين جلست على مقاعد نظيرتها في تونس العاصمة.

رافقتك الوحدة في سنوات دراستك الباريسيّة الأولى. كانت صداقاتك قليلة على الدّوام، تنتقي بدقّة من تخالط ومن تصاحب. وكان عددهم أقلّ في الغربة. شلّة أربعة أنت خامسهم، لكنّك لا تراهم إلّا فيما ندر -لظروف دراستك وعمل كلّ منهم- أيّوب وغالب وحاتم ومحسن.

أيّوب طبيب مثلك، تعرّفت إليه في كليّة الطبّ في تونس أيّام دراستك هناك. لحق بك إلى باريس منذ سنوات قليلة من أجل التخصّص. لم يعرف السّجن وليست لديه سوابق عدليّة ولا انتماء سياسيّ. يفضّل أن يكون على الحياد، جانحا إلى السّلم بعيدا عن الاستهتار، وإن كان انتماؤه الإسلاميّ الوسطيّ نقطة مشتركة بينكما.

أمّا غالب، فهو «رفيق كفاح»، تقاطعت طرقكما في سجن «٩ أفريل» حيث كان يقضي فترة محكومية تبلغ أضعاف أضعاف فترتك الأولى.. لذلك التقيتما مجدّدا في اعتقالك الثاني والثالث! كان لا يزال هناك، يراوح مكانه، بينما تخرج وتدخل. أطلق سراحه أخيرا بعد

أن تعـرّض لعاهـة مسـتديمة في عينـه اليـسرى، وطالبـت عائلتـه بترحيلـه للعـلاج خـارج البـلاد. بعـد شـدّ وجـذب اسـتمرّا لسـنتين مضنيتـين فقـد خلالهمـا غالـب الرؤيـة بعينـه المصابـة بشـكل كامـل، جـاءت الموافقـة عـلى هجرتـه. لـم يرجـع إلى تونـس منـذ ذلـك الوقـت. تعلّـم السّـباكة مـع معلّـم جزائـريّ، ثـمّ أصبـح يديـر محلّـه الخـاصّ. لـم يفكّـر أبـدا في اسـتئناف دراسـته للهندسـة المعماريّـة.

حاتـم، رفيـق صبـاك، أقـرب الأصدقـاء إلى قلبـك. ارتدتمـا نفـس المـدارس في الرّيـاض. كان شـاهدا عـلى نجاحاتـك في المراحـل الابتدائيـة والمتوسـطة والثانويّـة.. ومـن العسـير عليـك أن يشـهد أفـول نجمـك الذي ظـنّ الجميـع أنّـه سيسـطع عاليـا، أعـلى مـن الجميـع. حـين رجعـت أنـت إلى تونـس لاسـتكمال دراسـتك الجامعيّـة، حـطّ هـو في باريـس مبـاشرة لدراسـة العلـوم السّياسـيّة. كان سـلفيّ المنهـج والسّـمت، وأكـثر الرّفـاق حرصـا عـلى السّـواك والقميـص الأبيـض المكـويّ بعنايـة يـوم الجمعـة، كأنّـه لـم يغـادر المملكـة السّـعوديّة يومـا. اهتمامـه بعلـوم السّياسـة كان عـلى الـدّوام مصـدر اسـتغراب لـكلّ مـن عرفـه، وهـو خرّيـج المـدارس السّـلفيّة المحافظـة. شـكله وعقلـه يشـكّلان مفارقـة يعجـز الجميـع عـن حـلّ لغزهـا.

آخرهـم محسـن، وهـو الوحيـد الـذي لـم يجمعـك بـه تاريـخ قديـم. التقيـت بـه في باريـس، حيـث كان والـده مـن اسـتقبلك أوّل وصولـك بتوصيـة مـن والـدك. عـاش معظـم حياتـه هنـا، حيـث هاجـرت عائلتـه في وقـت مبكّـر. مثـل والـده درس الحقـوق، وتخصّـص في قضايـا حقـوق الإنسـان. لديـه سـجلّ حافـل رغـم صغـر سـنّه مـع حـالات اللّجـوء والنّفـي.. ويشـارك باسـتمرار في اجتماعـات سياسـيّة مـع ممثّلـين لتيّـارات معارضـة مختلفـة، هدفهـا الحصـول عـلى تسـوية مـع الحكومـة التونسـيّة والسّـماح للمنفيّـين بالعـودة إلى الوطـن.

هـذا النّسـيج غـير المتجانـس مـن الأشـخاص، كنـت أنـت همـزة الوصـل بينهـم. عـن طريقـك، تعـرّف بعضهـم إلى البعـض الآخـر، وامتـدّت عـرى المـودّة بينهـم حـتّى تخالهـم عرفـوا بعضهـم منـذ أمـد بعيـد. لـو أنّـك اختفيـت، فلـن يؤثـر ذلـك في صداقتهـم. وقـد تصيبـك الغـيرة مـن حـين إلى آخـر، خاصّـة مـن العلاقـة الوطيـدة الـتي أصبحـت تجمـع أيّـوب بمحسـن. كلّمـا بلغـك لقاؤهمـا في مـكان مـا، وإن كان صدفة، «مـن وراء ظهـرك»، أحسسـت بوخـزة في صـدرك. أنـت الـذي عرّفـت أحدهمـا بالآخـر، لذلـك «يجـب» أن يكـون لديـك مـكان دائـم في أيّ جلسـة تجمعهمـا!

جميعهـم متزوّجـون، وهـو أمـر منطقـيّ لمـن جـاوز الثلاثـين مثلـك. حـتّى غالـب، رغـم عاهتـه، ورغـم جروحـه العميقـة وتجربتـه الدّاميّـة، فقـد تـزوّج مـن ابنـة معلّمـه الجزائـريّ بعـد فـترة وجـيزة مـن وصولـه إلى باريـس! وكانـوا يمازحونـك في جلسـاتهم، ويحثّونـك عـلى الاسـتقرار وإيجـاد شريكـة الحيـاة المناسـبة.. بـل كثـيرا مـا يعـرض عليـك أحدهـم أن يعرّفـك إلى شـقيقة زوجتـه أو إحـدى صديقاتهـا. لكنّـك كنـت تبتسـم، وتشـيح بوجهـك، وتتمثّـل وجـه سـارة الدائـريّ الصغـير وابتسـامتها الهادئـة. لـم تكـن تريـد غيرهـا.

كانـت معايـيرك قـد اختلفـت في مرحلـة مـا، لسـت تدركهـا. مبـاشرة بعـد وصولـك إلى تونـس، كان الجمـال الصّاخـب هـو مـا يشـدّك ويحرّكك. تتبّـع قامـات الحسـناوات وشـعورهنّ المتهدّلـة، وتبحـث عـن جمـال شـكليّ زائـل. بعـد تجاربـك القاسـية، تغـيّرت نظرتـك للجمـال وغـدت أكـثر نضجـا. لـم تعـد الفـتى الغـرّ الـذي تذيبـه ابتسـامة متغنّجـة. وأنـت في منتصـف الثلاثينيـات، صـار همّـك أن تجـد شـاطئا آمنـا ترسـو عليـه سـفينتك، وأن ترتبـط بمـن تعينـك عـلى نوائـب الدّنيـا، تقوّيـك وتشـدّ أزرك.

في الجامعة، كنت وحيدا شريدا. كان فارق السنّ يدفعك إلى الانزواء عن الشّباب الغرّ الذي تحاذيه في قاعات المحاضرات ومخابر التّجارب وأروقة المستشفى الجامعي. وحدها سارة شدّت انتباهك، ووحدها تجرّأت على اقتحام عزلتك. تساءلت حينها، هل تراها ملّت من تفاهة الشّبّان الذين يماثلونها سنّا ورغبت في مقاربة رجل ناضج، فحطّ اختيارها عليك؟ أم تراه الفضول تجاه قصّتك الشخصيّة الغامضة ما دفعها إلى الاقتراب منك؟ ولعلّها تلك الألفة الحتميّة بين مسلميْن مغتربيْن ما حطّم حواجز السنّ وطوى المسافات التي تفصلكما دون وعي منها؟ مهما كانت دوافعها، فأنت ممتنّ. فمنذ اللحظة التي خاطبتك فيها، تحوّل قفار روحك عمارا، وجَرَدُ قلبك يَنْعا.

كانت العلاقة بينكما جادّة ورسميّة، مثل أيّ زميلين في الجامعة. وكنت قد توقّفت زهاء السّتة أشهر عن مراسلتها واكتفيت بحضورها أمامك مثل فراشة رقيقة، تمرّ أمام عينيك بخفقات أجنحتها المتسارعة، فتراقبها عن بعد، مكتفيا بكلمات وجيزة تجود بها من حين لآخر. ظننت أوّلا أنّ الغياب يُسهّل عليك المهمّة ويجنّبك حرج مواجهتها.. لكن تبيّن لك إبّان إجازة منتصف السّنة أنّ الغياب يؤجّج الشّوق، فتعوّضك الكتابة إليها عن مشاهدتها رأي العين! كتبت إليها مرّة أخرى، أثناء الإجازة التي من المفترض أن تنهمك خلالها في مراجعة جادّة، تأتي بعدها اختبارات حاسمة. لم يكن هناك الكثير ليقال، بعد أن سردت مشوار حياتك في رسائلك السّابقة.

أن تناجي محبوبا، ولا يأتيك جواب سوى رجع الصدى، فتلك تجربة محبطة! شعرت تلك الليلة أن معينك قد نضب، وأنّك لا ترغب أن تذكر لها المزيد من أحداث حياتك المؤلمة. كفى المسكينة ما ابتليتها بمعرفته.. وما عليها من كل هذا الشقاء؟

لكـن معـين الشـعر لا ينضـب.. وأنـت فـارس هـذا الميـدان دون منـازع! اعتـصرت ذاكرتـك الشـعرية، تنتقـي مـن شـعر الغـزل العفيـف أرقّـه وترصف الأبيـات الـتي تحقّـق مـرادك وترتّبهـا لتصنـع مقطعـا جديدا. وراحـتِ أناملـك تتراقـص عـلى لوحـة المفاتيـح، كأنهـا تعـزف عـلى البيانـو:

مُعَذِّبتي لولاكِ ما كنتُ هائما	أبيتُ سَخينَ العـين حَرَّانَ بـاكيا
أَعُدُّ اللَيالي لَيلَةً بَعدَ لَيـــلَةٍ	وَقَد عِشتُ دَهـرا لا أَعُدُّ اللَيالِيا
وَأَخرُجُ مِن بَينِ البُيوتِ لَعَلَّني	أُحَدِّثُ عَنكِ النَفسَ بِاللَيلِ خالِيا
خَليلانِ لا نَرجو اللِقاءَ وَلا نَرى	خَـــليلَينِ لّا يَـرجُوانِ تَلاقِـــيا
وَإِنّي لَأَستَغشي وَما بِيَ نَعـسَةٌ	لعَلَّ خَـــيالا مِنكِ يَـلقى خَيالِيا

مثـل المـرّة الأولى، لـم يكـن لديـك أدنى أمـل بـأن يأتيـك ردّهـا.. وكيـف لهـا أن تـردّ عـلى أبياتـك الجامحـة الجريئـة وهـي الـتي تجاهلـت كلّ هـذا الوقـت اعترافاتـك المخلصـة؟ لكنّـك دأبـت عـلى تفقّـد بريـدك الـوارد مثـل العـادة، حـتّى هبطـت المفاجـأة الصّاعقـة عـلى أمّ رأسـك بعـد يومـين: وردت رسـالة منهـا!

تذكـر ردّة فعلـك حـين وقعـت عينـك عـلى عنوانهـا في صنـدوق بريـدك؟ فقـد هببـت واقفـا كالملـدوغ، وسـقط الكرسيّ خلفـك مـن عنـف الحركـة، ورمشـت عينـاك بعصبيّـة، قبـل أن تجـرؤ عـلى فتـح الرسـالة. وسبّابتك تعـبر المسـافة تجـاه لوحـة المفاتيـح، انتقلـت تعبيراتـك بسرعـة بالغـة مـن الاحتفـاء إلى الوجـل. مـاذا لـو كان فحـوى رسـالتها سـيلا مـن الشّـتائم؟ قلـت في نفسـك: لا بـأس! لا ضـير في ذلـك طالمـا خرجـت مـن ظـلال التّجاهـل إلى نـور التّواصـل! لمـاذا كلّ هـذا القلـق والارتبـاك أمـام رسـالة مغلقـة؟ مهمـا كان مـا تحملـه، فهـو خـير مـن عدمهـا. نقـرت عـلى العنـوان، والتهمـت السّـطور الـتي ظهـرت أمامـك في ثـوانٍ، ثـمّ عـدت لقراءتهـا مـن جديـد عـلى مهـل:

«متى فكّرت في الانتحار آخر مرّة؟

هل تشغل وقتك بأنشطة طبيعيّة: عمل أو دراسة؟

هل تعاني من اضطرابات النّوم؟

هل تعاني من نقص الشّهيّة؟

هل لديك علاقات اجتماعيّة، صداقات؟

هل تمارس هواية ما؟

هل تعاني من الخمول وعزوف عن الحياة الاجتماعيّة؟

هل تجلد ذاتك بعبارات متشائمة؟

كيف هو تقديرك لذاتك؟».

وقفت مشدوها أمام مجموعة الأسئلة التحقيقيّة التي فاجأتك بها، دون تحيّة أو مقدّمات، وقبل أن تنجرف إلى الاحتفاء باهتمامها غير المتوقّع، تذكّرت واجب درس «علم النّفس السّلوكي» الأخير! فما لبثت أن انفجرت ضاحكا، وأنت لا تصدّق مدى دهاء تلك الصّغيرة! هل تحاول أن تستغلّك كعيّنة لدراستها الاستقصائيّة حول «السّلوك الانتحاريّ»؟ أعدت تلاوة الأسئلة في ذهول.. لا شكّ لديك في أنّها تفعل!

فكّرت كثيرا بعد ذلك. نازعتك رغبة نزقة في مشاغبتها وردّ الصّاع صاعين. اعتصرت دماغك ليومين، تستنبط دعابة تليق بتحقيقها الجريء، تكتب ثمّ تمسح. ثمّ أصابك فتور مفاجئ. ما كنت فيه كان منتهى العبث، وقد آن للهوك أن ينتهي.

لم تردّ على رسالتها تلك أبدا. ولم تعد إلى مراسلتها بعد ذلك إطلاقا. أيقنت بعد برهة قصيرة بأنّ مشاعرك قد وصلت إلى مرحلة اللّاعودة، وقد بات محتّما عليك أن تعترف. كلّ ذلك اللفّ والدّوران

كان بلا فائدة. كنت قد دخلت دائرة معارفها الآن، وقد صار التّواصل المباشر معها متاحا، فماذا تنتظر؟

كان عليك أن تتخذ خطوة حاسمة، وتعبر الجسر حتّى بابها.

تذكر يوم جلستما في ركن المكتبة لتتحدّثا مطوّلا. مطرقا كنت، بينما تتدفّق الكلمات من شفتيك بصوت جادّ وقور. كنت تبثّها اعترافات سبق أن وصلتها على البريد الإلكتروني، باستفاضة ودون تنميق. تعرّي سوأتك أمام عينيها وتكشف ماضيك الحافل بالنكسات والكُربات. تعيد على مسمعها الرجاء نفسه.. هل تداوين جراحي؟ تذكر صمتها الطّويل، دهشتها، وهي تكتشف متأخّرة هويّة مراسلها الغامض، اختناقها بعبرة لا تدرك لها سببا، ثمّ كلماتها الهادئة التي انسابت فجأة وقد كاد يصيبك اليأس:

«لا تحزن إنّ الله معنا».

كلّ شيء تلا ذلك اللّقاء كان مثل حلم جميل. كيف عرّضتَ بالارتباط، فألفيتها تطرق في خفر وتفرّ من أمامك حياء. وكيف دخلت منزل والديها، مرتبكا بلا ثقة، فدافعت عنك بضراوة وتحمّلت عنك الاعتراضات والمساءلات. هل كان تهوّر شباب منها؟ أم عاطفة صادقة لا تقبل المساومة؟ مهما كان ما يحرّكها، فقد استغللته بلا تردّد. وهل يسعك أن ترفض عطاياها وأنت الفقير إلى كلمة منها؟

في علاقتكما، كانت هي الآخذة بزمام المبادرة. ولم تشعر على امتداد السُّنوات الثلاث التي عرفتها خلالها، أنّها أنثى ضعيفة، تحتاج إلى رجل يجبر كسرها، ويكمّل نقصها. كانت حيّية، قليلة الثرثرة، زاهدة في الزّينة، معرضة عن اللّغو، ولم تكن تبتزّ عواطفك بإفراط في الدّمع أو استجداء الاهتمام، كما تفعل غالبيّة البنات في سنّها مع خاطب ودّهنّ. وقد يصادف أن تتجاهلك لأيّام، فتحسبها تتعمّد

الإعـراض لغضبهـا مـن أمـر تجهلـه. فـإذا مـا قصدتهـا تسـأل عـن أسـباب إعراضهـا، فاجأتـك بدهشـتها، فهـي لـم تقصـد شـيئا ممّـا فهمـت، بـل هـي منشـغلة لاهيـة عنـك وعـن ظنونـك!

كانــت الفــترة الأولى لعلاقتكمــا عســيرة عليــك، حــتّى تعــوّدت عــلى طبعهـا وعرفـت مفاتيحهـا. كنـت تعتمـد في البدايـة عـلى تجاربـك السّـابقة في تقييـم سـلوكها، أو بالأحـرى عمّـا تسـمعه مـن الشّـباب في مثـل سـنّك عـن خطيباتهـم. لكنّـك ألفيـت سـارة في غايـة الاختـلاف. لـم تطلـب منـك أن توقظهـا برنّـة عـلى هاتفهـا لصـلاة الفجـر، ولا أن تقومـا اللّيـل «معـا» كلّ منكمـا في غرفتـه، فيذكـر أحدكمـا الآخـر في دعائـه، ولا أن يكـون لكمـا ورد ذكــر وتــلاوة مشــترك.. لــم تكــن «رومانســيّات» الشّــباب الملــتزم تلـك تعـني لهـا شـيئا، ولـم تحـاول أن تشـدّك إليهـا عمـدا بـأيّ نشـاط يجمعكمـا، فتجـد مسـوّغا لمزيـد مـن النّظـرات واللّفتـات «البريئـة». في الحقيقـة، لـم يختلـف شيء في سـلوكها قبـل الخطبـة وبعدهـا. بقيـت تتـصرّف عـلى سـجيّتها، تـروح وتجـيء في دروب كلّيّـة الطـبّ مـع رفيقتهـا المعتـادة، وإذا التقـت خطواتكمـا حيّتـك كغريـب، أو سـألتك مـا أرادت بـكلّ عفويّـة، كمـا تفعـل منـذ البدايـة!

ولشـدّ مـا حيّرتـك، وأرقـك التفكـير في مغـزى سـلوكها. هـل هـي بـاردة بطبعهـا؟ ألـم تحـرّك فؤادهـا كمـا ألهبـت عواطفـك؟ هـل أنـت بحاجتهـا وهـي مسـتغنية عنـك؟ لمـاذا تبـدو ملهوفـا متحرّقـا للقياهـا ومرآهـا ومبادلتهـا أطـراف الحديـث، في حـين تغـالي هـي في التمنّـع وكأنّ شـأنك لا يعنيهـا؟ تقـف كلّ صبـاح عنـد مدخـل الجامعـة، تراقـب الوافديـن في قلـق محمـوم، لا يهـدأ لـك بـال حـتّى تلمحهـا قادمـة مـن طـرف الشّـارع، فتتشـاغل بـأيّ شيء متظاهـرا بعـدم الاهتمـام، حـتّى تلقـي هـي عليـك التحيّـة! وآه ممّـا يحـلّ بـك إذا هـي يومـا تأخّـرت أو تغيّبـت! كيـف كانـت تلعـب بـك الظّنـون وتأخـذك إلى دهاليـز لا تنتهـي، وتتـوه مـن نفسـك

كأنّما أخذت روحك معها!

وغدا وقتك كلّه، بين بهجة أن تكون إلى جوارها، أو لهفة الانتظار كي تكون معها مرّة أخرى.

هل تعيش أنت مراهقة متأخّرة؟ أم هي التي نضجت سريعا قبل الأوان؟

عذّبتك طويلا تبعيّتك العاطفيّة. ولم يردعك عن مطاردتها بالرّسائل والاتّصالات إلّا خوفك من شكّها في رجولتك ونضجك! وأيّ شيء قد يكون شدّها إليك غير تلك الرّجولة الكاملة التي توحي بها مغامرات شبابك، ونضجك العميق الذي تفرضه سنّك؟ ولولا حفاوتها بك حين تزورها في منزل والديها، وإصغاؤها الجميل لكلّ ما ترغب، وإقبالها على مناقشتك في شتّى اهتماماتك، ومصارحتها لك بما تحبّ وتكره، لشككت في رغبتها في إتمام الخطبة. وفي حين أنّها تقتضب كلماتها في فضاء الجامعة، فإنّها تُسهب دون حرج، حين يكون أحد والديها شريك الجلسة. ثمّ إنّ لهفتك قد هدأت بعد شهور الخطبة الأولى، واستراح بالك من الشّكوك المضنية حين أدركت كم تراقب الله فيك!

وهل كان ذلك إلّا ليزيدك لها حبّا وبها تعلّقا؟ كانت الملاك الطّاهر الذي لطالما حلمت بأن يؤنس وحشتك ويداوي جراحك. ولم يكن يثقلك إلّا طول الانتظار، حتّى تنهي دراسة الطبّ.

في يناير ٢٠٠٢، كنت قد أنهيت اختبارات المرحلة الأخيرة، ولبثت مترقّبا النتيجة. نجاحك في اختتام سنوات الطبّ الخارجيّ شبه مضمون، لكنّ الترتيب يعني الكثير. كلّ مرحلة من مراحل كليّة الطبّ تنتهي بسباق.. من يصل أوّلا يملك حقّ الاختيار. كان سباق السّنة الأولى قد غدا مجرّد ذكرى الآن. لكنّ تصدّرك الترتيب ضمن العشرة

الأوائـل مـن أصـل ألـف وخمسـمائة طالـب خاضـوا الاختبـار كان مدعـاة فخـرك لوقـت طويـل بعدهـا. كنـت قـد أحـرزت أسـبقيّة لا شـكّ فيهـا بحكـم سـنوات انخراطـك السّـابقة في كليّـة الطـبّ بتونـس العاصمـة. أمّـا الآن، فـلا أسـبقيّة ولا هـم يحزنـون! أنـت وسـارة ومائتـا طالـب وطالبـة عـلى قـدم المسـاواة في وجـه الاختبـار النهـائي. مـن يصـل أوّلا يملـك حـقّ اختيـار التخصّـص الـذي يرضيـه.

قبـل أسـبوعين مـن النتيجـة، اتّصـل والـدك مـن الرّيـاض مسـتبقا التّهنئـة.

لـوّح أمـام الكامـيرا بسلسـلة مفاتيـح. شقشـقت مفاتيحـه هنـاك في المملكـة بإغـراء لا يقـاوم، وهـو يحدّثـك عـن العيـادة الـتي في انتظـارك. يومهـا نازعتـك نفسـك وحاجتـك. آن أوان العـودة والاسـتقرار. هنـاك عيـادة جاهـزة، وأنـت قـد شـارفت عـلى السّـابعة والثلاثـين. هـل مـا زلـت تأمـل التخصّـص؟ وتصـبر سـنوات طويلـة أخـرى؟ مـاذا عـن فتاتـك؟ لعلّهـا لا تسـتعجل الـزّواج مثلـك، فكيـف تتقبّـل أن تغـادر باريـس مخلّفـة أحـلام الصّبـا وراءهـا؟

منـذ وصولـك إلى باريـس، تفانيـت في كسـب قوتـك مـن كـدّ يمينـك. حـين صرت طبيبـا داخليـا، انتهـت مأسـاة غسـيل الصّحـون، بفضـل الرّاتـب المـرضي الـذي كفلتـه الـوزارة لأمثالـك. ألـف وأربعمائـة يـورو راتـب مناسـب لإيجـار شـقتك الصّغـيرة ومصاريـف حيـاة العزوبيّـة.. لكنّهـا لا تفتـح بيتـا. الوقـت أكـثر مـن مـواتٍ للاحتفـال بزفافكمـا، لكـنّ إمكاناتـك الماديّـة الحاليّـة تجعلـك تـتردّد. عائلتـك المـوسرة بوسـعها تحمـل مصاريفـك وعروسـك، لكنـك لا تريـد. ومـا يضـيرك لـو تنازلـت هـذه المـرّة وهيـأت لسـارة مـا تأملـه مـن دعـة ورفاهيـة؟ قـدّرت أن حديـث الـزّواج آتٍ لا محالـة. أنـت أيّهـا السّـائر في خطـوات حثيثـة نحـو الأربعـين، أتظـنّ والدتـك سـتغفل عنـك لوقـت طويـل؟ عرفـت أنّ سـمفونيّة الضغوطـات

ستبدأ عزفها مباشرة بعد ظهور النتيجة الرّسميّة. تعرفان بعضكما بعضا منذ ثلاث سنوات، ومخطوبان رسميّا منذ سنة واحدة. ربّما كانت سارة ذات السنوات الأربع والعشرين تعتبر صغيرة السنّ بعد، لكنّ العائلات المسلمة المحافظة في المهجر غالبا ما تزوّج بناتها في سنّ مبكّرة.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، كنت ضيفا عند عائلة فتاتك. مال حموك تجاهك، وقال مستفسرا بجدّية:

- ها، ما العمل الآن؟

لم يكن قرارك ليرضي كلتا العائلتين بأيّ حال. فكّرت أنّه لن يُسرّ إن أنت لوّحت بدورك بمفاتيح وهميّة للعيادة المترقّبة وصولك. طمأنت باله حين قلت في هدوء:

- أرغب في التخصّص.

- وأنا كذلك!

تقاطع سارة حديثكما الثّنائي وهي تدخل بطبق المشروبات، فينتقل اهتمامك إلى مشروعها المهنيّ الخاصّ. حتّى تلك اللّحظة، لم تكن قد ناقشتها في مستقبلها الوظيفي. لقد جرّبتما معا في السّنوات الماضية حياة الطبيب المقيم، وعرفتما معا مدى الصّعوبات التي تواجهه في التّوفيق بين حياته الأسريّة والخاصّة، وبين متطلّبات الوظيفة المجحفة. هل يمكنك أن تتخيّل زوجتك في قادم الأيّام، تقضي الليلة في مناوبة الطّوارئ، مهملة رضيعا أو طفلا في سنواته الأولى؟ هل يمكنك أن تتقبّل غياب زوجتك نصف ليالي الأسبوع لأنّ جدولها يتطلّب ذلك، وتتقبّل سفرها وحيدة لحضور دورات وتدريبات ومحاضرات؟ كنت تأمل أن تقتنع سارة وحدها بعد أن جرّبت ما جرّبت بأنّ مسار الطبّ المعقّد لا يناسبها! كنت ترجو، وهي بطبعها

الأنثويّ الحسّاس الذي تعرفه، أن تقرّر من تلقاء نفسها ألّا داعي لاستمرارها في سباق التخصّص، لأنّ طموحها سيميل كفّة التّوازن الأسريّ ويعكّر صفوه!

لكنّها فاجأتك باعترافها المباغت، وفاجأك حموك وهو يربّت على ذراعها مبتسما ويسألها:

- وما التخصّص الذي ترغبين فيه؟

- طبيبة أطفال!

- جميل.. يسّر الله أمرك يا ابنتي.

ليس جميلا أبدا، في نظرك! ألا تدرك خطيبتك المصون أنّك قد تجاوزت مرحلة الشّباب وتتشوّق للاستقرار قريبا؟ ألا تعرف كم تشتاق إلى أطفال يملؤون فراغ وحدتك ويجمعون شعث قلبك.. إلى زوجة تشاركك همومك وتخفّف ضيقك بعد ساعات عمل مضنية، ولا تزيدك همّا على همّ بمواعيد عمل غير مواتية وغيابات متكرّرة؟ تطرق في ضيق وقد أهمّك تفكير لا تملك الإفصاح عنه؛ فتكدّر مضيّفك وابنته. لكنّه لاحظ صمتك، فسأل، ويا ليته لم يفعل. ينفجر ما بصدرك دفعة واحدة.

تسمع تنهيدته المتعبة، وترى العبرات على أعتاب مقلتي سارة، وتطفو ذرّات الهواء المشحونة في فضاء الغرفة. تحاول تلطيف الجوّ، تضع الحقّ على والديك اللذين تغرّبت عنهما مراهقا، ولم يجتمع شملكم منذ ذلك الحين. إنّهما يتلهّفان للفرحة، ويضغطان عليك لتعجيل الزّواج والإنجاب! وقد تربّيت وعوّداك منذ نعومة أظفارك على أنّ مآل المرأة إلى بيت زوجها، وأولويّتها الأطفال وشؤون مملكتها الخاصّة.

يحتدّ النّقاش، وترفع سارة صوتها فوق صوتك للمرّة الأولى منذ

عرفتهـا:

- ومـا الـذي كنـت تتوقّعـه حـين تقدّمـت لخطبـة طالبـة طـبّ؟ هـذه مهنـة لهـا متطلّباتهـا، وليسـت في متنـاول أيّ كان. وقـد كانـت المسـلمات في السّـلف يمهـتنّ الطـبّ، وليـس هـذا مسـتجدّا في عصرنـا، فـأيّ ذنـب أقـترف وأيّ عـرف أخالـف؟ ثـمّ هـي سـنوات قليلـة قبـل أن تصبـح لي عيـادة خاصّـة، فتنتظـم مواعيـد العمـل نهـارا.

تـدرك التّناقـض في تفكـيرك. أوليـس ذاك هـو المعتـاد مـن الرّجـل الـشرقيّ الـذي تـسري دمـاؤه في عروقـك؟ أن تريدهـا قويّـة الشـخصيّة وطموحـة، ولكنّهـا في ذات الوقـت مسـتعدّة للتّنـازل عـن مسـيرتها المهنيّـة بعـد الـزّواج؟ كأنّمـا أنـت تختارهـا لسـبب، ثـمّ تريـد لهـا أن تكـون نقيضه! لكـنّ ذلـك لـم يمنعـك مـن الامتعـاض، لأنّهـا لـم تتنـازل عـن طموحهـا لترضيـك، فغـادرتَ منزلهـا وعـلى شـفتيك التّوصيـة التقليديّـة بـأن «تفكّـر جيّـدا بمـا فيـه مصلحتهـا».

-٢-

كان ذلـك أوّل عهـدك بالخلافـات بينـك وبـين سـارة. سـارة حلـوة الرّوح والمعـشر، طيّبـة الحديـث حسـنة المضحـك، رأيتهـا غاضبـة للمـرّة الأولى. واسـتمرّ غضبهـا منـك دهـرا. خلّفـك جفاؤهـا في ضيـق شـديد، ولـم يكـن الصّفـاء ممكنـا إلّا بتنـازل أحدكمـا للآخـر. هـل كنـت تتوقّـع أنّ غضـب حسـنائك قـد يجلـب عـلى رأسـك وبـالا؟ لـو كنـت تـدري مـا ينتظـرك، هـل كنـت لتراضيهـا وتنصـاع لطلبهـا؟ أم أنّـه كان مقـدّرا لـك أن تغضبهـا وتتركهـا، وتخـوض غمـار تجربتـك الأليمـة تلـك؟

حـين لـوّح أيّـوب بفكـرة الانضمـام إلى بعثـة طبيّـة متطوّعـة تابعـة لهيئـة الإغاثـة العالميّـة، هلّلـت لهـا ورحّبـت. كانـت فرصـة فـرار مواتيـة، وتأجيـلا للمواجهـة. إذن وجـدت لـك مكانـا ضمـن القافلـة الـتي انطلقـت في اتّجـاه فلسـطين المحتلّـة، بعـد الانتفاضـة الشـعبيّة الثانيـة. سـتعود ومعـك القـرار الـذي تأخّـرت في اتّخـاذه. لـم تكـن تـدرك سـاعتها أنّـك سـتعود بأكـثر مـن ذلـك.. أو لعلّـه أقـلّ!

لـم يكـن عـدد المسـلمين في قافلـة الأطبّـاء بالكـثرة الـتي حسـبتها. كان هنـاك الكثـير مـن «السّـافرات» و«المتبرّجـات»، بشـعورهنّ الشـقراء المتهدّلـة وأذرعهـنّ العاريـة وصدورهـنّ النّافـرة، والكثـير مـن «الكفّـار» عـلى غـير ملـة الإسـلام الذيـن لـم يمنعهـم كفرهـم مـن إبـداء علائـم الرّحمـة. جميعهـم كانـوا قـد تركـوا عائلاتهـم ووظائفهـم ونعيمهـم الدّنيـويّ وسـاروا لمواجهـة معتـد غاشـم سـلب إخوانهـم في الإنسـانيّة الحريّـة وأبسـط أسـباب الحيـاة الكريمـة. طيلـة الأيّـام الـتي جمعتـك بهـم عـلى مـتن الباخـرة، وهنـاك في الضفّـة الغربيّـة، رأيـت آيـات في الأخـلاق

والاحترام. تلك المشاهد التي تعوّدت أن تراها بين «الإخوة» في أحضان الحركة الإسلاميّة، كانت هي هي، تتكرّر أمام عينيك، لكن بلاعبين من نوع آخر.. من أولئك الذين يحكم الشيوخ بكفرهم وعذاب مقيم في نار جهنّم يترصّدهم!

كانت رحلتكم من الميناء إلى نقاط مباشرتكم العمل طويلة ومضنية. تجربة المعابر المتكرّرة كانت تحمل في كلّ مرّة نفس القدر من الرّهبة والتوتّر. في كلّ مرّة، يمرّ رفاقكم الأجانب بسلام، بينما يتلكّأ الحرس أمام جوازي سفرك أنت وأيّوب. كنتما تحملان وثائق سفر فرنسيّة، لكنّ الأسماء والملامح توحي بغير ذلك. بعد دقائق طويلة من المماطلة، يسمح لكما بالعبور. كان الأمر مختلفا بالنّسبة إلى الفلسطينيّين. قد ينتظر أحدهم السّاعات الطّوال حتّى يسمح له بالوصول إلى مقصده!

على المعابر، كنت شاهدا على أطفال الفلسطينيّين، يرمون الجنود المتربّصين بعدّتهم وعتادهم بالحجارة. يناوشونهم ويستفزّونهم، بأجسادهم النّحيلة وقبضاتهم العارية.. فتردّ عليهم الرّشّاشات والقنابل المسيلة للدّموع. وعلى جدران البيوت القائمة على جانبي الطريق، لم تخطئ عينك آثار الرّصاص والدّمار الذي خلّفته القنابل.

في زيارة لمركز أبو ريّة لإعادة تأهيل مصابي جرحى الانتفاضة في رام الله، تأكّد حدسك وأنت تمرّ عبر المعبر، وأنت تعاين أجساد الأطفال والمراهقين الذين كانوا بالأمس ولا بدّ يقذفون الحجارة عند نقاط التفتيش وفي مواجهة الدبّابات.. ثمّ يولّونها الأدبار فرارا من القذائف والرّشّاشات، فلا عجب أن تكون معظم الإصابات على مستوى الظهر!

طوال شهرين أقمتهما في الضفّة الغربيّة، لم تكن حاضرا على

أعمـال عنـف تذكـر. لكـنّ مـا رأيتـه في ظـلّ سـكون الحـرب المؤقّـت كان أقـسى مـن أيّ عنـف. الجـدار العـازل الـذي شرع الكيـان الصّهيـوني في إقامتـه كان يحـوّل حيـاة الفلسـطينيين إلى جحيـم مقيـم. حائـط يمتـدّ على مسـافة تفـوق السـبعمائة كلـم، وارتفاعـه يناهـز الأمتـار الثّمانيـة، مثـل معتقـل ذي سـماء مفتوحـة! مـن وجهـة نظـر طبيّـة، كان الحاجـز يمنـع وصـول الرّعايـة الصحيّـة إلى أكـثر مـن مليـوني شـخص محـاصر، ويعطّـل تنقّـل الأطبّـاء والإمـدادات الطبيّـة وسـيّارات الإسـعاف. وقـد كانـت المراكز الصحيّـة بالضّفـة تفتقـر إلى المرافـق الـتي تعـدّ أوّليّـة في فرنسـا، ولا يمكـن مقارنتهـا بمـا يتوفّـر في مستشـفيات الكيـان المحتـلّ. أمّـا الجـدار، فقـد جعـل المناطـق الرّيفيّـة المتباعـدة شـبه معزولـة صحيّـا، فبـات الاعتمـاد الأوّل عـلى نشـاط المنظّمـات الإنسـانيّة. لكـنّ الحاجـة إلى تصاريـح مـرور عـبر أكـثر مـن خمسـمائة نقطـة تفتيـش متناثـرة في أراضي الضفّـة، زادت الأمـر تعقيـدا.. ناهيـك عـن التصاريـح الخاصّـة للوصـول إلى مستشـفيات الاحتـلال إذا مـا اسـتدعت الحاجـة.

تـوزّع المتطوّعـون عـلى فـرق مختلفـة، لتغطـي كلّ منهـا منطقـة معيّنـة مـن المسـاحة المحـاصرة. اخـترت وأيّـوب الانضمـام إلى عيـادة متنقّلـة. وقـد كانـت عيادتـك تقـدّم رعايـة أوّليّـة ومجانيّـة في المناطـق الرّيفيّـة والأكـثر انعـزالا، حيـث تنعـدم المرافـق الصحّيّـة كليّـا. تلـك المناطـق تكـون في الغالـب ذات أعـلى مسـتويات جهـل، نظـرا لمغـادرة الشـباب مقاعـد الدّراسـة باكـرا لامتهـان الفلاحـة والتّجـارة، ومحاطـة بالمسـتوطنات مـن كل جانـب. عرفـت مـن خـلال تعاملـك مـع أهـالي المنطقـة، أنّ العـوز وقلّـة ذات اليـد مأسـاة دخيلـة عليهـم. لـم يكـن الوضـع بـذاك السـوء قبـل الانتفاضـة. بـل لعـلّ أهـل القـرى أفضـل حـالا وسـط زيتونهـم وحقولهـم مـن أولئـك داخـل المخيّمـات.. لكـنّ الحصـار المفـروض والعـزل الإجبـاريّ جعـل الحـال العامّـة تبـدو مزريّـة أكـثر ممّـا

هـي عليـه حقيقـة.

وكان التنقّـل مـن مـكان إلى آخـر يمثّـل المعضلـة الأكـبر بالنّسـبة إلى وحدتـك. المسـافة الـتي لا تحتـاج أكـثر مـن خمـس دقائـق في باريـس، كانـت تسـتغرق منـك نصـف سـاعة أو أكـثر، بالاعتمـاد عـلى عـدد الحواجـز ونقـاط التفتيـش الـتي تجتازهـا. كانـت وحدتـك مكوّنـة مـن تسـعة أشـخاص أنـت عاشرهـم.. سـتّة أطبـاء، ممرّضـة، تقـنيّ مختـبر، صيـدليّ وسـائق. بالإضافـة إليـك وإلى أيّـوب، كان معكـم عنـد انطـلاق القافلـة طبيبـان فلسـطينيّان، وآخـران ألمـانيّ ونمسـاويّ، فيمـا كان بقيّـة أفـراد الوحـدة فلسـطينيّين أيضـا. كانـت قافلتكـم تسـافر عـبر الضفـة في حافلـة صغـيرة بـين القـرى المتناثـرة حسـب جـدول مـدروس، ويتغـيّر عـدد أفرادهـا مـن فـترة إلى أخـرى، حسـب التزامـات كلّ منكـم، فمـن المعتـاد في قوافـل المتطوّعـين أن يقـدم طبيـب ويغـادر آخـر.

قبل رحيلك بأسبوعين، قدم الزّوجان البريطانيّان راشيل ودانيال.

دانيـال الـذي كان جـار مقعـدك في الحافلـة، عـرض عليـك مـع أوّل نظـرة ودّ فنجـان شـاي دافئ مـن وعـاء حافـظ للحـرارة حضّرتـه زوجتـه الشّـابة. حاولـت الاعتـذار، لكـنّ راشـيل سـارعت بإضافـة طبـق بسـكويت الزّبـدة، فلـم تـترك لـك مجـالا للتهـرّب. قبلـت الدّعـوة اللطيفـة، وشـاركتهما إفطارهمـا الإنجليـزيّ ودردشـتهما الخفيفـة، بتحفّـظ. لـم تكـن قـد تعـوّدت التعاطـي مـع الأجانـب بتلـك الـرّوح المنفتحـة. تجاربـك الماضيـة يطغـى عليهـا الـبرود والمجامـلات.

تحدّثـت راشـيل فيمـا بعـد عـن تجربتهـا في فلسـطين. كان الزّوجـان يـزوران الأراضي الفلسـطينية للسّـنة الرّابعـة عـلى التّـوالي. يقضيـان إجازتهمـا السّـنوية كمتطوّعـين. قالـت راشـيل مـع ابتسـامة:

- بالمناسـبة، أنـا يهوديّـة! جـدّتي لأمّـي نجـت مـن الهولوكوسـت

وهاجرت إلى الولايات المتّحدة.. ثمّ استقرّت والدتي في شبابها في بريطانيا، وهناك ولدت وعشت حياتي كلّها. جدّتي لم تكن يوما مساندة لسياسة الاحتلال! من عرف ويلات التعذيب والتهجير، كيف له أن يقبل تطبيق نفس الممارسات على الآخرين؟!

أثناء عيادتها، لم تكن راشيل تتردّد في توضيح هويّتها اليهوديّة. وكانت تؤكّد على رفضها وعائلتها لما يحصل على الأراضي الفلسطينيّة.. وتطوّعها ما هو إلّا أقلّ ما يمكنها فعله للاعتذار عمّا يصدر عن بني جلدتها. وكان الفلسطينيّون يتقبّلونها.. يهزّون رؤوسهم في تفهّم، ويصافحونها في حرارة. يكفي أنّها كانت هناك.

رأيتهما كثيرا فيما بعد، وكانت الابتسامة التي يستقبلانك بها في كلّ مرّة تباغتك بحفاوة لم تعهدها. لعلّ القضيّة التي جمعتكم تربة مواتية لنموّ علاقات إنسانيّة من نوع آخر، غير تلك التي اعتدتها منذ وطئت قدماك أرض باريس؟ كنت تلازم أيّوب معظم الوقت، لكن خلال الأسبوعين اللذين تقاطعت خلالهما طريقك بطريق الزّوجين، توطّدت علاقتك بدانيال. لكنّك ستتذكر ابتسامة راشيل الدّافئة أكثر من أيّ شيء آخر.. ولسنوات كثيرة لاحقة. هل كنت لتفعل لولا الفاجعة التي شهدت تفاصيلها في الأيّام التي تلت؟ ولولا ارتباط ذكراها في وعيك بشريكتها في الاسم، راشيل الأخرى أمريكيّة الجنسيّة؟

كانت المعاينات تتمّ غالبا في مباني المدارس بالقرى التي تزورونها، وكثيرا ما يضطرّ الطبيب منكم إلى معاينة مرضى لا يشملهم اختصاصه، في غياب المتخصّصين. وكثيرا ما تمرّ بك حالات حرجة، ولا يكون بيد أحدكم حيلة أمامها! أطفال مصابون بمرض كلى مزمن، ورجال انتشر السّرطان في أجسادهم إلى مراحل متقدّمة، وأمراض أخرى تحتاج عناية فائقة وجراحة لا قبل لكم بها. ما الذي يمكنكم صنعه بقائمة الأدوية المختصرة التي تطالها أيديكم؟ وكم

غلبتكم المرارة وأنتم تضطرّون إلى تقسيم كميّة الإنسولين الشحيحة على الأعداد الهائلة لمرضى السّكّر! عرفت تحدّيًا آخر تلك الأيّام، أن تفعل ما بوسعك باعتبار الموجود.. وتغالب دمع العجز والقهر في نهاية نهار مشبع بالألم.

العمل ضمن عيادة متنقلة في فلسطين كان شرفا لك، وتجربة عميقة عزّزت خبرتك الميدانيّة وشحنتك عاطفيّا بكثير من التّضامن والحماس وفي أحيان أخرى بالتمرّد والإحباط. الصّراع القائم والعنف الممارس يوميّا على الفلسطينيّين وإحساسهم المتواصل بعدم أمنهم على أرواحهم وممتلكاتهم كان قد جعل حياة أكثرهم ضغطا متّصلا. وكنتم تتعرّفون مباشرة على حالات الانهيار النّفسيّ، رغم أنّ أحدهم لا يتحدّث عن معاناته النّفسيّة. يشتكي الكبار عامة من ضعف عامّ وآلام في الرّأس واختلال في نبضات القلب.. في حين يعاني الأطفال من اضطرابات في النّوم والتبّول اللاإرادي والكوابيس الليليّة. وفي حالات متقدّمة، يصل الأمر إلى آلام الأمعاء والصّداع والتهاب المعدة.

من العادات المسلّية التي اكتسبتها خلال الرّحلة، إدمانٌ حديثٌ على القهوة العربيّة. القهوة لا تغيب في فلسطين عن أيّ مجلس. هي قانون الضّيافة الأوّل، والبند الأساسيّ في كلّ اتفاقيّة تعقد. تقدّم القهوة أثناء العيادات من قبل المرضى الممتنّين كعلامة شكر، وهي اللّبنة الأولى لمدّ جسور التّواصل وتوطيد العلاقات. وفيما كنت تجاذب مرضاك الحديث بطلاقة وسلاسة، فإنّ راشيل ودانيال كانا يجتهدان لالتقاط الكلمات المتكرّرة وتسجيلها في مذكّرات من أجل محادثات قادمة! وبعد أربع سنوات من ممارسة تلك الهواية، صار دفترهما يضمّ مئات الكلمات. وكثيرا ما ضحكت على نطقهما المعوج لعربيّة هما حديثا عهد بأبجديّتها. لكنّهما ينجحان، وخاصّة راشيل، في كسب ثقة المراجعين، باجتهاد ومثابرة ملحوظين. كانت

تسعى بإصرار للاستغناء عن مترجم وسيط بينها وبين مرضاها، تقول بابتسامة:

- النجاح في المهمّة الطبيّة يبدأ بالضرورة بفهم حقيقي ومباشر لكلمات المريض الخام غير خاضعة لترجمة وتأويل!

في ذلك اليوم، دخلت راشيل مقرّ الوحدة الصّحيّة مهتاجة متوعّدة:

- الأوغاد! المجرمون! سأنتقم منهم يوما! سينالون عقابا يستحقّونه! سيأتي يومهم قريبا!

كانت قد فقدت مريضة للتوّ. عادت سيّارة الإسعاف التي غادرت منذ ساعة تقريبا باتّجاه المشفى أدراجها بعد أن مُنع مرورها عبر معبر رام الله الشّمالي، حيث الطريق الوحيدة الموصلة إلى بير الزّيت. مريضة مصابة بذبحة صدريّة وتحتاج إلى إنعاش عاجل، يصدّها جنود الاحتلال! كانت تصرخ في هيستيريا:

- ليسوا بشرا.. لا إنسانيّة لديهم! جنود المعبر أولئك.. إنّهم وحوش!

لكنّ الصّدمة ألجمتها، وهي تخطو داخل مقرّ الوحدة، لتجد العيون مركّزة على شاشة التلفاز.

لاحقا، سيتكرّر المشهد أمام عينيك كثيرا في نشرات الأخبار العالميّة والمحليّة التي تناقلت في هوس محموم صور المناضلة الأمريكيّة «الشهيدة». رأيتها، راشيل كوري، وهي تقف في طريق الجرّافة، تصنع من جسدها سدّا يحول بين البيوت والهدم. كانت تعوّل على إنسانيّة موهومة في شخص السّائق المندفع في اتّجاهها. لكنّها لم تدرك وهمها إلا حين تخطّتها الجرّافة بعد أن دهست جسدها الهشّ مرّتين.

ستدرك الفاجعة في دموع راشيل البريطانيّة التي لم تتوقّف عن البكاء ليومين، تنعي شقيقتها في الإنسانيّة. سيخيّم الوجوم على المركز الطبيّ بعد ذلك لأيّام، وسيصيب عقلك شلل عن التفكير لزمن أطول. كيف يمكن لأولئك الذين صفّقوا لتفجيرات مترو الأنفاق بباريس ١٩٩٥ وأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أن يقدّروا شخص راشيل، وتضحية راشيل، وأفكار راشيل؟

الفصل الخامس

- شكّ -

-١-

كنت تحسب نفسك منذ الصّبا «باحثا عن الحقيقة».

ألـم تنكـبّ في شـبابك عـلى دراسـة الحـركات الإسـلاميّة في نهـم شـديد؟ ألـم تعكـف عـلى قـراءة إصـدارات فلاسـفة الثـورة الإسـلاميّة في إيـران والمقاومـة الشّـعبيّة في الجزائـر وحركـة الإخـوان المسـلمين في مـصر؟ ألـم تبحـر في مؤلفـات فلاسـفة الأنـوار في أتـون الثـورة الفرنسـيّة؟ ألـم تلـمّ بمعظـم تصنيفـات الثـورة البلشـفيّة في روسـيا وثـورة الصّـين ضـدّ مـاو تـسي تونـغ؟

لم يكن هدفك سوى الوصول إلى الحقيقة.

كنـت تؤمـن بعقيـدة أهـل السـنة والجماعـة في القضـاء والقـدر.. أنّ الله يعلـم مـا كان ومـا سـيكون ومـا لـم يكـن لـو كان كيـف يكـون. وأنّـه يحقّـق الرّبوبيّـة المطلقـة بالمعيّـة العامّـة للـبرّ والفاجـر، وأنّـه محيـط بهـم، محـصٍ لأعمالهـم. وأنّـه خلـق الخلـق بـلا حاجـة إليهـم. وقـدّر مقاديرهـم قبـل أن يخلقهـم، وكتـب مـا يصـيرون إليـه مـن سـعادة وشـقاء. وأنّـه جعـل الخلائـق فريقـين، فريقـا في الجنـة وفريقـا في السّـعير. ولـو شـاء لجعلهـم أمّـة واحـدة.

ولكن.. (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا).

وأنّـه يُضـل مـن يشـاء، ويهـدي مـن يشـاء. وأنّ للعبـاد مشـيئة وقدرة، ولكنهـم لا يشـاؤون إلا أن يشـاء الله. وأنّـه لا يصيـب المـرء إلا مـا كتبـه ربـه، ولـو حـاول الخلـق أن يغـيّروا ذلـك مـا قـدروا.. (رُفِعَـتِ الأَقْـلاَمُ وَجَفَّـتِ الصُّحُـفُ).

لكـن منـذ دخولـك الجامعـة، بـدأ شـغفك بالفلسـفة يـزداد، فقـد

صادفت هوى لديك، كونها تعتمد على المنطق، ممّا يقربها من علوم الرياضيات، فهي تراكيب تؤدي إلى نتائج.. وكأنها معادلات. أصبح عندك استعداد نفسيّ أن تحلل حتّى مسائل العقيدة!

وحين خضت تلك التّجربة التي هزّتك من الأعماق، اعتبرتها تكليفا، وقلت لنفسك: لماذا تتردّد؟ إبراهيم عليه السّلام قال: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي). أولست أولى من إبراهيم بالشك؟ أوليس قلبك أحوج من قلب خليل الله إلى الطمأنينة؟

كنت تثق أنّ بحثك سيزيدك إيمانا. ولو أنّك استقبلت من أمرك ما استدبرت، لما خضت المهالك في هذا البحث.. ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا!

لبثت تتفكّر في قوله تعالى: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

نشأ السّؤال صادقا بريئا في ذهنك. كيف يكون مصير راشيل ومن شابهها النار؟ أليس فيهم من الخير ما يزاحم خيريّة شيوخك الرّافلين في النّعمة والمنظّرين للتكافل الاجتماعيّ دون خطوة عمليّة واحدة؟ ألا يشفع لهم الصّدق الذي تشعّ به قسماتهم؟ أنت مهما عملت، فأنت تطمع في ثواب أو تهرب من عقاب.. أمّا هم! فلا رادع لهم إلا ضمائرهم، ولا محفّز لهم إلا السّعادة التي يرسمونها على وجوه من يحسنون إليهم! من بينكم أرق نيّة وأدعى إلى الإكبار؟!

تملكتك الحيرة، وشغلك التفكير. أيعقل أن ينطبق مبدأ الخيريّة في المفاضلة بين كافر أخلاقه عالية، ومسلم شديد الأذى؟ كيف يكون الثاني أثقل ميزانا بين يدي الله؟ هل هو «الإيمان» وكفى؟ كيف تكونون «خير أمّة أخرجت للنّاس»، وتتشدّقون بخيريّتكم، كما قال

اليهود من قبل «نحن أبناء الله وأحباؤه»؟ كيف تكونون خيرا منهم إذن وأنتم تتّبعون مبدأهم وتماثلونهم فعلا؟!

ولمّا فاض بك الكيل، قرّرت أن تصارح حاتم بما يعتمل في نفسك. كنت تحسبه أكثر رفاقك علما شرعيّا، وهو الذي تربّى منذ نعومة أظفاره بين يدي شيوخ السّلفيّة في المملكة السعودية، وتخرّج في كليّة شرعيّة بالإضافة إلى تخصّصه في العلوم السّياسيّة. وقفتما عند موقعكما المفضّل على ضفاف السّين، قرب «جسر الفنون»، تراقبان أفواج الحمام المتزاحمة على الحبّ الذي تنثره أيدي السيّاح. قال حاتم بلهجة قاطعة:

- هم كفّار قولا واحدا، بلا جدال.. فقد قامت عليهم الحجّة ببلوغ البعثة النّبويّة إليهم.. وليس هناك من يجهل اليوم بخبر النّبيّ الخاتم!

قلت في عناد:

- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).. أليس هذا نصّا قرآنيّا صريحا؟

- ذاك حكم اليهود والنّصارى والصّابئين قبل زمن بعثة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم! أمّا المعاصرون له ومن جاؤوا بعدهم، فلا ينفعهم عملهم ما لم يؤمنوا به ويصدّقوه!

اكتأبتُ، وتألّمت في صمت. تتأمّل كلّ يوم في أفعال المحيطين بك. تتفكّر في الحديث النبويّ (اليد العليا خير من اليد السّفلى)، وتتساءل، كيف تكون خيرا ومصيرها النّار؟! هل ذنب هؤلاء أنّهم ولدوا لآباء غير مسلمين، وتربّوا على غير الإسلام، فلمّا شبّوا عن الطّوق عرفوا صورة غير مشرّفة عن الإسلام، إرهاب ودكتاتوريّة

وتخلّـف، فلـم يجـدوا مـا يشـجعهم عـلى الاقـتراب؟

ثـمّ مـا ذنـب مـن ولـد غـير ناطـق بالعربيّـة -وهـم مليـارات البـشر- إن هـم لـم يتأثّـروا عـلى الإطـلاق إذا تـلي عليهـم القـرآن أو طالعـوا آياتـه؟ أوليسـت معجـزة الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) هـي القـرآن، بمـا فيـه مـن تحـدٍّ بلاغـيّ ولغـويّ؟ فكيـف لمـن لا يفهـم العربيّـة أن يـدرك ذلـك، أو يكـون معنيّـا بالتّحـدّي الإلهـيّ.. (فَأْتُـوا بِسُـورَةٍ مِّـن مِّثْلِـهِ)؟

بـل لعـلّ معظـم النّاطقـين بالعربيّـة غافلـون عـن مـدى إعجـاز لفـظ القـرآن.. فـلا يدركـون منـه إلّا مـا تدركـه أنـت مـن بلاغـة شـعراء اللّغـة الصينيّـة! بـل لعـلّ أحدهـم لا يفـرّق بـين آيـات القـرآن ومـا درج عـلى ألسـنة العـوام. أولـم تطـرق أذنيـك كثـيرا في سـابق الأيّـام عبـارات يتداولهـا الجاهلـون عدوانـا عـلى أنّهـا قـرآن مـنزّل، فيصدّقهـم آخـرون دون تـردّد؟ فمـاذا بشـأن غـير النّاطقـين بالعربيّـة مـن شـعوب أوروبـا وأعمـاق إفريقيـا وشرق آسـيا والأمريكتـين؟ مـن يقـرأ منهـم القـرآن سيقرأه مترجمـا إلى لغتـه، وأنـت تـدرك أنّ كلّ نـصّ يترجـم يفقـد جـزءًا مـن روحـه مهمـا كانـت براعـة المترجـم. فمـن سـيقرأ هنـا لـن يقـرأ كلمـات الله في الحقيقـة بـل كلمـات المترجـم!

فكّـرت حينهـا، لـو أن القـرآن تـنزّل عـلى الرسـول (صـلّى الله عليـه وسـلّم) معجـزا بـكل لغـات العالـم، ليصبـح فعـلا حجـة عـلى النـاس، كل النـاس، في كل زمـان ومـكان! لـو.. ولـو تفتـح عمـل الشـيطان.

ثـمّ هالتـك النتيجـة الـتي وصلـت إليهـا.. كـم عـدد الذيـن يتحوّلـون مـن معتقـد إلى آخـر، مقارنـة بأولئـك الذيـن يرثـون معتقداتهـم، مـع هويّاتهـم الإثنيّـة وثقافاتهـم وجيناتهـم؟ عـدد ضئيـل لا يـكاد يذكـر! لـو أنّـك أنـت يـا مالـك، كنـت قـد ولـدت لأبويـن مسـيحيين في أوروبـا، لكنـت نشـأت وكـبرت مسـيحيّا مؤمنـا، لا تشـوب إيمانـك شـائبة! ولـو أنّـك نشـأت

في الهند لأبوين هندوسيين، أو في الصين لأبوين بوذيين، لكنت راضيا تمام الرّضا عن دينك، مستقيما في عبادتك! مهما كان الدّين الذي نشأت عليه، كنت لتؤمن به إيمانا خالصا، وتعتقد أنّك على صواب، وبقيّة البشر كفّار ضالّون! كنت لترى آثار دعائك إلهك ومعجزاته، ولتتحدّث عن الاختبارات والابتلاءات التي خضتها وحصّنت عقيدتك وملأتك قوّة. بل إنّك لو كنت ولدت في بيت ملحد، لبقيت ملحدا قفرا من الإيمان، أيّا كان نوعه!

أدركت في لحظة فاصلة، أنّ دينك وراثة، وعبادتك تقليد وإيمانك وهم.

حين عودتك من الرّحلة، كنت في حال نفسيّة متردّية. ما أملت تحقيقه من صفاء ذهنيّ لتكوين رؤية مستقبليّة لمشاريعك الشّخصية غدا هباء منثورا. عدت بخفي حنين.. أو أقلّ؟ وكانت الفكرة الوحيدة التي تملأ رأسك هي أن تجد تفسيرا منطقيّا لعدالة قدرك وقدر غيرك. إن كان قدرك أن تولد مسلما، فتنعم بالجنّة.. وقدر غيرك أن يولد كافرا فيعذّب في جهنّم، فلا شكّ أنّ وراء ذلك حكمة ما تغاضى الشّيوخ عن تلقينك إيّاها.

انكببت إذن على مبحث القضاء والقدر، متجاهلا التحذير النّبويّ (وإذا ذكر القدر فأمسكوا). أقدمت على الخوض في وهدة الشّوك بلا مهابة. كانت ثقتك بعقلك لا تضاهى. كنت قد حصّلت من العلوم الشرعيّة والدنيويّة ما خلته يؤهّلك إلى مراكز الأساتذة والواعظين، وحزت من الثقافة وسعة الاطّلاع ما تدّعي أنّ قلّة ممّن يناظرونك في العمر قد حازوه.. هل كان الغرور ينازعك؟ أم أنّك قدّرت نفسك حقّ قدرها فقرّرت أن تزن كلّ شيء بميزان عقلك وحده؟ أم أنّ الشكّ الذي وضع أطنابه بين جنباتك كان مثل فراش من المسامير، لا يهنأ لك النّوم ما لم تجد له حلّا؟!

بعـد أيّـام طويلـة مـن البحـث، تناثـرت الحجـيرات الأولى، منـذرة بانهيـار جبلـيّ مزلـزل. كنـت تخـوض في متاهـات لا نهايـة لهـا، تقـرأ تفسـيرات العلمـاء واجتهـادات المجتهديـن لمعضلـة الإنسـان المخـيّر والمسـيّر، ولا تجـد مـا تقـرّ بـه عينـك. رفضـت أن تسـلّم بـأنّ العقـل البـشريّ -أيّ عقـل- لا يسـتوعب «الغيبيّـات». كنـت تؤمـن بـأنّ الإسـلام هـو ديـن العقـل. ديـن يخاطـب العقـل ولا يعتمـد عـلى الخرافـات. لذلـك تُعمـل عقلـك حـدّ الإنهـاك في كلّ شيء. القـرآن ذاتـه يسـتحث العقـل، ويعـزز التفكـير الفـرداني، أو النقاشـات الثنائيـة فقـط، ليكـون أدعـى للتأمـل والتعمـق والجديـة.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا).

لـم تعتـبر مـن تجـارب السّـابقين مـن العلمـاء والمفكّريـن والفلاسـفة، أولئـك الذيـن فقـدوا إيمانهـم بعـد خـوض في هـذا المبحـث ذاتـه.. كنـت تعـرف قصّـة الفخـر الـرّازي، العلاّمـة المسـلم الـذي ألّـف مصنّفـات في القضـاء والقـدر هـي عـين الإلحـاد! ثـمّ تـاب عنهـا في نهايـة عمـره واستسـلم لإيمـان العـوام، حـتّى قـال مقولتـه الشـهيرة: اللهـم إيمانـا كإيمـان العجائـز!

هل حسبت نفسك أكبر من ذلك؟ لعلّك فعلت!

أقبلـت عـلى المؤلّفـات الفقهيّـة وكتـب الـتّراث الإسـلامي لفـرق متعـدّدة كالمعتزلـة والأشـاعرة والماتريديـة وغيرهـم، ممـن لـم تكـن تـولي مصنفاتهـم سـابقا اهتمامـك بمصنفـات أهـل الحديـث المتحفظـة، تتفحصّهـا بعـين النّاقـد. تمتعـض أمـام الآراء الـتي تراهـا متزمّتـة متحجّـرة، وتتبّـع الشـاذ منهـا، بمـا يوافـق هـواك. فـإذا وجـدت رأيـا يرضيـك ويصـبّ فيمـا تـراه، احتفيـت بصاحبـه وعكفـت عـلى مؤلّفاتـه كلّهـا تفكّكهـا وتسـبر أغوارهـا.. حـتّى إذا وجـدت منـه رأيـا لا يرضيـك، رميـت

بكلّ ما صدر عنه عرض الحائط. لم تعد تستحي من انتقاد أفكار شيخ أو آخر، وإطلاق الأحكام بالتخلف والرّجعيّة على العلماء الذين طالما اعتبرت لحومهم مسمومة. كانت هيبة العلماء قد تبخّرت من وعيك، وقد هان عليك أن تفنّد رؤاهم ومواقفهم الشرعيّة وتنعتهم بشتّى الأوصاف المهينة. وطالت ثورتك صحيحي البخاري ومسلم، فسمحت لنفسك بتفحّص الأحاديث بعين العقل، فما قبله منها فهو صحيح، وما لفظه فهو مدسوس!

وقد سعدت في تلك الفترة حين عثرت على محاضرات مصوّرة لشيوخ عصريّين، يتكلّمون لغة العلم.. أولباحثين من المسلمين ذوي الأصول الأجنبية، مثل البروفيسور «جيفري لانج»، أستاذ الرياضيات الأمريكي. قرأت كتابه الشهير «حتى الملائكة تسأل» مرارا، ورحت تروّج له بحماس منقطع النظير.. وأعجبت أشدّ الإعجاب بمحاضرته التي يروي فيها قصّة إسلامه (الغرض من الحياة). كنت تتماهى مع هذا التيّار من المفكرين، ممن اعتبرتهم يشاركونك هجومك الشّرس على القدماء. وإن كان لا بدّ لكل مُلهَم من عرّاب، فقد كان جيفري عرّابك بلا نزاع.

كنت حتّى تلك اللحظة، تهتمّ بأن تجد لآرائك الشاذّة خلفيّة شرعيّة. طالما كان هناك من يدعم موقفك، فأنت على حقّ! واستمرّ الأمر لأسابيع، تستمع بشكل يوميّ لما يناهز السّاعات العشر من المحاضرات، وتستمتع بما اعتبرته تجديدا للدّين الإسلاميّ ومعالجة علميّة للغيبيّات، بنظريّات ومعادلات.. حتّى وجدت لجوادك الجديد كبوة. حين اختلفت مع شيخك المفضّل، انتابتك ثورة عارمة. من يقترف خطأ بتلك الفظاعة، كيف يمكنك أن تأخذ منه شيئا؟

انتهيت إلى إقصاء مؤلّفات البشر كلّها.. وحده القرآن جدير باهتمامك. لكنّك كنت قد وصلت إلى مرحلة متقدّمة من تطوّر

الحسّ النقديّ. حتّى أنّك كنت تتلو آيات القرآن، ثمّ تتوقّف، وتقول في نفسك: أليس جرس الآيات المكية، وسبك لغتها، أظهر كثيرا من القرآن المدني؟ ألم يكن من الأجدر أن تكون تلك الآية بهذا الشكل؟ أو ما جدوى تكرار المعنى الفلاني في آيات متعاقبة؟ بل ما ضرورة سور بأكملها؟ هل الصّراع الشخصي مع أبي لهب وزوجه يرتفع إلى مقام كلام إلهي؟ كان الكبر في داخلك قد تضخّم، وهيبة الدّين وقدسيّته في عينيك تتضاءل وتتصاغر. حتّى لم يعد للمقدّسات معنى!

أخذت كرة الخيط تتدحرج وتتدحرج وتترك خلفها أميالا من الأسئلة المبهمة. يتلوّى الخيط في ذهنك ويلفّه، وتسكن عقلك حيرة تتحوّل إلى غضب واستعلاء. تجرأت على كل ما كان يقشعر له بدنك فيما سبق. هتكت جلال العبودية، ومزقت الغلالة الرقيقة من هالة القداسة للسّبّوح، ربّ الملائكة والرّوح!

أين أنت من (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)؟

كنت تشعل الحرائق دون وجل، وتوليها ظهرك! كنت تحتج بأن الملائكة سألت ربّ العزة، وطرحت الأعذار والحجج العقلية.. وفاتتك (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ)!

إبليس كذلك طرح الحجج العقلية والمعاذير تبريرا لموقفه!

كنت تدرك أنّ من هم مثلك نادرو الوجود، ليس غرورا، ولكنّك تعلم قيمة ما كنت عليه. فقد بذلت وبذل من ربّوك وقاموا على تنشئتك خمسة وثلاثين عاما من الجهد لبناء القامة الفكريّة التي أصبحتها، وترسيخ جذورها عميقا. وفجأة جاءت ريح عاصف أتت على هذا الصّرح الشّامخ من القواعد! فكيف بمن حصيلتهم أقلّ، وبضاعتهم مزجاة؟ هل يصمدون أمام زلزال مماثل؟ هل ستكون لأحدهم فرصة النّجاة من البركان الثائر الذي يحصد الأخضر

واليابس؟ أم تراه إصرارك على تمحيص المسألة حتّى أصولها ما أهلكك؟ غيرك كان ليسلّم بجهله ويهزّ كتفيه ويمضي. ولكنّك أنت الفخور بحصيلتك والمعتدّ بعقلك وزادك، لم ترفع راية الاستسلام حتّى انهار كلّ شيء فوق رأسك!

تداعى إيمانك وتصدّع، وفقدت ثقتك في كلّ مسلماتك دفعة واحدة. بقيت أسئلتك فاغرة فاها تنتظر أن تلقمها جوابا. لكنّ دارات عقلك كانت تحترق من الدّاخل دون أن تفرز إجابة منطقيّة واحدة. دكّ الجبل في داخلك دكّا. كان عقلك الألمعيّ عاجزا عن فكّ شيفرة هذه المعضلة!

في لحظة فاصلة، أيقنت أنّ مسلّماتك قابلة للمساءلة.

وحقائقك قابلة للتشكيك.

وثقتك المزعومة غصين هشّ في مهبّ ريح عاصف!

-٢-

مضت عليك فترة من الزّمن قبل أن تدرك حقيقة الأمر.

استمررت لأسابيع تمارس حياتك بشكل طبيعيّ ظاهريّا، وبكثير من الفتور داخليّا. جاءت القرارات دون عناء. اعتذرت من والدك وشكرت عرضه السخيّ. لم يكن واردا أن ترجع إلى أحضان العائلة في حالتك النّفسيّة تلك. وتنازلت دون نقاش كثير لرغبة سارة بالتخصّص في طبّ الأطفال، فيما استقبلت بفرح حقيقيّ نتيجتك اللاّمعة التي مكّنتك من التخصّص في جراحة العظام. لكنّها فرحة مشوبة بوخزات لا تفتر. أين رسالتك وتجديد نيّتك؟ لم تستطع أن تكتب أيّا منها بإخلاص، كما تعوّدت أن تفعل كلّما هممت بخوض مرحلة جديدة.

هل كانت البعثة سببا كافيا لينهار توازنك؟ ربّما نعم.. وربّما لا. الإيمان يذهب ويجيء، والقلب يتحوّل بأقلّ من ذلك. لكنّك فوق كلّ شيء وفيّ لعادتك، لا تقبل استسلاما ولا أنصاف حلول. تمضي في الطّريق إلى نهايتها، مهما كانت شاقّة وشائكة.. وتتبع الدّليل إلى حيث يقودك. لا يهمّ إلى أين يقودك، فأنت ستتبعه وحسب! حتّى لو كانت الطّريق مسدودة، فإنّك ستحفر خندقا تحت الأرض وتستمرّ! ذلك هو أنت.

بدأت مرحلة التخصّص مترنّحا. وإن كان توتّر فترة التأقلم الأولى قد أهداك أعذارا جاهزة تقدّمها لكلّ من يتساءل عمّا غيّرك وشغلك. عدت إلى الوحدة التي تمقتها، وقد اخترتها على المواجهات التي لا قبل لك بها. كنت ترسم بسمة مصطنعة، وتطلق ضحكة مغتصبة، حين تجمعك الجلسة بالأصحاب. تداري عنهم وجع قلبك وقلاقل

روحك، وتستمرّ في جرّ قدميك نحو المحطّات المعتادة: المستشفى، الكليّة، المسجد، المكتبة والشقّة. تتوضأ في حركة روتينية خاوية، وتدخل المسجد تسجد وتركع، دون حرارة. تصافح الإخوة وتردّد العبارات الاعتياديّة، ثمّ تنزوي في المكتبة حيث ركنك الأثير الهادئ. تقرأ وتقتل المسألة التي حيّرتك بحثا، فما يزيدك البحث إلّا حيرة وضياعا.

حينها فقط وعيت أنّ الإيمان هو ما يعطي للكيان البشريّ أصالته. ما تؤمن به هو أنت. لو غيّرت لغتك ولون بشرتك وتشرّبت عادات قوم غير قومك، لبقيت في نهاية المطاف نفسك، في جوهرك. لكنّ تغيّر قناعاتك يجعلك شخصا آخر. هل كنت لتدرك ذلك لولا نظرتها إليك؟ في عينيها قرأت ذاتك الجديدة، فولّيتها ظهرك.

بكل قسوة الدّنيا، أقفلت الأبواب دونها.

لشدّ ما طرقت، وألحّت لترفع عن نفسك الحصار.. أو لتفكّ حصارها هي. فقد كنت معتزلا إيّاها دون الجميع. قاطعتها دون سبب، فما من سبب بحوزتك يمكن الإعلان عنه! لكنّك لم تعد تحتمل رؤيتها. كانت النسخة المؤنّثة لما كنت عليه. لكنّ رفاقك كانوا كذلك على شاكلتك، رجال علم ودين وإصلاح ودعوة، فلماذا نبذتها دونا عنهم؟ كانوا أندادا لك، خطاكم تسير بشكل متوازٍ، وإن كانوا قد سبقوك في خوض سوق العمل، فقد كنت وما زلت مرجعهم العلميّ بامتياز. والأهمّ من كلّ شيء هو أنّ أحدهم لا يتوقّع منك شيئا ولا يُلزمك بشيء تجاهه. أمّا سارة، فهي تتوقّع منك الكثير! نظرتها إليك تثقلك بالالتزامات والمسؤوليّات التي ما عدت أهلا لها. كيف تخبرها أنّك لم تعد الزّوج المثاليّ «الذي سيأخذ بيدها إلى الجنّة»؟ كيف تُفهمها أنّك على مشارف الانهيار، أنّك أنقاض من الدّاخل، وهذا الخارج الذي لم يتغيّر إلّا قليلا ما هو إلّا واجهة

زائفـة تـداري بهـا حقيقتـك الملتبسـة؟

كنــت خائفــا. كأنّهــا بنظــرة واحــدة ســتطلّع عــلى ســوأتك. تباعــدت اتّصالاتـك بدايـة، وجفّـت لهجتـك واقتضبـت ردودك. كنـت قـد تعـوّدت منــذ الخطبــة أن تــزور مــنزل خطيبتــك مــرّة في الأســبوع وأحيانــا كلّ أسـبوعين. لكنّـك منقطـع عنهـا منـذ أكـثر مـن شـهر. ممّـا جعـل والدهـا يتّصـل بنفسـه لدعوتـك. تكـرّرت الاعتـذارات بشـكل مثـير للرّيبـة. أنـت متعـب تـارة، ومشـغول تـارة أخـرى. لا وقـت للقـاء هـذا الأسـبوع.. ولا الأسـبوع الـذي تـلاه. ثـم حصلـت القطيعـة الكاملـة. توقّفـت مكالماتـك جملـة واحـدة. ثـمّ لـم تعـد تـردّ عـلى مكالماتهـا الـواردة.

طاردتــك عــبر البريــد الالكــتروني، كأنــثى مكلومــة، تريــد أن تفهــم لصـدودك سـببا. إن كنـت لـم تعـد تريدهـا، فتحـلّ بالشـجاعة وأعلنهـا صراحــة، بــدل الإمعــان في الفــرار الجبــان! رأيــت عبراتهــا مــن خــلال الكلمـات. كانـت تبـكي وهـي تكتـب رسـالتها تلـك. تـردّدت بـين خياريـن. ردّ جـاف وقـاسٍ دون الكشـف عـن حقيقـة وضعـك. انتهـت الرّحلـة. ليـس هنـاك نصيـب. مـن الأفضـل لـك أن تبتعـدي عـني يـا بنـت الحـلال. أو مكاشـفة بمـا آل إليـه حـال قلبـك، دون مواربـة. كنـت تعتقـد في داخلـك أنّ مـا أصابـك خلـل مؤقّـت، مـا تلبـث أن تقـف عـلى علّتـه، ثـمّ ترجـع كمـا كنـت. لذلـك فـإنّ العزلـة والمسـافة خيـار مناسـب حـتّى يسـتقرّ وضعـك. لـم يكـن يجـدر بـك التّفريـط في سـارة وقـد عانيـت كثـيرا حـتّى حظيـت بودّهـا.

وددت لــو اســتطعت أن تــردّ عليهــا بأبيــات شــاعرك المفضــل الآن، ذاك أبــو العــلاء الفيلســوف، الــذي كنــت تســتعيذ بــالله مــن كلماتــه! أدمنــت شــعره ورحــت تــردد بينــك وبــين نفســك:

خُذي رَأيِي وَحَسبُكِ ذاكَ مِنّي   عَلى ما فِيَّ مِن عِــوَجٍ وَأَمـتِ

وَماذا يَبتَغي الجُلَساءُ عِندي		أَرادوا مَنطِقي وَأَرَدتُ صَمتي

أنت تحتاج بعض الوقت لا أكثر.

لكنّ «بعض الوقت» غدا «الكثير من الوقت».

كانت الأيّام تمضي، وأنت لا تزداد إلّا تخبّطا. حين طال أمد الجفوة، وخفت الأمل بالرّجعة التي تمنيّتها، صار من المحتّم أن تكون أكثر وضوحا تجاهها. لم تعد المسألة ابتعادا مؤقّتا، تعود بعده المياه إلى مجاريها. اكتشفت بعد شهرين من التباعد، أنّك صرت تنفر منها. لا، ليس نفورا حسيّا بين ذكر وأنثى، بل هو أشبه بقوّة طرد مغناطيسيّة: صرت تمقت فيها كلّ ما كنت عليه ولم تعده. مجرّد التفكير فيها يعيد إليك ذكريات قريبة لم تعد ترغب في استرجاعها.

بدأ الأمر حين لم تعد تستطيع الاستيقاظ لصلاة الفجر. أصبح نومك ثقيلا فجأة، أشبه بالغيبوبة التي لا تنفع معها منبّهات ولا نداءات. ثمّ تثاقلت خطاك تجاه المسجد حتّى انقطعت. ثمّ أفقت يوما وأنت تشعر بألّا قيمة لصلاتك الخاوية، فلم تصلّ. خرجت لأوّل مرّة في حياتك من الشّقة دون أن تصلّي الصّبح. سرت في اتّجاه محطّة المترو وإحساس غريب لا تفسير له يضجّ في صدرك. أنت لم تصلّ اليوم! منذ التزمت بالصّلاة قبل بلوغك السّابعة، لم تفرّط في فرض واحد، فضلا عن السّنن التي واظبت عليها حتّى وراء القضبان. أنت لم تنسَ ولم تنشغل، ولكنّك اخترت ألّا تصلّي.

هل هذه هي الحريّة التي يتحدّثون عنها؟ هل هذا هو التمرّد؟

ماذا لو رأتك سارة اليوم، وقرأت على وجهك أنّك لم تصلّ؟ ماذا لو اتّصل بك أيّوب، فأخبرته عمدا أو عرضا بأنّك لم تصلّ؟ كانت مسألة إعراضك عن الصّلاة تملؤك إثارة غريبة. أخيرا أقدمت

على خطوة حقيقيّة تترجم ما وصلت إليه في قرارة نفسك خلال رحلة البحث والتقصّي. «العهد الذي بيننا وبينهم الصّلاة»، هذا حديث تعرفه.. وأنت اليوم قد نقضت العهد.

ذلك الصّباح، اتّخذت قرارا بالمواجهة. سارة لم تعد تنفع لك. فلتنظر إلى حقيقة الأمر. سارة نفسها ستحتقرك لو أنّها عرفت بقرارك ترك الصّلاة. أنتما منفصلان الآن فكريّا وعقائديّا، بقي أن تنفصلا وجدانيّا. كنت قد هيّأت نفسك لهذا خلال الأسابيع الماضية، حتّى حسبت عاطفتك تجاهها قد ماتت. لكن حين أمسكت الهاتف وأخذت تنقر حروف رسالتك، شعرت بيد باردة تعتصر قلبك.

«لم أعد أومن. الشكوك تملؤني. أحتاج إلى العزلة والابتعاد عن كلّ المؤثرات، حتّى أجد توازني من جديد».

هل تخيّلت أنّها ستقدّر وتستسلم، وتقبع جانبا تنتظر ما تصير عليه بعد أن تسترجع توازنك؟ تعلم أنّها لم تكن لتفعل! لكنّك تدرك أنّها كانت تريدك أنت بالذات، من أجل إيمانك. تريد ذاتك الأخرى التي لم تعد. حين سقط الإيمان من قلبك، لم تعد العلاقة بينكما ممكنة. لكنّها لم تيأس منك. رغم يأسك من نفسك! بالأحرى، أنت لم تعد ترى الأمور من المنظور نفسه. كنت تعيش لحظة انسحاب لقواتك الخاصّة وراء خطّ الصفر. تقف الآن في منطقة محايدة، وتحاول معاينة الخسائر من زاوية أخرى. أمّا هي فقد أرادت لك أن تعود أدراجك. أن تقف بشجاعة على أرض المعركة وتحارب الشكوك حتّى تهزمها وتبيدها كافة! أن تنقّب عن الإيمان في أعماقك حتّى تعثر على المنبع المطمور فتزيح عنه ما تراكم من لبس. لكنّك أبيت. لم تكن ترغب. أوصدت أبوابك وحكمت باللّاعودة. وكيف يمكنك أن تحكم بغيرها وأنت لا تؤمن؟ لم يكن إيمانا باليا، متضعضعا أو متذبذبا يحتاج أن تنفض عنه التّراب أو تقوّي دعائمه. كنت قد

وصلـت إلى مرحلـة اللّاإيمـان. لـم تعـد لديـك ثوابـت.. فقـط متغـيّرات لا تـدري عـلى أيّ وضـع سيسـتقرّ حالهـا، وإن كانـت ستسـتقرّ!

بقيت نتلقّى رسائلها الغزيرة في صمت.

وهي كانت تستميت في محاولة إقناعك.

-٣-

٢٠٠٢/٠٣/٢٠

الشك، كان دوما طريقا إلى اليقين.

الشكّ ليس عيبا، ليس جرما، ليس ذنبا.

إن لـم تشـكّ ولـم تتسـاءل ولـم تعايـن إيمانـك بنظـرات ثاقبـة، فأنـت مؤمـن بالوراثـة، لأنّـك ولـدت مسـلما، لأبويـن مسـلمين، في محيـط مسـلم. أمّـا أن تشـكّ وتعـبر رحلـة الإيمـان مـن بدايتهـا، فذلـك عـين الشّـجاعة. أن تشـكّ وتبحـث فتهتـدي، فتصـير أقـوى، وإيمانـك أقـوم وأبهـى!

لا تخجـل مـن شـكّك ولا تستسـلم لـه. تعامـل معـه مثـل محّطـة ضروريّـة. أنـت تأخـذ اسـتراحة، تتراجـع إلى خانـة البدايـة، وتراجـع قناعاتـك. تتأمّـل في الخلـق وتسـتدلّ عـلى وجـود الخالـق، وترجـع إلى ربّـك عـلى بصـيرة.

لا تغلـق قلبـك عـلى الشـكّ وحـده. اطـرح الأسـئلة وابحـث عـن الإجابـات. حـاورني إن شـئت، ودعنـا نفتّـش معـا عـن إجابـات شـافية. وإن لـم نجـد سـننقب أكـثر، نعـود إلى المصـادر، ونسـأل مـن هـو أعلـم منّـا. وسـننهي الرّحلـة ونحـن أكـثر اطمئنانـا.

***

٢٠٠٢/٠٣/٢١

هل تعلم من عرف الشكّ أيضا؟ نبيّ الله موسى!

ألـم يقـل الله تعـالى في سـورة الأعـراف: (وَلَمَّـا جَـاءَ مُـوسَى لِمِيقَاتِنَـا

وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

(أرني أنظر إليك).. لقد احتاج نبي الله أن يرى الله بأمّ عينه ليدركه اليقين! فأراه الله دليلا على قدرته -سبحانه- وضعفه -عليه السلام- حين تجلّى للجبل. فكيف لنا نحن البشر العاديّين الذين لا تصلنا بالله صلة مباشرة ألّا نصاب بفتور وضعف وضيق؟ تلك محطّات متوقّعة، فيرتفع مستوى الإيمان أو ينخفض، وثباته على معدّل واحد غير ممكن.

أجبني بالله عليك. أفض إليّ بشكوكك، ودعنا ننظر فيها سويّة.

***

٢٠٠٢/٠٣/٢٢

أنت لا تريد التحدّث إليّ، ولكنّني لن أتخلّى عنك. أتدري لماذا؟

لأنني أومن بالآية الكريمة: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ).

إيمانك لن يضيع بسهولة، لكن عليك أن تقاوم من أجله. ليكون الرّضا والطمأنينة هديّتك المنتظرة. إيمانك محفوظ عند الله، لأنّك كنت صادقا فيه، متفانيا من كلّ قلبك. وسيعود إليك إن أنت سعيت إليه بصدق.

لا تستسلم الآن. لا تترك نفسك عرضة للوساوس تبعثر عزمك. استرجع تركيزك وانتبه إلى نداء قلبك. ستسمع صوته في أعماقك. «لا تضيّعني. أنا في انتظارك».

أجب على الهاتف أرجوك!

***

٢٠٠٣/٠٥/٢٣

إن كنت لا تريد أن تسألني، فاسأل الله.

توجّه إليه بكلّك، في عتمة الليل، واسأله بانكسار وتذلّل أن يهديك وينير بصيرتك، ويرفع عن قلبك الغشاوة، فهو أقرب إليك من حبل الوريد.

الله أمر بالدعاء، ووصف نفسه بالقرب، ووعد بالإجابة.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ).

اسأله الرحمة من هذه الحيرة القاتلة.

-٤-

الله لن يضيع إيمانك؟ ولكنّك ضيّعته بالفعل!

تساءلت، هل يمكن أن يكون إيمانك محفوظا في مكان ما فوق السماوات كما تقول سارة؟ كنت أوهن من أن تبحث في الأمر وتفكّر. كنت تقرأ رسائلها بفتور لامبالٍ، وقلبك أصمّ عن ندائها. أملها فيك يثير سخريّة لاذعة في داخلك. هل تدّعي أنّها تعرفك أكثر من نفسك؟! وهل كلّ ما يهمّها من أمرك أن تعود إلى القالب الذي وضعتك فيه في رأسها؟ لن تكون إنسانا محترما إن لم تكن كما تريدك أن تكون؟!

انتابتك ثورة مفاجئة. سخط وتمرّد.

ستكون شيئا مختلفا، وإن لم تتقبّلك كما أنت فليست جديرة بك!

وبما أنّك تدرك بشكل مسبق أنّها لن ترضى بذاتك الجديدة، فقد قرّرت أن تمحوها من تفكيرك أوّلا. رسائلها المتواترة أصبحت تثير غيظك. حوّلت بريدها على «الرّسائل غير المرغوبة». لكنّك بقيت تتفقد تلك الزاوية التي لم تكن تهتمّ لها سابقا، تختبر خلسة طول نفسها، رغم لامبالاتك المزعومة. لكنّك كنت أسرع منها في الانهيار. كثرة التفكير أجهدت دماغك واستنزفت روحك. عادت إليك حالة الاكتئاب القديمة بشكل أكثر حدّة.

أغلقت هاتفك، وانقطعت عن جلسة الأصحاب والمكتبة. ثمّ الكليّة.. وأخيرا المستشفى. لأيّام طويلة، لم تغادر غرفتك. لم تفتح كتابا. لم تتحدّث إلى بشر. ولم تسجد لله سجدة واحدة. يستلمك

النّعاس ثمّ يلفظك وأنت مسجّى لا تبرح مكانك إلا لحاجة ملحّة من حاجات البدن الأساسيّة. استسلمت لإنهاك شامل أرداك طريح الفراش، لا تقوى على الحركة ولا يردّد عقلك صدى فكرة واحدة.

أيّ فكرة.

ابتلعك ثقب أسود.

حتّى جاء ذاك اليوم الذي قرعتْ فيه جرسك.

قمت متثاقلا، ساخطا، مثل جذع خاوٍ يترنّح. فتحتَ الباب لتوقف رنين الجرس الملحّ المزعج، فألفيتها عنده.. ترمق هالات عينيك وشعرك المنكوش وهيئتك الفوضويّة في جزع ولوعة.

- ما الذي حلّ بك؟

كان صوتها مبحوحا مختنقا، ولم تكن لديك إجابات جاهزة. كان يمكنك أن تواجه أيّ أحد، إلّاها. كنت تهمّ بطردها والاعتذار بالمرض، بالتعب، بأيّ حجّة تجعلها تتركك في حالك. لست مستعدّا لنقاش ما ألمّ بك. خاصّة معها. لكنّك بدلا من ذلك، تحرّكت إلى الوراء، وأوسعت لها مدخلا لتدلف إلى الشقّة. أيّ شيطان استيقظ في تلك اللحظة وألهمك مخططك المتهوّر؟ رأيت التردّد في عينيها. تردّد قصير لم يدم، جعل شيطانك المتراقص يبتسم ساخرا، وهي تخطو في اتّجاه الفخّ الفاغر فاه. لم يكن في الشقّة غير سرير واحد ومنضدة ومقعد. رائحة نفس كريه تملأ الهواء وتجعل التنفّس عسيرا على المسكينة. لكنّها تواجهك في جلد، وتهتف بصوتها المتهدّج بينما تنتفض قسماتها:

- أين هاتفك؟ لماذا أغلقته؟ منذ متى لم تغادر الشقّة؟

تتوالى أسئلتها المستنكرة والمستجوبة، في حين لا تملأ فراغ عقلك إلا فكرة واحدة. فكرة شيطانيّة دنيئة. لكنّها حاضرة بشدّة،

ومستحوذة. كلّ فتاة تسعى بقدميها إلى شقة رجل بالتأكيد تدرك ما ينتظرها. كلّهن. لم يشفع لها أنّها تقف على بابك خوفا عليك «أنت»، وتمضي وراءك قلقا عليك «أنت»، تدفعها ثقة فيك «أنت»، لأنّها تعرف ما جُبلت عليه «أنت» من شهامة وخُلق.

فاتها أنّك لم تعد «أنت»!

تتنقلّ نظراتك بين دفّة الباب التي انسابت بهدوء حتّى استقرّت على الوضع المغلق، وبين السّرير غير المرتّب الذي تقف هي على مبعدة خطوتين منه. تجسّد السيناريو في ذهنك بسيطا ويسيرا. لن تقدر على مقاومة عضلات ساعديك. أنت تفوقها طولا وعرضا وسطوة. حتّى بمعدة خاوية، كانت الرّغبة وحدها لتمدّك بما يكفي من الطّاقة.

هل رأتْ الشرّارة في عينك؟ لعلّها فعلت، وأدركت ما أحاق بها من خطر، بما تعرفه عنها من حدس لخوالج نفسك بالعين المجرّدة. فقد تراجعت، تبتعد عنك خطوة، وتقترب من السّرير، حيث تريدها، خطوة. ولقد هممتَ بها وما همّتْ بك. هممت بها تريد الفتك بعفتّها، وراحت هي تدفع وتصرخ.

لولا أن رأيت برهان ربّك!

لقد شددت حجابها بيمناك حتّى انتزعته من رأسها، لتكشف خصلاتها السوداء المتهدلّة حتّى كتفيها، ودفعتها بعنفوان لتسقط على السّرير تشهق وتصرخ من هول صدمتها. لقد ثبتَّ بيسراك ذراعيها النحيلتين المذعورتين فوق رأسها، والتهمت عيناك بياض نحرها فيما رحت تحاول بعصبيّة فكّ أزرار قميصها. بينما أنت غارق في فورة جنونك، وقع بصرك على الإطار المعلق فوق المنضدة، فسرت في عمودك الفقري شحنة كهربائيّة عطّلت حركتك دفعة واحدة

وأحالتك إلى سكون عميق. كانت إجازتك في القرآن الكريم، تستقرّ في إطارها المذهّب، فخورة تتصدّر الجدار. تلقيّتها كصفعة صمّاء، وكأنّك تنتبه إلى وجودها في الغرفة للمرّة الأولى. أفلتّ الفتاة الراقدة على سريرك، وتهاويت على الأرض، لا حول لك. ينساب إلى سمعك نحيبها المتقطّع وقد انكمشت على نفسها، لا تقوى على الفرار. استمرّ النشيج المرّ لدقائق يملأ أذنيك، يعذّبك، بينما يتردّد لهاث متعب في صدرك.

الويل لك! ما كنت تصنع؟

هل إذا فقدت إيمانك، فقدت أخلاقك؟!

تلك نظريّة أخرى تثبت هشاشتها خلال فترة وجيزة. أنّ أخلاق الرّجل أصيلة في ذاته، لا تتعلّق بحلال وحرام، خوفا من العقاب وطمعا في الجزاء! تقول أنّ الأخلاق التي تصنعها المحظورات الدينيّة هي أخلاق وهميّة! أنّك لو بقيت وحدك في جزيرة مهجورة، مثل حيّ بن يقظان، لتشكّلت ذاتك بنفس الشكّل واستوت مبادئك كما عرفتها فيك منذ نعومة أظفارك! أيّ هراء هذا؟!

تسللت إلى ذاكرتك قبسات من حواراتك السابقة مع رفقاء جلستك. كنت تردّد أمامهم سؤال سقراط ليوثيفرو -والذي يسمى «المعضلة الأخلاقيّة- عن مصدر الأخلاق.. ما هي حقيقة الخير ومعاييره؟ وما هو مصدر الصّلاح والعدل؟ هل الأخلاق حسنة لأنّ الله يريدها.. أم أنّ الله أرادها لأنّها حسنة؟ هل الخير خير لأنّ الله أراده وأحبّه.. أم أنّ الله أحبّه وأمر به لأنّه صواب وخير؟ هل أمرنا الله بالصّلاح لأنّه صواب في ذاته.. أم أنّ الصلاح اكتسب الخيريّة لأنّ الله أمرنا به؟ وهل يعدل الله لأنّ العدل خير في ذاته بمعزل عن إرادة الله.. أم أنّ فعل الله هو الذي جعل العدل عدلا؟

ها أنّك قد رفعت الغطاء عن سوأتك وأبصرتها في وضح النّهار.. فألفيت معدنك ترابا.

- اخرجي.

تمتمت مختنقا، تدفن رأسك بين ركبتيك. لا تريد أن تلمحها وهي تلملم نفسها وخيبتها وتجرّ قدميها كسيرة، وهي التي رأتك كبيرا، فصغّرت نفسك في عينيها حتّى تقازمت إلى ما لانهاية. ستتلاشى الآن من قاموسها، كأنّك لم تكن.

لبثت منكس الجبين ردحا من الزّمن بعد أن اختفى وقع خطواتها في الممرّ. نظراتك تتّجه إلى داخلك، تسبر أغوارك. هل مزّق الحيوان الغشاء السّاتر وظهر للعلن؟ حيوانك المتوحّش الذي أمضيت عمرا تهذّبه بالقرآن، أفلت من عقاله ما أن أتيحت له الفرصة! تنكمش أكثر، مجلّلا بعارك. حيوان!

بعد برهة قصيرة، كنت تفكّر في الاتّصال بها والاعتذار.

كان يمكنك أن تؤلف قصّة. جرعة زائدة من دواء الأعصاب. مخدّر قويّ جعلك لا تتحكّم في أفعالك! لولا أنّ الاعتذار والصّفح لا معنى لهما الآن! ماذا لو صدّقت كذبتك وصفحت؟ لن يمكنك العودة حينئذ إلى قوقعتك، إلى ثقبك الأسود الذي ابتلعك في الأيام الماضية! سيكون عليك أن تخرج وتردّ على الاتّصالات، وتقبل أن تناقشك في شكوكك. وأنت لا تريد. لا تقدر.

إنّها النّهاية إذن؟ ستفقدها إلى الأبد؟

ستعتذر. لكن فيما بعد. بعد أن تدرك ماهية ما تعيشه من ضباب.

لكن حين رنّ جرسك في الغد، هرعت إلى الباب في لهفة الظمآن إلى منبع الماء، وقد حسبتها عادت. وكيف تعود بعد الاستقبال الذي

لقيتها بـه؟ كان أربعتهـم عنـد البـاب، فرسـانك الأربعـة. مـا أن ظهـرت أمامهـم حـتّى اقتحمـوا المـكان دون استئذان. فتـح حاتـم النافـذة عـلى مصراعيهـا ليجـدّد هـواء رئتيـك العفـن، وتأبّـط محسـن وغالـب ذراعيـك وسـاقاك في اتّجـاه الحمّـام، حيـث وضعـا رأسـك تحـت الصّنبـور غـير عابئـين بصراخـك، في حـين أخـذ أيّـوب يسـتجوبك في حـزم:

- هل شربت شيئا؟ هل أنت سكران؟!

بـدا أنّ أصـداء فعلـة الأمـس قـد بلغتهـم بشـكل مـا. الآن، يقـف أمامـك أربعتهـم وقـد تآمـروا عليـك. يـصرخ أيّـوب:

- ما الذي حلّ بك؟ انطق!

خرجـت برفقتهـم إلى الشّـارع، قالـوا لنتمـشى. لـم تكـن قـد نطقـت بعـد. يجـرّك غالـب ومحسـن، يمسـكان بتلابيبـك ولا يفلتانـك. تـودّ أن تقـول: حسـن هـذا يكفـي يـا رفـاق! لكنّـك لا تملـك أن تـشرح شـيئا بعـد. حـين وصلتـم إلى ضفـاف السّـين، أطلقـا سراحـك. اتـكأت عـلى السّـور الحجـريّ وشردت نظراتـك في المـاء، بينمـا يتبادلـون نظـرات قلقـة. مـاذا بعـد؟ لوهلـة، شـغلتك فكـرة القفـز. كـم سـيكون عمـق المـاء في هـذه البقعـة؟ وكيـف هـي برودتـه؟

- سارة كانت عندك أمس، أليس كذلك؟

يكـسر أيّـوب الصّمـت مـرّة أخـرى. إذن فقـد ذهبـت تشـكوك إليـه! كنـت قـد عرّفتهـا عـلى أيّـوب ذات مـرّة، بصفتـه مـن قدمـاء الكليّـة. جلـس ثلاثتكـم في مطعـم قريـب مـن الجامعـة، وشرح لكمـا مختلـف التخصّصـات وكيفيّـة احتسـاب المجمـوع في سـباق التخصّـص. كان ذلـك منـذ سـنتين عـلى الأقـلّ. ثـمّ رافقـك وزوجتـه إلى مـنزل والديهـا لخطبتهـا. في تلـك المناسـبة، تبادلـت أرقـام الهاتـف مـع سـميّة، زوجـة أيّـوب، وأصبحـت بينهمـا علاقـة وديّـة وزيـارات متواتـرة.

تساءلت: ما الذي قد تكون قد قالته عن لقاء الأمس؟ جاءك الردّ بسرعة:

- لقد أرعبت البنت! قالت إنّك فقدت عقلك! ما الذي حصل بالضبط؟ أخبرني!

إذن لم تقل الكثير. فتاة عاقلة. لن تكون الفضيحة في مصلحتها أو مصلحتك.

- سأكون بخير.. أحتاج بعض الرّاحة، فقط.

تكلّمت أخيرا، فجاء صوتك عميقا مبحوحا، قادما من بئر سحيقة.

- ما الذي يقلقك؟ تخصّصك ممتاز! ووظيفتك في المستشفى يتمنّاها الكثيرون! وقد كنّا معا منذ شهور قليلة في رحلة، فهل تعبت بهذه السّرعة؟

آه، تلك الرّحلة. إنّها بيت القصيد! لو أنّك لم ترافق أيّوب!

تركك الرّفاق بعد أن وعدت بتدارك أمرك والانتظام في العمل مجدّدا. كنت الوحيد من بينهم الذي لم يتزوّج بعد، لذلك اتّفقوا على أن تحضر لتناول العشاء عند واحد منهم كلّ ليلة من الآن فصاعدا، حتّى تستقرّ حالتك النّفسيّة. لكنّك عارضت وتمنّعت، ليس هناك من داعٍ ليتحمّلوا مسؤوليتك. أنت راشد وبإمكانك تدبّر أمرك. أمام إصرارك العنيد، قرّر أيّوب أنّه سيحضر لك طبقا من طعام عشائه كلّ ليلة، وقرّر الباقون نفس الشيء. تركتهم يتّفقون فيما بينهم على دوريّات مراقبتك وإطعامك وسرحت مجدّدا عبر الماء. سيكون من الجيّد أن تنهي كلّ شيء هنا، ستنعم بعدها براحة بال أبديّة.

حقّا؟ هل هناك راحة بال أبديّة ممكنة؟

أعادوك إلى الشّقّة، وتركوك محمّلا بكثير من التّوصيات. فهززت

رأسـك باسـتمرار في تسـليم لتتخلّـص مـن حضورهـم الثقيـل. هكـذا أصبح حضـور الرّفقـة بالنّسـبة إليـك. ثقيـلا. كأنّ الخفّـة تكمـن في خلوتـك بنفسـك؟ الوحـدة أثقـل. لكنّـك تعـوّدت عـلى التعامـل معهـا. جـزء منـك كان يـصرخ في ألـم، لا تتركـوني وحـدي! وجـزء آخـر كان يزمجـر في غضـب، ارحلـوا واتركـوني وشـأني!

طالعـت نفسـك في مـرآة الحمّـام حـين صرت وحيـدا، فقابلتـك نظرتك القاتمـة البائسـة. لقـد خـرج الحيـوان المكبّـل داخلـك. سرت في جسـدك قشـعريرة بـاردة. تلـك هـي الحقيقـة المخيفـة الـتي تدركهـا وحـدك.. وسـارة. مـزّق القيـد وحطّـم القفـص. لـم تعـد لـك عليـه سـيطرة. مـا الـذي سـتفعله حيـال ذلـك؟ بـدل أن تفكّـر في حـلّ للمـأزق الـذي أنـت فيـه، أخـذت تتأمّـل شـعيرات لحيتـك في ضيـق. ثـمّ وبعـزم لا تـدري مصـدره، تناولـت آلـة الحلاقـة وأخـذت تحلقهـا.. حـتّى آخـر شـعرة. تنظـر الآن إلى وجـه لا يشـبهك. وجـه أملـس حليـق. كأنـك أردت أن تؤكـد لنفسـك بأنـك غـدوت شـخصا آخـر غـير مـا كنـت عليـه.. ولـن تتراجـع.

بعد ذلك، ارتديت بدلة أنيقة، تعطّرت، وغادرت الشقّة.

كان هنـاك إصرار غريـب لا تـدرك كنهـه. رغبـة عميقـة تحـرّرت في أعماقـك وأصبحـت تسـيّر حركتـك. مشـيت في الشّـارع، تتلفّـت. أنـت تعـرف وجهتـك. سبق أن لمحـت اللاّفتـة الـتي تريـد. عـلى بعـد مائـة مـتر مـن بنايتـك، كان المحـلّ. فـوق الواجهـة الزجاجيّـة البرّاقـة، كانـت لافتـة مضيئـة تناديـك: حانـة الزّمـن الجميـل!

أحطـت الواجهـة بنظـرة شـاملة، ثـمّ أخـذت نفسـا.. وخطـوت إلى الدّاخـل.

الفصل السّادس

- ضياع -

-١-

رحلتك نحو العالم السفليّ، بدأت مع الخمر.

أولست تعرّفها طيلة حياتك باسم «أمّ الخبائث»؟

دخلت الحانة بخطوات مرتجفة. هذا مكان غريب عنك وأنت غريب عنه. ومهما بلغت جرأتك الفكريّة، فإنّ جرأتك العمليّة تلخّصت حتى تلك اللّحظة في التّرك. تركت المسجد ثمّ تركت الصّلاة والقرآن والذّكر ومجالس العلم وصحبة الإخوة. أما وقد واتتك الشّجاعة، فعليك أن تجرّب أشياء جديدة تملأ بها الخواء الرّوحيّ الذي خلّفته عاداتك السّابقة.

أخذت مجلسا عند المشرب، وتلفتّ حولك متفقّدا. كان هناك شابان يجلسان على مقربة، يتجرّعان من كؤوس طويلة العنق مترعة، ويتجاذبان الحديث. مددت ذراعك لتلامس كتف أحدهما في خجل، فلمّا استدار، قلت مرتبكا:

- معذرة، أنا جديد هنا.. بم يمكنني أن أبدأ؟

تبادلا نظرات دهشة ثمّ انفجرا ضاحكين، قبل أن يجزلا لك النّصيحة. عدّدا الأنواع الخفيفة التي يمكنك أن تستهلّ بها مغامرة السّكر. سجّلت في اهتمام ملاحظاتهما ثمّ التفتّ إلى السّاقي تذكر طلبك، كأنّما أنت في مهمّة رسميّة. رصفت الكؤوس الثلاث التي عبّأها من أجلك، تأمّلتها لبرهة تخمّن بأيّها تبدأ، ثمّ تلفّظت بالبسملة دون وعي منك!

توقّفت فجأة وارتجف قلبك في صدرك. بسم الله؟! تسارعت أنفاسك، وهممت بالمغادرة. لكنّك توقّفت. ألم تتجاوز تلك

المرحلة؟ ألم تترك الصّلاة، لماذا تنتابك الرّهبة فجأة لمجرّد ذكرك الله على حين غرّة؟ ما هي إلّا عادة ستتخلّص منها قريبا. تزدرد ريقك في توتّر، ثمّ تتنّفس بعمق لتطرد عنك التردّد. في اللحظة التّالية، كنت ترفع الكؤوس واحدة تلو الأخرى، تفرغ محتوياتها في جوفك دفعة واحدة حتّى لا تراودك نفسك مجدّدا بالنّكوص على عقبيك.

أمضيت بقيّة اللّيل تستفرغ ما بجوفك، وتتلوّى من ألم معدتك.

لا عليك، تلك ضريبة التّجربة الأولى. ستتعوّد.

ستشهد الأيّام التّالية تحوّلات جذريّة في ذاتك وشخصيّتك. أنت الذي كنت في بداية شبابك تشبّه من قبل الرّفاق بالملاك الطاهر، لبراءتك ونقائك وتقواك وورعك، أنت الذي كنت ترى اللّمم كبائر والسّنّن فرائض، ستجد طريقك نحو الخطايا والشّهوات، لتنغمس في مستنقعها تعبّ منها عبّا حتّى الثّمالة. هل كنت تنتقم من طهارتك عمدا، فتلوّثها بكلّ ما استطعت إليه سبيلا؟

حين دخلت المستشفى ذلك الأسبوع، توقّفت أمامك زميلة تشيكيّة، إيرينا، شقراء شاهقة تماثلك سنّا، وهتفت مصدومة:

- مالك؟ أهذا أنت؟

كان شكلك قد تغيّر بقدر ملحوظ بعد أن حلقت اللّحية. تفرّست الشّابة في وجهك متمعّنة، ثمّ قالت وهي تضغط على ذراعك في غنج:

- لم أكن أعلم أنّ كتلة الشعر الكثيفة كانت تخفي عينين عسليّتين جذّابتين!

لم تدرك على الفور العلاقة بين اللّحية والعينين. لكنّ حركتها جعلتك تستوعب. لم تكن لتعرف لون عينيك من قبل، وأنت تطرق كلّما مررت بها وتخفض بصرك! لكنّك اليوم ترفع رأسك وتواجه النّظرة بالنّظرة. لو أنّك بقيت نفسك، أولم تكن لتجذب ذراعك،

وتنفر من لمستها؟ لكنّك اليوم لا تستنكر الوقوف قبالتها، وكفّها البيضاء تستقرّ على ذراعك. لم يكن من العسير على أيّ كان أن يلحظ تغيّرك. ليس شكلا فحسب، بل سلوكا أيضا.

احتفالا بالتّغيير الذي طرأ عليك، انضممت إلى الزّملاء في سهرة صاخبة في علبة ليليّة! هكذا، كنت تخطو بخطوات لاهثة في عالمك الجديد. لو كنت في سابق عهدك، لما وجدت خيرا من الآيات القرآنية لتوصيف ما أنت عليه.. ألست ذاك الذي انسلخ عن آيات الله، واتّبع طريق الشّيطان.. (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث)؟

كانت إيرينا صاحبة الدّعوة. لم يكن أحدهم ليجرؤ من قبل، وأنت بمظهرك المتزّمت وفكرك المعقّد! لكنّ بوادر الانفتاح التي ظهرت عليك ذلك الصّباح جرّأتها على المحاولة. لم تتردّد كثيرا في الرّدّ. لمَ لا؟ هذا تغيير لا بدّ منه، لتمحو من أذهان المحيطين بك صورتك السّابقة. أنت شخص مختلف الآن، ولا ضير من تجربة كلّ المحظورات التي أملتها عليك تعاليم دينيّة لم تعد تعنيك.

وصلت قبل الموعد بربع ساعة، ووقفت قلقا متوتّرا أمام واجهة المبنى، يداعبك نسيم ربيعيّ قارس. حين وصلت إيرينا، اقتربت منك على غير العادة، وتطاولت على كعبها العالي لتطبع على وجنتيك الباردتين قبلتين صغيرتين وتبتسم عن صفّ من اللؤلؤ، ثمّ تأبّطت ذراعك وشدّتك باتّجاه المدخل:

- هيّا بنا!

كانت جرأتها مغرية.. ومخيفة. شعرت لوهلة بارتباك طفل غرّ أمام مدرّسة محنّكة. سرت إلى جوارها تتأمّل في ذهول تقاطيعها الحادّة وبشرتها الشّاحبة شديدة النّقاء. لأوّل مرّة تملأ عينيك من

جمالها عن قرب، دون حياء أو خجل. بالأمس، كنت تعتذر عن مصافحتها. بالأمس، كنت تضع نصب عينيك قول عائشة (رضي الله عنها): «لا -والله- ما مسّت يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يد امرأة قط إلا امرأة يملكها» لكن اليوم، كيف أصبحت اليوم؟ رغم يقينك بأنّ القبلات العابرة أمر معتاد في التحيّة بين الذّكر والأنثى في «المجتمعات المتحضّرة»، إلّا أنّ موضع قبلتيها بقي ملتهبا طيلة السّهرة، كأنّما هما جمرتان حطّتا على خدّيك.

صخب السّهرة لم يفلح في تحويل انتباهك عن البركان الذي يستيقظ داخلك، بركان شهواتك المكبوحة طويلا. تتمايل أمامك شقراء فاتنة، ترقص منطلقة، وتغازلك بنظرات وإيماءات فاضحة، وأنت منساق. لا مزيد من الحرمان. لا مزيد من الكبت. أنت حرّ طليق. حيوانك يستأثر بالحضور ويشبع جوعا دام دهرا. ترقص بدورك في حركات خرقاء، وتستسلم لقيادة شقرائك التي تقود خطواتك على الحلبة المزدحمة. لم يسبق لك الرّقص قطّ. وهل كان رقصك في زفاف شقيقتك يشبه الرّقص؟ خطوات رزينة وقورة وأنت تتأبّط ذراع أبيك من هنا وذراع شقيقك الأكبر من هناك.. هل تعتبر رقصا في عرف الرّاقصين؟ أنت السلفيّ الجادّ الذي لا يرتفع صوته حتّى ضاحكا، تقهقه في مجون وتترنّح بمفعول الشّراب الذي استسغت طعمه.

اليوم تنتصر على عقدك القديمة. لا تتوقّف مقارنا بين انتصار الآن وانتصاراتك الشخصيّة السّابقة: إجازتك في القرآن الكريم، حفظك لمتون آلاف الأحاديث، تحمّلك عذابات السّجن ورحلة الهجرة، تخصّصك في جراحة العظام. فليس هناك مجال للمقارنة. أنت تكتب في صفحة جديدة، تدشّن سجلا جديدا، معاييرك فيه جديدة تماما. لا تقارن.

في الصّباح، استيقظت نشطا على غير العادة. ملمس الشّفتين النّاعمتين على وجنتيك لا يزال هناك. سيظلّ هناك لزمن طويل. كانت قد طرأت عليك عادة جديدة، فلم يعد فنجان قهوتك التركية هو أول ما تستقبل به صباحاتك.. فقد استبدلت به كأسا من ذاك الشراب الاسكتلندي المعتق، ذهبي اللون! جلست إلى مائدتك، مواجها النافذة. مددت ساقيك، ووضعت قدميك على الإطار المعدنيّ تراقب قطرات المطر وهي تتساقط بانتظام على زجاجها محكم الإغلاق وتصغي إلى نقراتها المتتابعة في صوت رتيب.

لطالما أثار المطر شجونك، وهيّج فيك الذكريات.. لكن ما أبعد اليوم عن الأمس! تطلعت إلى الكأس في يدك، ورفعتها إلى شفتيك، وارتشفت جرعة في متعة ونفسك تحدّثك في عربدة: أين كنت غافلا عن هذا النعيم؟

قصدت المستشفى منتشيا من أثر كأسك الصباحيّة المترعة، وقد بيّتّ نيّة سوء. عاهدت الشّيطان على أن تبادرها أنت بمجرّد وصولها، وتطبع على خدّيها قبلتين بنفسك. وقفت في البهو، نترقّب مقدم إيرينا، شقرائك التي فتحت عينيك على عوالم جديدة. تضرب نبضات قلبك على جدار صدرك. ثمّ تظهر فاتنتك، تسير بثقة مستفزّة، مزهوّة بجمالها الأخّاذ وقوامها الرّشيق. وصلت عندك، ومدّت كفّها ذات الأصابع النّحيلة، لتلامس أطراف أصابعك، في تمنّع مصطنع. فاقتربت أنت، انحنيت حتّى لامست وجنتيها، وقبّلتها كما سبق أن عزمت.

حين تراجعت عنها مقطوع الأنفاس، هزّتك النّظرة التي قرأتها في عينيها. لمحت الابتسامة التي ارتسمت عند زاوية شفتيها، فيها لمحة مكر لا تخطئها العين. وقرأت كلمات تكاد تميّزها حروفا مكتوبة على صفحة وجهها. تقول.. ها قد علمتك أيها الهمجيّ شيئا من

-٢-

بعد اندفاع جنونيّ تجاه الشّهوات المكبوتة، كبحت جماحك.

أمامـك العمـر كلّـه لتتـذوّق مـن الأطايـب كلّهـا، فلـمَ التّهافـت؟ أخـذت نفسـا عميقـا وقـرّرت أن تعيـد إلى حياتـك توازنهـا. انتظمـت في مواعيـد العمـل بالمستشـفى في الأيّـام الـتي تلـت، ثـمّ كان ظهـورك الأوّل في الكلّيّـة والمكتبـة بعـد أسـبوعين. يغمـرك إحسـاس بالإثـارة وأنـت تخطـو عـبر الممـرّات، ترقـب مـا حولـك بنظـرات متلصّصـة، تبحـث عـن أمـارات الدّهشـة في العيـون المحدقـة بـك، لكنّـك لا تلقـى إلا تجاهـلا ولامبـالاة. لمـاذا عـلى الآخريـن أن يهتمّـوا بمـا يحصـل داخلـك أنـت؟ هـذا أمـر يخصّـك وحـدك!

لكـنّ اتّصـال أيّـوب أعلمـك أنّـك مخطـئ في تقديـرك. لـن يهتـمّ بمـا حـلّ بـك إلّا مـن يهتـمّ بأمـرك مـن الأسـاس.

لـم تكـن قـد تواصلـت مـع الرّفـاق بعـد لقائكـم المشـحون بالتوتّـر عنـد نهـر السّـين. كان كلّ منهـم قـد وفى بوعـده، وحـرص عـلى مشـاركتك عشـاءه، متداولـين عـلى خدمتـك. لكنّـك لـم تكـن في شـقّتك في معظـم المسـاءات. وحـين تكـون هنـاك، لا تفتـح البـاب لأحـد. كانـوا يتركـون علـب الطّعـام عنـد البـاب، فتأخذهـا في وقـت لاحـق. احترمـوا في اتّفـاق صامـت رغبتـك في الوحـدة.. إلى حـين.

أيّـوب زميلـك في مهنـة الطـبّ، ومعارفكمـا المشـتركون في الكلّيّـة والمستشـفى لا يسـعك حصرهـم. ليـس لديـك شـكّ في أنّ بعـض العيـون قـد حدّثـت بمـا رأت مـن تغـيّر حالـك. ولـم تكـن تنـوي الإخفـاء في مطلـق الأحـوال. طـوال الأسـابيع الاستشـكافية الأولى، جهّـزت نفسـك للمواجهـة.

لقـد تقبّلـت مـا أصبحـت عليـه، وعـلى المحيطـين بـك تقبّلـه كذلـك.

كان عليك أوّلا أن تجد مسمّى لما أنت عليه.

لم تعد مؤمنا. فما أنت؟

بحثـت عـلى شـبكة الانترنـت عـن أنـاس يشـبهونك.. فقـدوا إيمانهـم، أو لـم يسـبق لهـم الإيمـان، وتعرّفـت إلى فـروع شـجرة الملحديـن المختلفـة. كان هنـاك العدميّـون والدّهريّـون، والرّبوبيّـون واللّادينيّـون، والمادّيـون.. لكنّـك وجـدت نفسـك في سـلّة «اللّاأدريّـين».. لـم تكـن تـدري بعـد أيّ موقـف سـتتّخذ مـن الألوهيّـة والفلسـفة الكونيّـة. كنـت في بدايـة طريـق بحثـك، وسرّك أن تجـد تصنيفـا واضحـا لمـا أنـت عليـه. أنـت لسـت وحـدك!

حـين وجـدت أيّـوب يترصّـدك عنـد مدخـل الجامعـة، كان جوابـك جاهـزا. قلـت مـا تعـرف جيّـدا أنّـه سـيفحمه ويجعلـه يبتعـد عـن طريقـك بعـض الوقـت:

- لا أدري.. أنـا فقـط لا أدري.. هـل كنـتُ عـلى ضـلال أم عـلى هـدى؟ أحتـاج أن أبحـث أكـثر.. هـذه معركـتي الخاصّـة، ولا ينفـع أن أخوضهـا إلّا منفـردا.

كان يـدرك أنّـك أغـزر الرّفـاق حصيلـة وأكثرهـم علمـا، ولـن يعلّمـك شـيئا لا تعلمـه إن هـو جادلـك. لذلـك فقـد سـلّم لـك. سيسـمح لـك ببعـض المسـافة. سـتخوض معركتـك وترجـع منتـصرا.. يشـدّ بقبضـة قاسـية عـلى كفّـك وتلتمـع عـبرات حـسرة وعتـاب في مقلتيـه. سـتعود كمـا أنـت.. يكـرّر عـلى مسـامعك كلمـات سـارة.. الله لـن يضيّـع إيمانـك. بينمـا تهـزّ أنـت رأسـك في فتـور، وتعـده خـيرا، قبـل أن تنفصـلا.. لشـهور.

وأنـت تسـير بـلا وجهـة في شـوارع باريـس القديمـة، وقعـت عينـاك الشـاردتان دون قصـد عـلى لافتـة مضيئـة تومـض بعبـارة غريبـة:

«دافيدوف». اقتربت فضولا من الواجهة الزجاجية، فلاحت من ورائها عشرات الغليونات المصقولة، بتصميمات متنوعة بديعة، ومن حولها علب أنيقة لشتى أنواع التبغ الفاخر. حدّقت فيها طويلا، بانبهار وانجذاب غريبين. ثمّ، دون تردد، اقتحمت المتجر. أخذت تسأل البائعة بشغف مبتدئ غرّ، عن كيفية استعمال الغليون وطريقة تدخين تبغه. كنت تشعر أنك تحقق غرضا دفينا في لاوعيك من التمرّد على كل ما ألفته في حياتك السّابقة.

خرجت من المتجر وبيدك كيس ورقي، بداخله غليونان خلابا الشكل، وعدد من علب التبغ جذابة الرائحة. كنت في تلك اللّحظات قد اخترت رفيقا جديدا لخلواتك. ستجلس بعد ذلك كثيرا، مغرقا في التفكير في قضاياك العقلية، وأنت تتأمل سحب دخان التبغ التي تنفثها. استحضرت المشهد المستقبليّ في خيالك، فارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيك. سخرية من نفسك ومن أيّوب وسارة! وما دخل سارة؟ بل سارة هي بيت القصيد! حدّثتك حينها نفسك الأمارة في فجور: (الغليون سيكون من الآن بديلا لك عن «سارة». سيكون الحبيب الصامت. لن يزعجك بالأسئلة، ويطاردك بالاتهامات.. والأهم، سيقبلك على ما أنت عليه، بل سيروح عنك ويمنحك متعة وفيرة). أطلقت ضحكة مسموعة. وأنت تتحسّس محتويات كيس مشترواتك، ومضيت في سبيلك راضيا.

حين وصلت إلى شقّتك، أعددت جلستك بحماس. الغليون والتّبغ، جهاز الحاسب الآليّ، وقهوة مركّزة، استعدادا لسهرة طويلة.

بعد أن تتلمذت طويلا على أيدي الشيوخ والتهمت كتب العلم الشرعيّ، كان أوان الاطّلاع على فكر الفصيل المناوئ قد حان. مررت بفترة أخرى من التخبّط، ارتبك خلالها نظام حياتك. كان لا بدّ لك أن تحسم أمرك لتعرف من تكون في هذا الكون. كلّ قراءة تفتح في

ذهنك أبواب أسئلة جديدة ولا تسدّ شيئا ممّا سبق.. لماذا ومتى وأين وكيف؟! تملأ عقلك علامات الاستفهام والتعجّب والإنكار.

لم تكن تقتنع بشيء ممّا يقع بين يديك. لا أنت إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ولم تقدر أن تسلّم بكونك «لا تدري». هل تبقى من اللاأدريّين إلى الأبد؟ وما هذا العقل الألمعيّ الذي في رأسك إذن؟ إن لم يكن عليه أن يصوغ إجابات تفتّت حيرتك، فما دوره؟

كنت تقوم ليلك في صومعتك -غرفتك- متعبّدا في محراب الإلحاد. لا تنام إلا لماما. تدخّن في شراهة -وتلك عادة دخيلة عليك- لا يكاد الغليون يفارق شفتيك إلّا لتملأه بعناية من التبغ الفاخر، ذي الرائحة المعطرة بنكهة البرتقال. وتحتسي أقداح القهوة والشّاي واحدا تلو الآخر، لتحتفظ بيقظتك ما أمكنك. يغلبك النّوم قليلا، فتغفو على المكتب أو على الأرض، قد تنام ساعة أو نحوها، ثمّ تفيق مفزوعا، كأنّما قد فاتك أمر ذو بال، فتنكبّ من جديد على مهمّتك. وحين تتوسّط شمس النّهار كبد السّماء، تنتزع نفسك مكرها من بين دفاترك وأوراقك، وتقصد المستشفى الذي ما عاد يلهمك ويحمّسك، وهالات سوداء قبيحة تحفر وجنتيك وتغوص داخلها عينان ذاويتان.

بعد أربعة أشهر من العزلة الفكريّة، قرّرت أن تخطو خطوة أخرى. المناظرة.

تعبت من المناظرات الوهميّة التي تمور داخل عقلك وحده، تقدّم الحجّة وتدحضها بنفسك، وتستسلم لمتناقضات، تلفظك واحدة فتتلقّفك أخرى. ولعلّك مللت محاولات محسن اللّجوجة، فأردت أن تُبصر ما هو فاعله إن أنت فتحت أمامه باب المحاججة.

ضربت له موعدا، في شقّتك، وتجهّزت للقاء. لم يكن من الوارد أن تلقاه بهندام مهمل ولحية مشعثة، فتثبت صدق تخمينه وجواز

شـفقته. حلقـت وتعطّـرت ولبسـت حلّـة مكويّـة بعنايـة، ثـمّ نزلـت إلى المركـز التّجـاريّ واقتنيـت الفواكـه والعصائـر والمقبّـلات البـاردة ممّـا يليق بأمسـيتك الثقافيـة. اسـتقبلته بحفـاوة، مثـل صديقـين حميمـين افترقـا لفـترة ثـمّ عـنّ لهمـا أن يسـتعيدا ذكريـات الأمـس الجميلـة، واسـتمتعت بالدّهشـة المطلّـة مـن عينيـه.

أجلسـته عـلى الكـرسيّ الوحيـد بالشـقّة، وفضّلـت أن تظـلّ واقفـا، مهمينـا عـلى فضـاء الغرفـة بقامتـك الفارعـة. لـم تمهلـه حـتّى ينهـي كـوب العصـير، وبـدأت مرافعتـك بحماسـة. خـلال ثـلاث سـاعات، اسـتمرّ الجـدال، حاميـا في البدايـة، ثـمّ متدرّجـا نحـو الفتـور مـن طـرف صديقك، بينمـا حافظـت عـلى اتّقـاد جذوتـك حـتّى النهايـة، حريصـا عـلى أن تكـون الكلمـة الأخـيرة لـك.

غـادرك محسـن مهمومـا، عاجـزا. واحتفلـت أنـت بنـصرك في الجولـة الأولى. لكـنّ مقـدار الحـزن داخلـك يتعاظـم. كانـت تنبثـق منـك طاقـة هـدم هائلـة. تهـدم ثوابتـك ومسـلّماتك وتعبـث بمسـلّمات غـيرك، دون أن تكـون قـادرا عـلى بنـاء أفـكار أخـرى تحـلّ محلّهـا وتقيـم دعامـات روحـك المتهاويـة.

ظننـت أن محسـن يئـس منـك، لكنّـه فاجـأك. كلّهـم فاجـؤوك بأخوّتهـم الصّادقـة. فقـد ظهـر أربعتهـم عنـد بابـك بعـد يومـين لا غـير. لعـلّ محسـن اجتمـع بهـم وأفـضى إليهـم بمـا دار بينكمـا مـن نـزال غـير متـكافئ؛ فقـرّروا أن يضمّـوا قواهـم كلّهـا بعضهـا إلى بعـض، لعلّهـم يعدلـون الكفّـة الرّاجحـة! دخلـوا عليـك مثـل المـرّة السّـابقة، ولكـن بنيّـة مختلفـة. تربّعـوا عـلى السـجّاد في حلقـة، وأصغـوا إليـك منتبهـين.

لأنـك تفرّغـت لشـهور طويلـة، منكبّـا عـلى القـراءة والمشـاهدة والاسـتماع، فقـد تجـاوزت بمراحـل قدراتهـم في الجـدل الفلسـفي. صرت

تلتقيهم يوميا، حسب ما يسمح به وقتهم، أحيانا مع واحد أو أكثر، وفي نهاية الأسبوع يكتمل العقد.. وتكون أنت بالطبع «واسطة العقد». فتجلس منتفشا على الكرسي، والغليون بين شفتيك.. وتروح تعبث بالمسلّمات في عقولهم. تغمرك المتعة وأنت تنكبّ على تفتيت قوالب الدّين الموروثة لديهم بحجج عقلية لا يمكن لأحدهم دحضها. كنت ملك الجلسة بلا منازع، بتفوّقك اللّغوي، وذاكرتك الفذّة وإلمامك بشتّى الأحكام الشرعيّة.. بالإضافة إلى حصيلة هائلة لآلاف الساعات، قضيتها في التهام لكل ما وقع تحت يدك من مناظرات وكتب ومحاضرات أساطين الملحدين العرب والأجانب.

وفي نهاية كل جلسة، مهما كان الموضوع المثار، وبعد جدل تعلو فيه أصواتهم مدافعين باستماتة عمّا تقدّسه عقولهم وقلوبهم، كنت ترى الأعين قد زاغت، والأصوات قد هدأت، وتبدأ الرؤوس في الإيماء بالموافقة على ما تقول.. وقد طغت علامات العجز والألم على ملامحهم، وقد سلّموا بالهزيمة القاسية. فتغمرك مشاعر انتصار لا توصف!

كثيرا ما كانت الجلسات تستمرّ إلى وقت متأخر جدّا من الليل، وقد بدأت حول الثامنة أو التاسعة مساءً، ويحتدم النقاش، وتسوق الحجج العقلية المدمّرة الساحقة. وفي نهاية الجلسة يغادرك ضيوفك شبه مقتنعين بأن الأديان كلها وهم، وأنت تقول في زهو: ها قد حققت شيئا.. وللسّخرية المرّة، تجتمع بهم في الجلسة التالية مباشرة، فتجدهم كما هم تماما! بتديّنهم الفطريّ أو الموروث، وأفكارهم الثآبتة كالطّود، وكأنّك لم تقل حرفا واحدا على مدى جلسات كثيرة خلت!

كان غالب أشدهم ضجرا من هذا الحوار العبثي، فقال يوما يغيظك:

- ما عهدناك بخيلا يا مالك ألا تطلب لنا عشاءً؟

قلت في غضب مصطنع:

- لا أراكم تستحقون ضيافة أكثر من الماء، ومن الصّنبور فحسب!

فضحك الجميع، بينما رحت تبحث في هاتفك عن أرقام المطاعم القريبة. ارتفعت الأصوات بالاقتراحات، إلى أن استقر الرّأي على البيتزا، واختار كل منكم مراده. ثمّ أخذتم وقتا مستقطعا، في انتظار وصول الطلب.

قلت بضيق وغضب:

- أنتم مثل البدو الذين زارهم قسيس، قضى ليلة كاملة يبشر بالمسيحية، ويقنعهم بأنّ عيسى هو الإله، ويحضر لهم ما لذّ وطاب من طعام وشراب.. وهم يهزّون رؤوسهم، وكأنهم مقتنعون. وآخر الليل قال أحدهم للباقين: (وحدووووه!) فقال الجميع بصوت عال: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله!).

هتفت في غضب مكتوم ومزاح مفتعل:

- حرام فيكم ما أطعمه بطونكم كلّ ليلة!

فانفجروا ضاحكين وقال غالب ممازحا:

- صدّعت رؤوسنا يا شيخ.. لعن الله الفلسفة ومن اخترعها، لو كان الأمر بيدي لأصدرت قانونا يجرم الكلام فيها.. كالنازية تماما!

ضحُك الرّفاق، وابتسمت أنت. هممت بالردّ لكنّك وقفت حين رنّ جرس الباب. استلمت علب البيتزا ثمّ رجعت إلى وسط الغرفة، وقلت في حسم:

- وكيف لجاهل أن يدرك قيمة ما لم يعلم؟ هي ليست لأمثالك يا غالب!

- إيـــــه.. تركناهـا لـك أيهـا الفيلسـوف العبقـري! اسـتمتع بهـا وحـدك.. هنيئـا مريئـا.. ودع لي البيـتزا!

سـحب منـك غالـب العلـب الكرتونيّـة وسـط ضحـكات الرّفـاق. حـين أنهيتـم طعامكـم، التفـت إلى الجميـع وقـال وكأنـه سـيذيع سرّا:

- دعـوني أيهـا الإخـوان أقـص عليكـم حادثـة، نخـرج بهـا مـن ترهـات مالـك، وضـلالات عقلـه، الـتي صدّعـت رؤوسـنا لسـاعات!

ضحكـت بصفـاء قلـب مـن غلظـة غالـب وفظاظـة ألفاظـه، رغـم أنـه أطيبكـم سريـرة، وقلـت ممازحـا:

- سـتظل فلاحـا يـا غالـب، لـم تهذبـك باريـس، ولـم تعلمـك الإتيكيـت!

- اسـمعوا إذن.. كنـت آنـذاك في السـنة الثانيـة مـن كليـة الهندسـة المعماريـة، وكان نشـاطنا في الكليـة والحـيّ كذلـك عـلى أشـدّه، وكان اسـمي مطلوبـا لـدى المباحـث للتحقيـق معـي بشـأن تهمـة توزيـع منشـورات كنـت قـد قمـت بإلصاقهـا بتكليـف مـن الحركـة الإسـلاميّة عـلى جـدران منـازل الحـيّ في وقـت متأخـر مـن الليـل، ورصـدني أحـد المخبريـن، وكان يعرفـني بالاسـم، فـوشى بي، وخرجـت دوريّـة في اليـوم التـالي للقبـض عـليّ مـن مـنزل أهـلي، ولحسـن حظـي لـم أكـن متواجـدا في المـنزل.. وحـين عـدت وعلمـت بذلـك، أعـددت حقيبـتي عـلى عجـل وغـادرت مسرعـا، وأقمـت في شـقة أحـد الزمـلاء مـن دفعـتي، وكان مـن الطـلاب المغتربـين، ولـم تكـن حولـه شـبهة، فليـس لـه نشـاط، فرجحـت أن شـقته آمنـة لـن يطالهـا تفتيـش.. مكثـت أسـبوعا، إلى أن داهمـوا أخـيرا الشـقة، واقتـادوني إلى مبـنى المباحـث.. أنـت تعرفـه جيـدا يـا مالـك، هـل مـا زلـت تذكـره؟

قلت في أسى:

- لا أعادها الله من أيام يا غالب.. أكمل قصتك!

- وهنـاك مكثـت يومـي الأول في الزنزانـة بصحبـة بعـض الإخـوة المعتقلـين، وفي الليـل تـم اقتيـادي إلى غرفـة التّحقيـق، وبعـد عدة أسئلة مـن الضابـط المحقـق لـم يجـد مـني إجابـة مرضيـة، فأمـر أعوانـه بإحضار «الفلقـة».. وعلّقـوا قدمـي فيهـا وأنـا ممـدّد عـلى الأرض، وحملهـا اثنـان مـن مسـاعديه، ومـا أن أمسـك أحدهـم العصـا ورأيتهـا في يـده تهـتز كأنّهـا جـان، وهـمّ بالـضرب.. شرعـت في الـصّراخ دون وعـي مـني!

انفجرتـم ضاحكـين وأنتـم تتخيّلـون المشـهد، بينمـا تابـع غالـب بمنتهـى الجديّـة:

- أتصدّقـون.. لقـد قهقـه الضّابـط المحقّـق كمـا فعلتـم تمامـا، وقـال لي: تـصرخ مبكـرا قبـل الـضرب؟ فهـل سـتلزم الصّمـت ونحـن نـضرب؟ وشـاء الله أن يجعـل الظلـوم الكـذوب صادقـا في جملتـه.. أتصدّقـون يـا إخـوان، بعـد العصـا السّـابعة أو الثامنـة فقـدت الإحسـاس بقدمـي تمامـا، وكأنّهمـا تخدرتـا مـن شـدّة الألـم، وتوقفـت تمامـا عـن الـصّراخ، ولـم تصـدر عـني آهـة واحـدة، والـضرب مسـتمرّ، والمحقـق يواصـل العـدّ، إلى أن فوجئـت بـه يخاطـب مسـاعده: (كفـى أوقـف الـضرب.. خـذوه وارمـوه في زنزانتـه!) وتعجبـت مـن هـذه الزيـارة القصـيرة الخفيفـة، هـل تراهـم شـبعوا مـن الأنـس بي مبكـرا؟ ثـمّ تبـين لي السّـبب، فقـد كانـت إحـدى قدمـي قـد جرحـت مـن شـدّة الـضّرب، وأخـذت تـنزف! أعطـاني الأعـوان مناديـل ورقيـة ضمّـدت بهـا الجـرح، وكنـت عاجـزا تمامـا عـن الوقـوف عـلى قدمـي.. فضـلا عـن السّـير إلى الزنزانـة، فاحتملـني اثنـان منهـم، أحدهمـا مـن تحـت ركبـتي، والآخـر مـن أعـلى ظهـري، وسـارا بي عـلى أكتافهمـا ببسـاطة نظـرا لخفـة وزني آنـذاك.

اهـتزّت رؤوسـكم أسى وألمـا، لهـدر كرامـة الرجـال، في وطـن الرجـال، وتابـع غالـب:

- المهم يا إخواني، وجدت نفسي محمولا على أكتافهما، وعيناي تتطلعان لسقف الممرّ، وشعرت ببعض الرّاحة، فاستمتعت بالإحساس للحظات، وكأني أركب مركبة.. ونسيت أين نحن، وغلبتني عادتي في عدم ترك ذكر من الأذكار في كل أعمال اليوم والليلة، فردّدت بصوت مسموع ودون قصد مني: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون). ولم أدرك هول الكارثة التي وقعت فيها، إلا حين رأيت نفسي أطير في الهواء، وأسقط على الأرض، وصرخ فيّ أحدهما بغضب كالمجنون: أنت تقول دعاء ركوب الدّابة يابن الـ.... ازحف على بطنك إذن إلى الزنزانة، عقابا لك حتى تتعلم الأدب وتكون عبرة لأمثالك!

انفجرتم ضاحكين -بما فيكم غالب صاحب القصة- وساد جوّ من البهجة وأنتم تعلقون، على براءته، وطيبة قلبه. بينما قلت في تعجب:

- صدق القائل: لكل امرئ من دهره ما تعوّدا!

وكانوا لا ينفكّون يعودون إليك، لا ييأسون من أمرك، رغم عنادك الواضح، وعجزهم الجليّ. صارت تلك الجلسة في غرفتك موعدهم الدّائم، لا يكادون يتخلّفون عنه إلّا لمانع قاهر. وقد كنت تعجب من حرصهم على التّواجد حولك، رغم تشبّثك بموقفك وقلّة حيلتهم أمام صلفك. ولم تكن السّهرة تحافظ على جدّيّة مسارها إلّا بقدر ما تتفانى في هجماتك الشّرسة على مسلّماتهم وعقائدهم. فما أن ترخي قبضتك وتملّ احتكار الكلمة المطوّل، حتّى تتحوّل الأجواء إلى حكايات ونكات! وقد كان حضورهم يسرّي عنك رغم كلّ شيء، ويطرد جزءًا من وحشة قلبك. ولعلّ الأوقات الوحيدة التي تنتعش خلالها روحك هي تلك التي ترخي أثناءها دفاعاتك وتستمتع بصحبتهم، وتستسلم لأنسك بالرّفقة القديمة، بدون إعمال عقل كثير.

وذات ليلـة، حاولـت أن تثبـت لهـم أن إبليـس لـم يكـن يومـا عـلى خطـأ، بـل هـو كائـن نقـي، لـم يتلـوّث بنفـاق المنافقـين ومداهنـة المداهنـين! بيّنـت كـم هـو متصالـح مـع أفـكاره ومعتقداتـه. قلـت وأنـت تحـدّق في عيونهـم مبـاشرة، تبثّهـم سـمومك، تريدهـا أن تنفـذ إلى سـويداء قلوبهـم:

- هـل تعلمـون أنّ إبليـس هـو أول مـن محّـص التّوحيـد؟ لأن رفضـه للسّـجود لآدم كان مـن بـاب رفـض عقلـه أن يسـجد لغـير اللّه، إجـلالا وتعظيمـا للإلـه، فهـل يـلام عـلى ذلـك؟

ثـمّ واصلـت خطبتـك العصمـاء متطرّقـا إلى قضيّـة عصيانـه للأمـر الإلهـي. ألـم تكـن خطيئتـه قـدرا إلهيـا وقضـاء محتومـا عـلى هـذا الكائـن المسـكين؟ أليـس إبليـس منفـذا لإرادة إلهيـة بالعصيـان؟ هـل كان لإبليـس التمـرّد عـلى المقّـدر ومخالفـة المكتـوب، ثـم السّـجود لآدم كمـا أمـره اللّه؟

كانـوا مرهقـين، مـن طـول المقارعـة بالحجـج، مقطوعـي الأنفـاس مـن اللّهـاث خلفـك وأنـت تقفـز برشـاقة مـن شـبهة إلى شـبهة. كنـت أطولهـم نفسـا وفخـورا بذلـك. تجعلهـم يرفعـون أذرعهـم في استسـلام في كلّ مـرّة.. لا اقتناعـا بمـا تقـول، بـل يأسـا مـن إمكانيّـة ردّك إلى الطّريـق الـتي يرونهـا أقـوم. فجـأة قـال أيّـوب بمسـحة حـزن بعـد أن تأمّلـك طويـلا:

- يهيّـأ إليّ وأنـا أسـتمع إليـك أنّـني أرى الشـيطان نفسـه يقـف خلفـك، يربّـت عـلى كتفيـك تأييـدا.. بـل أتمثّلـه وقـد تلبّسـك وصـار يطـلّ مـن عينيـك! فلـم يسـبق لي أن قابلـت مـن يدافـع عنـه مثلمـا تفعـل!

ضحكتَ حينها. ضحكت دون مرح. كم كان أيّوب صادقا في زعمه!

لـم تنجـح طـوال سـنة كاملـة في تغيـير قناعاتهـم، وإن كنـت قـد نجحـت في جعلهـم يشـكّون فيهـا أحيانـا كثـيرة.. مجـرّد شـكّ عابـر يطـرق

قلب المؤمن المطمئّن فيمحّصه ويخلّفه أكثر اقتناعا واطمئنانا. وكنت تتساءل في مرارة.. لماذا لم يكن إيمانك مثلهم؟ لماذا لم يمرّ بك الشكّ كضيف خفيف الظلّ، بل استقرّ وطاب له المقام؟

-٣-

كنت تعرف الكثير من الملحدين في محيطك، لكن لم يبد على أحدهم همّ مثل الذي يثقل كاهلك. شأنهم شأن المؤمنين الذين عرفتهم في حياتك السّابقة، مطمئنو البال إلى إلحادهم، لا يتساءلون ولا يعذّبهم التفكير! لماذا تنشغل وحدك بـ«مَنْطقة» الحياة والموت، والخير والشرّ؟ هؤلاء إلحادهم فطريّ، مثل إيمانك الموروث.. أو خمول فكريّ وعزوف عن التأمّل في حقيقة الحياة، أو إنكار لسلطة الأديان التي فشلت مؤسّساتها البشريّة عبر التّاريخ في إقناع معارضيها بعدالة قضيّتها! لم تكن تريد أن تنتمي إلى هؤلاء الملحدين السلبيّين.. إن كان من نصيبك أن تكون ملحدا، فستكون ملحدا عن قناعة.

تعرّفت إلى «أصدقائك الجدد»، ريتشارد داوكينز وستيفن هاوكينغ. أحدهما عالم بيولوجيا والثاني فيزيائيّ، يضعان العلم في مركز اهتماماتهما -مثلك تماما- ومقتنعان بأنّ العقل يملك إجابات على كلّ شيء! قرأت جلّ إنتاجهما الفكريّ، بداية من «الجين الأناني» و«صانع السّاعات الأعمى» وصولا إلى «التصميم الكبير» و«وهم الإله».. فأبهرتك النتائج وأشبعت نهمك. هل اقتنعت حقّا بتلك النظريات العلميّة التي تفسّر كلّ شيء منذ بداية الكون؟ أم أنّها عملت عمل المسكّن الذي دوّخ أسئلتك إلى حين؟ فقد كنت تحتاج إلى تهدئة عاصفة شكوكك حتّى تواصل مسارك.

لكنّك تقف متحيّرا أمام كلمات داروين، صاحب نظريّة التطوّر، وهو يتساءل عن نجاعة العقل وجدوى الثّقة فيما يفرزه من أفكار، وهو وليد الصّدفة والانتقائيّة العشوائيّة! لم تكن تقبل ذلك بأيّ حال من الأحوال. كيف يكون عقلك المتميّز بقدراته الفائقة مجرّد

عضـو مـاديّ تشـوبه عيـوب صناعـة وأخطـاء تكويـن؟

وصلتـك إنـذارات متفرّقـة، بلهجـة تصاعديّـة، مـن المستشـفى والكلّيّة. جراحـة العظـام ليسـت ترفـا يمكنـك التخـلّي عنـه بسـهولة. عليـك أن تكـون عـلى قـدر المسـؤوليّة حـتّى لا تُفصـل مـن البرنامـج. تزامـن قـرار التزامـك تجـاه مهنـة الطـبّ مـع اسـتقرار عاصفتـك الدّاخليّـة وتسـليمك للمعتقـد العلمـيّ. أغمضـت عينيـك عـلى حيرتـك القديمـة وركنـت جانبـا نقـاط الاسـتفهام العالقـة. سـتركّز الآن عـلى: كيـف تكـون ملحـدا مثاليّـا.

في وقــت مــا مــن مرحلــة دراســتك الجامعيّــة، كنــت تــردّ عــلى الملحديـن وتتحدّاهـم في مناظـرات علنيّـة أو في لقـاءات خاصّـة مـع قلّـة مـن الحضـور. تتذكّـر الآن كيـف كنـت تقـف شـامخا، في عينيـك نظـرة شـفقة واسـتصغار.. هـؤلاء الخرفـان الشّـاردة عـن القطيع، سـنعيدهم إلى مكانهـم في حظـيرة الـرّبّ الآمنـة. كانـت فكرتـك عـن الشـخص الملحـد أنّـه ضائـع وتائـه، أنـانيّ، وأخلاقـه ناقصـة أو منعدمـة. والآن تريـد أن تثبـت لذاتـك القديمـة أنّـك لـن تكـون عـلى تلـك الشـاكلة المذمومـة.. سـتثبت -ولـو متأخّـرا- أنّـك سـتكون ملحـدا صالحـا كمـا كنـت مؤمنـا صالحـا!

لـم تنقطـع عـن صحبـة إيرينـا طيلـة شـهور بحثـك، وإن كانـت لقاءاتكمـا قـد غـدت متباعـدة. لكـن كلّمـا قابلتـك في بهـو المستشـفى، أخـذت بذراعـك وانتحـت بـك جانبـا، تغـدق عليـك مـن حضورهـا الممتـع وحديثهـا المسـلّي. كانـت سـارة قـد غـدت ماضيـا سـحيقا لا يخطـر لـك عـلى بـال في تلـك الفـترة. دفنتهـا في ثنايـا عميقـة مـن ذاكرتـك، وأهلـت عليهـا تـراب النّسـيان. وإيرينـا كانـت تشـغل فراغهـا بجـدارة وحرفيّـة. إنّهـا قطعـة مـن السّـكر تنسـي أيّ رجـل حماقاتـه الماضيـة مـع غيرهـا مـن النّسـاء. كانـت كذلـك، قبـل أن تملّهـا، أو تـدرك أنّـك تسـليتها المؤقّتـة!

إيرينــا تســبقك بســنوات ضوئيّــة مــن حيــث التجربــة والمهــارات الاجتماعيّـة. أنـت قـد عشـت تجاربـك الخاصّـة الـتي لا تخطـر عـلى قلـب

إيرينا قطّ -السجّن والنّضال السّياسي والهجرة السرّيّة والجهاد- لكن تنقصك الخبرة الحياتيّة الكافية لتندمج في عالمك الجديد. لذلك استسلمت لخطواتها تقودك، في حلبة الرّقص، وفي المحافل الاجتماعيّة والسّهرات الجامحة. تعلم أنّها في مهمّة معك، ترضي غريزة أمومة ما، تأخذ بيدك إلى عالمها وتعلّمك أبجديات الحياة الحرّة المنفتحة. كانت تكتفي بدورها الإرشاديّ، ويكفيها فخرا أن تكون «مرّتك الأولى» لأيّ شيء على يديها. وما أكثر ما علّمتك إيّاه! الرّقص، القمار والعلاقات الجسديّة!

لم يكن انجرافك وراء الشهوات إلّا اندفاعا مؤقتا.. مثل مراهق يكتشف العالم للمرّة الأولى. ثمّ ما لبثت أن سيطرت على قاربك ووجدت توازنك على جانب الوادي، حتّى لا يأخذك التيّار بعيدا، إلى حيث الشلالات الهادرة والهاوية السّحيقة. قرّرت أن تترك التّدخين الذي أدمنته في ليالي سهرك باحثا عن الحقيقة، فأنت طبيب في نهاية المطاف، والصحّة شاغلك الأساسيّ. إنّها مسألة منطق ليس إلّا. أمّا الكحول، فقليل منه من حين إلى آخر لا يضرّ. ستحرص على ألاّ تثمل ويغيب عقلك وتخدّر حواسّك، حتّى يكون سلوكك قويما متّزنا، مثل أيّ مواطن صالح.

تكرّر لنفسك في إصرار: الدّين لا علاقة له بأخلاقك! ستحتفظ بأخلاقك رغم غياب القناعة الدينيّة. كأنّما تحاول أن تقنع نفسك أوّلا.. تثبت نظريّة سبق أن أعلنت فشلها في بداية تعرّفك على ذاتك الجديدة.

بعد سنة أولى من التذبذب والتردّد والاكتشاف والبحث، بدأت حياتك تستقرّ. أصبحت واثقا ممّا تريده. أمّا عائلتك، فقد أبقيت كلّ شيء سرّا عنهم، إلى حين. ما عدا أمر انفصالك عن سارة. انقطع عنك محسن وغالب وحاتم، بعد أن يئسوا من إمكان رجعتك إليهم كما عرفوك. وحده أيّوب، طاله نصيب من اسمه، فصبر معك صبر

أيّوب. كان يتردّد عليك من حين إلى آخر في المستشفى، فتحرص على أن تلقاه بترحاب، وتبالغ في إظهار سعادتك وارتياحك لما آل إليه أمرك. ورغم اجتهادك لتثبت أنّ كلّ شيء على ما يرام، فقد كانت تغيظك نظرة الأسف والشّفقة في عينيه.

نفس النّظرة التي كنت تلقيها على الملحدين الذين تناظرهم.

خراف الرّبّ الشّاردة!

وذات مرّة، قال وهو يودّعك عند باب مكتبك:

- من تراه الخاسر بيننا؟

حدّقت فيه في استغراب. عن أيّ خسارة يتحدّث؟

- هل فكّرت لبرهة.. ما الذي تجنيه من إلحادك؟ ما الذي يضيفه نسف المعتقدات الدّينيّة لوجودك؟ هل يستحقّ منك كلّ هذا التفاني؟ في المقابل.. ما الذي تخسره، لو تبيّن أنّ الإله حقّ، والجنّة والنّار حقّ؟ من منّا أعظم ندما يوم لا ينفع ندم؟

هززت كتفيك حينها في ضيق وقلت:

- ألا يجب أن أقتنع بوجود تلك الأشياء أوّلا لأخشى النّدم لاحقا؟

لكنّك لم تكن بتلك الثّقة في جوابك، وأنت الضّليع بمسائل الإحصاء والاحتمالات. لم يغب عن ذهنك «رهان باسكال».. «أن تؤمن بالله ويكون موجودا، فستخلد في الجنّة، وهذا ربح غير محدود.. فإذا لم يكن موجودا فلن تجزى شيئا وتلك خسارة محدودة. أمّا ألا تؤمن بالله ويكون موجودا، فستخلد في جهنّم وتلك خسارة غير محدودة، فإن لم يكن موجودا فلن تعاقب، لكنّك تكون قد عشت حياتك كما تشاء، وذلك ربح محدود»! بتحليل رياضيّ بحت، يبدو الإيمان بالله الخيار الآمن.. يجلب الرّبح ولا خسارة فيه. لكنك لم ترد أن تمعن التّفكير في خسارتك المرجّحة. ليس وأنت لم ترسم صورة مكتملة الأركان بعد عمّا تريد أن تكون عليه.

الفصل السابع

- نكران -

-١-

حين رأيت ريم، فاجأك إحساس شبيه بما عرفته حين رأيت سارة أوّل مرّة.

إحساس عجيب بالألفة، بين غريبين متشابهين. كانت تشبهك كما شابهت سارة ذاتك القديمة. راودك ذات الاحتياج العميق للغارق المتعلّق بقشّة. كما انتشلتك سارة في وقت سابق من إحباطك المزمن وفراغك العاطفيّ، فقد امتدّت كفّ ريم لتخرجك من بوتقة البحث التي تصهرك وتعجنك بقسوة. حين التقيتها، قرّرت أنّك تريد أن تستريح لبعض الوقت، وتستمتع فقط برفقتها.

كان لإيرينا الفضل في لقائكما الأوّل. في المطعم الصّاخب الذي اجتمعت فيه شلّة السّهر، رأيتها. كانت شلّة إيرينا تتغيّر كلّ مرّة صاحبتها فيها، كأنّ معارفها وأصدقاءها لا حصر لهم ولا عدد. تختلف الوجوه في كلّ مرّة، ويبقى الجوّ المبهج المشتعل عنصرا قائما. جلست في تلك الأمسية عند طرف المائدة، تصغي في صمت لثرثرة جيرانك، وتلوك لقيمات «الستيك» المشويّ ببطء. على الطّرف الآخر جلست حسناء ذات ملامح شرقيّة، هادئة هي الأخرى، تبتسم من حين لآخر وتهزّ رأسها مجاملة. بدت لك مألوفة من أوّل نظرة، بخصلاتها الثائرة التي تلتفّ حول عنقها وتحيط وجهها الصّغير النّاعم بهالة كستنائية محبّبة، وعينيها الواسعتين الجريئتين، وبشرتها القمحيّة الصّافية. فلبثت تحدّق فيها لبرهة، وحين انتبهت لنظراتك خفضت عينيك حرجا وتظاهرت بالانهماك. يستحضر عقلك مشهدا مشابها، مشهد نظرتك الأولى لسارة في مدرّج الجامعة. لكنّ ريم من

طينة أخرى، تنسيك الذكريات البعيدة وهي تقترب منك على منصّة الرّقص، وتبادرك في مرح:

- أعرف أنّك لا تغازلني بنظراتك. أبدو وجها مألوفا، أليس كذلك؟ لست شخصيّة عامّة ولكنّني أظهر على التلفاز من حين لآخر!

ريم مراسلة صحفيّة لقناة «سي نيوز»، تتمتّع بحضور قويّ وشخصيّة مرحة. تنسى بسرعة وقار سارة الزّائد عن الحدّ، بينما ريم تدور أمامك حول نفسها منسجمة مع نسق الموسيقى. تحدّثتما كثيرا تلك الليلة، لا شيء شخصيّ، مجرّد عموميّات لبقة بين غريبين متآلفين. سألتك بدون اهتمام:

- هل أنت صديق إيرينا؟

نفيت التّهمة بسرعة. لست صديق أحد. تعلن أنّك متاح وغير مرتبط. لكنّها ضحكت من ردّة فعلك، وتاهت عنك بين الرّاقصين. لم تعرف تلك الليلة متى انصرفت وبرفقة من، لكنّها اختفت ولم تظهر بقيّة السّهرة، مثل سندريلا لم تخلّف خفّا زجاجيّا ولا من أيّ نوع آخر. ظللت تلوم نفسك طويلا لأنّك لم تطلب رقم هاتفها! لم تجرؤ على طلبه من إيرينا، لكنّك عدت مرّات كثيرة إلى المطعم ذاته وحيدا في الأيّام التي تلت، علّك تلقاها صدفة.. دون فائدة.

شرعت منذ ذلك الحين في مشاهدة محطّة عملها، «سي نيوز»، التي لم يسبق لك الاهتمام بما تقدّم. وبحثت في جنون عن صفحتها الشخصيّة، معتمدا على اسمها الأوّل وحده.. وسقطت في متاهة لأيّام طويلة، حتّى أصابك اليأس. فتجرّأت، وسألت إيرينا عنها. تذكر النّظرات التي طالعتك بها، صمتها المتعمّد، كأنّها تحاول التذكّر، بينما تكاد تجزم أنّها تتخذ قرارها، هل عليها إخبارك أم التكتّم، ثمّ لهجتها الباردة وهي تشيح بوجهها في عدم اهتمام:

- لا أذكر! لا أظنّني أعرفها.. الأصدقاء يحضرون أصدقاءهم أيضا.. لا أعرف معظم الحاضرين!

انصرفت عنها في خيبة. هل ضايق إيرينا اهتمامك المفاجئ بأنثى غيرها؟ تعلم جيّدا أنّك لم تكن محلّ اهتمام إيرينا ذاتها، ولم يكن هناك من داع لغيرتها الغريبة، لكنّها حسبتك لفترة لعبتها، ولم ترد التنازل عنك لغيرها. بقيت متردّدا لفترة.. هل تبتعد عن إيرينا التي أصبحت تتصرّف بغرابة، أم تواظب على مرافقتها علّك تلقى ريم مجدّدا بواسطتها؟

لكنّ الصّدفة كانت حليفك غير المتوقّع هذه المرّة!

كنت مناوب الطّوارئ نهاية ذلك الأسبوع، ولم يكن أحد غيرك في قسم جراحة العظام. رأيتها تدخل عليك فجأة، بعيون منتفخة دمعا، مستندة إلى الممرّضة التي تلقّفتها عند المدخل وهي تنزل من سيّارة الأجرة. كيف تعرّفت من نظرة واحدة إلى الحسناء ذات العيون المرسومة بدقّة بقلم الكحل والشّفتين اللاّمعتين تحت إضاءة المطعم الخافتة، في الفتاة الباكية ذات الوجه الخالي من الأصباغ التي دخلت عليك جناح الطوارئ ذلك الصّباح؟ هرولت نحوها في لهفة وأنت لا تصدّق أنّها هي هي! ورغم الشكّ الذي راودك بأن تكون مخطئا، فإنّك اخترت أن تصدّق قلبك، وتحتضن الأمل الجميل الذي طرق بابك.

لمْ يكن الظّرف ملائما لعتاب أو استرجاع ذكريات، أو حتّى مجرّد التّثبّت من هويّتها! كشفت بسرعة على ساقها، ثمّ تنهدّت. كان مجرّد شرخ يحتاج جبيرة ولا يستدعي الجراحة، فطمأنتها وقمت باللاّزم.

حين انتهيت من عملك، كانت قد هدأت وبدت أكثر توازنا. تحدّثت بتلقائيّة عن حادثة سقوطها على درج العمارة بينما كانت

تخـرج لحصّـة الرّكـض اليوميّـة. كانـت ترتـدي بدلـة رياضيّـة وتربـط شـعرها السَّـبط في شـكل ذيـل حصـان، والحديـث يتدفّـق مـن شـفتيها ناعمـا ومريحـا. خـلال دقائـق، تأكّـد إليـك أنّـك قـد عـثرت عـلى سـندريلا الخاصّـة بـك. ثـمّ رأيتهـا تتوقّـف فجـأة وتحـدّق فيـك غـير مصدّقـة.

- أنت مالك! صديق إيرينا!

ابتسـمتَ وقـد تعرّفـتْ إليـك أخـيرًا. لقـد تطلّـب الأمـر بعـض الوقـت مـن طرفهـا، ونظـرة واحـدة مـن طرفـك. لكنّـك لا تلومهـا، فهـي لاهيـة عنـك بألـم سـاقها. واصلـتْ هـي في حمـاس:

- أنت طبيب إذن! هذا مدهش!

وددت لـو تخبرهـا كـم افتقدتهـا، وكـم بحثـت عنهـا.. لكنّـك لـم تـرد إحراجهـا أو إظهـار تهافتـك. لكـنّ الدردشـة اسـتمرّت بينكمـا طويـلا، ووجـدت نفسـك تتعمّـد التلكّـؤ لتطيـل عمـر الجلسـة. وكأنّمـا انتبهـت إلى مـا تفعلـه، فقـد قالـت بنفـس العفويّـة الـتي أسرتـك وهـي تخـرج هاتفهـا:

- هـات رقمـك، مـن الأفضـل أن نواصـل الحديـث خـارج أوقـات عملـك!

ضحكـت مـن جرأتهـا ووافقتهـا الـرّأي دون تـردّد. لوّحـت لـك وهـي تغـادر حجـرة الفحـص، متحاملـة عـلى رجـل واحـدة وقالـت:

- انتظر اتّصالي!

وجاء اتّصالها مساء اليوم ذاته كما وعدت.

عرّفتـك عـلى نفسـها أكـثر، فرنسـيّة مـن أصـل مغـربيّ، في التّاسـعة والعشريـن مـن عمرهـا.. بينمـا تحتفـل أنـت بسـنتك التّاسـعة والثلاثـين خـلال شـهور قليلـة! لمـاذا تنجـذب باسـتمرار إلى فتيـات يصغرنـك بعقـد أو أكـثر؟ مـا الخطـأ في إيرينـا؟ ألـم تكـن أقـرب إليـك سـنّا وتجربـة في الحيـاة؟ ربّمـا كنـت تـرى نفسـك غـرّا سـاذجا أمامهـا، في حـين تجـدك

سارة وريم رجلا ناضجا؟ لكنّ ريم تكبر سارة بثلاث سنوات كاملة. وهي المقتربة الآن من عتبة الثلاثين لا شكّ في كونها أكثر مسؤوليّة وخبرة من الفتاة ذات الواحد والعشرين ربيعا التي كانتها سارة حين تعرّفت إليها.. وإن كنت لا تشكّ في نضج سارة المبكّر!

بعد حوالي شهر من الاتّصالات المتفرّقة، أخبرتك باستئنافها العمل في المحطّة. ستحرص منذ ذلك الحين على متابعة فقراتها على القناة الإخباريّة، وقد أصبحت عالما بمواعيدها الدّقيقة. كانت تبدو جديّة ورسميّة إلى حدّ بعيد وهي تمسك المصدح وتسرد نشريّتها بكلمات فصيحة منتقاة وتهزّ رأسها في وقار بعد كلّ تعقيب من مقدّم الفقرة. لكنّك تلمح في طرف عينها شقاوة لا تقاوم، تشدّك إليها كلّ يوم أكثر.

كانت ريم هديّة غير متوقّعة في وقت كنت فيه في أمسّ الحاجة إلى رفيق.

بعد فترة، تحدّثتما عن ميولكما الفكريّة وقناعاتكما الدينيّة، فاكتشفت بارتياح كبير أنّها هي الأخرى قد تركت دينها الموروث وآمنت أنّ العلم يقدّم كلّ الإجابات على حقائق الكون. لم تبحر في نقاشك معها إلى المناطق الملغومة التي سبق أن ابتلعتك ولم تجد لها حلّا بعد، لكنّها دعتك إلى مشاركتها هواية مشاهدة الأشرطة الوثائقيّة. ستكون أوّل زيارة لشقّتها، بعد شهرين من لقائكما الأوّل، لمتابعة عرض عن «نظرية الأوتار الفائقة والأكوان المتعددة»!

كنت تندهش كلّ يوم أكثر، وأنت تغوص في عالمها أعمق. ريم لا تشرب ولا تدخّن. ليس لقناعة ما، ولكن لأنّها تهتمّ لصحّتها. ريم تمارس رياضة الجري واليوغا بانتظام، وتتناول وجبات خفيفة وصحّيّة معظم الوقت. وجباتها مُحضّرة منزليّا غالبا أو من مطاعم

موثوقة حين يستدعي الأمر. ريم مثقفة ثقافة غزيرة وعالية، مهتمّة بأنواع المعارف كلّها دون تمييز، تصنع فكرتها وموقفها الخاصّين من كل شيء تقريبا.. الفلك وعلم الأحياء والجيولوجيا والفيزياء والتّاريخ والرّياضيّات والأدب! كنت تعيد اكتشاف نفسك من خلالها وتسترجع شغفك القديم الذي سرقتك منه دراسة الطبّ. وأعدت بفضلها هيكلة عالمك الخاصّ ورمّمت نظام حياتك الذي تبعثر في فترات انقطاعك عن محيطك ولم تعد ترتيبه منذ ذلك الحين.

متى عبرتما حدود الصّداقة البريئة وخطوتما في منطقة الحبّ؟ ربّما كان الأمر جليّا بالنّسبة إليك منذ النّظرة الأولى. فلطالما سقطت في الهوى من نظرة! لكنّها أخذت الوقت الكافي لتختبر مشاعرها، وأنت لم تستعجلها. حتّى قالت ذات يوم بأسلوبها العفويّ المعهود:

- عليّ أن أعترف.. لقد أدمنت أحاديثنا على الهاتف ولقاءنا الأسبوعيّ! أنت لا تنوي تركي في القريب، أليس كذلك؟ وليست لديك زوجة وأطفال تخفيهما عنّي؟

ضحكت كثيرا، كما تضحك دائما أمام تصريحاتها الجادّة التي ترسلها في قالب نكتة! ثمّ طمأنتها إلى أنك لن تتركها أبدا، وألّا تاريخ خفيّا لديك تحجبه عنها. ستتخذ بعد ذلك لقاءاتكما طابعا أكثر حميميّة وانفتاحا. كان كلّ منكما منشغلا بعمله طيلة الأسبوع، فتتحادثان على الهاتف لساعة أو نحوها خلال السّهرة، وتمضيان معا كامل عطلة نهاية الأسبوع. تتسكّعان أمسية السّبت في أحياء باريس الصّاخبة وتنجرفان مع تيّار مدينة الأنوار سريع النّسق، ثمّ تسترخيان نهار الأحد، تتمدّدان على العشب النديّ في إحدى الحدائق وتستقبلان أشعّة الشّمس بحفاوة، أو تحتسيان الشوكلاتة السّاخنة والفشار أمام شاشتها العملاقة، إن توارت الخيوط الذهبيّة وراء السّحب.

كان الوقت مع ريم يتسرّب دون أن تشعر، وكان إحساسك بها يتعمّق كلّ يوم أكثر. تستعذب قربها، واهتمامها. سارة لم تكن يوما بذلك القرب! كانت حواجز الدّين والعرف تباعد بينكما وتخلق العراقيل. تراقب كلماتك وحركاتك ونظراتك، حتّى لا تقترف ما لا يجوز للخاطب! لقد تحرّرت من كلّ ذلك الآن. كم كانت مريحة حياة الحريّة!

كنتما تجلسان معا على الأريكة الوثيرة في شقّتها، حين سألتها باهتمام:

- ما هو حلم البنت الصغيرة السّاكنة فيك؟

هتفت دون تفكير:

- أن أسافر حول العالم!

- أيّ جزء من العالم بالضبط؟

بحثت على مكتبها عن خريطة قديمة، فردتها على الطاولة المنخفضة أمامكما وانحنت تعلّم بالقلم:

- زرت معظم بلدان أوروبا وأمريكا، وكانت لي رحلات عمل إلى الخليج والشرق الأوسط.. كذلك شمال إفريقيا.. أمّا الشرق البعيد فلا أعرف عنه شيئا!

قلت في حماس وأنت تأخذ منها القلم:

- منْ أين نبدأ؟

بادلتك نظرة طويلة مستفسرة. هل تتحدّثان الآن عن مشروع سفر مشترك؟ أم هو مجرّد عبث طفوليّ؟ أغرتها نظرتك الجادّة فسرت الحماسة إليها. أشارت بإصبعها على نقاط متتالية:

- الهند.. إندونيسيا.. الصين.. تركيا!

- لماذا هذه البلدان بالذّات؟

سألتها وأنت ترسم دوائر على النقاط التي أشارت إليها.

- الهند، لأنّني أحبّ رقصهم الحيويّ في جماعات، وملابس «الساري» الملوّنة المبهجة، وطعامهم الحارّ المليء بالبهارات.. الصّين، بلد مثل قارّة، يقال أنّ أكثر المشاهد الطبيعيّة خلبا للألباب تقبع هناك بين جباله وأنهاره.. إندونيسيا، الشّواطئ السّاحرة وركوب الفيلة، والغوص مع الأسماك الملوّنة، وتنوّع ثقافيّ لأكثر من ثمانية عشر ألف جزيرة، ذلك كاف لجعلها أكثر بلدان العالم إثارة.. وأخيرا تركيا، البلد الواقع بين آسيا وأوروبا، الجامع بين الثقافتين المتناقضتين والمتكاملتين.. أشعر أنّ رحلة على امتداد شهرين تشمل هذه المحطّات الأربع ستكون تجربة حياتيّة مميّزة!

تأمّلتَ الخريطة لبرهة، ثمّ رفعت عينيك إليها وقلت بمرح:

- أعتقد أنّه بإمكاني أن آخذ إجازة من المستشفى لشهري يونيو ويوليو.. هل يبدو هذا مناسبا؟

- هل أنت جاد؟

قفزت لتعانقك في حماس ثمّ أخذت تصفّق في جذل طفلة. أمامكما أربعة أشهر لتحضّرا لتلك الرّحلة. كنت مستعدّا لعمل أيّ شيء يدخل السّرور إلى قلبها، وهي التي أهدتك سعادة صافية خالية من المنغّصات. كنتما متوافقين عقليّا، منسجمين فكريّا وروحيّا، وتجمعكما عاطفة جيّاشة متكافئة ومعطاءة تجزم أنّ معينها لن ينضب. كنت تعيش على قمّة منحنى السّعادة في تلك الفترة، ولم تكن تدرك أنّ المنحدر قريب.. قريب جدّا.

مثلما كانت سارة الشّمس التي تدور في فلكها، أصبحت ريم المجرّة كلها! بل الكون بأسره! بل الأكوان المتعدّدة برمّتها!

لكنّك تعلّمت من تجربتك مع سارة ألا تثقل كاهل رفيقتك بتبعيّتك العاطفيّة. ستقاوم باستماتة وسوستك القهريّة حين يضطرّها عملها إلى السّفر في مهمّة صحفيّة ما. وستدفع عنك الهلاوس كلّما رنّ هاتفها طويلا على الجانب الآخر دون ردّ. فكّرت في تلك الآونة أنّه من الحكيم أن تقصد طبيبا نفسيّا ليساعدك على الخلاص من ارتباطك المرضيّ بمن تحبّ. لكنّك لم تقدم على الخطوة. بدل ذلك، اطّلعت على مراجع علميّة في مكتبة الكليّة وقرّرت اتّباع خطوات علاجك الخاصّ.

لكنّك لم تدرك أنّ كلّ شيء سينهار في تلك اللّيلة.

كانت ليلة سبت أخرى، قضّيتها مع ريم تتسكّعان على ضفاف نهر السّين. كنت نشطا ومستيقظا، لم تشرب كأسا واحدة منذ عرفت ريم وانقطعت عن رفقة إيرينا. كانت ريم تحدّثك عن الرّحلة التي تنويان القيام بها معا.. منذ تلك الأمسية أمام خريطة مكتبها وهي تعكف على التّخطيط! قالت لك حينها: اترك التّفاصيل لي! وقد فعلْت. كانت قد حدّدت مسار الرّحلة والفترة اللازمة لاستكشاف كلّ بلد ومدينة ومحطّة.. وهي في تواصل مستمرّ مع شركات الطّيران ووكالات الأسفار ومكاتب الحجز. لكنّها تحتفظ بالمفاجأة لنفسها.

- هات هاتفك وأغمض عينيك!

ضحكتَ، ثمّ أخرجت هاتفك وتركتها تفعل ما تشاء. مغمض

العينـين، اسـتمعت إلى نقـرات أصابعهـا النّحيلـة عـلى لوحـة مفاتيحـك، وتخيّلـت ابتسـامتها الشـقيّة وهـي منكبّـة عـلى ترتيـب مقلـب مـا لا تـدرك كنهـه بعـد. في الخلفيّـة، تصلـك ضوضـاء الشّـارع وأبـواق السـيّارات ونشـاز مـن الألحـان الصّـادرة عـن محـلّات عـدّة.

- هاك.. أصبح كلّ شيء جاهزا!

فتحت عينيك، أخذت منها الهاتف وتطلّعت إلى شاشته في حيرة.

- مفاجأة! انتظر حتّى...

كانت تلك آخر كلمات ريم، قبل أن تختفي فجأة من أمامك!

هـل نبـت لهـا جناحـان فطـارت؟ هـل انطلقـت بفعـل محـرّك مـا إلى الأعـلى مثـل مكّـوك فضـائيّ؟ لا تـدري! ريـم اختفـت، حلّقـت في الهـواء ثـمّ هبطـت بعيـدا في الظّـلام، وأنـت تجمّـدت مكانـك لا تعـي شـيئا مـن هـول الصّدمـة. لـم ينتبـه أحدكمـا إلى السـيّارة المسرعـة الـتي أقبلـت دون إنـذار لتطـوي الرّصيـف وتقتلـع البـلاط وعمـود الإنـارة، وتحصـد في طريقهـا ريـم والحاجـز المعـدنيّ، وتنتهـي في قعـر السّـين! حلّقـت ريـم، وحلّقـت السـيّارة، ثـمّ ارتطمـت كلتاهمـا بصفحـة الميـاه بلطخـة عنيفـة، وأنـت تقـف مكانـك، بكفّـك هاتفـك الـذي كان معهـا منـذ ثـوانٍ، وعـلى وجهـك تعبـير أبلـه.

هـل تنتهـي الحيـاة هكـذا فجـأة؟ هـل تتبخّـر السّـعادة كأنّمـا لـم تكـن يومـا؟ ريـم الـتي كانـت طـوق نجاتـك مـن نفسـك، تتوسّـل طـوق نجـاة لتعيـش، ولا مجيـب! تقـترب مـن الحاجـز المحطّـم مـع المقتربـين والفضوليّـين، ويعلـو صراخـك هلعـا ورعبـا وجنونـا. هـل يجـدي أن تلقـي بنفسـك وراءهـا؟ ألـم تكـن قـد وقفـت هـذا الموقـف منـذ سـنة ونصـف، وتسـاءلت كيـف يكـون السّـقوط مـن هـذا العلـوّ الشّـاهق.. هـل تلقـى حتفـك أم تنجـو؟ ريـم سـتخبرك الآن، سـتحدّثك عـن تجربـة كيـف يكـون

القفـز إلى النّهـر، مدفوعـا بقـوّة سيّارة عجـلى! ليتهـا تعـود وتخـبرك، بأنّهـا تجربـة قاسـية، لكنّـك سـتعيش بعدهـا. ليتهـا تفعـل!

تميـل باتّجـاه النهـر وتـصرخ مـلء رئتيـك باسـمها: ريـــــم! تبحـث عينـاك عنهـا في ظلمـات ثـلاث، ظلمـة الليـل وظلمـة المـاء وظلمـة الموت! تبصرهـا، أو تظـنّ أنـك تفعـل. تنبثـق رأس مـن العتمـة لتشـقّ سـطح النهـر، تقـاوم يـد المـوت الـتي تحـاول ابتلاعهـا. تتعكّـر صفحـة المـاء للحظـات، وتلـوّح كـفّ ترجـو النّجـدة. تـصرخ مـن جديـد:

- إنّها هناك! هناك! هل من حبل؟ طوق نجاة؟ أيّ شيء؟

تتلفّـت حولـك في تشـوّش، تبحـث عـن شيء.. أيّ شيء بوسـعه مسـاعدتها، فتقابلـك وجـوه متبلّـدة وملامـح عطّلتهـا الدّهشـة والبلاهـة. تعـود إلى النّهـر مـرّة أخـرى، تحـاول ألّا تضيّـع ريـم الـتي يسـحبها التّيّـار لتمـضي مـع مجـرى النّهـر. تركـض متابعـا حركتهـا، إنّهـا عنـد قاعـدة الجـسر، تحـاول التعلّـق بأعمدتـه المرتفعـة.. لكـنّ إرادتهـا تضعـف ومقاومتهـا تنهـار. تعـرف أنّهـا سـبّاحة ماهـرة، لكـنّ السـقطة أفقدتهـا توازنهـا. تلـوّح مـرّة أخـرى، كأنّمـا هـي تودّعـك.. وتـودّع الدّنيا. ثـمّ غاصت بعيـدا. ضاعـت منـك ريـم في العتمـة، وضعـت في نوبـة هيسـتيريا.

وصلـت فرقـة الإنقـاذ بعـد دقائـق حسـبتها دهـرا، وتمثّلـت خلالهـا كلّ النّهايـات الممكنـة، أنـت الطبيـب المنـاوب في الطّـوارئ لسـاعات لا تحـصى، وقـد مـرّت أمـام عينيـك حـالات شـتّى، بنهايـات مأسـاويّة أو معجـزة! راقبـت الغوّاصـين يتجهّـزون ويقفـزون إلى المـاء، فيبتلعهـم عمـق النّهـر.. فابتهلـت في صمـت، يـا ربّ، يـا الله، أنقذهـا!

أيّ إلـه كنـت تناجـي وأنـت الـذي كفـرت بالدّيانـات كلّهـا؟ ألـم تؤمـن بديـن العلـم وحـده؟ وعلمـك يقـول في تلـك اللّحظـة أنّ كلّ الظـروف تنـبئ بالكارثـة المحقّقـة. لـم تكـن حادثـة سـيّارة وحدهـا، بـل سـقوط

من علوّ، وربّما نزيف! الإحصاءات النّظريّة والاحتمالات العلميّة كلّها تقول أنّ أمل ريم بالنّجاة ضئيل! وكلّ ثانية تمرّ ترجّح كفّة النّهاية. كنت تحتاج إلى معجزة! مثل معجزات الأنبياء والصّالحين.. وأنت لم تكن نبيّا ولا قريبا من الصّلاح، ومع ذلك تدعو، تدعو بلسان لا يفتر ويتفتّت قلبك داخلك جزعا. حالك مثل الذين (دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين). لم تكن تدرك ما تقول ولا ما تفعل، تفجّرت الكلمات على شفتيك دون وعي، من مخزون قديم ظننت نفسك فقدته من الأدعية المأثورة والابتهالات.. وجدت لسانك يجري بها مسترسلا دون توقّف، بينما تتابع عيناك الجاحظتان الحركة الدؤوبة حول موقع الحادثة.

بعد انتظار كئيب، أخذ المنقذون يسحبون الأجساد واحدا إثر الآخر.. بنتان وولد في سنّ المراهقة، لا يتجاوز أكبرهم سنّ العشرين. أخرجوهم من السيّارة الغارقة قبل أن تغمرها المياه تماما. بدا الشّاب في وعيه، بينما أغمي على البنتين. ثمّ ظهر جسد ريم محمولا على الأعناق! الغوّاصون يلفّون الحبل حول خصرها، ويبدأ رفعها إلى أعلى. تتابعهم بعينين جزعتين، رافضا التّسليم لقضاء الله وقدره. أيّ قضاء وأيّ قدر؟ يستنكر عقلك. هل يكون هذا عقاب الله لك، لجحودك وكفرك بنعمه؟ ينفجر صمّام القمقم الذي سبق لك أن أحكمت إيصاده على عفاريت الأسئلة، ويخرج المارد شامخا، مسيطرا على المكان. لا مهرب لك الآن!

روحك تنازع الموت.. ففي داخلك يقين بأنّ في موت ريم موتك.. وعقلك ينازع موتا آخر، وقد أغرقتك حساباتك القديمة التي أهملت تصفيتها !

يتناهى إليك صوت مراسلة تلفزيونية على قيد أمتار قليلة وراءك، تنقل تفاصيل الحادثة على الهواء مباشرة إلى محطّة ما. كان يجب

أن تكـون ريـم مـن تحصـل عـلى السّـبق الصحفـيّ! ألـم تكـن هـي مـن عاشـت الحادثـة بنفسـها؟ تنهمـر العـبرات مـن مقلتيـك تباعـا في زخّـات سـخيّة، وجثّتهـا المسـترخية متدليّـة الأطـراف، مزرقّـة البـشرة، تقـترب مـن السّـطح، مستسـلمة وضعيفـة، لا حـول لهـا ولا قـوّة. تبتلـع الغصّـة، وتمـدّ كفّـك باتّجاههـا، يداعبـك أمـل بأنّهـا لا تـزال عـلى قيـد الحيـاة!

شـعرت بـالأذرع تبعـدك، وتعليمـات فرقـة الإنقـاذ الصّارمـة تدعـوك إلى فسـح المجـال. تراجعـت خطوتـين، بينمـا تلقّفتهـا محفّـة الطـوارئ، وهـرول المنقـذون بهـا إلى سـيّارة الإسـعاف الـتي صدحـت صافرتهـا عـلى الفـور. حـضرت نباهتـك فجـأة بعـد شـبه غيـاب عـن الوعـي، فاندفعـت باتّجـاه السـيّارة صارخـا:

- الضحيّة تهمّني!

كنـت في حـال يـرثى لهـا مـن التأثّـر، لذلـك لـم يطلـب أحدهـم التأكّـد مـن هويّتـك وسـمحوا لـك بمرافقتهـا إلى المستشـفى. راقبـت مـن وراء ضبـاب دموعـك الإسـعافات الأوّليّـة الـتي أجريـت لريـم.. التنفّـس الاصطناعـيّ، وتدليـك الصّـدر، ثـمّ رأيتهـا تسـعل وتلفـظ المـاء الـذي مـلأ رئتيهـا!

- حمدا لله!

- من هنا.. قناع الأكسجين!

يغمرك الحماس على حين غرّة. هل حصلت المعجزة؟

تركـض مـع المحفّـة داخـل أروقة جنـاح الطّـوارئ في مستشـفى «فندق الـربّ» عـلى «جزيـرة المدينـة» الـتي تتوسّـط مجـرى السّـين وتقسـمه إلى مسـارين. وفي نهايـة الممـرّ، تختفـي المحفّـة وراء بـاب موصـد ولا يسـمح لـك بالدّخـول. تسـتظهر ببطاقتـك المهنيّـة.

- أنا طبيب!

بلا فائدة. ليست لديك أيّ صلاحيّات هنا.

في غرفـة الانتظـار، تنكفـئ عـلى نفسـك، مثـل المحتـضر، ترقّـب خـروج ريـم تمـشي عـلى قدميهـا! يتوافـد أهـالي بقيّـة الضحايـا دامعـين. كان السّـائق المتهـوّر عـلى قيـد الحيـاة، في حـين لـم تسـتيقظ البنتـان المرافقتـان لـه. مراهـق يحتفـل بحصولـه عـلى رخصـة القيـادة منـذ أسـبوع واحـد، أخـذ سـيّارة والـده ودعـا صديقتيـه للاحتفـال.. لتنتهـي الحفلـة في قعـر السّـين. ما ذنـب ريـم في كلّ هـذا؟ لمـاذا كانـت تقـف في مسـار السـيّارة، وليـس أنـت؟ وكيـف وصلـت السّـيارة إليهـا وهـي تقـف عـلى الرّصيـف؟ كنتمـا يقظـين، لمّـا تحتسـيا شرابـا، وكذلـك السّـائق، لـم يكـن مخمـورا. كنـت مغمـض العينـين وهاتفـك بـين كفّيهـا، حاسّـة السّـمع لديـك مركّـزة، تسـتقرئ بهـا مـا يـدور حولـك. لقـد أصغيـت إلى ضوضـاء الشّـارع، ولـم تكـن هنـاك فرملـة ولا تنبيـه لقـرب حـدوث مصيبـة. لـم يكـن هنـاك مـن سـبب منطقـيّ للحادثـة!

غير أنّه قضاء الله وقدره!

تصيبـك الفكـرة الـتي تعـود إليـك كلّ مـرّة دون كلـل بالجنـون. تحـاول أن تتجاهـل ضجيـج الأسـئلة في رأسـك.. لقـد اسـتيقظت ريـم، وهـذا يكفـي! لكنّـك تسـتحضر نظراتهـا الزّائغـة وبشرتهـا المزرقّـة فينقبـض صـدرك. سـتكون بخـير.. يجـب أن تكـون.

تقتلـع نفسـك مـن المقعـد وتقـاوم الشرنقـة الـتي تحيـط بعقلـك، تـسرع في اتّجـاه الطبيـب الـذي ظهـر في آخـر الممـرّ. تندفـع ضمـن المندفعـين مـن الأهـالي السّـائلين عـن مصـير ذويهـم. يعلـن بصـوت واضـح مصائـر الفتيـات الثـلاث. إحداهـنّ اسـتيقظت، والثانيـة توفّيـت متأثّـرة بجراحهـا، بينمـا سـقطت الثالثـة في غيبوبـة! تتسـارع نبضاتـك وتـدقّ في رأسـك، يـا الله، أيّهـنّ ريـم؟

- المتوفاة اسمها جولي.. هناك سلسلة تحمل اسمها.

تنهار السّيّدة الواقفة إلى جوارك أرضا ويرتفع صراخها باسم ابنتها، وحيدتها، زهرة عمرها.. بينما تنتشلها أذرع الأقارب المواسية. تختنق أنت بدموع الأمل.. لم يكن هناك من داع للقلق. أولم تفتح عينيها وتلفظ الماء؟

- يمكنكم المجيء لرؤية البنت الصّاحية، لقد فتحت عينيها.. لكنّها لا تزال تحت الصّدمة.

يندفع جمعكم عبر الممرّ.. أنت وعائلة الضحيّة الأخرى، وكلّ يمنّي نفسه بأن تكون من يهمّه أمرها هي النّاجية! وراء الحاجز الزّجاجيّ، تظهر أسرّة العناية المركّزة متوازية إلى نهاية الغرفة.

- السّرير الثاني من اليمين.. رجاء.

بينما تنشط عيناك بحثا، وقبل أن تستطلع حقيقة الأمر، يصلك هتاف السّيدة الثانية:

- صابرينا.. حمدا لله!

يقع الأبوان أحدهما في حضن الآخر في ارتياح. لقد نجت صابرينا! بينما تتعلّق عيناك أخيرا بالسّرير الرّابع الذي سجّيت فوقه ريم، شاحبة، مسبلة الجفون، وقد أحاطت بها الآلات من كلّ جانب. كيف يمكن أن يحصل ذلك؟ يا الله، لقد استيقظت منذ قليل، ألم تفعل؟

- تفضّل معي.. أرجوك.

تسحب نفسك في إعياء وذهول إلى آخر الممرّ.

- هل أنت من عائلتها؟

- صديقها.

- فهمت.. إنّها في غيبوبة الآن.

- لكنّها استيقظت، وسعلت! لقد رأيت ذلك بنفسي!

- نعـم، لقـد فعلـت.. لكنّهـا مكثـت طويـلا تحـت المـاء وانقطـاع الأكسـجين عـن الدّمـاغ قـد تسـبب في تلـف بالـغ في وظائفـه. سنسـتمرّ في مراقبتهـا، لا أخفـي عليـك.. إنّهـا تتنفّـس بمسـاعدة الأجهـزة. إن لـم تسـتيقظ خـلال ثمـانٍ وأربعـين سـاعة.. فمـن الأرجـح أنّهـا لـن تفعـل أبدا.

- من الأرجح؟!

تـصرخ في جنـون. هـل يتكلّـم عـن مـوت حبيبتـك ريـم بعبـارات مـن قبيـل «مـن الممكـن» و«مـن الأرجـح» و«نعتقـد» أو «نظـنّ»؟ مـن الأفضـل لـه أن يكـون واثقـا قبـل أن يعلـن أحكامـا مماثلـة!

- أنـا آسـف.. ليـس بإمكاننـا عمـل شيء لهـا بعـد الآن. فقـط ننتظـر.. في الأثنـاء، أرجـو الاتّصـال بعائلتهـا.. نريـد أن نعـرف إن كانـت مسـجّلة كمتبرّعـة بالأعضـاء.

دون تفكـير، هويـت بقبضتـك عـلى فـكّ الطّبيـب، فتراجـع مصطدمـا بالجـدار في ذهـول، وقـد تـورّم أنفـه وشـفته. طالعتـه في احتقـار وتشـفّ، بينمـا أخـذ يـصرخ مسـتنجدا:

- الأمن! من هنا رجاءً!

نفضـت كفّيـك عنـه وخرجـت مـن تلقـاء نفسـك قبـل وصـول الأمـن. حـين وصلـت إلى البوّابـة الخارجيّـة، انهـرت عـلى الأرض. أخـذ النّشـيج يهـزّك بعنـف متصاعـد، والعـبرات تسـيل مختلطـة بالمخـاط. كيـف يتحـدّث عـن التـبرّع بالأعضـاء، وكأنّ أمـر ريـم انتهـى؟ كيـف حصـل ذلـك؟ لا يمكنـك تفسـير مصيبتـك. لقـد كنـت عـلى بعـد قوسـين أو أدنى مـن المعجـزة. لقـد فتحـت عينيهـا! سـعلت وبصقـت الميـاه الـتي سـدّت مجـرى تنفّسـها.. لكنّهـا هربـت منـك مـن جديـد، بعـد أن أهدتـك أمـلا بنجاتهـا! لمـاذا؟!

مـررت بمرحلـة الإنـكار في السّـاعات الأولى، لـم تكـن تصـدّق بـأنّ مـا يحصـل حقيقـة. بـدا مثـل كابـوس طويـل يرفـض الانتهـاء. ثـمّ مـا لبـث وعيـك أن اسـتوعب الكارثـة. كنـت تقـضي السّـاعات تتأمّـل جسـد ريـم المسـجى في غيـاب تـامّ، تتّصـل بـه أجهـزة كثـيرة، تبقيـه متأرجحـا بـين الحيـاة والمـوت. ثمّ أصيـب كلّ شيء في روحـك بالشـلل. لـم تكـن تفكّـر أو تشـعر أو ترغـب في شيء، سـوى أن تراقـب ذاك الجسـد الواهـن الـذي يفقـد نضارتـه تدريجيّـا، كأنّمـا يسـكبها قطـرة قطـرة.

اسـتحال عقلـك قاعـا صفصفـا، ثـم أخـذ الصّبّـار ينبـت بأشـواكه السّـوداء، تشـعر بمرارتهـا كالعلقـم في حلقـك. ينتابـك سـخط شـديد. لمـاذا يحـدث هـذا لريـم؟ ريـم الوديعـة المسـالمة، صافيـة السّريـرة رقيقـة القلـب؟ إنّهـا لا تـؤذي أحـدا، ووجودهـا ذاتـه مثـل نسـمة رائقـة في يـوم حـرّ. لـم تفعـل الـشرّ يومـا لتجـازى بـه.. فكيـف يكـون مصيرهـا بهـذه القسـوة والبشـاعة؟ مـا الـذي اقترفتـه لتعاقـب وتقطـف زهـرة شـبابها مبكّـرا؟

لـم تعـد العبـارة المأثـورة «لحكمـة لا يعلمهـا إلّا الله» تكفيـك وتشـفي غليلـك، ولا يرضيـك التّفكـير في «الابتـلاءات الـتي تطهّـر مـن الذنـوب وترفـع الدّرجـات».

أنت لم تعد تؤمن بكلّ ذلك!

الفصل الثامن

- بحث -

-١-

تجلس الآن في الطائرة التي أخذت تحلّق فوق سماء باريس، ويمّمت وجهها تجاه المحيط الأطلسي. تستعيد أحداث أيّامك الأخيرة، فينتابك إنهاك مباغت. أمضيت ليالي طويلة، تسهر خلف الحاجز الزّجاجي، تراقب ريم التي لا تفعل شيئا سوى التنفّس. اتّصلت بجهة عملها وأعلمتهم بالحادثة، فطار الخبر حتّى أفراد عائلتها.

رأيت والدتها تهرول عبر الممرّ بعد يومين. كانت سيّدة بسيطة ذات هيئة محتشمة، بجلباب ملوّن وغطاء رأس محكم، متماسكة أكثر ممّا توقّعت رغم الألم والحزن السّاكنين في حدقتيها. راقبتها في ذهول، لساعات طويلة، وهي تذرف الدّمع.. وتقرأ. لم يكن مصحفها يفارق كفّيها، تتلو منه بصوت خافت آناء الليل وأطراف النّهار، ثمّ تفلت منها آهة عميقة وترفع يدين مرتعشتين ليلهج لسانها بدعاء حارّ متضرّع. وفي ساعة السّحر، كانت تقوم راكعة ساجدة، تناجي الله في صلواتها.. كأنّما هي في اتّصال روحي مستمرّ بخالقها، لا ترجو منه انقطاعا حتّى تردّ إليها ابنتها!

تطالعها في شفقة ممزوجة بالسخرية.. هل تحسب دعاءها يجدي؟

كانت تلك المفجوعة بكارثة ابنتها، بفعلها ذاك، تجلد روحك دون وعي منها، بسياط خفيّة. آه لو علمت تلك الأم المكلومة بجوار ابنتها نصف الميتة ما يمور بخلدك من أفكار.. كانت لتبكيك مع ابنتها!

فقد كنت أنت أيضا نصف ميت.. بل لعلّك ميّت بحق. لم تعد لديك أدنى رغبة في هذه الحياة دون ريم. الحبل الذي يربطك بالسماء

كان قـد انقطـع. لقـد حسـبت روحـك قـد اسـتيقظت، حـين أجـرى الله عـلى لسـانك مـا أجـرى مـن ابتهـال ودعـاء. لكـنّ كلّ شيء انتهـى بعـد لحظـات، وخلّفتـك المأسـاة فارغـا مـن كلّ شـعور.. فـتزداد كآبتـك.

بعـد ذلـك، لـم يعـد مـن المريـح وقوفـك إلى جـوار والدتهـا المؤمنـة الدّامعـة لسـاعات لا تنتهـي. كانـت أفـكارك السّـوداء تكفيـك. لـم يكـن بوسـعك أن تتحمّـل وجـع أمّ مكلومـة فوقهـا. وريـم لا تفتـح عينيهـا ولا تسـتجيب.

انسـحبت مـن ردهـة المستشـفى، لكـنّ أفـكارك ظلّـت تحـوم حـول سريـر ريـم بـلا هـوادة. راجعــت في تلـك الأيّـام معتقداتـك السّـابقة واللّاحقـة عـن المـوت والحيـاة الآخـرة والـرّوح والمـادّة، وعـدت تقـرأ بنهم أكـبر بعـد الوقـت المسـتقطع الـذي منحتـك إيّـاه ريـم. لقـد كانـت هـي المحطّـة، ومنهـا تسـتأنف الرّحلـة. كنـت مجـبرا عـلى المـضيّ في طريـق البحـث، بـلا خيـارات متاحـة.

ريـم.. تـرى هـل فارقتهـا الـرّوح؟ وأيـن تكـون إن فعلـت؟ محلّقـة في فضـاء الغرفـة؟ أم في الـبرزخ؟ أيـن تذهـب بعـد ذلـك؟ مـا مصـير الـرّوح إن فارقـت صاحبهـا؟

يلـفّ دماغـك ويصيبـك الـدّوار. هـل ظننـت أنّـك سـتتجاهل نقـاط اسـتفهامك إلى الأبـد؟ إن كنـت قـد عدلـت عـن التفكـير في مصـيرك بعـد المـوت، في الجنّـة والنّـار، في الثّـواب والعقـاب، فإنّـك الآن تفكّـر في مصـير ريـم.

هل انتهت ريم فعلا؟

لقـد حسـبت في زمـن مـضى أنّ روحـك لـم تـترك واديـا ولا فجّـا إلّا وهامـت خلالـه. لقـد عـبرت كلّ تلـك الدّهالـيز المظلمـة، وبقيت حبيسـها، لـم تخـرج مـن المتاهـة أبـدا. وأنـت الآن تعـاود الكـرّة، تسـتأنف هيمانـك

التّعـس، تسـبح في ذات الظّـلام وتترنـح في الفـراغ، وتتسـاءل.. إلى أيـن ستقذف بـك الأمـواج هـذه المـرّة؟

تستيقظ مـن أفكارك، حـين تسـمع جارة سـفرك تنـادي ابنتها «سـارة». تلتفـت في فـزع. ذلـك الاسـم القريـب البعيـد، أمـا زال ذا سـطوة عـلى فـؤادك؟ ترقـب بنظـرة مرتبكـة البنـت الصّغـيرة ذات الجدائـل الكسـتنائيّة، وتسـتحضر في رأسـك مبسـم سـارة. تلـك الـ«سـارة» الـتي خلّفتهـا دامعـة في آخـر لقـاء لكمـا، منـذ سـنتين. تتنهّـد. كـم يبـدو ذاك الزّمـن سـاحق البعـد. سـنتان تفصلانـك عـن عهـد غريـب، ملامحـه مشوّشـة في ذهنـك. وحـده المبسـم العـذب يلـحّ عـلى ذاكرتـك، ويعذّبـك.

كانـت الصّدفـة مـا وضعـك عـلى مـتن تلـك الطّائـرة بالـذّات. لـو أنّـك كنـت في سـالف أحوالـك لسـميّتها «قـدرا». لكنّهـا صدفـة الآن. صدفـة عجيبـة ومحكمـة، تـكاد لا تحمـل أدنى صفـات العشـوائيّة الـتي تحكـم الصّـدف. صدفـة تآمـر فيهـا عـلى ضعفـك وقلّـة حيلتـك، مؤتمـر ومناظرة. رسـالة إلكترونيّـة، لا تقصـدك بذاتـك، مـن زميـل سـابق لـم يواتـه الحـظّ للتخصّـص في جراحـة العظـام في باريـس، فسـافر إلى نيويـورك، حيـث هيّـأت لـه علاقـات عائليّـة فرصـة لا تفـوّت. أرسـل الدّعـوة بالبريـد الإلكـترونيّ إلى كلّ معارفـه السّـابقين والعابريـن، ممّـن تهمّهـم جراحـة العظـام مـن قريـب أو بعيـد. هنـاك مؤتمـر طـبيّ في المركـز الـذي يعمـل بـه، والجامعـة تمـوّل رحلتـك العلميّـة. ثـمّ ومضـة سريعـة، عـلى منتـدى إلكـترونيّ تـزوره بشـكل متقطّـع، فتتابـع نقاشـات الملحديـن وتهافـت المؤمنـين للـردّ عـلى ادّعاءاتهـم المزعومـة، بحجـج واهيـة لا تقنـع طفـلا! هـو إعـلان سـقط أمـام عينيـك سـهوا، عـن مناظـرة علنيّـة لأنتـوني فلـو، الـ«الملحـد الأكـثر تأثـيرا في القـرن العشريـن»، في جامعـة نيويـورك أيضـا!

كانـت الرّحلـة تناديـك بـكلّ إلحـاح ممكـن. ألـم يكـن السّـفر وسـيلتك إلى الهـروب في كلّ أزمـة مضـت؟ هاجـرت مـرّات، ووجـدت في الأرض مراغما

كثيرا وسعة. لكنّ هجرتك ما عادت في «سبيل الله» بل في «سبيل البحث عن الحقيقة». هربت إلى الجزائر ثمّ بيروت وباريس من الإقامة الجبريّة حين فشلت في الانتحار، وهربت من خلافك وسارّة إلى ضياع لم تنته منه ولم ينته منك! والآن، تهرب من مأساتك وريم، ولا تعرف هل ترجع وأنت كما أنت، أم بتحوّل يضرب بجذوره عميقا في السّويداء؟ يعتريك يقين صارخ. ما من مرّة سافرت وبقيت كما أنت! وسترجع هذه المرّة أيضا، بحال أخرى. لا تعلم إن كانت أفضل أم أسوأ.. لكنّها أخرى. وهذا كلّ ما بتّ تصبو إليه، أن تبدّل قشرتك. لا تعلم كيف سيكون حظّك، هل مثل فراشة تودّع شرنقة إلى الأبد.. أو مثل أفعى تغيّر جلدا بآخر مماثل، بلا جديد؟

تحضّرت للرّحلة كما يجب. انكببت خلال الأسابيع السّابقة على مؤلّفات فلو. كانت فلسفة الأديان خاصّته تعتبر مرجعا لكلّ ما تلاها من أطروحات في المجال، منذ خمسينيات القرن الماضي. مقاله «اللّاهوت والتزوير» كان أوّل مساهماته وأعظمها، وما زال إلى اليوم يمثّل نشرة بطوليّة عند الملحدين الملتزمين.

مبادئ فلسفته ترتكز على أعمدة ثلاثة: العالم أزليّ، الحياة عمليّة عشوائيّة، فكرة الإله مناقضة لنفسها فوجود الشرّ لا يتوافق مع وجود آلهة. وتلك الفكرة الأخيرة لمست داخلك نقطة حساسة، فما زال ألم حادثة السّين حيّا ينبض. «أنتوني فلو» يؤمن بالعلم وهو ملمّ بالكثير من النّظريات الحديثة. وهناك وجه شبه آخر بينك وبينه، لقد شبّ مؤمنا كاثوليكيا، ثمّ تمرّد على دينه الموروث في مراهقته! لا شكّ أنّ قناعته كانت عميقة، ليواجه في تلك السنّ الغضّة والده، المبشّر المسيحيّ، ويختار طريقه!

فاجأك أنّ اسمه لم يقع أمام عينيك في وقت سابق. قبل ريتشارد داوكينز وكريستوفر هيتشنز وسام هاريس ولورانس كراوس،

كان هناك أنتوني فلو. لكنّ الرّجل الذي بلغ من العمر أرذله، متخطيّا عتبة الثّمانين، قد اعتزل المنابر واستسلم لحياة وديعة رفقة زوجته في ضاحية «ريدينغ» الصغيرة، غرب لندن، ليستأثر جيل جديد من المبشّرين بالإلحاد بالأبواق الإعلاميّة. لقد كان على مبعدة ساعة ونصف من باريس، لكنّك تحلّق ثماني ساعات حتّى نيويورك لتستمع إليه! وقد كانت مناسبة نادرة، أن يخرج الفيلسوف المتقاعد من محراب صمته، ليواجه العالم بأفكاره من جديد. طيلة السّنوات التي تلت عزلته، لم يكن الرّجل يدرك كم أسالت تصريحاته المباشرة القليلة من حبر، وكم طوّعها الإنجيليّون والملحدون على حدّ سواء، لتوكيد معتقداتهم!

قبل السّفر، راسلت الرّجل على بريده الإلكتروني، تطلب منه اللّقاء بعد المحاضرة أو قبلها. كنت ترجو أن تحظى بوقت خاصّ مع الفيلسوف الرّمز. لكنّ الرّسالة ظلّت بلا ردّ لأسابيع كثيرة، حتّى حان موعد الرّحيل. ستمضي إلى نيويورك متطلّعا إلى لقاء ثمين مع رجل تعتبره حبل نجاتك. لكنّك ستكون مجرّد وجه مجهول ضمن أمواج من الوجوه في قاعة غاصّة بالمريدين!

تغادر الطّائرة في مطار ج.ف. كينيدي، تعبر نقطة التفتيش ومكاتب الجمارك، ثم تحطّ الرّحال في فندقك المتواضع ذي النّجمات الثلاث، قبالة مبنى الجامعة. نومك قليل في الأيّام الأخيرة، وسهادك طويل. تحضر المؤتمر الطبيّ نهارا، وتشغلك كلّ ليلة تساؤلات شتّى حول المناظرة وما ستجنيه منها، ويخاصم الكرى جفنيك.. ثمّ يغلبك النعاس أخيرا، فوق دفتر ملاحظاتك.

حتّى جاء اليوم المنشود.

قاعة المحاضرات ملأى عن آخرها، بوجوه شقراء وصفراء وسمراء،

توافدت من العالم بأسره، لتشهد عرسا فكريّا بهيجا! اتّخذت مجلسا، تراقب شاشة البثّ بانتباه، وهي تنقل صورة من قاعة التّسجيل التّلفزيّ بالجامعة، حتّى ظهر المتناظرون. كانوا ثلاثة رابعهم فلو، اثنان منهما من أشرس المدافعين عن الإيمان: الفيزيائيّ اليهوديّ الأرثوذوكسيّ جيرالد شرودر والفيلسوف المسيحيّ جون هالدان.

لدقائق طويلة، استمعت إلى شرودر وهو يلقي محاضرة مكرّرة، عن استحالة أن يتوصّل عدد لا نهائيّ من القردة، يضربون بشكل عشوائيّ على لوحة مفاتيح، إلى إنتاج ما يشابه من قريب أو بعيد قصيدة لشكسبير! كان يردّ بشراسة على ادّعاء هاوكينغ في «موجز تاريخ الزّمن»، أنّ الطبيعة بإمكانها، إذا ما أتيح لها وقت كاف، أن تؤدّي إلى مآثر عجيبة، ينسبها النّاس إلى الله.

ثمّ تكلّم هالدان، ليقرّ أنّ بعض القدرات الإنسانيّة، مثل الكلام والوعي والإدراك والمشاعر، لا يمكن تفسيرها إلّا بذكاء علويّ. ثمّ ظهرت على الشّاشة صور لألبرت أنشتاين وفيرنر هايزنبرغ، بينما يواصل الصّوت مؤكّدا أنّ كثيرا من العلماء الكبار كانوا يؤمنون أنّ قوانين الكون وتجلّياته تشير بوضوح إلى ذكاء لا محدود!

ثمّ جاء دور فلو أخيرا. تكلّم بهدوء وبساطة:

- عليّ أن أعترف، الانفجار العظيم الذي نؤمن به كعلماء يوافق ما ورد في سفر التكوين. كلّ تجليّات الحياة المعقّدة والمكتوبة في البصمة الوراثية (DNA)، تشير إلى وجود مصمّم ذكيّ. الذّكاء لا شكّ كان له دور محوريّ في استخدام مواد شديدة التنوّع وجعلها تعمل معا بشكل فعّال، لا العشوائيّة.. لذلك أجدني مضطرا للاعتراف، بأنّ هناك إلها!

في تلك اللّحظة، عمّ الهرج القاعة. ارتفع تصفيق إعجاب

مختلط بصفير استهجان، وعلت أصوات الجمهور لتغطّي لدقائق على صوت البثّ الذي تستمر إذاعته. على الشّاشة، تلمح ابتسامة هالدان المحرجة، وقت تغلّب على خصمه الألدّ فجأة وبشكل غير متوقّع، بينما يواصل فلو اعترافاته المدهشة ناسفا عقودا من البحث والتّأليف والخطابة، كأنّ مشواره الفلسفيّ الحافل لم يكن!

حين هدأت الفوضى أخيرا، سمعت شرودر يسأل خصمه باستمتاع:

- هل تعتقد إذن أنّ أصل الحياة، يمكن اعتباره بشكل ما نوعا من الوحي؟

بدا على فلو التّفكير، ثمّ قال بلهجة جافّة:

- لا أرى في الوقت الحالي أيّ سبيل للاعتقاد بهذا...

كنت قد حضرت المؤتمر الطبيّ منذ أيّام قليلة في ذات البناء، وتنقّلت بين القاعات والسّاحات، وبتّ تعرف كيف تصل من نقطة إلى أخرى. لذلك، حين انتهت المناظرة، قفزت من مكانك، شققت الطّريق بين الحضور المتدافع وهرولت تقطع ممرّات الجامعة، باتّجاه المخرج الذي حسبت أنّ المتناظرين سيغادرون منه. كنت تلهث، حين وصلت إلى ساحة الجامعة الخلفيّة، وكنت وحيدا. تلفتّ حولك في جزع. هل تكون وصلت متأخّرا؟

وقفت لبرهة في قلّة حيلة. ثمّ هممت بالرّجوع على عقبيك. لكنّ وقع أقدام تعبر الرّواق في تؤدة ترافقها جلبة حديث وقهقهات هادئة جعلت وجيب قلبك يرتفع. كان جمع المتناظرين يقترب، يرافقهم ثلّة من أساتذة جامعة نيويورك. كان حدث اليوم بالتّأكيد محطّ أنظار الكثيرين. من الجهة الأخرى من السّاحة، لمحت جموع الحضور الذين جاؤوا على إثرك ويكادون يلحقون بك. كنت تفقد أسبقيّتك وفرصتك الذّهبيّة في مخاطبة الرّجل. تنقل بصرك بين الرّواق

والسّاحة. ترى فلو وهالدان، يتصافحان، ويلتقط لهما آخرون صورا تذكارية.. بينما ترتفع ضوضاء أقدام تسارع إلى نفس وجهتك. كان عليك أن تتجاهل الآداب واللّياقة، لتقحم نفسك في الحلقة الضيّقة وتطرح السّؤال الذي بات يقضّ مضجعك قبل فوات الأوان:

- سير فلو، هل تؤمن بالحياة بعد الموت؟

التفتت إليك أعين كثيرة، وتوقّف اللّغط فجأة لمقاطعتك الفجّة. لكنّ العجوز الثمانينيّ ابتسم ولم يبد انزعاجا من وقاحتك، بل قال مداعبا:

- أرجو ألّا تكون هناك حياة بعد الموت!

ثمّ أردف موضّحا:

- إنّ الإله الذي أومن به، رغم أنه مطلق الحكمة والعلم، كلي الإرادة والقدرة، وقد صمّم هذا الكون في مرحلة ما، ضمن خطة فائقة القوّة، إلا أنه على خلاف إله اليهود والمسيحيّين وحتّى المسلمين -الإله الإبراهيمي بصفاته في الأديان الثلاثة- ليس مهتما بشأن المعتقدات البشريّة أو السّلوك البشريّ، فهو في النهاية ليس «إلها شخصيّا»!

كانت تلك الكلمات القليلة التي نجحت في اقتناصها، قبل أن تغمرك موجة المريدين المتدافعين الذين وصلوا أخيرا، فأحاطوا بالأساتذة وقد ارتفعت أصواتهم وتداخلت.. بعضهم يلقي أسئلة لا تميّزها أذن، والبعض الآخر يطلب صورة مع متناظر أو آخر.. ممّا حدا بالمنظمين إلى استدعاء أمن الجامعة لمرافقة الضّيوف إلى سيّاراتهم.

-٢-

عدت إلى غرفة الفندق، مرتبك الحواسّ.

هـا أنّـك قـد جئـت، وقابلـت الرّجـل. فهـل انقشـع الغمـام أم ازداد تلبّـده؟

جلسـت عـلى حافّـة السّريـر، مذهـولا، مهزومـا. ولبثـت دهـرا، لا تعلـم أيـن تكـون. هـذه ضربـة أخـرى تطيـح بالبنـاء الـذي لبثـت تشـيّده سـنوات، ترمّـم ذاتـك وتصنـع صرحـا جديـدا، للملحـد المثـاليّ الـذي تريـد أن تكونـه. أمّـا الآن، فأنـت في ضيـاع مـن نـوع آخـر. هـل تصـدّق الرّجـل الـذي قطعـت نصـف الكـرة الأرضيّـة لـتراه؟ أم تصـدّق مـن يقولـون بخرفـه نهايـة عمـره وخوفـه ممّـا بعـد المـوت؟!

بينمـا تـتردّد نظراتـك التّائهـة في فضـاء الغرفـة، وقعـت عينـاك عـلى كتـاب مهمـل عـلى المنضـدة، بغـلاف جلـديّ أنيـق ذي حـروف ذهبيّـة. كان نسـخة مـن الإنجيـل! لا تـدري كيـف امتـدّت كفّـك لتقبـض عـلى شيء كان موقفـك منـه طيلـة حياتـك الرّفـض! كنـت فيمـا مـضى مـن أمـرك تنفـر مـن ذكـر الإنجيـل، والتّـوراة لمـا ورد في الصّحيحـين مـن نهـي الرّسـول (صـلّى الله عليـه وسـلّم) عـن الانتفـاع بكتـب أهـل الكتـاب الـتي طالهـا التّحريـف والاكتفـاء بالقـرآن.. وحـين كفـرت بالإسـلام، كفـرت بالدّيانـات كلّهـا، فمـا عـادت بـك حاجـة للبحـث في كتبهـا! لكـنّ هـذا قـد صـار ديدنـك لا محالـة، فقـد غـدا يسـتهويك أن تمعـن في كلّ مـا رفضتـه في حياتـك السّـابقة.

أمسـكت الكتـاب بـين يديـك، بـلا إثـارة ولا توقّعـات. تشـغل نفسـك بالقـراءة فقـط لتسـدّ فـراغ روحـك وتُوقـف عقلـك اللّجـوج عـن اجـترار

أفكار مدمّرة. أمضيت تلك اللّيلة، واللّيالي التي تلت من إقامتك في نيويورك، وأنت تقرأ، تلتهم السّطور بدون اهتمام أو حسّ نقديّ، كأنّما تطالع رواية أو جريدة على سبيل التّسلية. لم تكن تحاول أن تفهم أو تقتنع. حتّى وقفت أمام نصّ من إنجيل متّى، ورد ضمن «موعظة الجبل» للمسيح عليه السلام، كرّرت تلاوته مرّات، مستشعرا كلماته بشكل خاص:

«وَعِنْدَمَا تُصَلُّونَ، لاَ تَكُونُوا مِثْلَ الْمُرَائِينَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا وَاقِفِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ لِيَرَاهُمُ النَّاسُ. الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ نَالُوا مُكَافَأَتَهُمْ. أَمَّا أَنْتَ، فَعِنْدَمَا تُصَلِّي، فَادْخُلْ غُرْفَتَكَ، وَأَغْلِقِ الْبَابَ عَلَيْكَ، وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ...».

توقّفت متأمّلا في الكلمات. تلك المعاني كانت مناقضة تماما لما تعوّدت عليه في الإسلام. الصّلاة جهرا جماعة في المساجد.. أمّا هذه فهي صلاة فرديّة في خلوة غرفة، مثل غرفة فندقك هذه! لعلّ طبيعة الصّلاة تختلف في التّشريعين الإسلاميّ والمسيحيّ، لكنّك شعرت بشكل غريب بأنّ الكلمات تخاطبك. لقد صلّيت طيلة عقود مرائيا -ليس لأنّ صلاة الجماعة رياء مطلقا، بل لأنّ قلبك كان مفتونا- ووقفت تخطب معتزّا مباهيا، وعظت ونصحت ورفعت صوتك في النّاس، فما وجدت إلّا نظرات إعجاب تزيدك غرورا. ابتلعت غصّة، وواصلت القراءة:

«فَصَلُّوا أَنْتُمْ مِثْلَ هَذِهِ الصَّلاَةِ: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ! لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ! لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ عَلَى الأَرْضِ كَمَا هِيَ فِي السَّمَاءِ! خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ! وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا! وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ...».

شرعت في البكاء فجأة.

كنت تقرأ ما عرفت فيما بعد أنّه الصّلاة «الرّبيّة»، الصلاة الأشهر

عنـد المسـيحيّين، كونهـا معتمـدة في كلّ كنائـس العالـم، الكاثوليكيّـة والأرثوذوكسـيّة والبروتسـتانتية. وقـد أعجبـت ببلاغـة النـصّ بشـكل غريـب. ليـس أنّـك لـم تقـرأ في بلاغتـه في القـرآن، لكنّـه فاجـأك عـلى حـين غـرّة، ودفاعاتـك متضعضعـة في أسـوأ حالاتهـا. كنـت وحيـدا في غرفـة الفنـدق، منقطعـا عـن العالـم منـذ أيّـام، ورغبتـك في مناجـاة صادقـة تنخـر داخلـك. تلـك الرّغبـة الـتي صددتهـا وقاومتهـا بمنتهـى إرادتـك منـذ حادثـة ريـم، تتدفّـق الآن بـلا اسـتئذان.. وهـذا النـصّ الـذي بـين يديـك هـو الصّـلاة الوحيـدة الـتي تقـدر عليهـا، بعـد أن هجـرت القـرآن والصّـلاة منـذ سـنتين.

«ولا تدخلنـا في تجربـة لكـن نجّنـا مـن الشّريـر».. تتـأوّه وأنـت تكـرّر الكلمـات. أنـت تنصهـر الآن في أتـون التّجربـة الـتي تـأبى الانتهـاء، وقـد استسـلمت تمامـا للشّريـر! تسـترجع كلمـات أيّـوب ذات ليلـة جمعتكمـا في شـقّتك، حـين وقفـت مدافعـا تتكلّـم عـلى لسـان الشّـيطان! تنهـار عـلى الأرض تخنقـك العـبرة.

خـلال الأيّـام التّاليـة، تابعـت القـراءة في فصـول تلـك الموعظـة البليغـة، وقـد رق قلبـك بشـكل لـم تعهـده منـذ زمـن بعيـد. كنـت تسـمع صوتـا في ثنايـا عقلـك يـصرخ: (ألا تنبـع تلـك الكلمـات والقـرآن، من مشـكاة واحـدة؟). ثـم قـرأت كلمـات اقتحمـت أسـوار مقاومتـك:

«اِسْـأَلُوا تُعْطَـوْا. اُطْلُبُـوا تَجِـدُوا. اِقْرَعُـوا يُفْتَـحْ لَكُـمْ. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْـأَلُ يَأْخُـذُ، وَمَـنْ يَطْلُـبُ يَجِـدُ، وَمَـنْ يَقْـرَعُ يُفْتَـحُ لَـهُ. أَمْ أَيُّ إِنْسَـانٍ مِنْكُـمْ إِذَا سَـأَلَهُ ابْنُـهُ خُـبْزاً، يُعْطِيـهِ حَجَـراً؟ وَإِنْ سَـأَلَهُ سَـمَكَةً، يُعْطِيـهِ حَيَّـةً؟ فَـإِنْ كُنْتُـمْ وَأَنْتُـمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُـونَ أَنْ تُعْطُـوا أَوْلَادَكُـمْ عَطَايَـا جَيِّـدَةً، فَكَـمْ بِالْحَـرِيِّ أَبُوكُـمُ الَّـذِي فِي السَّـمَاوَاتِ، يَهَـبُ خَـيْرَاتٍ لِلَّذِيـنَ يَسْـأَلُونَهُ».

في تلـك الليلـة، خـررت راكعـا عـلى ركبتيـك، ثـمّ سـجدت طويـلا.

وخاطبت الله بحرارة -كما فعلت لاشعوريا يوم حادثة ريم- وسألته أن يهدي قلبك.

رجعت إلى باريس، بخفي حنين.. أو أقل؟ ما تنفكّ في كلّ سفرة تترك بعضك وراءك وتخفّف من حمل ذاتك. كيانك يتآكل ويتلاشى، وأنت لا تدري إلى أين المنتهى! ما الذي ستفقده بعد؟ كفرت بإيمانك، ثمّ شككت في إلحادك. ما تكون بعد هذا وأنت لا مؤمن ولا ملحد؟

كانت تأتيك، كلّ عام قبيل شهر رمضان، وثيقة «زيارة» من والديك، لتتقدّم بطلب التأشيرة لدى القنصليّة السّعودية وتقضي معهم جزءًا من الشّهر الكريم. لكنّك كنت قد اعتذرت السّنة الماضية، بعد ما ألمّ بك من تغيّرات، فلم تقو على مواجهة نظرات والديك الفاحصة.

وصلت الدّعوة تلك المرّة قبل أوانها، في مطلع شهر يونيو. كانت أشهر أربعة تفصلك بعد عن شهر الصّيام، لكنّ عائلتك التي غبت عنها لسنة ونصف تتعجّل حضورك. راودتك نفسك بأن ترفض. التبدّل الذي تعيشه واضح للعيان. لهجتك وفحوى كلماتك لا ريب قد زرعت بذرة الشكّ، ووالدك يريد أن يعاين رؤيةً حقيقة أمرك. رفضك لن يزيد الطّين إلّا بلّة. قد تجده أمامك خلال أيّام؛ وقد وصل يتحرّى المسألة بنفسه.

ظللت تتقلّب على جمر التردّد لأيّام ولا تستقرّ على رأي، حتّى فوجئت بحاتم يترصّدك عند بوابة المستشفى ذات يوم. كان قد تلقّى اتّصالا من والدك، يحرّضه على إقناعك بالمجيء. كان حاتم يشعر بالحرج، وهو يحاول رتق ما تمزّق بينكما من نسيج الصّداقة. لم تكن قد قابلت أحدا من رفاق الماضي خلال الشّهور السّتّة الأخيرة. ولم يكن أحدهم يعلم بما حلّ بريم. كلّهم يعرفون عن

علاقتك بها، بعد أن لمحك أيّوب مرّات برفقتها.. والخبر سيصل منه لا محالة إلى مجالسهم.

لقاؤك بحاتم جاء في وقت حرج، كنت خلاله في أضعف حالاتك. كانت نفسيّتك هشّة في الفترة الأخيرة. بعد عودتك من نيويورك، لبثت تزور ريم في غيبوبتها بشكل يوميّ، تسكب الدّمع وتناجي جسدها المسجّى، الأبيض كالشّمع. رجعت إلى خلواتك الطّويلة وأفكارك السّوداويّة. كنت تحتاج كتفا تستند إليها، وحاتم كان كتفا محتملة في وقت مضى. لكنّه يقف أمامك الآن مثل غريب محرَج، محمّل برسالة من الأهل، وراء البحار.

- يا أخي، افعل ما تشاء بنفسك.. لكن لا تقطع أهلك وتشغلهم بأمرك!

رمقته طويلا، بنظرة منكسرة. ثمّ هززت رأسك تجاريه.

- لماذا لا تذهب للعمرة؟ تتذكر أحوال الماضي.. ولعلّ الله يشرح صدرك مرّة أخرى، وتزول هذه الشّبهات؟

رمقته في إشفاق. هذا حاتم يحاول أن يسترجع مالكا الذي كان يرافقه فيما مضى في رحلة العمرة كلّ عام، في العشر الأواخر من رمضان! لخمسة أعوام متتالية، لم تفوّتا هذا الأمر. لكنّك تخلّفت السّنة الماضية، ولا تنوي أن تعدل عن قرارك هذه السّنة أيضا. سارة أيضا.. كانت ترافق عائلتها إلى العمرة كلّ عام.. في رمضان أحيانا، وفي مختلف أوقات السّنة. لكنّكما لم تعتمرا معا في الوقت ذاته أبدا. ما تفتأ تذكرها مؤخّرا، وكأنّ كلّ حديث يخصّها بشكل أو بآخر.

رغم حيرتك في أمرك وانهيار سدّ الإلحاد الذي كان يوقف مدّ تساؤلاتك الوجوديّة، فإنك لم تكن مستعدّا للتّراجع. نظرت إليه في تهكّم وقلت:

- ما جدوى أن يخصّص الله بيتا معيّنا في الأرض؟ ثمّ ما معنى الطّواف سبعا والسّعي سبعا؟ لماذا ليست خمسا؟ أو مرّة واحدة؟ ثمّ ألم يكن الحجّ موجودا منذ الجاهليّة، وطقوسه تمارس قبل الإسلام من قبل المشركين، وقد كان لبني عبد مناف السّقاية والرّفادة؟!

- ...

- أليست تلك الطقوس صناعة بشرية قديمة ألبست ثوب الدين، والغرض منها أصلا التربّح والتجارة؟

- ...

- ما معنى الطواف حول حجارة، وتقبيل حجر، ورمي حجر بحجارة؟

- ...

- ما هو المغزى من الذبح للهدي؟ ولماذا قد يحبّ الإله الخالق التقرّب إليه دوما بسفك دماء؟

- ...

- ألا ترى يا حاتم أنها طقوس وثنية صرفة أخذت طابع شعائر مقدسة؟

- ...

هزّ رأسه في قلّة حيلة ورفع كفيه في استسلام واستدار مبتعدا.

ظننت الأمر سينتهي عند ذلك الحدّ، لكنّك فوجئت به بعد يومين يقف في الموقع نفسه وبين يديه ظرف عليه علامة الخطوط الجويّة السّعودية. قال في تحدّ:

- هذه تذكرة باسمك إلى جدّة. إن شئت سافرت، وإن شئت رميتها إلى القمامة.

وضع الظّرف بين راحتيك ومضى، تاركا إيّاك مشدوها، لا تدري ما تصنع.

بعد تردّد ليومين آخرين، قصدت القنصليّة وتقدّمت بطلب التأشيرة. لم يكن بإمكانك الانتظار أكثر، وتاريخ التذكرة بعد عشرة أيّام فقط. أقنعت نفسك، لم تكن بحاجة إلى تلك السّفرة. لكنّها رحلة أخرى، ترجو أن ترجع منها بقناعة ما، بطمأنينة ما. ولعلّك استحييت من إهدار الثمن الذي دفعه حاتم لقاءها متطوّعا.

وأنت تعبر صالة الإقلاع، فوجئت بحاتم يقف قبالتك. لم تكن دهشته تقلّ عن دهشتك. كان قد حجز لنفسه على الطّائرة نفسها. ورغم كلّ شيء، لم يكن واثقا من مجيئك. كان مستعدّا لخسارة ثمن الرّحلة، في سبيل المحاولة. اكتفى بالتحيّة وتربيت حارّ على الكتف، ثمّ انتقل كلّ منكما إلى مقعده. كنت ممتعضا رغم انصياعك. اقتناؤه للتذاكر على حسابه الخاصّ، وإلحاح والدتك على الهاتف، شكّلا نوعا من الضغط لم تستطع مقاومته طويلا. وقد كان يغلب عليك التجهّم خلال الرّحلة كلّها.

حين أفضيتما إلى صالة الجمارك، فوجئت به يشدّ ذراعك ويقول في حماسة:

- اتّصلت بالأهل وأعلمتهم بتأخّرنا يومين إضافيين.. سنذهب إلى العمرة أوّلا!

لمْ تصدّق ما فعله، وتدخّله السّافر في شؤونك. لكنّك لم تملك إلّا الانقياد -مرّة أخرى- لتعليماته. إن كان قد أعلم والدك بذهابك للعمرة، فلا مبرّر لوصولك في اليوم نفسه دون إثارة تساؤلات واستفسارات أنت في غنى عنها. ما هي إلّا ليلتان، وهذا أمر مقدور عليه.

ثـمّ، كان قـد سـاورك الفضـول لاستكشـاف أحـوال قلبـك. هـل تـراه أصبـح أصـمّ، منيعـا أمـام العاطفـة الدّينيّـة؟ أم تـراه يتأثّـر ويستشـعر رهبـة لقدسـيّة المـكان؟ ومـا بـكاؤك أثنـاء قـراءة الصـلاة الربيّـة و«موعظـة الجبـل» في الإنجيـل مـن ذاكرتـك ببعيـد.

ركبتمـا سـيّارة الأجـرة مـن مطـار جـدّة، لتصـلا بعـد سـاعة ونصـف أمـام الفنـدق الواقـع قبالـة الحـرم مبـاشرة. كان حاتـم قـد حجـز غرفتـين لكمـا، للمـرّة الأولى. كنتمـا تتشـاركان الغرفـة في المـرّات السّـابقة، لكنّـه قـدّر حاجتـك إلى بعـض الخصوصيّـة، وقـد تباعـدت بينكمـا المسـافات خـلال السّـنة الماضيـة. كان حاتـم قـد أحـرم اسـتعدادا للعمـرة.. لكنّـك امتنعـت. لـن تفعـل شـيئا لسـت مقتنعـا بـه. أنـت هنـاك بنـاء عـلى رغبتـه هـو، لا رغبتـك الخاصّـة. لذلـك لـن تفعـل شـيئا سـوى التأمّـل والتفكّـر.

مـرّ عليـك في موعـد خروجـه للـشّروع في الشّـعائر، فخرجـت برفقتـه. راقبتـه وهـو يرفـع كفّيـه بالدّعـاء حين مـرأى الكعبـة، وهـو يشـير إلى الحجر الأسـود، ينـدسّ في زحـام الطائفـين وشـفتاه تتمتمـان بمـا تيـسّر مـن ذكـر ودعـاء وتـلاوة.. أشـياء كنت تشـاركه في ممارسـتها قديمـا بالتّفاصيـل ذاتها.. وراقبـك هـو خفيـة، يترصّـد اختلاجـات وجهـك ويبحـث في قسـماتك عمّـا يفضـح مكنونـات صـدرك. لكنّـك لبثـت صخـرا أصـمّ لا يتأثّـر.

بعــد الفــراغ مــن السّــعي، عدتمــا للجلــوس في صحــن المســجد الحـرام، تفصلكمـا عـن الكعبـة أمتـار قليلـة. والنّـاس مـن حولكمـا بـين سـاجد وقائـم، ومسـبّح وتـالٍ للقـرآن. التفـتّ إلى حاتـم، وقـد سرحـت نظراتـه تجـاه الكعبـة، وقلـت بـبرود:

- حاتم.. ما رأيك في الصّلاة الرّبيّة؟

اتّسعت عيناه ذهولا، وهتف في حدّة:

- اسمع.. اترك هذيانك لما بعد.. نحن في الحرم!

ثـمّ أشـاح عنـك في وجـوم. لكنّـك كنـت مـصرّا عـلى إغاظتـه، بعـد المقلـب الـذي عرّضـك إليـه بإحضـارك إلى الحـرم عنـوة، فرفعـت يديـك كمـن يهـمّ بالدّعـاء، وبـدأت تتلـو بصـوت بـين الـسرّ والجهـر، مـن بـاب «ولا تجهـر بصلاتـك ولا تخافـت بهـا، وابتـغ بـين ذلـك سـبيلا»:

- أبانا الذي في السّماوات.. ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك...

تابعـت الصـلاة، وأنـت تختلـس النّظـرات المتشـفّية إلى وجهـه الممتقـع غضبـا وحرجـا.. فقـد شرع النّـاس القريبـون مـن مجلسـكم يلتفتـون، وينصتـون لمـا تقـول، والبعـض يتهامـس ويشـير في تسـاؤل وعجـب. كان حاتـم في أزمـة حقيقيّـة، وقـد سـاوره الشـكّ بأنّـك قـد جننـت قـولا وفعـلا. لـم يحتمـل أن يطـول المشـهد أكـثر مـن ذلـك. هـبّ واقفـا، وأحكـم قبضتيـه عـلى كتفيـك يهـزّك بعنـف، كأنّمـا يحـاول إيقاظـك مـن اسـتغراقك، وقـال بخـوف حقيقـي:

- إن لم تتوقّف، ستتسبّب في حبسنا، أيّها المجنون!

عندئـذ أوقفـت التّـلاوة، ولـم تتمالـك نفسـك أن غرقـت في نوبـة ضحـك متواصـل. استسـلمت لذراعيـه وهـو يجـرّك ويهـرول عـبر أروقـة الحـرم، قبـل أن يحـدث مـا لا تحمـد عقبـاه. كان يمـشي متلفّتـا في ذعـر، معرضـا عـن عيـون المتفرّجـين.

عدتمـا إلى الفنـدق، وحاتـم يخاصمـك ولا يخاطبـك بكلمـة. بينمـا لـم تكـن تخفـي اسـتمتاعك بمزحتـك الثقيلـة. كنـت تضحـك في هسـتيريا، وتغالـب بالسّـخرية الخيبـة.

لـم تجـد في نفسـك إلّا الخـواء، ولا في روحـك إلا الفـراغ. لـم يتحـرّك فيـك شيء.

أمضيـت أسـبوعا في الرّيـاض، إلى جـوار أهلـك، وكأنّـك غريـب بـين غربـاء. كان عليـك أن تمثّـل وتنافـق. تطيـل الاغتسـال عنـد الفجـر،

فتتأخّـر حـتّى يخـرج والـدك. وتوهـم والدتـك الحريصـة بأنّـك صلّيـت في غرفتـك! وحـين لا تجـد مفـرّا، تخـرج مـع والـدك إلى الصّـلاة في المسـجد القريـب. تجلـس بـين المصلّـين، وتحـرّك شـفتيك متمتمـا بكلمـات لا معنى لهـا، أو محدّقـا في ظهـر الواقـف أمامـك. وحـين ينـصرف والـدك متعجّـلا لصـلاة العشـاء، تغـادر متظاهـرا باتّباعـه، ثـمّ تـشرد إلى المقاهـي البعيـدة حيـث لا يصادفـك أحـد مـن معـارف الأهـل!

كان سـوء أحـوال قلبـك جليّـا للعيـان. لكنّـك تنكـر وتتعلّـل بتأثـير حادثـة صديقتـك الجديـدة. فتعبـس والدتـك ولا تعلّـق. لـم تكـن قـطّ راضيـة عـن انفصالـك عـن سـارة، ولـم تكـن قـد تقبّلـت مواصفـات ريـم عـلى الإطـلاق. في حـين يقـول والـدك بجدّيّـة:

- هـل فكّـرت في العـرض الـذي اقترحتـه؟ يمكنـك المجـيء إلى الرّيـاض لإنهـاء تخصّصـك.. تحدّثـت إلى عميـد كلّيّـة الطـبّ في جامعـة الملـك سـعود، وقـد أكّـد لي أنّ ملفّـك الشـخصيّ يهمّهـم كثـيرا...

تومئ مرّة وأخرى وتقول ما لا تعنيه:

- سأفكر في الأمر، إن شاء الله.

الفصل التاسع

- رحيل -

-١-

لـو أنّ أحـدا مـا تنبّـأ لـك منـذ سـتّة أشـهر أنّـك سـتعبر العالـم مـن شرقـه إلى غربـه خـلال أربعـة أشـهر لا أكـثر، لما صدّقـت! لكـنّ السّـفرات، التّلقائيّـة وتلـك المخطّـط لهـا منـذ أمـد، تتسـاقط عـلى رأسـك تباعـا، وتقـودك رغـم أنفـك إلى مـشروع «رحّالـة» معتمـد!

كنـت قـد عـدت مـن رحلتـك إلى الرّيـاض، منهـكا، مـرّة أخـرى، وقـد غـدا الإنهـاك حالـك الطّبيعيـة الـتي لا تـكاد تفارقهـا. أنـت منهـك مـن ساعات العمـل والبحـث، ومنهـك مـن التّأمّـل الأسـود قبالـة سريـر ريـم، ومنهـك مـن قلـق والدتـك المزمـن، وقـد تبـيّن مشروعـا ولهـا كلّ الحـقّ فيـه، بعـد أن رأت بعينيهـا مـا صرتَ عليـه مـن إنهـاك!

كنـت قـد نسـيت أمـر إجازتـك، بعـد حادثـة ريـم، حـتّى وصلتـك رسالة إلكترونيّـة ذات يـوم، مـن وكالـة أسـفار مـا، تحمـل اسـم «ماجـلان للأسـفار والرّحـلات».

«السّيد المحترم مالك الشّريف،

سـمحنا لأنفسـنا بالاتّصـال بـك كشريـك في الرّحلـة الـتي حجزتهـا السّـيدة ريـم مطـاوع، نظـرا لانقطـاع اتّصالاتهـا وعـدم تجاوبهـا مـع رسـائلنا.

نذكّركـم بأنّـه مـن الـضّروريّ تسـديد مـا تبقّـى مـن كلفـة الرّحلـة قبـل أسـبوع مـن موعـد المغـادرة لتجنّـب الإلغـاء، كما نرجـو إحضـار جـوازات السّـفر في أقـرب أجـل إلى عنواننـا المذكـور أدنـاه مـن أجـل تجهـيز التأشـيرات في الوقـت المناسـب».

دون تفكير، رقنت الردّ بشكل سريع:

«شكرا لتواصلكم. نرجو إلغاء الرّحلة».

حدّقت في الرّسالة لبرهة، ثمّ حفظتها في المسودّات وغادرت الشّقة.

صباح الغد، رنّ هاتفك بتنبيه سبقت برمجته من طرف ريم نفسها! وقفت تطالع شاشة الهاتف في صدمة، ثمّ أخذت تلتهم كلمات الرّسالة المصاحبة في لهفة.. لقد تركت لك شيئا منها! أتذكر حين أخذت هاتفك منك على رصيف السّين.. لقد وضعت التّنبيه ذلك اليوم!

تستحضر أمام عينيك شفتيها تتلوان النصّ بأسلوبها الحلو المترنّح بين الرّصانة والخفّة، بينما تسيل عبراتك على وجنتيك:

«عزيزي مالك، أنت تنتظر هذا اليوم، أليس كذلك؟

احزم أمتعتك وانتظرني في قاعة الرّحيل! موعدنا بعد أسبوع من الآن!

سأحتفظ لنفسي بمخطّط الرّحلة، وسأحتفظ لك بنكهة المفاجأة!

أسمعك تحتجّ؟ صدّقني، المتعة الأكبر ستكون من نصيبك! مع أنّني نلت نصيبي من المتعة مسبقا، فلا شيء أحلى في نظري من التّخطيط لرحلتنا المشتركة!

أراك قريبا!».

زرت ريم في الغد، ووقفت تناجيها في صمت. هل يمكنك الرّحيل دونها؟ تلك الرّحلة التي تكبّدت عناء التّحضير لها، تضع المخطّطات لتفاجئك، كانت في نظرها «أحلى» من أيّ شيء فعلتماه سويّا! تتأرجح أفكارك في تلك اللّحظة في تردّد، بين أن تخذلها وتخذلها! أن تخذلها فتتجاهل الجهد الذي بذلته لتصنع شهرين من الدّهشة والسّعادة المشتركة.. وأن تخذلها فترحل دونها!

اقتربـت في تلـك اللّحظـة والدتهـا. كانـت سـبلكما تتقاطـع كثـيرا في ممـرّات المستشـفى، وعنـد سريـر الحسـناء النّائمـة. تتبـادلان كلمـات مواسـاة قليلـة، لا يجـد أحدكمـا فيهـا عـزاءً يذكـر. تجـاسرت السـيّدة الخمسـينيّة تلـك المـرّة ووقفـت إلى جـوارك. سـألتك فجـأة:

- هـل تعتقـد أنّ ريـم قـد تعـود إلينـا بعـد كلّ هـذا الوقـت الـذي مـضى؟

تلمس الضّعـف والتيـه في كلماتهـا، وتجـد لهـا صـدى عميقـا داخلـك. أنـت طبيـب، لكنّـك تنـسى ذلـك حـين تواجـه سريـر ريـم! الطبيـب يقـول أنّ حالتهـا ميـؤوس منهـا، أنّهـا سـتبقى مسـجّاة بـلا حـراك، حـتّى تتّخـذ عائلتهـا قـرارا أليمـا بوقـف الآلات الـتي تمنحهـا نبضـا ونفسـا. قـد يسـتمرّ ذلـك شـهورا، أو سـنوات، اعتمـادا عـلى طـول أملهـم وإيمانهـم! لكـنّ مالـكا الصّديـق، مالـكا العاشـق، يسـتجدي أمـلا وإيمانـا خـلا منهمـا وجدانـه، ليترقّـب معجـزة ويعتقـد في حيـاة أخـرى ممكنـة!

- عليـك أن تعـود إلى حياتـك يـا ولـدي. لـو أنّ ريـم تسـتيقظ الآن، فلـن يؤلمهـا أكـثر مـن توقّـف حيـاة أحبابهـا مـن بعدهـا! الحيـاة يجـب أن تسـتمرّ.. فـإذا مـا فتحـت عينيهـا يومـا، كان لدينـا الكثـير لنحكيـه عمّـا فاتهـا!

في تلـك اللّحظـة، اتّخـذت قـرارك. سـوف تهـدي ريـم حيـاة أخـرى، مـن خـلال عينيـك. سـوف تكـون في جعبتـك حكايـات كثـيرة، عـن مفاجآتهـا الـتي لـم تضـع سـدى، وعـن ذكريـات مشـتركة، تخيّلتهـا هـي، وعشـتها أنـت!

حـين وصلـت إلى شـقّتك، فتحـت الحاسـب الآليّ في تصميـم. مسـحت الرّسـالة السّـابقة وكتبـت أخـرى:

«أعتـذر عـن الـردّ المتأخّـر نظـرا لظـروف ريـم الصحيّـة. للأسـف

يتعذر عليها القيام بالرّحلة، لذلك سأكون المسافر الوحيد. أوافيكم في الغد لتسديد المبلغ المتبقي. أرجو ألا يكون الوقت قد تأخّر بالنّسبة إلى التّأشيرات».

-٢-

حين حطّت الطائرة في دلهي، كانت السّاعة تشير إلى الخامسة مساءً. تفقّدت مسار الرّحلة التي أعدّتها ريم. أغرا، دلهي، ثمّ كيرلا. تلك محطّاتك الهندية التي تسلّمتها من وكالة الأسفار نيابة عن ريم مع نسخة من حجوزات الفنادق ووسائل النّقل الدّاخلية. أمامك أسبوعان لتغطّي تلك البقاع الثلاث، وحيدا بدون ريم.

كانت رحلتك قد تأجّلت لثلاثة أيّام، للانتهاء من معاملات التأشيرات الخاصة بكلّ من الهند وجمهورية الصين الشّعبيّة. لم تكن في حاجة إلى تأشيرة لدخول كلّ من إندونيسيا وتركيا بجوازك الفرنسيّ.

بعد أن استلمت حقيبتك، خرجت إلى بهو المطار. تفحّصت اللّافتات المتزاحمة عند المدخل، تحمل أسماء الزوّار المتوقّع وصولهم، حتّى قرأت اسمك واسم ريم على أحدها. اقتربت من الرّجل الأسمر المبتسم، حيّاك بحفاوة ثمّ تطلّع خلفك في اهتمام، ليطرح سؤالا سيتكرّر كثيرا على مسامعك على امتداد الرّحلة:

- ألم يكن من المفترض وصول شخصين؟

ستهزّ رأسك في كلّ مرّة وتشرح معتذرا تخلّف رفيقتك لـ«ظروف صحيّة»، وأنت تصارع وخزة شديدة في صدرك. لم تكن وكالة الأسفار قد عدّلت ملفّ الرّحلة بعد التغيير الطارئ في اللحظة الأخيرة، نظرا لضيق الوقت.

حين استقرّ بك الأمر في السيّارة التي ستقلّك إلى أغرا، استدار السّائق وهو يقدّم إليك ظرفا عليه علامة وكالة الأسفار المحليّة، وأضاف بنفس الابتسامة التي لا تفتر:

- هذا برنامج الرّحلة التّفصيلي.

فتحت الظرف وتصفّحت الكتيّب المنسّق الذي يعرض محطّات السّفر. طالعت الصّور، والوصف المختصر لكلّ معلم أثريّ. تاج محل، قلعة أغرا، فاتحبور سكري، قطب مينار.. مررت على بقيّة الصّفحات بسرعة. لم تعد تقرأ. المزيد من القلاع والقصور والمتاحف والمساجد والمعابد. لديك أسبوع من الفرجة على المباني بين أغرا ودلهي! يا للهول! أصابك اختناق مفاجئ. ما هكذا حسبت إجازتك ستكون!

التفت السّائق ليلقي نظرة عابرة على الكتيّب بين يديك، وقال محاولا أن يجاذبك أطراف الحديث:

- رحلة إلى الهند لا تكتمل إلّا بزيارة تاج محل!

هززت رأسك ببطء، دون أن توافقه حقّا. «رحلة إلى فرنسا لا تكتمل دون زيارة برج إيفل»، و«رحلة إلى مصر لا تكتمل دون زيارة الأهرامات».. تلك القوالب المتعارف عليها للسّفر، لا تغريك الآن على الإطلاق. لقد وقعت ريم في فخّ التيّار السّائد، وأغرقتك بالمباني والمزيد من المباني! لعلّ ذلك كان ليروي شغفها بالهندسة والمعمار.. ولعلّ شيئا من ذلك كان ليمتعك في وقت مضى. لكنّك الآن تبحث عن تجربة مختلفة. تفتّش عن ذاتك الضّائعة، وهذا لا يساعد.

جاء الجزء الثاني من الرّحلة ليخفّف صدمتك. كيرلا مقاطعة خضراء، مطلّة على البحر. ستتنقّل خلال الأسبوع الثاني بين الجبال والأنهار وحقول الشاي. هذا أفضل.

حين وصلت إلى أغرا، كانت السّماء مظلمة تماما. أربع ساعات هي مدّة السّفر بين دلهي ومدينة التّاج. ولم تكن الظّلمة من نصيب السّماء وحدها. الطريق كذلك حالكة والرّؤية شبه منعدمة.

كنت قد غفوت لساعتين، وأيقظتك مراوغات السّائق المفاجئة على مشارف المدينة. في ذلك الليل البهيم، كانت الأبقار الشّاردة تخرج من حيث لا تدري، لتعبر الشّوارع بمشيتها الوئيدة، ثمّ تتوقّف لتطالع السّائقين بنظرات بليدة متحدّية، قبل أن تستأنف مسارها إلى الضفّة المقابلة.

أمضيت أسوأ ساعة في عمر رحلاتك على الطّريق منذ عرفت آلة تسمّى سيّارة. كانت أسوأ من الطريق المتعرّجة عبر شعاب مكة بعد عشر ساعات من القيادة انطلاقا من الرياض، وأسوأ من الطريق الصّاعدة في اتجاه منتجعات الألب الثلجية المحفوفة بالمنحدرات الزلقة. حتّى وصلت أخيرا، سليما معافى، إلى فندقك. أذهلك برود سائقك وثباته، رغم المفاجآت المتكرّرة والمطبّات المفزعة. أبقار مقدّسة؟ يا للسخافة! لقد مررت بمراحل الكفر كافّتها، وعبثت في عقلك بكلّ مقدّس، لتأتي الأبقار وتعبث بحياتك؟

ابتسمت في سخرية، وموظّف الاستقبال يسألك مجاملا إن «كنت قد أمضيت رحلة جيّدة»! فكّرت، هل كان يمكن أن تكون أسوأ؟ رغم كلّ شيء، غرقت في نوم هادئ وعميق تلك اللّيلة. حين استيقظت صباحا، كنت قد أضمرت نيّة تمرّد. لن تمضي أسبوعا تتفرّج وحيدا على المباني! ربّما لو كانت ريم هنا، لفعلت. إكراما لها. لكنّك الآن وحيد ومرهق العقل، ولا طاقة لك لدروس التّاريخ والمعمار! فكّرت، حين تستيقظ من سباتها الطّويل، ستفاجئها بدورك، بذكريات صنعتها أنت وفاتها هي أن تتخيّلها!

تذكّرت محادثة في وقت سابق مع زميل عمل هنديّ الأصل. كنت آنذاك قد اتّفقت مع ريم على تنظيم رحلتكما، وجئت على ذكر زيارتك المرتقبة للهند أمام «راجو»، قال حينئذ بعفويّة:

- إن فكّرت بزيارة فاراناسي، يسّرني المساعدة.. عائلتي تقيم هناك، ويمكنني أن أنظّم استقبالك وزيارتك.

قاطعه آنذاك زميل آخر بامتعاض كان يصغي لمحادثتكما:

- مع كلّ احترامي لعائلتك راجو، ما المغري في زيارة «مدينة الموت» تلك؟ لا أظنّ أنّ شخصا سويّا سيفعل!

شكرته حينها واعتذرت. كانت رفيقتك الموكّلة بتنظيم الرّحلة.

مدينة الموت. كان ذلك مناسبا لمزاجك الحاليّ! تلك الفكرة التي بدت مضحكة وربّما مقرفة منذ شهور، تروقك بشدّة الآن. قصدت مكتب الاستقبال واستفسرت عن سبل الوصول إلى فاراناسي. شرح الموظّف الخيارات المطروحة: السيّارة، القطار، الطّائرة. بدا القطار أفضل الوسائل المتاحة، من حيث الكلفة والوقت. هناك رحلة مسائية. وافقت على الفور، فليقتن تذكرة من أجلك.

عدت إلى الغرفة وراسلت راجو: هل ما زال العرض ساريا؟ تحتاج دليلا عند وصولك إلى مدينته. ماذا بعد ذلك؟ أمامك يوم تقضيه في أغرا، وسائق ينتظرك في مواقف الفندق. تاج محل؟ لا بأس بذلك.

ركبت «التكتك» -وهي دراجة ناريّة ذات عجلات ثلاث، صمّم فوقها صندوق مغطّى لاستضافة راكبين أو أكثر بالإضافة إلى السّائق، تستعمل غالبا للتنقل داخل الفضاءات التي لا تسمح بمرور السيّارات العاديّة- لتقطع المسافة الفاصلة بين الشّارع الرّئيسي ومدخل الحديقة التي تحيط بالمعلم، لتجد دليلك السّياحيّ بانتظارك عند المدخل. خطوت وراءه باتّجاه الممشى العريض الذي يتربع في نهايته «قصر التّاج». تجيل بصرك بين الحديقة الخلّابة والبناء الرّخامي الأبيض، مستسلما لشروحات الدّليل بإنجليزيّة مهشّمة.

«كان القصر الذي بناه الإمبراطور المغولي المسلم شاه جاهان

يعتبر درّة الهندسة المغولية، في مزيج بديع بين الهندسة الإسلاميّة والإيرانيّة والعثمانيّة والهنديّة. وقد تمّ تشييده ليكون ضريح زوجته «ممتاز محل» التي توفّيت أثناء وضعها طفلهما الرّابع عشر...».

توقّفت عن الاستماع عند ذلك الحدّ. لقد كان ضريحا! تتّسع عيناك في دهشة ويتعلّق بصرك بالبناء الفاره الذي تلتمع فسيفساؤه البديعة تحت أشعّة الشّمس، ثمّ تراقب في استمتاع أفواج الزّوار الذين يتزاحمون في الأروقة والممرّات. كلّ هذه الحياة.. حول قبر؟

تتتالى صور في ذاكرتك، لمشهد آخر، منذ أكثر من خمسة عشر عاما. لقد عرفت ذلك النّوع من الدّهشة حين كنت تزور شقيقتك في مدينة المنستير في تونس، حيث تدرس الصّيدلة. خرجت وإيّاها تلك المرّة تتمشيان عبر شوارع المدينة، فتوقّفت مع اقتراب أذان العصر، وقلت وأنت تشير إلى بناء جميل بنهاية ساحة واسعة:

- تعالي.. نرتاح قليلا، ثمّ نصلّي العصر هنا.

انفجرت أختك ضاحكة حينها. لم تكن القبّة الذهبيّة والمآذن النّاصعة الباسقة جزءا من مسجد ما، بل الضّريح المرتقب للزعيم الحبيب بورقيبة! لم يكن قد توفّاه الله بعد في ذلك الوقت. لكنّه عُني بتجهيز «دار آخرته» في وقت مبكّر، وضمّ إليها رفات أفراد عائلته الذين سبقه الأجل إليهم. أتذكر انفعالك تلك المرّة، وخطبتك العصماء عن الطّغاة الظالمين وعمى بصيرتهم، واستخفافهم بالموت والحساب، يظنّون البناء سيعصمهم من الله؟ (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ الذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ).

الآن، تسيطر عليك فكرة واحدة. كم كان الإمبراطور شاه جاهان وفيّا لزوجته، حتّى يكرمها بمثل هذا الصّرح العظيم! كيف خطر بباله، أن يجعل قبرها «جنّة» على الأرض؟ وتخطر ببالك ريم.. لو

أنّها ترحل أخيرا، يوما ما، ما أنت فاعل؟ هل يسعك أن تكرّمها، بطريقة ما، تخلّد ذكراها بين العالمين؟ ينتابك مزيج من الكآبة والخوف، بينما يتناهى إليك صوت الدّليل وهو يواصل شرحه عن نظام التهوية والإضاءة الطّبيعيين داخل المبنى.

ستترك أغرا وتاج محل وقد ازداد انقباضك. لم تكن قد وصلت إلى مدينة الموت بعد، لكنّ ذكره يلاحقك منذ تلك الآونة. تركت سائقك ذاهلا على الرّصيف، بعد أن اتّصلت بوكالة السّفر وألغيت حجوزات بقيّة أيام الأسبوع. أجزلت له العطاء واعتذرت عن التغيير الطارئ. كنت راضيا وأنت تولّيه ظهرك وتمضي. لقد خسرت مبلغا لا بأس به، لكنّك لن تخسر أسبوعا من عطلتك!

تركب القطار، وتتّخذ مجلسك في «عربة النوم». كانت الرّحلة مسائية تستمرّ أكثر من عشر ساعات، وقد كانت إمكانيّة النّوم في القطار مغرية. العربة عبارة عن ممرّ جانبيّ، على امتداده رصفت أسرّة قابلة للطيّ سفليّة وعلوية. تحسّست المرتبة متفقّدا. كانت قاسية. لن تكون ليلة نوم مريحة إذن. تمدّدت على سريرك العلويّ وقد توسّدت حقيبة ظهرك، وناشدت النّعاس أن يتسلّل إلى جفونك.

استقبلتك فاراناسي، في ساعة مبكّرة من الصّباح، وقد عبق الهواء برائحة الموت!

تعرف رائحة الموت. تعرف رائحة البخور المحترق في سرادقات المآتم، ورائحة المسك التي تفوح من الصّالحين وقت الغسل والبسمة تزيّن ثغورهم البيضاء، ورائحة التّراب النديّ حين يهال على الجثمان حتّى يوارى إلى الأبد. وتعرف أيضا تلك الرّائحة النفّاذة لمادة «الفورمالين».. التي تسبح في فضاء قاعات التّشريح، تلتصق بأنفك وتلازمك أيّاما تأبى الانصراف، وتعبث بمعدتك وأمعائك! لكنّ

أيّا منها لم يكن يشبه شيئا ممّا تشمّه في فاراناسي، فقط يلازمك يقين بأنّ الرّائحة الغريبة التي استقبلتك وأنت تخطو على رصيف المحطّة هي رائحة موت لا تعرفه. موت على طريقة الهندوس.

وجدت «أيوش» شقيق «راجو» في انتظارك. رغم إعلامه المتأخّر بزيارتك ووصولك عند الفجر، لم يتردّد في المجيء. كنت تستيقظ من ساعات نوم متقطّع وغير مريح على مرتبة القطار، ثيابك مكرمشة وعيناك محمرّتان وشعرك مشعّث، بينما يبدو «أيوش» في كامل أناقته، بنظرته المتألّقة وسترته المكويّة بعناية وشعره الغارق في الزيوت. استقبلك بحفاوة، مثل صديق قديم، وقادك إلى المواقف حيث سيّارته الصّغيرة. أيوش مهندس إلكترونيات، ينتمي إلى عائلة موسرة وأفرادها ذوو ثقافة عالية. اختار البقاء في فاراناسي، في حين حطّ راجو رحاله في باريس.

بينما تعبر السيّارة الشّوارع الهادئة، في تلك الآونة من اللّيل، تتألّق في البعيد كتل جمر حمراء ملتهبة، يتصاعد منها دخان كثيف. يشرح أيوش بإنجليزية ذات لكنة هندية تجاهد لتلتقط مفرداتها:

- أنت تعرف بالتّأكيد أنّ فاراناسي هي مدينة مقدّسة عند الهندوس. يتوافد مئات الأشخاص كلّ يوم.. محتضرون على فراش الموت يرغبون أن تكون آخر ساعاتهم هنا، أو جثث وافتها المنيّة، يأتي بها ذووها لتحرق على ضفاف نهر الجانجا. تلك النّار التي تراها في البعيد، إنّها محارق في الهواء الطّلق، تلتهم مئات الجثث كلّ يوم!

تسرح نظراتك عبر الدّخان وتسري في بدنك قشعريرة باردة. لقد جئت لترى الموت بأمّ عينك. ما الإجابات التي تنشدها من مشهد السّائرين إلى مثواهم الأخير؟

- أتفهّم صدمتك.. لا تقلق، هذا ليس شأنك وحدك. حتّى الهنود

القادمون من باقي أنحاء البلاد يشعرون بالصّدمة التي تعيشها أنت كأجنبيّ في مدن الهند الأخرى، حين يأتون إلى فاراناسي!

تميّز عيناك فجأة في العتمة جسد رجل شبه عارٍ، إلّا مما يستر عورته وعمامة على رأسه، تتقد عيونه الحمراء في الظّلام مثل القطط، وهو يتربّع في سكينة على الرّصيف الخالي. تكاد تجزم في تلك اللّحظة بأنّه كان يوجّه بصره إليك، تحدّثك عيناه في صمت، بلغة لا تفقهها. انتبه أيوش إلى نظراتك الزّائغة فقال معقّبا:

- إنّه من «الأغوري»، أكلة لحوم البشر.. لا تحاول الاقتراب منهم!

نمت بضع ساعات حتّى الصّباح، في منزل عائلة أيوش. كانت فيلا أنيقة في الجانب العصريّ من المدينة، بعيدا عن نهر الجانجا ومحارقه وروائحه الخانقة. وكانت الغرفة التي خصّصت لك أجمل من الغرف الفندقيّة. تحدّث أيوش كثيرا على مائدة الإفطار، عن تقاليد الموت عند الهندوس، وعن نشاط «السّياحة المظلمة» في السّنوات الأخيرة. لم تكن فاراناسي قبلة الهندوس الباحثين عن الارتقاء إلى السّماوات وحدهم. عشرات الآلاف من السيّاح البيض يتوافدون كلّ عام لمراقبة المحارق عن كثب. البلديّة أقامت فرنا كهربائيّا على ضفاف النهر، غير بعيد من المحارق التقليديّة، أقلّ كلفة وضررا للبيئة. لكنّ الإقبال عليه ضعيف جدّا. الاحتراق لم يكن بالنّسبة إلى الهندوس مجرّد وسيلة للخلاص من جثّة المتوفّى، بل طقسا مقدّسا، تنفق في سبيله آلاف الروبيات، ويهمّ بالأساس أن يتمّ بالطّريقة السّليمة، على يد أشخاص مؤهّلين. حين تكون الطّقوس صحيحة ودقيقة، تكون الطّريق إلى السّماء أسرع.. مثل خطّ عمودي مستقيم!

- تريد أن ترى بنفسك؟

وهل جئت لغير ذلك!

خرجتما قبيل العاشرة، تتمشيان على ضفاف الجانجا. المشهد يبدو مشابها لما ستراه لاحقا في كلّ المدن الهنديّة. مدرّجات «الغات» الحجرية تنزل حتّى المياه، وعشرات الأشخاص يغتسلون أو يغسلون ثيابهم في النهر. النقطة الفارقة هي الماء نفسه. لقد كان أسود تماما. أقذر مياه يمكن أن تقع عليها عين على سطح البسيطة. وهي مياه مقدّسة!

يقترح عليك أيوش رحلة صغيرة في قارب. ذاك أكثر نشاط سياحيّ شعبيّة في المدينة. تلمح عشرات الزوارق الطويلة والضيّقة تتهادى على سطح النهر، في مقدّمتها هنديّ يجذّف، بينما «يستمتع» سيّاح أمريكيّون أو أستراليّون بتأمّل عمليّة الحرق أو إغراق الرّفات في الماء من موقع مميّز.

- انظر.. هناك!

تنحني لتحدّق في النّقطة التي أشار إليها أيوش. على بعد أمتار قليلة، تطفو قطعة لحم متآكلة بيضاء. تميّز أصابع نحيلة في نهاية الطّرف. إنّها ذراع بشريّة لم تحترق تماما. تتقلّص ملامحك في اشمئزاز، بينما تلحظ صبيانا عند الضفّة المقابلة، يغربلون الماء بهمّة.

- ماذا يفعلون؟

- يبحثون عن قطع الحليّ أو الأسنان الذّهبية. العائلات الموسرة غالبا ما تحرق موتاها دون أن تنزع عنهم قطع المجوهرات.. هذا جزء من التقاليد.

يمرّ القارب قرب محرقة متّقدة. تلمح بوضوح الجسد المتواري تحت أعواد الحطب، في ثياب حريريّة زاهية، تحيط بعنقه وصدره قلائد الزهور الملوّنة، بينما تقف عائلة المتوفّى على بعد أمتار قليلة، ترقب عمليّة إيقاد اللّهب. عند الموقد، ينشط صبيّان رقيقا

العـود، يضرمـان النّـار ويتعهّدانهـا بالرّعايـة حـتّى يتأجّـج الجسـد ويأخـذ في الذّوبـان، مثـل قطعـة بلاسـتيك. تتعلّـق عينـاك بالمشـهد، مذهـولا. تنفـذ إلى أعماقـك في تلـك اللّحظـة الرّائحـة ذاتهـا، رائحـة المـوت الـتي استقبلتك في المحطّـة.

- يسـتخدمون غالبـا خشـب المانجـو، رائحتـه الزكيّـة تلطّـف مـن رائحة الشّـواء البـشريّ. والأكـثر ثـراءً يزفّـون فقيدهـم إلى العالـم العلـويّ، «النيرفانـا»، عـلى سريـر مـن الصّنـدل. عطـره هـو الأفضـل عـلى الإطـلاق.

تشـعر بالغثيـان. لقـد رأيـت أجسـادا كثـيرة مسـجّاة في السّـابق، عـلى طاولـة التّشريـح، لكنّـك لـم تـر عـلى الإطـلاق، مشـهدا أكـثر وحشـيّة مـن هـذا. يواصـل أيـوش شرحـه مثـل دليـل سـياحيّ:

- يتطلّـب الجسـد البـشريّ ثـلاث سـاعات حـتّى يحـترق تمامـا، ثـمّ يغـرق الرّفـات في النهـر. أحيانـا لا يكـون الاحـتراق مكتمـلا، حـين يسـتعجل القائـم عـلى الموقـد ليسـتقبل «زبونـا» جديـدا.. فتبقـى بعـض الأطـراف، كمـا رأينـا منـذ قليـل. وعندمـا يهبـط الظّـلام، يظهـر «الأغـوري». يصطـادون بقايـا الأجسـاد الغارقـة في النّهـر ويقتاتـون عليهـا.

يشتدّ بك المغص. أنت على وشك التقيّؤ.

– فلنعد.

تتمتم لمضيّفك راجيا.

كان مـن العسـير بعـد ذلـك أن تتنـاول وجبـة الغـداء. تـتراءى أمـام عينيـك مـع كلّ لقمـة صـورة الـذّراع البشريّـة الطّافيـة، وتتخيّـل الرّجـل العـاري عـلى الرّصيـف وهـو يغـرس أسـنانه في لحمهـا ويلوكهـا عـلى مهـل، بينمـا يراقبـك بعينيـه البرّاقتـين. عانيـت مـن آلام البطـن طيلـة الظّهـيرة.

-٣-

عند السّابعة صباحا، خرجت من منزل أيوش وحيدا. كان مضيّفك الذي سخّر يومه لقيادتك عبر شوارع المدينة بالأمس، قد غادر إلى عمله منذ دقائق. بعد ليلة نوم متقطّع تحفّها الكوابيس وتغمرها مشاهد أكلة لحوم بشر مروّعة، قرّرت أنّك تريد أن تعرف المزيد عن فاراناسي ولعنتها. ستواجه كابوسك وتنظر، كيف تكون النّتيجة. تبتسم في خفّة وأنت تحثّ الخطى نحو المدينة القديمة. ألم تأت إلى هنا لتعاين مخاوفك وآلامك من زاوية جديدة؟

كانت الشّمس تغمر بنايات المدينة الكالحة برداء من نور، في تلك السّاعة من النّهار وتهديها حلّة برّاقة متناقضة مع بشاعة ليلها ونهرها الأسود العظيم! على ضفاف الجانجا، كان حجّاج هنديّون يغمرون أجسادهم في المياه المقدّسة القذرة. رمقتهم بامتعاض وحثثت الخطى باتّجاه «الغات». كيف يمكن لملايين البشر أن يؤمنوا بمعتقد سخيف كهذا؟ لم يكن عقلك قادرا على استيعاب مقدار الغباء البشريّ المركّز المحيط بك.

كان رجال طائفة «الدوم» يسهرون على تأجيج النّار المعدّة لاستقبال أضحية جديدة. في نظر الهندوس، يعتبرون حرّاسا للشّعلة الأبدية. في تلك المدينة الأكثر تقديسا في الهندوسيّة، يعملون بجدّ لتسير عملية الإحراق على خير ما يرام. بدونهم، لن يتمّ تحرير الجسد من أعبائه الدّنيويّة على عتبة النيرفانا!

جلست تراقب الحركة حول الموقد في فضول على بعد أمتار قليلة، غير عابئ باللّهب المتطاير والحرارة الخانقة والدّخان الذي

تدمع له عيناك. بين جثّتين، تجاسرت على مخاطبة «ماترو» القائم على المحرقة، وابن عمّه «أنجو» الذي يهتمّ بالحسابات ويعطي الضوء الأخضر للشروع في الإحراق. وقفت إلى جانب هذا الأخير بينما انغمس في تدوين نشاط اليوم في «دفتر الموتى» ذي الأوراق المصفرّة، ثمّ أخذ يعدّ رزمة الأوراق الماليّة التي تزداد سمكا كلّ ساعة.

- هؤلاء أحفادي.. عشر سنوات، اثنتا عشرة سنة.

يشير إلى الصبيان أنصاف العرايا الذين يغمرهم الماء حتّى ركبهم، ويسحبون إلى القاع رماد اللّيلة الماضية. تلك المهمّة الأساسيّة تورّث أبا عن جدّ، وتبقى حكرا على طائفة الدوم وحدهم، مثل «ملوك» على مدينة الموت. وعلى بعد خطوات من الغات، ينتصب قصر «الدوم راجا» مسيطرا على المدينة القديمة، ملقيا بظلاله حتّى النهر، يحرسه تمثالان لنمرين حجريين. ذاك هو المقرّ الرّسمي لملوك الدوم. يتداول أفراد العائلة على المحرقة، ومن يسترح منهم ذلك اليوم فهو بالتّأكيد يتسكّع بالجوار، يرتشف الشّاي على ضفاف النّهر أو يطارد السيّاح ليقودهم في زيارة حول المدينة. حين سألته عن عمر مهنته، أجاب «ماترو» بابتسامة خبيثة:

- منذ الأزل!

كلاهما يجيد بعض الإنجليزية بحكم تعاملهما مع السيّاح المتوافدين بالآلاف لمعاينة نشاط المحرقة. لا أحد يمكنه الجزم متى استحوذت طائفة الدوم على القوامة على أعمال الحرق. منذ قرون بالتّأكيد. حين يتعلّق الأمر بالرّوحانيّات، لا تجد التواريخ والرّزنامات لها مكانا. كلّ شيء يحصل هنا «منذ القدم» وسيستمرّ «إلى الأبد».. أوليس ذلك شأن كلّ مقدّس؟ بعض الهندوس يؤمن حتى أنّ أولى دقات ساعة الزّمن شهدتها المدينة النائمة على ضفاف الجانجا.

- حين كنت طفلا، كانت تمرّ أيّام دون أن تحرق جثّة واحدة على الغات! اليوم، تعدّ على ضفاف الجانجا مئات المحارق قبل غروب كلّ شمس.

سألك بشكل روتينيّ، كما سأل ربّما عشرات الزّوّار الذين يتوقّفون يوميّا لالتقاط صورة له أثناء عمله أو لتبادل بضع كلمات معه:

- من أيّ بلد؟

- تونس.

تساءلت أمام صمته، هل يعرف «ماترو» أين تقع تونس؟ فأضفت موضّحا:

- شمال أفريقيا.

- آه، أفريقيا! أليسوا سود البشرة في أفريقيا؟

يشير إلى بشرتك البيضاء في دهشة. قلت بابتسامة صغيرة:

- ليس كلّهم.

يومئ «ماترو» بدون اهتمام، ثمّ يردف بشيء من الفلسفة:

- صحيح أنّني لم أغادر فاراناسي وقد لا أفعل أبدا.. لكنني على ضفاف الغات قد تعلّمت حكمة الحياة الأعمق: كلّنا إلى رماد! لذلك لا داعي للخوف.

«لا داعي للخوف». تردّد العبارة متفكّرا بينما تراقبه عيناك في سهوم وهو يدفع بعصاه ذراعا بشريّة متآكلة لشيخ حرق للتوّ.

- لا أهميّة لكلّ هذا.. إنّه رجل عجوز، عاش حياته كما يجب.. والآن كلّ شيء انتهى. لقد رأيت في عينيه نظرة طمأنينة وهو يساق إلى مرقده الأخير ملفوفا في الحرير.. كلّنا نسير على خطاه، أليس كذلك؟

غير بعيد عن المحرقة، كان جمع من المهاجرين البنغال ينشطون

في تفريـغ أطنـان مـن الخشـب عـلى أكتافهـم المتعبـة. كنـت تتابـع مـن ركـن مراقبتـك طيلـة فـترة الصّبـاح عملهـم الـدّؤوب جيئـة وذهابـا بـين الشـاحنات المتدفّقـة واحـدة إثـر الأخـرى ورصيـف الغـات. حـين أصبحت الشّـمس في كبـد السّـماء، انسـحبوا إلى ظـلّ شـجرة وانهمكـوا في تنـاول خـبز «النـان» المغمـوس في صلصـة «كاري» حـارّة.

حـين تـركك «ماتـرو» ليطعـم نيرانـه جسـدا جديـدا، اقتربـت مـن الشّـجرة، وحاولـت أن تبـدأ حـوارا مـع بعضهـم.. لكنّهـم أخـذوا يتغامـزون بشـأنك ويتضاحكـون. وقـف شـابّ في منتصـف الثلاثينيـات وقـال بإنجليزيـة محترمـة:

- إنّهـم لا يفهمونـك.. معظمهـم لـم يدخـل المـدارس أبـدا.. مرحبـا، اسـمي «لكشـان».

صافحـت اليـد المتعرّقـة الـتي امتـدّت تجاهـك، وتجاذبتمـا أطـراف الحديـث لبرهـة. «لكشـان» مسـلم بالوراثـة، اعتنـق الهندوسـيّة منـذ سـنتين -منـذ وصولـه إلى فاراناسي- وهو سـعيد اليـوم بالمـأوى القصديري الـذي يتوفّـر لـه لقـاء عملـه في المحرقـة، بالإضافـة إلى خمسـمائة روبيـة في اليـوم. سـألته في فضـول:

- ما الذي دفعك إلى تغيير دينك؟ ما الذي وجدته في الهندوسيّة؟

قال في ثقة، مردّدا عبارة حفظها عن آخرين لا شكّ:

- الهندوسيّة لا يمكن تعريفها.. يمكنك فقط اختبارها!

ثـمّ اعـترف لاحقـا في نـوع مـن الخجـل بأنّـه كان يجـد واجبات الإسـلام كثـيرة وعسـيرة. أمّـا الهندوسـيّة فهـي لا تتبـع نبيّـا بعينـه، ولا تعبـد إلهـا واحـدا، ولا تتبـع نمطـا موحّـدا للشـعائر الدّينيّـة.. وليسـت لديهـا أيّ مـن المظاهـر المتعـارف عليهـا في الأديـان عامّـة. كان مـن اليسـير أن تكـون هندوسـيا، بـدون تبعـات تذكـر! ابتسـمت في سـخرية. هـذا مؤمـن آخـر لا

يـدرك لإيمانـه معـنى!

لكنّك أدركت مدى خطئك بشأنه، حين سألك:

- هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟

- لا!

قال في حماس:

- يجـدر بـك أن تفكّـر في الأمـر! حـين فكّـرت بـأنّ حيـاتي الصّعبـة هـي بالتّأكيـد جـزاء عمـل سـيئ قمـت بـه في حيـاة سـابقة، شـعرت بحمـل يسـقط عـن كتفـيّ.. أصبحـت أكـثر رضـا وتقبّـلا لمصـيري.. وأنـا واثـق مـن أنّ صـبري في هـذه الحيـاة سـيجازى بنعيـم في حيـاة مقبلـة!

ابتعـدت عـن المحـارق متفكّـرا في كلمـات «لكشـان»، تحفّـك الـكلاب السّـائبة والأبقـار المتجوّلـة.. بينمـا تتقافـز القـرود العدوانيـة عـلى مقربـة. لعـلّ «لكشـان» قـد حـاز الطّمأنينـة بتفسـير سـاذج «لقـدره»! رغـم حياتـه الشّـقيّة ومسـتقبله الحالـك، كان يجـد في إيمانـه ملجـأ وسـلوى. آه.. ليتـك تجـد شـيئا ممّـا يجـد!

بعـد هيمانـك سـاعات في طرقـات المدينـة القديمـة، جلسـت في مقهـى شـعبيّ مطـلّ عـلى النّهـر. كان النّهـار يزفـر أنفاسـه الأخـيرة، بينمـا يجلـس عـدد مـن الشّـباب العاطـل عـلى قارعـة الطّريـق، يحتسـون الشّـاي ويدخّنـون لسـاعات طويلـة. كنـت تتأمّـل في صمـت بـوادر الحيـاة النّاعسـة في مدينـة المـوت، وترتشـف الشّـاي ببـطء. يلازمـك إحسـاس متبلّـد بالكسـل.. لـم تكـن تريـد تفكـيرا سـاعتها، ولا تحليـلا لفلسـفة الهنـدوس الرّوحيّـة، فقـط وقتـا مسـتقطعا مـن عقلـك. لكـنّ فارانـاسي لا تـتركك لتأمّلاتـك وتلـحّ عليـك لتخطـو في عالمهـا أكـثر. لـم تكـن قـد أنهيـت كوبـك حـين اقـترب منـك شـابّان نحيـلان في بدايـة العشرينيـات. كان شـكلك الأجنـبيّ جاذبـا ولا شـكّ.

- هل تريد القيام برحلة في مركب على النّهر؟

- لقد سبق وفعلت.. شكرا.

اعتذرت بابتسامة، وحاولت التخلّص منهما.

- تذكار إذن؟

وضع أحدهما أمامك حقيبة ظهر ملأى بالتّحف الرّخاميّة المنمنمة وحاملات المفاتيح واللّوحات المغناطيسية. لوّحت بكفك مرّة أخرى. لست مهتما. لكن بدا ألّا سبيل للخلاص منهما.

- رأيتك تتحدّث هذا الصّباح إلى القائم على المحرقة.. من الأفضل ألا تفعل مرّة أخرى.

بدا عليك الاهتمام هذه المرّة.

- لماذا؟

- إنّهم منبوذون! لا أحد في المدينة يتعامل معهم.. لو أنني ألمس أحدهم ثم أرجع إلى أصحابي فإنّني سأصبح منبوذا مثلهم.. لن يخاطبني أحد.. سيحسبونني نذير شؤم أيضا! لا أحد يدعوهم إلى حفلات الزّفاف.. لأنهم يجلبون الشؤم!

تعرف كم أنّ الشّعب الهنديّ متطيّر ومؤمن بالخرافات. لم تكن الخرافة الأولى التي تصلك أصداؤها ذلك اليوم. يقولون أنّ من يقف على ضفاف الغات ساعة الغروب يتحوّل إلى شبح! ابتسمت وهززت رأسك، ثمّ راودك خاطر جريء. تذكّرت كابوس الليلة الماضية والعيون الحمراء التي أبصرتها في الظّلام ليلة وصولك، فسألت الشابّ:

- هل تعرف أين يمكن أن أجد الأغوري؟

- هل جننت؟ إنّهم يأكلون لحوم البشر والكلاب النّافقة!

بدت على وجهه علامات التقزّز وهو يضغط على مخارج حروفه

في انفعـال. ولـم يـزدك انفعالـه إلا إثـارة وتوقـا لرؤيـة المشـهد بـأمّ عينـك. لـم يعـد الأمـر يثـير فيـك رغبـة في الغثيـان. لا تـدري في أي لحظـة بالضبـط مـن يومـك الطويـل عـلى الغـات محاذيـا المحرقـة متشـبعا برائحتهـا الخانقـة كـسرت حاجـز الخـوف ليتحـول النفـور والاشـمئزاز إلى فضـول وانجـذاب.

تدخّل صوت غريب ذو لكنة فرنسيّة واضحة:

- هل تبحث عن الأغوري؟

كان كهـلا في منتصـف السّـتينيات، يرتـدي ثيـاب الرّهبـان البرتقاليّـة الفاقعـة، ويضـع عـلى رأسـه قبّعـة خـيزران رخيصـة. جـذب كرسـيّا وجلـس إلى طاولتـك بـدون اسـتئذان، بينمـا انسـحب الشّـابان النحيـلان خالـيي الوفـاض. قـال بلهجـة الخبـير:

- تلـك الطائفـة الهمجيّـة تعبـد إلـه الدّمـار الهنـدوسيّ المسـمّى شـيفا.. يعتقـدون أنّ تجـاوز المحظـورات الهندوسـيّة التقليديّـة يجعلهـم أقـرب إلى الآلهـة!

سألته بالفرنسيّة:

- أنت راهب؟

ابتسم مرحّبا بشريكه في اللّغة، ثمّ واصل بالفرنسيّة:

- لا! أنـا معلّـم يوغـا! ليسـت تلـك اليوغـا الغبيّـة الـتي يمارسـونها في الدّيـار.. بـل اليوغـا الحقيقيـة، أنـت تعلـم.

لـم تكـن تعلـم، لكنّـك هـززت رأسـك في اهتمـام ليتابـع. أيّـا مـا كان مـا دفـع ذلـك الكهـل الفرنـسيّ ليـترك حياتـه الوديعـة في موطنـه ويسـتقرّ في مدينـة المـوت كمعلـم يوغـا، فهـو يهمّـك! تركتـه يثرثـر طويـلا، عـن حياتـه السّـابقة. كان جـنرالا في الجيـش الفرنـسيّ، حـارب في جبهـات كثـيرة، وسـافر حـول العالـم.. تسـلّق جبـال الهيملايـا وخيّـم في الصحـارى

الأفريقيّة، وشاهد مصارعات السومو وقتال الدّيكة -كانت تلك أسوأ تجاربه على الإطلاق- ثمّ قبيل تقاعده بفترة قصيرة أصيب بمرض الباركينسون.

- الباركينسون؟

سألت في دهشة وأنت تعاين كفّيه الثابتتين على الطاولة أمامه. هزّ رأسه مؤكّدا بابتسامة فخورة. ثمّ واصل حديثه. خلال فترة قصيرة، فقد زوجته التي كانت تعاني من مرض مزمن فتك بها، وسافر ولداه ليستقرّا في الولايات المتّحدة بحثا عن آفاق أوسع، فأدمن القمار والخمر، حتّى خسر مدّخراته كلّها! في سنّ الثانية والسّتين، كان عجوزا مفلسا، مدمنا وأطرافه لا تكفّ عن الارتجاف.

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- وقعت عيناي يوما على إعلان لمركز باريسي يقدّم حصص اليوغا لعلاج مرضى الباركينسون.. فقرّرت أن أشرب من المنبع! سحبت آخر ثلاثة آلاف يورو متبقية في حسابي ودفعتها لقاء دورة يوغا في الهند.. ثمّ اقترضت ثمن التذكرة، وتركت كلّ شيء ورائي وأتيت!

لم ينجح جيوفري في التخلّص من مرضه وحسب، لكنّه أصبح خلال ثلاث سنوات معلّما بدوره، يمارس اليوغا كمهنة وأسلوب حياة.

- اليوغا هي سبيل تحقيق الذّات.. يمكنك من خلالها التّحكّم بالعقل والحواسّ قبل العثور على الذات العليا داخل القلب.

- وهل عثرت على ذاتك العليا؟

- ليس بعد.

يزفر وهو يهزّ رأسه كناية عن طول الطريق التي تنتظره، ثمّ يعود بك إلى الموضوع الأصليّ. أعلمك أنّ مجموعة من الأغوري تتنقّل عبر الجبال في المنطقة الغربيّة، ويمكنه تدبّر أمر لقائك بأحدهم، مقابل

مبلغ بسيط، مائة يورو. بدا ذلك عادلا في نظرك. لو أنّه طلب عشرة أضعاف، كنت لتدفع دون تردّد. ضرب لك موعدا بعد يومين على رصيف الغات في الساعة الحادية عشرة مساءً، ودفعت نصف المبلغ مسبقا. ما من ضمانات. كان بإمكانه سرقة المال والاختفاء، لكنّك رضيت بالمجازفة عن طيب خاطر. مهما كانت حكاية الباركينسون واقعا أو خيالا يستخدمه لينسج شباكه لاصطياد ضحيّة جديدة، فالأمر يستحقّ المحاولة.

- لست الوحيد الذي طلب رؤية الأغوري.. دائما ما ألاقيهم في المقاهي، مثل اليوم.. أمريكيون، أستراليون، بريطانيّون.. بعضهم صحفيّون يكتبون مقالات عن الموضوع، والبعض الآخر يبحث عن الإثارة لا غير.

أمّا أنت فتبحث عن تجربة روحيّة جديدة. شيء يهزّ أعماقك ويحرّك الرّماد.

حين جاء وقت موعدك، كان الجانجا غارقا في الظلام بعد أن أطفئت نيران آخر أضحية تهدى للنهر العظيم. كان جيوفري عند كلمته. انتظرك أمام المقهى، وسرتما صامتين في ليلة دهماء لا يأتيكما إلّا وقع خطواتكما على الأسفلت، وعواء كلب منفرد.

شعرت بقشعريرة باردة تسري في جسدك حين ظهر ظلّ رجل الأغوري مقرفصا عند درجات الغات الأولى. تحت إنارة الشّارع الخافتة، ميّزت ملامحه الغليظة وشعره المنكوش ذا الضّفائر السّميكة. كان منهمكا في تحضير خليط ما في علبة معدنيّة صدئة. سبقك الفرنسيّ إلى نزول الدّرجات وهو يهشّ الكلاب السّائبة التي تجمّعت عند قدمي الرّجل. انحنى ليهمس ببضع كلمات، كأنّما يتفاوض مع الأغوري ليقبل بالحديث إليك.

- إنّهم لا يكونون متيقّظين لوقت طويل، لذلك استثمر وقتك بالشكل المناسب قبل أن يغيب الرّجل في عالم آخر.

دون ثانية تفكير، سألت باندفاع:

- ماذا يوجد في العلبة؟

ترجم الفرنسيّ السّؤال، ثمّ الجواب:

- مزيج من الكحول والحشيش ورماد المحرقة وحبوب هلوسة وسمّ كوبرا!

- هل هذا شيء يشرب؟

ضحك الفرنسيّ ثمّ قال بلهجة فلسفيّة:

- ليس لمن هم مثلك ومثلي! هؤلاء بشر من طينة أخرى.. المشروب يحملك إلى عوالم قاتمة، تغادر جسدك فعليّا، صدّقني! تغادر نفسك وتطالعها من علٍ لتبصر عيوبها وزواياها المظلمة.. لكنّ الأشخاص العاديّين قد يضيّعون أنفسهم في العتمة.

كنت ضائعا بالفعل، لذلك لم تكن تمانع تجربة عتمة من نوع آخر. لكنّ رجل الأغوري ولّاكما ظهره وأخذ يحتسي مشروبه العجيب، ويطلق من حين إلى آخر عواءً مثل ذئب منفرد.

لو أنّك شربت ذاك المشروب المهلك الذي تجتمع فيه السموم بشتّى أنواعها، هل تراك كنت لتدخل عالم الرّوح؟ هل كنت لتلج البرزخ؟ هل كانت عيناك تبصران ما خفي عنها في عالم الغيب؟ وأيّ شيء سيأخذك إلى هناك عدا الموت؟!

تذكّرت ريم وموتها السّريري.. هل كانت تلك التّجربة لتجمعك بها، بروحها المعلّقة بين السّماء والأرض؟

لم تكن تدري.. والعتمة وحدها من نصيبك!

-٤-

أمضيت يوما آخر تتسكّع في شوارع فاراناسي وحيدا، وكانت رائحة خشب المانجو المحترق تطاردك أينما سرت. وكنت كثيرا ما تقف على ضفاف نهر الجانجا، فتستعيد صورة نهر آخر ومدينة أخرى. لقد كان الماء أسود، ذاك الماء الذي غرقت فيه ريم.. لكنّه سواد الليل لا غير. أمّا هذا الماثل أمام عينيك فهو حالك لا يعكس صورتك حتّى في وضح النّهار. سترى نهرا آخر في كيرلا، أخضر اللّون، وسيكون إحساسك مختلفا وأنت تعبره في منزل عائم.

ودّعت أيّوش وركبت قطارا، ثمّ آخر.. حتّى وصلت إلى «كوتشي» عاصمة مقاطعة كيرلا. كنت قد أعلمت وكالة الأسفار بتغيير الخطّة. ستصل يومين قبل الموعد المتفق عليه. لمّا توقّف القطار في محطّته النّهائية، لم تكن قد غادرت مقعدك حين لمحت البطاقة التي تحمل اسمك تلوح لك على الرّصيف.

صافحت سائقك الجديد «جوزيف» ورافقته إلى السيّارة. كان مسيحيّا أبا عن جدّ، كما يوحي بذلك اسمه. والمسيحيّون -كما المسلمين- أقلّية معتبرة في كيرلا، تناهز كلّ منهما خُمُس الكثافة السكّانيّة. غادرتما كوتشي على الفور ومضت بكما العربة على الطريق الرّيفية سيئة التعبيد لمدّة خمس ساعات. مررتما بقرى عدّة، وأبصرت شلالات وحقول شاي وغابات ممتدّة. ورأيت معابد وكنائس ومساجد. على طول المسار الشاقّ والملتوي، تظهر البناءات واحدا إثر الآخر.. معبد ثمّ مسجد ثمّ كنيسة.. ثمّ مسجد وكنيسة ومعبد آخر! كان مشهدا بديعا للتسامح والتّآلف -كما حسبتها- بين الدّيانات السّماويّة

والوضعيّة لم تعهده من حيث أتيت! لا في المملكة السّعودية ولا في تونس ولا في فرنسا يمكن للعين أن تبصر مثل هذا المشهد المدهش!

وأنت تتأمّل مشاهد الطبيعة والعمران المتعاقبة والسيّارة تصعّد في اتّجاه «مُنّار»، القرية الجبليّة، باغتتك رغبة ملحّة. أنت تريد ممارسة اليوغا هنا! ريم كانت تمارس اليوغا. تلك اليوغا «الغبيّة» كما وصفها جيوفري، في مركز رياضيّ باريسي، حيث تعتبر اليوغا موضة العصر. مزيج من الرّياضة والاسترخاء، بالتّناقض مع الموضة الأخرى التي تنافسها في الانتشار.. رقصة «الزومبا» الصّاخبة والحركيّة. لكن هنا، وأنت تطلّ من علٍ على الوادي السّحيق بين المرتفعات الجبليّة، ويصلك خرير المياه التي تتدفّق في جدول ما بين أشجار المطاط وجوز الهند والأكاسيا.. تبدو لك اليوغا أصيلة وحقيقيّة. أنت في المكان الصّحيح لممارسة التأمّل!

سألت سائقك على الفور عن أقرب مركز لتعليم اليوغا، فوعدك بأخذك إلى هناك صباح الغد. فأومأت في رضا. تلك هي التّجربة التي تحتاجها الآن.

وصلت إلى فندقك المعلّق فوق الجبل، على ارتفاع ألف وستمائة متر عن مستوى البحر. كانت شرفة غرفتك تهديك مشهدا خلّابا يعانق الضّباب والسّحاب ويحلّق فوق بيوت بعيدة متناهية الصّغر، وحقل شاي قريب بديع المنظر وشلال يلوح خلال الخضرة مثل خيوط فضيّة برّاقة حين تنعكس أشعة الشمس على صفحته. أمضيت ساعات جالسا في الشّرفة، تتأمّل السّماء والوادي. شعرت بالهواء النّقيّ يملأ رئتيك والسلام يغمرك. وتمنّيت لو كانت ريم إلى جوارك.

كانت جرعة الانتعاش التي أحسست بها آنذاك تعدّ أضعاف

أضعاف ما قد يطال غيرك من روّاد المكان. الانتقال من «مدينة الموت» إلى «أرض الله المباركة» كان مثل عبور طريق مباشرة من الجحيم إلى الجنّة!

في الصّباح التالي، أخذك جوزيف في رحلة قصيرة لا تتجاوز نصف السّاعة إلى مركز تعليم اليوغا. كان البناء بسيطا ذا مدخل منخفض، عبرته في اتّجاه المكاتب التي تقع في الجزء الأماميّ من الفضاء. ابتسمت سيّدة ترتدي الساري الملوّن وتزيّن جبينها نقطة حمراء، فبادرتها:

- أريد التّسجيل في دورة يوغا، لأسبوع واحد.

هزّت رأسها في حركة مائلة يمينا ويسارا وهي تقول:

- عندنا برنامج مناسب للسيّاح، سبعة أيّام!

تناولت المطويّة التعريفيّة ورحت تقرأ باهتمام. البرنامج يبدأ على السّابعة صباحا كلّ يوم، حصّة تعريف بالهندوسيّة تتبعها حصّة يوغا للمبتدئين.. ثمّ أنشطة سياحيّة مختلفة، تدليك وتجوال.. وفي المساء حصّة تدريب ثانية في السّادسة مساءً ثمّ حصّة تأمّل لنصف ساعة. لويت شفتيك في امتعاض. هذا لا يبدو مختلفا عن اليوغا الغبيّة التي يمارسونها في باريس!

- لا أريد هذا.. أحتاج تمارين مكثّفة لنتائج فارقة!

أخرجت من درج مكتبها جملة من المطويات وفردتها أمام عينيك. كان هناك برنامج لشهر وآخر لثلاثة أسابيع وأخير لعشرة أيّام من «الهاثا يوغا» أو «يوغا الجهد».. تحت عنوان جذّاب ومغر: اليوغا أسلوب حياة.

- إن كنت تريد نتائج حقيقيّة، أنصحك ببرنامج الشهر أو الواحد وعشرين يوما، مائتا ساعة من التّدريب المكثّف، بمعدّل ثمانية إلى

اثنتي عشرة ساعة في اليوم! أمّا الأخير، فهو يمثّل نصف التدريب لمائة ساعة فقط ويمكنك العودة في وقت لاحق لإتمام المائة ساعة المتبقية.

ترددت. هل ينفع أن تلغي رحلة إندونيسيا لتمضي بقيّة الشهر هنا؟ هل من الحكمة أن تستسلم لتلك الرّغبة الملحّة في تعلّم اليوغا وتضيّع تجارب أخرى ممكنة على أرض أخرى؟ يمكنك أن تتعلّم التّقنية في أسبوع، ثمّ تمارسها بمفردك في خلواتك. أنت أدرى بنفسك وبسرعة تعلّمك. ألححت من جديد:

- أسبوع واحد.

عادت لتضع البرنامج الذي سبق أن رفضته على الطاولة أمامك:

- هذا البرنامج المتوفر لأسبوع واحد!

أيقنت أنّ الإصرار لن يجدي، فاتخذت قرارك:

- عشرة أيّام.. سيكون ذلك جيّدا.

أومأت في رضا، ثمّ تناولت استمارة التّسجيل.

- هل سبق لك ممارسة اليوغا؟

- لا.. لكنّني مارست الرّياضات القتاليّة لسنوات.

لم يبد لها الأمر ذا أهمّية:

- مبتدئ إذن.. هناك برنامج يبدأ الأسبوع القادم.

- أنا مستعدّ للبدء اليوم!

- غير ممكن.. لقد بدأ البرنامج منذ يومين.

عضضت على شفتك في غيظ. كان عليك أن تسرع بدل الوقت الضائع على ضفاف الجانجا القاتمة.

- لا يمكنني الانتظار حتّى الأسبوع المقبل.. سيكون عليّ الرّحيل!

حرّكت رأسها مرّة أخرى مثل أفعى كوبرا راقصة، ثمّ تناولت سمّاعة الهاتف. تحدّثت لدقائق بلغتها العجيبة بكلمات متسارعة، ثمّ عادت إليك بنفس الابتسامة:

- حسنا، يمكنك أن تبدأ الآن.

شكرتها في امتنان حقيقيّ ثمّ تبعتها إلى السّاحة، حيث كانت مجموعات من الأجانب والهنود القادمين من مختلف أنحاء البلاد يمارسون اليوغا.

اقتربت موظفة الاستقبال من معلّم إحدى المجموعات وهمست ببضع كلمات، ثمّ أشارت إليك بأن تنضمّ إلى الدّرس. فتح المعلّم عينيه ثانيتين ليلقي نظرة على القادم الجديد الذي قاطع حصّته المقدّسة، ثمّ عاد ليلقي تعليماته بصوت هادئ، متجاهلا وجودك. كنت قد ارتديت ثيابا رياضيّة خفيفة ذلك الصّباح استعدادا للبدء الفوري، وقد كان. سحبت بساطا مطاطيا واتّخذت مكانا في الصفّ الأخير، وشرعت في تقليد حركات المعلّم في تركيز. هكذا، وبكل بساطة، كنت تمارس اليوغا!

كانت حصّة الـ«أسانا» أو «وضعيّات الجلوس» -وهي اليوغا الأكثر انتشارا في الغرب- قد بدأت منذ نصف ساعة. خلال ساعة ونصف، ستتوالى الحركات بطيئة ورشيقة من المعلّم، وستكرّرها في صمت مع باقي المتدرّبين، جالسا ثمّ واقفا ثمّ ملتويا إلى الخلف أو منكفئا على ركبتيك. عشرات الوضعيّات التي تجبر الجسد على التمدّد ثمّ التقلّص وبلوغ حدود مرونته ودفعها أبعد المرّة إثر المرّة.

حين انتهت الحصّة، كنت تشعر برغبة ملحّة في الاستلقاء على سرير وثير! بالنّسبة إلى أعضاء البرنامج، كان وقت الإفطار قد حان. في ركن الاستراحة، كانت المائدة قد نصبت، فتوجّه الجميع إلى هناك

بشكل تلقائيّ. كانت أمامك ساعة ونصف قبل الحصّة التّالية فقرّرت أن تستغلّها لتعود إلى فندقك وتجمع حاجياتك ومن ثمّ ترجع إلى مركز تعليم اليوغا في الوقت المناسب.

كان جوزيف في انتظارك طيلة ذلك الوقت خارج المبنى. قطعتما نصف ساعة عائدين أدراجكما، ثمّ قصدت مكتب استقبال الفندق وأعلمتهم بإلغاء الحجز! لم يعد ذلك يشعرك بالسّوء مثل المرّة السّابقة في أغرا، لكنّه يوحي بالتّأكيد بسوء التخطيط! كنت ما تفتأ تعدّل على المشروع المتّفق عليه بعد ليلة واحدة من الوصول، وتلك مفاجأة سيّئة -أخرى- بالنّسبة إلى وكالة الأسفار، والسّائق الذي ستودّعه هو الآخر بعد أن يوصلك مرّة ثانية إلى مركز اليوغا.

لم تكن تتحسّر على شيء وأنت تنهي جمع متاعك في غرفة الفندق كما تتحسّر على المشهد البديع الذي تطلّ عليه الشّرفة الشّاهقة! وقفت لدقائق أخيرة تملأ عينيك من الخضرة الوارفة وتودّع الجمال الذي أسرك في «أرض الله»، ثمّ خرجت.

لم تكن الغرفة في مركز تعليم اليوغا واسعة أو مترفة، لكنّها على مقدار من النّظافة والبساطة. كانت تفي بالغرض، وهو ألّا تشغلك عن التعلّم، فلم يكن عليك أن تقضي فيها غير ساعات «الماونا» (الصمت) -أو النّوم!- من التّاسعة والنصف مساءً حتّى السّادسة صباحا.

وضعت حقيبتك وخرجت بسرعة لتنضمّ إلى حصّة «الفلسفة» الخاصّة بمبادئ اليوغا. كانت المحاضرة تقدّم في الهواء الطّلق، في منطقة ظليلة من السّاحة. يجلس المتدرّبون على الأرض في وضعيّة «البادماسانا» أو «اللوتس» الشهيرة، بظهر مستقيم وساقين متشابكتين قريبا من الفخذين، ويستمعون إلى المحاضر لساعة ونصف.

ستتعلّم في كلّ محاضرة المزيد عن مبادئ اليوغا الخمسة وكيفيّة تطبيقها: الرياضة السّليمة (الأسانا)، التنفّس السّليم (باراناياما)، الاسترخاء السّليم (سارافاسانا)، النظام الغذائيّ السّليم (النباتي) والتفكير الإيجابيّ والتأمّل (الذيانا والفيدانتا).. ثمّ الصّفات الأخلاقيّة العشر: اللّاعنف، الصّدق، البرّ، الحكمة، البساطة، الصّلاة، التّضحية، الانضباط، القراءة والرّضا. وكان من المضحك أن يتوجّه إليكم المحاضر ليدعوكم إلى الصّلاة كلّ حسب ديانته التي يؤمن بها. تساءلت، هل يجب أن تكون مؤمنا لتمارس اليوغا؟ في الحقيقة، كنت تحسب اليوغا ستوصلك إلى معرفة ذاتك وبالتالي إيجاد الإيمان.. أيّ نوع من الإيمان، لأنّك فقدتها جميعا!

ثمّ في السّاعة الثانية ظهرا، تأتي حصّة التأمّل التي انتظرتها طويلا. تستلقي على ظهرك في وضعية «الشافاسانا»، فاردا ذراعيك وساقيك قريبا من جذعك، القدمان نحو الخارج والكفّان في اتّجاه السقف. تغلق عينيك وتركّز على حاسة السّمع وحدها. أنت مسترخ، وتحلم. لكن في «اليوغا نيدرا» أنت من يخلق الحلم. تأخذ الوقت الكافي لتصل إلى مرحلة الهدوء والثّبات. ثمّ تستنشق نفسا عميقا، وتزفره برفق. أنت خفيف كريشة، تحلّق في هواء الغرفة. تصغي إلى الأصوات البعيدة التي تصلك خافتة باهتة، حاسة السّمع تستيقظ مثل «رادار» يلتقط أدنى الهمسات والحركات ويتابعها لثوانٍ قليلة قبل أن يلتقط غيرها، دون محاولة التعرّف إلى مصدرها. ثمّ تعود إلى الأصوات الأقرب، تمرّ من تلك التي تدور خارج الغرفة إلى ما يمور داخلها.. وحين يخفت وعيك بكلّ الأصوات، تصغي إلى الصّمت.

تستشعر بعد ذلك الأبعاد المادّية للغرفة. تستحضر الجدران الأربعة، الأرضيّة، وجسدك المسجّى على البساط المطاطيّ. تستوعب وجودك الماديّ في المكان، جامدا بلا حراك. جسدك يستمرّ ممدّدا،

وأنـت تشـعر بنقـاط تماسّـه مـع الأرض. تركّـز بعـد ذلك مـع نسـق التنفّس الطبيعـيّ، تستشـعر الهـواء وهــو يعـبر فتحــات أنفـك وينسـاب برقّـة داخـل مجـرى التنفّـس. تـدرك تفاصيـل عمليّـة التنفّـس دون أن تحـاول السّـيطرة عليهـا.. أنـت تتنفـس، فقـط.

يمـرّ وعيـك إلى مختلـف أجـزاء جسـدك، يتنقـل بسرعـة مـن نقطـة إلى أخـرى مـع ذكـر اسـمها في ذهنـك. إبهـام اليـد اليمـنى، سـبابة، وسـطى، ثـمّ بقيّـة الأصابـع.. كـفّ، معصـم، ذراع، مرفـق، إبـط، خـصر، فخـذ أيمـن، ركبـة، ربلـة سـاق، كاحـل، قـدم، باطـن القـدم، أصابـع القـدم.. ثـمّ تمـرّ إلى الجهـة اليـسرى. ثـمّ كتـف، مؤخـرة، عمـود فقـريّ وظهـر.. قمّـة الـرّأس، جبـين، حاجـب أيمـن فأيـسر والمسـاحة بينهمـا.. عينـان، أذنـان، خـدّان، أنـف وأرنبتـه، شـفة عليـا وسـفلى، ذقـن.. ترقـوّة، صـدر، سرّة، بطـن.. ثـمّ تسـتعيد الوعـي الإجمـالي بعـد التفصيـليّ.. رأس كامـل، سـاق، سـاقان، جـذع.. جسـد كامـل.

ثـمّ تبـدأ مرحلـة التخيّـل. أنـت في حديقـة واسـعة وهادئـة، الشّـمس قـد أشرقـت منـذ حـين وأخـذت تغمـر الفضـاء بضيائهـا، ولا أحـد سـواك هنـاك. تصغـي إلى العصافـير تزقـزق مسـتبشرة بيـوم جديـد، تمـلأ عينيـك مـن الأزهـار الملوّنـة والخـضرة الزّاهيـة.. وتسـير متمهّـلا في طريـق ظليلـة باتّجـاه فرجـة متواريـة داخـل الغابـة.. وراء الأغصـان المتشـابكة، يظهـر معبـد. تقـترب بخطـوات هادئـة. تدفـع البـاب وتدخـل، لتجـد المـكان بـاردا ومظلمـا. عـلى الجـدار تمثـل صـورة لقدّيـس مـا.

تتوقّـف عنـد ذلـك الحـدّ. في فـترة اعتناقـك الإسـلام، آمنـت بأنّـه لا يجـوز تجسـيد الأنبيـاء ورسـم أشـكالهم، وأنّ التماثيـل محرّمـة والأصنـام كفـر.. ثـمّ حـين تـركك الإيمـان، لـم يحـلّ محـلّ المقـدّس في وجدانـك أيّ كيـان آخـر، لا عالـم ولا فنّـان ولا مصلـح اجتماعـيّ! كان مـن المفـترض في تلـك المرحلـة مـن التأمّـل أن تصـل إلى الطمأنينـة، وإحسـاس بالسّـلام

الدّاخـليّ، تنقطـع معـه الأصـوات الخارجيّـة وتنفـذ إلى داخلـك، وأنـت تصلي في سكون داخـل المعبـد.. لكنّـك تسـتهلك وقتـك متفكّـرا في هويّـة القدّيـس الـذي يسـتحقّ أن تعلّـق صورتـه عـلى جـدران معبـدك! ثـمّ مـا يكـون ذلـك المعبـد؟ وأيّ شـعائر تقـام فيـه؟

خرجت من حصّة التأمّل مثقلا بالإحباط.

إلى جـوار غرفـة التأمّـل، كانـت هنـاك غرفـة صـلاة. كان لديكـم بعـض الوقـت الحـرّ قبـل حصّـة الأسـانا التّاليـة، والمعلّـم ينصحكـم بتمضيتـه في الصّـلاة! كلّ لحظـة مـن فـترة التّدريـب يجب اسـتغلالها بـذكاء، والصّلاة واحـدة مـن الصفـات الأخلاقيّـة العـشر! دخلـت الغرفـة في اليـوم الأوّل بدافـع الفضـول. كانـت تحـوي تماثيـل وصـورا لعـدد هائـل مـن الآلهـة الهندوسـيّة والبوذيـة والجانيّـة المختلفـة، بالإضافـة إلى مجسّـم للمسـيح المصلـوب! ألقيـتُ نظـرة عابـرة عـلى زمـلاء التّدريـب وهـو ينهمكـون كلّ في صلاتـه، ثـمّ خرجـت.

آنـذاك، تعرّفـت إلى بيـتر. كان شـابا بريطانيـا في بدايـة الثلاثينيـات. وكان متخلّفـا هـو الآخـر عـن الصّـلاة. تبادلتمـا ابتسـامة متواطئـة، ثـمّ تقـدّم ليصافحـك ويعـرّف بنفسـه.

- هل وصلت اليوم؟

- نعـم.. لـم يكـن تدريـب اليوغـا ضمـن برنامجـي الأصـليّ.. لذلـك أشـعر بأنّـني لـم أتجهّـز للتجربـة بشـكل جيّـد.

ضحك بيتر وقال:

- لا يهـمّ كـم تتجهّـز قبـل الوصـول.. سـتكون دومـا غـير جاهـز! انظـر إليّ مثـلا.. أنـا أمـارس اليوغـا منـذ ثـلاث سـنوات في نـادٍ لنـدني، وقـد حجـزت في برنامـج المائـتي سـاعة لأنّـني أريـد أن أصبـح مـدرّب يوغـا.. أنـا هنـا منـذ أسـبوعين، ومـا زلـت لا أصـدّق أنّـني هنـا، وأنّـني أفعـل هـذا!

سألت في شك:

- هل ندمت؟

- ليس هذا.. لقد كان الأسبوع الأوّل صعبا جدّا.. لم أكن أستمتع أو أشعر بسموّ روحيّ. كنت مرهقا طوال الوقت، وأشعر بآلام شديدة في مفاصلي وعضلاتي.. ولقد بكيت. نعم بكيت، مرّات عدّة! أنا آكل لحوما في العادة! والطّعام النّباتي الإجباري كان بمثابة العقاب. بتّ خاوي البطن ليالي كثيرة، لم أكن أستسيغ الأصناف التي يعدّونها! عانيت من أعراض الانسحاب، فقد كنت مدمنا على اللّحم المشويّ!

ابتسمت. لن يشكل ذلك عائقا يذكر بالنسبة إليك. ألم تمرّ بمحنة طعام السّجن ذي الرّائحة الكريهة، ووجبات المشرّدين الباهتة خلال فرارك عبر الجزائر ولبنان؟ معدتك قد غدت ذات قابليّة لاستساغة كلّ ما يؤكل!

ضحك بيتر مرّة الأخرى قبل أن يتابع:

- أمّا التأمّل.. فذاك شأن آخر! لم أكن أستطيع إكمال الحصّة في الغالب. كنت أسرح في منتصف الطّريق، في خيالات بعيدة.. أو يغلبني النّعاس!

شاركته الضّحك، ثمّ قلت وقد سُرّي عنك:

- يبدو أنّ الأزمة لا تخصّني وحدي! هل تصدّق.. لم أستطع وضع وجه على لوحة القدّيس، ولذلك لم أتمكّن من مواصلة التأمّل! كأنّ تلك النّقطة جوهريّة ولا يمكنني تجاوزها!

- هل أسرّ إليك بحلّ سحريّ؟ لقد عانيت من المشكلة ذاتها كوني لا أعتنق دينا ما.. لذلك وجدت الحلّ بعد أسبوع من المحاولة، وصرت أتخيّل صورة زوجتي على جدار المعبد!

ارتفعت قهقهاتكما مرّة أخرى، ثمّ أشار بيتر بسبّابته على شفتيه

لتستعيدا هدوءكما. لقد كان وقت صلاة وخلوة، وأنتما لم تتخلّفا فقط عن الصّلاة بل تزعجان المستغرقين في ابتهالاتهم. سحبك إلى ركن الاستراحة حيث يمكنكما أن تتحدّثا بحريّة أكبر.

- تحدّث إلى المعلّم في مواعيد الاستشارة الفرديّة، قبل العشاء.. يمكنه المساعدة بالردّ على التساؤلات الخاصّة وتخفيف القلق.

أومأت شاكرا. ستتذكر أن تفعل، ثمّ سألت في اهتمام:

- وهل كان الأسبوع الثاني أفضل؟

- لا أدري، أشعر بأنّني أسير نحو الأسوأ! حسنا.. لقد فكّرت في التوقّف منذ يومين. تحدّثت إلى المعلّم بشأن ذلك، فطمأنني بأنّ تلك الرغبة عادية ومتوقّعة لدى الكثيرين.. وأنّني أمرّ بالمرحلة الفاصلة بين المقاومة الجسديّة والاستسلام الرّوحي، وقريبا سأعبر المضيق ليكون كلّ شيء على ما يرام!

أنهى كلماته الأخيرة مع هزّة من كتفيه. سنرى ذلك. الأيّام القادمة ستثبت صحّة قوله من عدمها. صافحت بيتر مرّة أخرى، وافترقتما ليمضي كلّ منكما إلى حصّته الخاصّة. انتابك إحساس غامر بالنّدم. بدا لك أنّك تسرّعت بالانخراط في برنامج أسبوع واحد، قد لا يكون كافيا البتّة لتجربة يوغا فعّالة!

قرّرت أن تتحدّث إلى المعلّم قبل العشاء.

لكنّك لم تكن الوحيد الذي يحتاج مسارّة المعلّم قبل العشاء. كان هناك جمع من المتدرّبين خارج الغرفة، يجلس بعضهم على الأرض ويتكئ الآخر على الجدار مترقّبا دوره. وقفت في ضيق وأخذت تقدّر في تململ فترة الانتظار المتوقّعة. هل تكفي نصف ساعة ليتحدّث المعلّم إلى كلّ هؤلاء؟

- أنت القادم الجديد؟

التفتّ إلى السّيدة الخمسينيّة التي تقف جوارك وأومأت موافقا.

- لا شكّ أنّك تشعر بالقلق حيال تأخّرك.. سيكون كلّ شيء على ما يرام.

شكرتها بابتسامة وهزّة من رأسك، بينما فتح الباب وخرج متدرّب ثمّ دخل آخر.

- هل جهّزت أسئلتك؟

رفعت حاجبيك في انتباه. أنت تعرف ما تريد السّؤال عنه، لكنّك لم تصغ الأسئلة بوضوح.

- وقت المعلّم ضيّق.. ثلاث دقائق لكلّ متدرّب. يجب أن تكون جاهزا حين يأتي دورك.

شكرتها ثانية، وانهمكت في التفكير. أنت تريد أن تستفسر عن جدوى اليوغا في أسبوع واحد، وعن صورة القدّيس والصّلاة التي لم تعد ضمن اهتماماتك، وعن التمرينات التي تخلّصك من القلق، وعن طريقة سريعة للوصول إلى الطمأنينة.

تتوالى حركة الباب فتحا وغلقا والأسئلة تتدافع في ذهنك مرتبكة ومشوّشة. تحاول دراسة أولويّاتك، فلتبدأ بالأهمّ ولتترك الأقل أهميّة للقاء آخر. حين خرجت رفيقتك الخمسينيّة مبتسمة أدركت بأنّ دورك قد حان، وأنت لم تحسم أمرك بعد. خطوت إلى داخل الغرفة خاليا من التركيز. كان فضاء ضيّقا قليل المفروشات بسيطها. نظرت في اتجاه المعلّم المتربّع على السّجاد، فابتسم وهو يكرّر العبارة التي سمعتها كثيرا ذلك اليوم:

- أنت القادم الجديد، أليس كذلك؟ اقترب.

جلست على ركبتيك قبالته. كانت المرّة الأولى التي تجد نفسك فيها بذلك القرب من المعلّم، فقد أمضيت يومك متواريا في صفوف

المتدرّبين الأخيرة. بدا وجهه الصغير أكثر تجعّدا ممّا هيئ إليك عن بعد، وشعره الخفيف الأشيب متباعدا وقليل الكثافة. تكّات السّاعة تدقّ في رأسك معلنة تسرّب وقتك ثانية إثر الأخرى وأنت تكتفي بتأمّل ملامح الرّجل المتربّع على السجاد. تكلّم المعلّم أمام صمتك:

- لا شكّ أنّك تشعر بالضغط لأنّك التحقت بالبرنامج التّدريبيّ متأخّرا.. الضغط ليس شيئا سيّئا، معظم الإنجازات الرّائعة لا تحصل إلّا في ظروف شديدة القسوة.. «البلوط ينمو قويّا أمام الرّياح المعاكسة، والماس يصنع تحت الضغط الشديد». هكذا هي صعوبات الحياة تصقلنا لنغدو أنضج وأقوى.. وهكذا هي تدريبات اليوغا، تجعلنا نتحدّى أنفسنا وندفع حدودنا أبعد. حين تعي ذلك، ستكون التدريبات اليوميّة أسهل وأكثر فائدة. تأكّد بأنّ كلّ دقيقة من التّدريب تقرّبك من معرفة ذاتك، حتّى لو لم تكن ترى نتيجة واضحة! تماما مثل كلّ لقمة طعام، إنّها تجعلك تنمو لكنّك لا تبصر أثرها على الفور.

أومأت مثل صبيّ مدرسة يتشرّب كلمات معلّمه في تقديس. كانت كلمات بسيطة، لكنّك كنت في حاجة إلى سماعها، بذلك الصوت العميق والحكيم، لتدرك قيمتها.

- وتذكّر أن تضع خطّة. يجب أن تكون لديك خطّة لكلّ شيء! حين تسافر لأيّام قليلة، في غياب خطّة دقيقة فإنّ عطلتك قد تذهب هباءً.. لكنّها قد تسير بشكل جيّد بمصادفة بحتة، وهذا بنسبة ضئيلة. لكنّ الأرجح هو أنّك ستضيع وقتا ثمينا لأنّك لم تستعدّ بالقدر الكافي. ضع خطّة كل سنة، وكلّ شهر وكلّ يوم.. وقدّر قيمة كلّ ساعة تعيشها، وكلّ نفس تستنشقه. الحياة هبة ثمينة، علينا أن نعيشها بحكمة ولا نهدرها بسوء تخطيطنا.

كنـت تصغـي في صمـت. جـزء منـك يقنعـك في سـخريّة بـأنّ المعلّـم يتلـو كلمـات مكـرّرة عـلى مسـامع كل زائـر، وجـزء آخـر يحـاول أن يؤمـن بـأنّ تلـك الرّسـالة تخصّـك، وأنّهـا سـتغيّر حياتـك إلى الأبـد. كنـت تريـد أن تصـدّق أنّـك عـلى عتبـة تجربـة فارقـة ومصيريّـة!

- هل تريد أن تقول شيئا؟

- هل هناك تمارين خاصّة بمرض الباركينسيون؟

- عفوا؟

كان ذلـك السّـؤال الوحيـد الـذي حـضر في ذهنـك في تلـك اللحظـة. لقـد جئـت دون خطّـة. لا شـكّ في ذلـك. والآن يطالعـك المعلّـم بعجـب، لكنّـه يـردّ رغـم ذلـك:

- هنـاك طريقـة لعـلاج أيّ شيء باليوغـا.. طالمـا كانـت هنـاك عزيمـة وإيمـان.

-٥-

دخلت حصّة التأمّل في الغد وقد اتّخذت قرارك. إن كان هناك وجه يستحقّ أن يشغل لوحة القدّيس في معبدك الافتراضي، فهو بلا شكّ وجه ريم! ستتعبّد في محراب الحبّ إذن!

تستلقي على ظهرك وترخي أطرافك. تغمض عينيك وينتظم تنفّسك. تمرّ بالمراحل ذاتها بإيحاء من المعلّم، تعبر الحديقة الغنّاء بخطى خفيفة كأنّك تطير، ثمّ تفتح باب المعبد المتواري خلف الأجمة. ترفع عينيك لتلقي نظرة على اللوحة في صدر المعبد. يظهر داخل الإطار المذهّب وجه مألوف وابتسامة عذبة ومحبّبة إلى قلبك.. وجه سارة!

فتحت عينيك بغتة كالملدوغ، قبل أن تنتهي حصّة التأمّل، واستقمت جالسا. حدجك المعلّم بنظرة استياء، فاستلقيت مرّة أخرى، لكنّك لبثت مفتوح العينين، نبضاتك تتسابق في صدرك وأنفاسك لاهثة. ما كان ذلك؟ ألم يكن يفترض بك أن تجد صورة ريم في المعبد؟ كيف وصلت صورة سارة إلى هناك؟

شغلك ظهور سارة غير المتوقع في حلمك باقي النّهار. ما مغزى استحضارك لابتسامتها في الوقت الذي حسبتها فيه قد غدت نسيا منسيّا؟ لماذا لم تظهر ملامح ريم؟ هل هي رسالة لاواعية، تذكرك بكلّ ما تفرّ منه؟

ثمّ تحاول أن تجد تفسيرا منطقيّا لكلّ ذلك. أنت هنا في «أرض الله»، حيث التديّن في أبهى حلله. لا ينفكّ معلّم اليوغا يتحدّث عن الصّلاة وحاجتك إليها. قاعة الصّلاة التي تمتلئ عن آخرها ساعة

الظّهيرة ولا يتخلّف عن طقوسها إلّا نزر يسير من متدرّبي المركز.. كلّ ذلك يجبرك على تذكّر تديّنك القديم! أوليست سارة رمزا لحياتك السّابقة التي أهلت عليها التّراب حتّى وأدتها؟

أحسست بطمأنينة أكبر وأنت تدخل حصّة التأمّل التالية. مهما كانت مخاوفك فستواجهها. ألم يكن ذلك هدفك من الانضمام إلى دروس اليوغا؟ خطوت داخل معبدك الخيالي، وجلست قبالة صورة «القدّيسة سارة». رفعت رأسك إليها وأخذت تحدّثها:

«ها نحن ذا، بعد سنتين من الغياب. هل جئت تذكّرينني بما كنت عليه، أم بذنبي تجاهك؟ أمّا الذنب فقد ندمت! وأمّا العودة فلا أعود!

أرأيت، لقد فارقتك وأنا في أوج الشك. وددت ألا يصلك شرر النار التي ألهبت جوفي. فانحدرت إلى سفوح التّكران وحدي، وكفرت بكلّ شيء وحسبت الطمأنينة تنتظرني على شاطئ الإلحاد. لكنّ عقلي لم يرحمني. رغم المحاولات المتكرّرة، لم أجد السّكينة التي نشدتها في العلم. كان لا بدّ أن أعبر غابة الشك مرة أخرى لأصل إلى شاطئ جديد.

ما الذي أنا عليه الآن؟

سأصدقك القول. حتّى وقت قريب كنت «لاأدري». لكنّني قابلت السير أنتوني فلو، ثمّ جئت إلى أرض الله المباركة. وكانت أمتع لحظاتي حين أملأ عينيّ من بهاء خلقه الذي يحيط بي من كلّ جانب.

لقد آمنت أنّ للكون خالقا مبدعا أحسن تصويره.

ولعلي أستعير كلمات السير فلو:

«لقد صرت أومن بإله واحد أحد.

واجب الوجود.

غير ماديّ، لا يطرأ عليه التغير.

مطلق القدرة، مطلق العلم.

كامل الخير».

لقد آمنت أنّ الحياة وقوانين الطبيعة والفيزياء وتوازن السّماء والأرض لا يمكن أن يكون محض صدفة.. مثلما لا يمكن لمجموعة من القردة تخبط عشوائيا على لوحة مفاتيح أن تكتب بمحض الصدفة مسرحية لشكسبير مهما تكرّرت محاولاتها، ولا يمكن لشخبطة عشوائية أن تنتج لوحة فنيّة باهرة.. أنا لا أتحدّث عن الفنّ المعاصر الذي يتّسم بالفوضى، بل عن إبداعات عصر النّهضة التي تكاد تنطق تفاصيلها وتنبض شخصيّاتها بالحياة! بنفس الشّكل، لا يمكن لكوننا هذا أن يكون وليد مصادفة ما، بانفجار عظيم أو بتطوّر بطيء.. لا بدّ من وجود مصمّم ذكيّ وراء كلّ هذه المعجزات المعقّدة! هذا الجمال السّاحر الذي تطلّ عليه قرية منّار، إنّه بصنع خالق أزليّ لم يسبق وجوده شيء.

تعالي أشرح لك المبادئ التي أومن بها.

أولا: هناك شبه إجماع بين العلماء المتخصّصين على أنّ الكون انبثق من نقطة التفرّد منذ حوالي أربعة عشر بليون سنة، نتيجة الانفجار الأعظم. فمن أين أتى الانفجار العظيم، ومعه حزمة من قوانين الطبيعة الفيزيائية والكيميائية بالغة التعقيد والدّقة، لتحكم الكون كله في ترابط وشمول وتناغم معجز؟ علينا أن نسلّم بأنّ هذه القوانين إنما تفسر لنا الظواهر الكونية فقط، ولكنها بالتأكيد لم تستجلب الطاقة والمادة من العدم.. وإنما استجلبها عقل مطلق، وقدرة مطلقة، هو عقل الإله وقدرة الإله!

ثانيا: كيف نشأت الخلية الحيّة الأولى من عناصر هي في الأصل

غـير حيّـة؟ فضـلا عـن امتـلاك تلـك المـادة الحيّـة الأولى هـذه القـدرة شـديدة التعقيـد عـلى إعـادة نفسـها جينيـا بالانقسـام والتكاثـر وانتقـال المورثـات الجينيـة عـبر مـادة الـ(DNA)، إلا أن يكـون وراءهـا ذكاء خـارق، وتصميـم فائـق القـدرة مسـبقا.. مـن الإلـه!

ثالثـا: نظريـة التطـور توضـح ظهـور الكائـن البـشري بعـد مراحـل مـن سلسـلة تطـور أحيـائي عـبر مليـارات السـنين منـذ نشـأة الخليـة الحيـة الأولى.. لكـن كل علمـاء الأحيـاء لا يجيبـون عـلى سـؤال مـؤرق: كيـف ظهـر العقـل والوعـي والإدراك والـكلام والمشـاعر كطفـرة جينيـة مصمّمـة بدقـة معجـزة لهـذا الكائـن البـشري؟ ولا إجابـة عليـه سـوى أن ذلـك التّصميـم الخـارق كان وراءه قـدرة مطلقـة وعلـم كلي مـن الإلـه!

إنّ كل حجـج الفلاسـفة والعلمـاء الملحديـن في مختلـف التخصّصـات بمحاولـة الإجابـة عـن الأسـئلة الثلاثـة بنظريـة الأكـوان المتعـددة، وأنـه بـين مليـارات الأكـوان، لا بـدّ أن الصّدفـة سـتأتي بكـون مجهـز عشـوائيا لاسـتضافة الحيـاة.. إنمـا هـو هـروب إلى الأمـام، ونقـل للمشـكلة إلى مرتبـة أعـلى.. فمـن الـذي خلـق الأكـوان المتعـددة؟

وإنّـه مـن الجنـون افـتراض وجـود مليـارات الأكـوان غـير مرتبطـة سـببيا كمصـادرة لتفسـير معالـم كـون واحـد هـو الـذي نعلمـه ونحيـا فيـه.. في الوقـت الـذي يفـي افـتراض وجـود خالـق واحـد مطلـق العلـم والقـدرة بـأداء المهمـة، وهـو الإلـه!

مفهـوم «البرهـان الكونيّ» يثبـت أنّ بنيـة الكـون وقوانينـه تـدلّ عـلى وجـود المصمّـم الـذكيّ (الإلـه الخالـق)، ومفهـوم «المبـدأ البـشري» يحيلنـا إلى أنّ الكـون قـد تـمّ بنـاؤه عـلى هيئـة تجعلـه ملائمـا تمامـا لنشـأة الإنسـان.

حسـنا، لا تهلـلي وتكـبّري بعـد! لا زلـت بعيـدا عـن الإيمـان القديـم

بالكتب والرّسل والملائكة والقدر واليوم الآخر.

ما زلت أجهل ماهية علاقة الإنسان بهذا الخالق، وما إن كان يجدر بنا أن نفعل شيئا محدّدا.. باستثناء الاستمتاع بما تقدّمه الحياة من فرص!

هل تعرفين أنّ لهذا الوضع اسما؟ أنا «ربوبيّ» الآن. أومن بوجود الرّبّ.. لكنّني لا أتّبع أيّا من الدّيانات المعروفة.

هل يجعلني هذا مرتاحا؟ ليس بعد. أشعر بالقلق حيال المستقبل. التحوّلات التي مررت بها خلال السّنتين الماضيتين تنبئني بأنّ القصّة لن تنتهي عند هذا الحدّ. أريد أن أصل إلى الطمأنينة. أتمنى أن تحصل روحي على بعض السّكينة، ويتوقّف عقلي عن الغليان».

خرجت من حصّة التأمّل وأنت أكثر هدوءًا واسترخاءً. وتوالت حصص أخرى، تحدّثت فيها كثيرا في حلمك. ثرثرت كما لم تثرثر من قبل. كنت تصف بتفصيل وتحلّل بتعمّق وتسمّي الأشياء بمسمّياتها كأنّك تشرحها لشخص آخر لا يعرف شيئا عن تجربتك. لسارة. لم يكن من السّيّئ في نهاية الأمر أن تتربّع سارة داخل إطار معبدك. كان الحديث إليها مريحا، كما كان قديما. وتمنّيت لو أنّها تردّ. لكنّها مجرّد صورة، في معبد متخيّل، في حصّة تأمّل، في معسكر يوغا، في قرية هندية نائية!!

حين غادرت مركز التّدريب في نهاية الأسبوع، أدركت أنّك قد مررت بتجربة مميّزة. هل كان السّرّ في اليوغا ذاتها؟ أم في مصارحتك الطويلة يوميّا أمام خيال سارة؟ لا يهمّ. لقد كان أسبوعا مثمرا رغم آلام المفاصل وعضلاتك التي تئنّ مع كلّ حركة.

شددت كفّ المعلّم بشدّة وأنت تودّعه وهمست:

- سأتحمّل الضغط.. وسأضع خطّة محكمة!

-٦-

قضّيت يومك الأخير في الهند على متن منزل عائم. تلك القوارب تُستأجر مثل الفنادق تماما، على ظهرها غرفة نوم وقاعة طعام وشرفة عالية على السّطح للإطلال على مشهد النّهر من علٍ. تلك كانت هديّة ريم الأخيرة في رحلة الهند. وأنت تمخر عباب الماء لساعات طويلة، كنت تتابع بعينين ساهمتين مشاهد الحياة اليوميّة التي تتخذ ضفاف النّهر مسرحا لها. أولاد يغتسلون في الماء الأخضر، ونساء يغسلن الثّياب بهمّة، ورجال يملؤون القرب وينقلونها فوق أكتافهم، وشيوخ يتسامرون ويدخّنون.

حين شارفت الشّمس على المغيب، رسا القارب في ميناء مزدحم بقوارب مشابهة. بعد أسبوع من «الماونا»، أو الصّمت اللّيلي، كانت السّهرة برفقة القائم على الخدمة على سطح القارب خروجا عن المألوف. تركته يتحدّث معظم الوقت وهززت رأسك كثيرا. فكّرت في سخرية في كميّة الكلام التي اعتدت سكبها في آذان مستمعيك قديما.. خطيبا ومنظّرا أيّام الجامعة ومحاورا ومجادلا في جلساتك إلى الأصحاب أيّام الإنكار والتمرّد! لقد كنت نجم كلّ ملتقى والمسيطر على كلّ محادثة، تحرص بتفانٍ على أن تكون لك الكلمة الأخيرة في النّقاش. لكنّ اعتيادك الصّمت حديثا جعلك تحجم عن الكلام. كان مخاطبك يثرثر بخصوص الصّراع الهندوسيّ الإسلاميّ الذي عاشته المنطقة في القرن الماضي.

ابتسم وهو يقرّ باقتناع:

- السيّاح من الشرق الأوسط غالبا يهتمّون بالتّاريخ.

هزززت رأسك دون أن تعارضه. لا يعنيك أن تصحّح أنك لست من الشرق الأوسط، فهذا لا يهمّ الرّجل بأيّ شكل.. لكنّك تهتمّ بالتّاريخ ولا تمانع الاستماع إلى محاضرته.

أنت تعرف أنّ الصّراع الدّيني بين الهندوس والمسلمين في الهند كان الأبشع والأعنف في التاريخ الحديث، لتخلّف مذابحه عشرات الآلاف من القتلى، وينتهي بانفصال شبه القارة الهنديّة إلى دولتين سنة ١٩٤٧، الهند ذات الأغلبيّة الهندوسيّة وباكستان المسلمة. وقد انبرى الرّجل يحدّثك عن مقتل أنديرا غاندي على يد السّيخ سنة ١٩٨٤ ثمّ مذابح جامو وكشمير بعدها.. ثمّ الحادثة الأشهر، حادثة مسجد البابري، نسبة إلى السلطان المغوليّ «بابر»، في مدينة أيوديا عام ١٩٩٢.

يزعم الهندوس أنّ إلههم «راما» ولد في معبد على هضبة راماكوت التي يقوم عليها المسجد حاليا، رغم أنّ علماء التّاريخ الهنود يثبتون أنّ المسجد قد بني على أنقاض مسجد آخر، وتشهد بذلك النّقوش العربيّة والفارسيّة القديمة المنتشرة في أنحاء البناء.

- ألا ترى أنّ هذه القصّة تشبه إلى حدّ كبير قصّة المسجد الأقصى وصراع اليهود والمسلمين حوله؟ ألا يدّعون أنّ المسجد الأقصى بني على هيكل سليمان؟

فهمت حينئذ مغزى اهتمامه بالسّيّاح من الشرق الأوسط! هذه مساحة مشتركة يمكنكما الالتقاء حولها. ولعلّه يحتفظ في جعبته بحكايا مختلفة حسب نوع الزّائر؟ أم تراه يبحث عن متعاطفين مع قضيّته؟ لم ترد أن تصدمه بحقيقة كفرك بالأديان كافّة. ابتسمت في سخرية.. أليست تلك قصّة أخرى تؤيّد النّهج الذي اخترت اتّباعه؟ ألم يكن العالم ليكون أفضل بدون الأديان وأتباعها الأغبياء؟ هل

من المنطق أن يُقتل عشرات الآلاف لمجرّد فكرة سخيفة عن إله ولد على ظهر تلّة؟!

- الإنجليز هم أساس الخراب.. دائما!

يذكّرك محدّثك بـ«وعد بلفور» لليهود وهو يروي دور الإنجليز في الحادثة. كانوا يحاولون بثّ القلاقل في الإقليم ليبرّروا احتلالهم له، فشجعوا وضع كتب تاريخيّة تقول أنّ «بابر» هدم المعبد الهندوسيّ الذي كان قائما حيث مسقط رأس الإله «راما» ثمّ أنشأ مكانه مسجدا، مؤيّدين زعم الهندوس.. فتهمس في داخلك وقد تأكدت قناعتك بعبارة كارل ماركس الشّهيرة: الدّين أفيون الشّعوب! وقد أحسن الإنجليز استغلاله لصالحهم. لكنّ محدّثك يفاجئك:

- العاطفة الدّينيّة هي أسمى المشاعر وأنقاها.. لدى البسطاء غالبا ما تكون صافية ومخلصة! والقوى الاستعماريّة تستغّلها لتحقيق أطماعها وتحريك البيادق على الرّقعة، فرّق تسد.. فننسى أنّ المؤمنين إخوة، يجب أن يتّحدوا في وجه المادّيين والملحدين!

- عفوا؟

قاطعته في دهشة. عن أيّ مؤمنين يتحدّث؟

- ما الذي تؤمن به يا سيّدي؟

- أنا هندوسيّ، أومن بالآلهة بارافاتي.. الإلهة الأم. وبالإله الخالق، الذي يهب الحياة.. لكنّنا نعطيه أسماء وأشكالا مختلفة.

حدّقت فيه مبهوتا. تلك الفكرة لم تراودك من قبل. الإيمان، كلّ الإيمان.. في وجه الإلحاد؟

هتفت متحدّيا:

- حتّى لو كان المقدّس صنما؟ أو بقرة؟

- البقرة ليست إلها.. نحن لا نعبدها! لكنّها مقدّسة لرمزيّتها. إنّها تمثّل الأمّ والعطاء.. وحمايتها تعني حماية كلّ المخلوقات! والصّنم ليس إلها، لكنه تجسيد للإله. نحن نرى الله في كلّ شيء حيّ، لأنّ الله هو الحياة!

- وهل تعتقد أنّ المسلمين مؤمنون أيضا؟

- عندما كنت شابّا، منذ زمن طويل.. كنت أقرأ مع جدّي نسخا قديمة للفيدا -كتب لاهوت هندوسيّة- وقد كانت فيها مقاطع تتحدّث عن نبيّ الإسلام.

ثمّ أخذ يتلو على مسامعك نتفا ممّا يذكره من تلك المقاطع:

«في ذلك الوقت في قرية (شامبهل) [بمعنى البلد الأمين] عند رجل اسمه (وشنوياس) [عبد الله] صاحب قلب رقيق، يولد في بيته (كالكي) [مطهر من الذنوب والآثام].

يولد (كالكي) في بيت (وشنوياس) من زوجته (سومتي) [صاحبة السلامة والأمن، آمنة].

إنه يولد في الثاني عشر من ظهور القمر في شهر اسمه (مادوه) [تعني الشهر المحبب إلى النفوس، وهو شهر الربيع].

يركب على الحصان، ويخرج منه النور، ولا يضاهيه أحد في هيبته وجماله، ويكون مختونا، ويعدم مئات الألوف من الظلمة والكفرة.

بمساعدة أربعة من أصحابه يهلك الشيطان، وتنزل الملائكة على الأرض لمساعدته في حروبه.

بعد ولادته يتوجه إلى الجبال ليتعلم من (برش رام) [تعني المعلم الأكبر] ثم يذهب إلى الشمال، ثم يعود إلى موطن مولده.

الناس يسحرون من عبقه الذي يخرج من جسمه، وإن عبق

جسـمه الطاهـر يختلـط بالهـواء، ويلطـف الأرواح والنفـوس.

سـوف يـأتي معلـم روحـاني مـع رفقائـه الكـرام، ويشـتهر بـين النـاس باسـم (محامـد)، ويسـتقبله الأمـير قائـلا: يـا سـاكن الصحـراء، هـازم الشـيطان، صاحـب المعجـزات، بريئـا مـن كل شر، قائمـا عـلى الحـق، خبـيرا في معرفـة الله، ومحبـا لـه، سـلام عليـك، أنـا عبـدك، أعيـش تحـت قدميـك!».

- تلـك النّبـوءات موجـودة في الكتـب، منـذ آلاف السّـنين.. بالإضافـة إلى حكايـات كثـيرة عـن أنبيـاء الدّيانـات الأخـرى.

حدّقـت في الرّجـل غـير مصـدّق. الهنـدوس لا يزعمـون أنّ الوحـي هبـط عـلى بعضهـم، لكنّهـا ديانـة موغلـة في القـدم، ولا شـكّ أنّ رجـال اللاهـوت ضمّنـوا كتبهـا أخبـارا عـن معاصريهـم، بمـا في ذلـك مـن يوصفـون بالأنبيـاء. سـألت مسـتغربا:

- ألم يجعلك ذلك تفكّر في دخول الإسلام؟

ردّ ببساطة:

- للمسـلمين دينهـم، ولنـا ديننـا.. لكنّنـا إخـوة في الإيمـان.. غانـدي يقـول: مـن حسـن حـظ الديانـة الهندوسـية أنهـا تخلـت عـن كل عقيـدة، ولكنهـا محيطـة بجميـع العقائـد الرئيسـيّة، والجواهـر الأساسـية للأديـان الأخـرى!

فكّـرت للحظـة. مـن منكمـا خـير أمـام الله؟ شـخص بحـث عـن الله في كلّ شيء فغـرق في الخرافـات وصـدّق الخزعبـلات، لكنّـه آمـن بالخالـق مسبّب الحيـاة وعبـده عـلى طريقتـه، مهمـا كانـت شـاطحة.. أم شـخص كفـر بـكلّ شيء وتجاهـل كلّ الدّيانـات لأنّـه لا يسـلّم بغيبيّاتهـا الـتي لا يسـتوعبها عقلـه؟

فاجأتـك الفكـرة رغـم بسـاطتها: إن كنـت تؤمـن الآن بوجـود خالـق

مصـوّر مسـيطر عـلى الكـون، ألا يسـتحقّ منـك العبـادة والتّقديـس؟

بـتّ تلـك اللّيلـة، بعـد تحديـق طويـل في سـقف القـارب الخشـبيّ، وقـد قـرّرت أنّـك يجـب أن تفعـل شـيئا بخصـوص إيمانـك الجديـد. هناك إلـه خلـق العالـم، وأوجـدك أنـت كبـشر يـا مالـك. هـو يـراك مـن حيـث لا تـراه، ويسـمع نجـواك.. لأنّـه كامـل القـدرة والعلـم. سـتخترع نوعـا مـن الصّـلاة، صلـة بينـك وبـين ربّـك. سـتتحدّث إليـه في أوقـات الخلـوة والصّفـاء. سـيكون لمعبـدك خلـف الأجمـة صفـة وغايـة. سـيكون خاصّـا بتأمّلاتـك ومناجاتـك لخالـق الكـون!

تخطـر ببالـك كلمـات ابـن قيّـم الجوزيّـة: (إنّ في القلـب شـعثًا لا يلمّـه إلا الإقبـال عـلى الله، وعليـه وحشـة لا يزيلهـا إلا الأنـس بـه في خلوتـه...).

وقد كان في قلبك ذاك وأكثر.

-٧-

حطّـت طائرتـك في مطـار «دنبسـار» في جزيـرة بـالي الإندونيسـية عنـد الواحـدة ظهـرا. وجـدت ممثـل وكالـة الأسـفار المحليـة في انتظـارك بالإضافـة إلى سـائق شـاب. اسـتقبلاك بابتسـامة واسـعة وقـلادة أزهـار زاهيـة. كنـت عـلى أبـواب إجـازة حقيقيّـة، وأنـت قـد وطّنـت العـزم عـلى الالـتزام بالخطّـة في هـذه المرحلـة. لقـد وعـدت المعلّـم، وأنـت في حاجـة إلى عطلـة اسـتجمام لبضعـة أيّـام حـتّى تتجـاوز آلام المفاصـل وتصلّـب العضـلات الـتي لـم تفارقـك بعـد. أنـت في حاجـة إلى نقاهـة مـن أسـبوع اليوغـا!

بعـد ساعة ونصـف، كنـت في فنـدق صغـير اختارتـه ريـم بعنايـة عـلى أطـراف قريـة «أوبـود» وسـط الجزيـرة. تسـلّمت مفاتيحـك وتبعـت عاملـة الـنزل إلى غرفتـك. فاجأتـك الأعمـدة الخشـبية العتيقـة المحيطـة بالسريـر وسـتائر الشـيفون الشـفّافة الـتي ترفـرف حولـه، وغرفـة الجلـوس الوثـيرة قبالـة واجهـة زجاجيـة عريضـة. عـبرت الصّالـة وفتحـت بـاب الشّرفـة ليطالعـك مشـهد مدهـش آخـر لا يقـلّ جمـالا عـن إطلالـة فندق «منّـار».. مسـبح فـيروزيّ لامتنـاه، يطـلّ مباشرة عـلى الأدغـال الكثيفـة. كانـت غـرف الفنـدق عبـارة عـن شـاليهات واسـعة بحمّـام مكشـوف ومسـبح خـاصّ! فكّـرتُ أنّ أيّ اختيـارٍ آخـر لـم يكـن ليكـون أكـثر توافقـا مـع مـا تعنيـه كلمـة «اسـتجمام» في قاموسـك.

أخــذت دشّــا منعشــا، ثـمّ تمـدّدت عــلى أريكتــك المريحــة قبالــة المسـبح وأنـت ترتشـف عصـير الفواكـه الاسـتوائية وتصغـي إلى سـمفونية طبيعيـة تعزفهـا مخلوقـات الغابـة عـلى قيـد خطـوات مـن متّكئـك. هـا أنّ

الإجـازة الحقيقيّـة قـد بـدأت!

عنـد السّادسـة مسـاء، تعالـت طرقـات عـلى بـاب الغرفـة. حـين فتحـت، فوجئـت بفيـل ضخـم يتململ ويحـرّك أذنيـه، مـع سائسـه! قـال الرّجـل:

- سيّدي لقد حان موعد العشاء.

صعـدت عـلى ظهـر الفيـل بنـاء عـلى التعليمـات، واسـتقرّ بـك المقام عـلى المقعـد المعـدنيّ المثبّـت فوقـه. ثـمّ أخـذ الحيـوان الضخـم يتهـادى في مشـيته وهـو يتبـع السّـائس في اتّجـاه مطعـم الفنـدق. لـم يكـن الرّكـوب مريحـا. فكّـرت أنّـك كنـت في غـنى عـن تلـك التجربـة الـتي يتهافـت عليهـا الكثـيرون. كانـت مفاصلـك تـئن مـع كلّ خطـوة!

بينمـا يرفـع الفيـل قدمـا ويضـع أخـرى في خطـوات ثقيلـة تهـتزّ لهـا الأرض، كنـت تفكّـر في جـبروت الإنسـان واسـتغلاله لبـاقي المخلوقـات، مهمـا بلغـت قوّتهـا. الإنسـان عـرف بعقلـه وتدبـيره كيـف يكـسر سـطوة الفيلـة الآسـيويّة العملاقـة ويطوّعهـا لحاجتـه منـذ القـدم، فيتنقّـل عـلى ظهورهـا ويحمـل متاعـه ويسـخّرها في مشـاريع البنـاء الضخمـة.. قبـل أن يخـترع الآلات ذات المحـرّكات والعجـلات. والآن تبقـى الفيلـة وسـيلة نقـل معتمـدة في كثـير مـن بقـاع العالـم، وعامـل جـذب للسـيّاح ومصـدر دهشـتهم وافتتانهـم.

مـرّت بذهنـك الآيـة: (وَإِذْ قَـالَ رَبُّـكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً، قَالُـوا أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَـن يُفْسِـدُ فِيهَـا وَيَسْـفِكُ الدِّمَـاءَ وَنَحْـنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ، قَـالَ إِنِّي أَعْلَـمُ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ).

لقـد عـرف الإنسـان كيـف يعمّـر الأرض ويسـتخرج خيراتهـا.. لكنّـه في سبيل تحقيـق ذلـك دمّـر غابـاتٍ ولـوّث هـواءً وجفّـف ينابيـع وتسـبّب في انقـراض كائنـات، ناهيـك عمّـا أزهقـه مـن أرواح بـني جنسـه. لشـدّ مـا ألـحّ

عليك ذاك السّؤال منذ عهد بعيد: ما الذي يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة بشأن خلافة الإنسان في الأرض؟

كنت قد وصلت إلى المطعم، فترجّلت وجلست إلى مائدتك بعد أن انتقيت بعض الأصناف من قائمة الطّعام. في الشّرفة، كانت فرقة تقليديّة إندونيسيّة تعزف مقطوعة شعبيّة، بينما يتحرّك راقصان شابّان بثياب مزركشة ويدوران في انسجام.. وعلى بعد بضع عشرات من الأمتار، كانت مجموعة من الفيلة الصّغيرة المكوّرة تلهو في بركة طين وتتقاذف الوحل الأسود في مرح، بينما تنسحب الشمس إلى مغربها مخلّفة أثرا أحمر في وجه السّماء. كنت غارقا في تجربة إندونيسيّة خالصة وساحرة. لكنّك مشغول اللبّ، تراقب المشهد في سرحان. تتناول وجبتك دون أن تحسّ لها طعما، ويستمرّ السّؤال يلحّ عليك: إن كان هناك إله خلق الكون ووهب الإنسان العقل، ليدرك وجوده بتأمّله في معجزة الخلق، وجعله المتحكّم في الكائنات الأخرى بتفوّقه الأصيل.. فما هو الهدف من خلقه؟

تسترجع في شيء من الحنين أيّاما مضت، لكنّها تطفو على السّطح بسرعة حالما تستدعيها من ملفّات الذاكرة المخزّنة بعناية. لقد راودتك تلك الفكرة قديما، وأنت تتأمّل في الآيات ذاتها، وقلبك عامر بالإيمان. لقد أمر الله الملائكة بالسّجود لآدم، في ذلك المشهد المهيب، خارج الزّمان والمكان. لكنّ إبليس تمرّد مبرّرا ذلك بتفوّق عنصر خلقه وشرف جوهر مادّته.. النّار. فكان الطّرد وكانت اللّعنة. فأتى يوسوس لآدم، ويداعب أحلامه بالخلود!

(وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ).

وقد كان إبليس نفسه يرنو إلى تلك المرتبة أيضا -الخلود- وهي

مرتبـة تعتقـد أنّهـا خاصّـة في صفـوف الملائكـة، تلـك الكائنـات المقربـة مـن الـذات الإلهيـة، لدرجـة أنـه يفصح لها قبـل غيرهـا عـن قـراره بخلـق كائـن بـشري، وتسـمح مكانتهـا منـه أن تجادلـه في مـراده.. تلـك الكائنـات ليسـت بالتأكيـد تلـك الـتي حـضرت التّحـدّي أمـام آدم وأمـرت بالسّـجود، بـل أخـرى أعـلى.. (العالـون الخالـدون).

(قَـالَ يَـا إِبْلِيـسُ مَـا مَنَعَـكَ أَن تَسْـجُدَ لِمَـا خَلَقْـتُ بِيَـدَيَّ، أَسْـتَكْبَرْتَ أَمْ كُنـتَ مِـنَ الْعَالِـينَ)؟

(العالـون الخالـدون)، كنـت تؤمـن بوجـود تلـك الفئـة مـن الكائنـات العلويّـة! رغـم بحثـك الطّويـل، لـم تكـن تجـد تفاسـير تدعـم تأويلـك. كلّ مـا وقعـت عليـه يـداك كان يدعـم تفسـير «العالـين» بالكافريـن! ومـع ذلـك، فقـد بنيـت أطروحتـك المتكاملـة لغايـة خلـق الإنسـان مسـتندا إلى إشـارات خفيّـة في النـصّ القـرآني تحسـب أنّهـا تخاطبـك وحـدك وتضـع أسرارهـا بـين يديـك!

لعلّـك كنـت حينهـا تؤمـن بـأنّ مـا وقـر في قلبـك مـن إيمـان صـادق صـافٍ يسـتحقّ مكافـأة أعـلى مـن جنّـة يتقاسـمها مـا لا يحـصى عـدّه مـن المؤمنـين، لقـد كنـت في سـباق مـع الملائكـة، ألا تذكـر؟ ترجـو التفـوّق عـلى الكائنـات النّورانيّـة، فطمحـت إلى مرتبـة متاحـة للإنسـان تعلـو مرتبـة الملائكـة!

في تلـك اللّحظـة، وأنـت تراقـب الفيلـة الصّغـيرة وتسـتمع إلى نغمـة ناعسـة تداعـب فـؤادك، تتأرجـح بـين معتقداتـك القديمـة المتطرّفـة في تعلّقهـا بالمقـدّس.. وبـين قناعتـك القائمـة بـأنّ وجـودك العابـر في هـذا العالـم لا يعـني أحـدا غـيرك مـن الكائنـات!

كانـت معتقداتـك الدّينيّـة في السّـابق تقـدّم إجابـات وافيـة عـن الجوانـب الثلاثـة الـتي تشـغل الإنسـان بشـأن مسـاره: أصـل وجـوده،

رحلتـه عـلى الأرض، مآلـه بعـد المـوت. أمّـا الاعتقـاد الرّبـوبيّ فهـو يـردّ مصـدر الإنسـان إلى الإلـه الخالـق، لكنّـه ينتهـي إلى أنّـك تحيـا في كـون مغلـق ليـس للإلـه دور فيـه.. سـواء في حياتـك أو بعـد المـوت. وذلـك يعـني أنّ هدفـك الأسـمى مـن الحيـاة هـو تحقيـق السّـعادة الدّنيويـة، أمّـا مصيرك بعـد المـوت فهـو العـدم! لكـن أيّ سـعادة قـد تكـون ممكنـة وأنـت تعلـم أنّ موتـك يأخـذك إلى العـدم؟ أنـت تعيـش مترقّبـا فنـاءك، مثـل حامـل كفنـه بـين يديـه، صـدر بحقّـه حكـم الإعـدام ولا شيء عـلى الجانـب الآخـر قـد يعزّيـه في مصيبتـه!

لكـنّ عقلـك يرفـض أن تخـسر كل شيء بالمـوت! هـل بعـد أن داعبتـك أحـلام الخلـود ورؤيـة الخالـق تقنـع بفنـاء تـامّ، كأنّ ذاتـك -الفريـدة والمتفوّقـة- لـم تكـن شـيئا، وتقلّبـك في مسـالك الشـكّ والإيمـان، مقتربـا تـارة مبتعـدا أخـرى، مضيعـة وقـت وجهـد.. لأنّ كلّ شيء سـينتهي إلى العـدم؟ كانـت تلـك الفكـرة تخيفـك أكـثر مـن أيّ شيء آخـر.. أكـثر مـن فكـرة الثـواب والعقـاب. لـم يكـن المـوت كابوسـا في السّـابق. بـل لعلّـك تمنّيـت موتـا في سـبيل الله. بـل لعلّـك ذرفـت الدّمـع في خلواتـك شـوقا للقـاء رسـول الله! أمّـا هـذا المـوت الـذي ليـس بعـده شيء.. فهـو مرعـب، مرعـب جـدّا.

نجحـت رغـم كلّ شيء في إسـكات صـوت عقلـك، وتخلّصـت مـن كآبتـك لبضعـة أيّـام. خرجـت برفقـة سـائقك «بـودي» الهنـدوسيّ لتتنقّـل مـن شرق الجزيـرة إلى غربهـا ومـن شـمالها إلى جنوبهـا، وتـزور معالمهـا السّـياحيّة الشّـهيرة مثـل أيّ سـائح تقليـديّ. تفتـح قلبـك لموجـات الدّهشـة وتسـتقبل بترحـاب هبـات يومـك مـن شـلالات وقصـور قائمـة عـلى المـاء ومعابـد هندوسـيّة نائيـة ذات معمـار فريـد وشرفـات متدرّجـة عامـرة بـالأرز!

أمضيـت بقيّـة الأسـبوع عـلى الطّريـق، سـارحا في ملكـوت الله بديـع

الصّنع، لاهيا عن التّفكير فيه بالتأمّل في خلقه!

كانت المعابد مختلفة في بالي عنها في الهند. تلك الجزيرة ذات الأغلبيّة الهندوسيّة في بلد إسلاميّ الدّيانة كانت تزخر بما يزيد على عشرة آلاف معبد! كنت تفاجأ بها في كلّ ركن وكلّ شارع، وتباغتك الآلهة الحجريّة السّوداء التي تحفّ الطّرقات وتستقبلك في مداخل المطاعم والمحلّات. وقد وقفت مسحورا أمام بناء معبد «أولون دانو» بأسقفه الأحد عشر، مثل «باغودا» يابانيّة بطراز مميّز، تزداد ضيقا كلّما ارتفعت في عنان السّماء. على ضفاف بحيرة «براتان»، جلست تتأمّل المعبد المشيّد لتمجيد آلهة الماء، والذي يمثّل في البطاقات البريديّة ومطويّات وكالات الأسفار رمز الجزيرة دون منازع.

وعند غروب الشّمس، وقفت على شاطئ المحيط الهنديّ غرب بالي، تطالع مشهد معبد «تانا لوت» القائم على صخرة غير بعيد عن الشاطئ الحجريّ وقد غمرت المياه الممرّ الوحيد الذي يربط المبنى باليابسة، بينما أخذت الأمواج الهائجة تضرب قاعدة الصّخرة بلطخات عنيفة! كان عليك أن ترجع في وقت آخر، حين يكون المدّ منخفضا حتّى تتمكّن من زيارة الموقع، لكنّ منظر الجزيرة الصّغيرة المنعزلة كان له وقعه البليغ في وجدانك. تمثّلت «معبدك» المتخيّل من تمرين اليوغا، حيث تتقوقع روحك المعذّبة، وقد عصفت به أمواج الشّك والحيرة وأحاقت به من كلّ جانب. لقد رأيت نفسك هناك. شعرت أنّك تراقب المشهد من الخارج.. مثل مراقب محايد يرصد الأوضاع.

وحين هدأ الموج، وانسحب الماء نحو الأفق في زيارتك الثّانية، تمكّنت من عبور الممرّ. وقفت أمام البناء، كأنّما تقف قبالة روحك العارية. مددت ذراعك وقلت في نفسك: هيّا بنا، سنخرج سويّا من هذه الأزمة.. وسنكون بخير!

أنهيـت أسـبوع «بـالي» برحلـة بحريّـة مبكّـرة. أبحـر مركـب الصّيـد الصّغـير عنـد السّادسـة صباحـا مـن شـاطئ «لوفينـا» شـماليّ الجزيـرة، وحالمـا أصبحـت في عـرض البحـر، بانـت لـك مراكـب الصّيـد المشـابهة تشـقّ العبـاب في اتّجـاه هـدف واحـد. كانـت عـشرات المراكـب الخشـبيّة الطّويلـة والضّيقـة تحمـل سـيّاحا يشـهدون شروق الشّـمس مـن موقـع مميّز، ويسـتعدّون لملاقـاة واحـد مـن أذكى الحيوانـات عـلى سـطح البسـيطة: الدّولفـين!

تتهـادى المراكـب وتبطـئ مـن تقدّمهـا، تسـكت محرّكاتهـا متربّصـة وتنتظـر. فجـأة تظهـر إشـارة مـا مـن بعـض الصّياديـن: لقـد شـوهدت الدّلافـين! فتنطلـق المحـرّكات مزمجـرة مـن جديـد وتتسـابق حـتّى تخالهـا سـتتلاصق رغـم سـعة البحـر وامتـداده، وتندفـع صـوب وجهـة محـدّدة. ثـمّ مـا تلبـث أن تغـيّر مسـارها مـع إشـارة جديـدة، ويتحـرّك الـكلّ مثـل جسـد واحـد.. حـتّى تبـصر الدّلافـين عـن قـرب، هنـا وهنـاك، وتلتقـط لهـا صـورا كثـيرة، وتمـلأ عينيـك مـن مشـهدها الخـلّاب وهـي تتقافـز في حـركات بهلوانيّـة أخـاذة.. وحـين يشـعر الصيّـاد بـأنّ السّـائح قـد نـال كفايتـه مـن الدّهشـة، بعـد سـاعتين مـن المطـاردة المسـعورة، يقفـل راجعـا إلى الشـاطئ.

لقـد كان كلّ مـا رأيتـه في «بـالي» رائعـا. لا تنكـر أنّـك أمضيت وقتـا رائقا. لقـد دافعـت الجزيـرة أمـام عينيـك النّاقدتـين عـن صيتهـا أيّمـا دفـاع، واسـتحقّت في نظـرك الشـهرة الـتي حقّقتهـا لـدى المسـافرين ووكالات الأسـفار حـول العالـم! لكـنّ شـيئا مـا كان يزعجـك طـوال الوقـت ويفسـد متعتـك.. البـشر! في كلّ معلـم زرتـه، كان النّـاس يتدافعـون، يتزاحمـون ويتكلّمـون بصخـب. وأنـت تحـبّ الوحـدة والسّـكون.

لذلـك، حالمـا وصلـت إلى «لمبـوك»، الجـارة المسـلمة -بعـد رحلـة جويّـة أمدهـا نصـف سـاعة- كان ببالـك خاطـر واحـد: كيـف تحقّـق بعـض

الوحدة؟ كان ذلك ممكنا في لمبوك، بما أنّها أقلّ شعبيّة لدى السيّاح وبنيتها التحتيّة أكثر تواضعا. كانت الجزيرة ذات لمسة أصيلة، بشواطئها البريّة غير المهيّئة وغاباتها الكثيفة صعبة الاقتحام. أفضيت برغبتك إلى موظّفة الاستقبال الثرثارة في فندقك الشاطئي وأعربت عن ضيقك بالضوضاء والزّحام، فأضاء وجهها بابتسامة ظافرة وهي تقترح:

- يمكنك زيارة بعض الجزر المهجورة في الجوار.. هل أحجز قاربا من أجلك؟

كانت هناك جزر كثيرة مهجورة متناثرة في المحيط، غير بعيد عن الجزر المأهولة التي عمّرها البشر. فمن ضمن مجموع الجزر المكونة لأرخبيل إندونيسيا العظيم التي يفوق عددها ثلاثة عشر ألف جزيرة، يعتبر أكثر من نصفها مهجورا من السكّان، ولا اسم له. راقت لك فكرة قضاء نهارك وحيدا على شاطئ منعزل، مثل «حيّ بن يقظان» يعيد اكتشاف العالم ويكتب مبادئ الفلسفة الأولى من وحي التّجربة!

في الأساس، لم يكن الفندق الذي نزلت به مكتظا بالزوّار، ولا يزيد عدد غرفه على العشرة، فاختيارات ريم للفنادق في معظمها صغيرة وبسيطة -باستثناء فندق أوبود المميّز ذاك- للضغط على ميزانية الرّحلة ما أمكنها. لكنّ صراخ جيرانك الصّغار أثناء وجبة الإفطار، وركضهم الصّاخب حول المسبح أشعراك برغبة ملحّة بالعزلة.. في أقرب وقت.

خرجت في يومك الأوّل لزيارة شلالات لمبوك الشّهيرة، على أن تحجز قاربا صباح الغد. كان لا بدّ لك من رؤية المزار الأوّل للجزيرة قبل أن تبتعد نحو مغامرة فرديّة مجهولة المعالم في جزيرة مهجورة. بعد رحلة دامت ثلاث ساعات على متن سيّارة رباعيّة الدّفع، وصلت

إلى سـفح بـركان «رنجـاني» الخامـد. تبعـت الدّليـل الـذي كان في انتظـارك نحـو منطقـة الشّـلالات. كان عليـك أن تـنزل ثلاثمائة وسـتين درجـة حجريّة متعرّجـة لتصـل إلى مصـبّ الشّـلال الأوّل، يقـودك الصّـوت الهـادر لتدفّـق المـاء مـن العليـاء. كان الجمـع غفـيرا عـلى الطّريـق، وفي حـوض الشّـلال أيضـا. عـشرات الإندونيسـيّين، يسـتحمّون في ميـاه النّبـع المباركـة. أنـت تعـرف الآن عـن علاقـة شـعب هـذه البـلاد بهبـات الطّبيعـة. الميـاه الـتي تنبـع مـن الجبـل مقدّسـة. خضـت في المـاء حـتّى ركبتيـك، ثـمّ وقفـت تحـت مسـار الدفـق المنهمـر مـن أعـلى، واستسـلمت لدقائـق لعذوبـة الميـاه البـاردة الـتي غمرتـك. حـين أشـار دليلـك، انسـحبت لتمـضي وراءه في اتّجـاه الشّـلال الثّـاني.

مشـيت زهـاء السّـاعة، متمهّـلا، متأمّـلا، لا يعنيـك طـول المسـافة ولا تراكـض الأطفـال مـن حولـك. سرت في شـعاب كثيفـة، قطعـت نهـرا وعـبرت جـسرا، ثـمّ ظهـر الشّـلال الثّـاني. «تيـو كيليـب» العظيـم! كنـت في الأسـفل، وكان جـدار مـن الخـضرة يسـدّ الطريـق عنـد نهايـة الجـدول. كان المـاء ينبـع مـن مواضـع مختلفـة مـن الحاجـز الصّخـري المكسـوّ بطبقـة يانعـة مـن الحشـائش والنّباتـات. تلتقـي ذرّات المـاء المتناثـرة في الهـواء بخيـوط الشّـمس المتألّقـة في ذاك الوقـت مـن الظّهـيرة لترسـم أقواسـا ملوّنـة في الفضـاء، فتسـحر عينيـك وتتعلّـق بهـا في انبهـار مثـل طفـل سـاذج! كان يمكنـك -وأنـت الـذي يـأسره الجمـال ويخلـب لبّـه- أن تمـضي سـحابة يومـك قابعـا عـلى صخـرة ملسـاء عـلى جانـب الجـدول، قبالـة الشّـلال تتأمّلـه بـلا كلـل ولا ملـل. وهـل في الحيـاة متـع تضاهـي متعـة التوحّـد مـع معجـزات الخلـق الفاتنـة؟

أيقنـت في تلـك اللّحظـة أنّـك قـد أخـذت تعيـد اكتشـاف نفسـك عـبر هـذه الرّحلـة. لقـد شـغلك التّفكـير في كلّ مـا هـو قبيـح مـن سـوءات النّفـس البشريّـة عـن هـواك القديـم بالتأمّـل. أيـن أنـت مـن أمسـيات

شاطئ «المرسى»، وشرفة بيت جدّك في «تستور» ساعة السّحر؟ أين أنت من تهذيب روحك بالشّعر العربيّ الأصيل والابتهالات الصّوفيّة والذّكر؟ هل أصبحت كومة من شعث يلتهم بعضه بعضا؟

-٨-

رسا القارب الصّغير السّريع على الشّاطئ بعد ساعة من الإبحار، فنزلت وأنت الرّاكب الوحيد لتخوض أمتار الماء القليلة التي تفصلك عن اليابسة، بينما يوصيك الربّان للمرّة العاشرة بأن تكون في نفس المكان على السّاعة الرّابعة مساء، ليقلّك إلى فندقك على شاطئ «كوتا» من جديد. لم تكن هناك من وسيلة للعودة إلّا مراعاة الدّقة في موعدك مع قاربك. لا إرسال هاتفيًّا هنا ولا وسيلة للتواصل مع العالم المتحضّر. إن كنت تريد ألا تبيت في العراء، فيجب عليك ألّا تبتعد كثيرا، وأن تضع علامة تذكّرك بموقع نزولك فلا تتوه في تجوالك. أشار الربّان إلى شجرة جوز هند مائلة باتّجاه الشاطئ وقال: هذه هي العلامة.

ألقيت نظرة شاملة على جزيرتك الخاصّة، ثم هززت رأسك في استحسان. إنّها جزيرتك أنت وحدك اليوم. أمام عينيك مساحة شاسعة من الرّمال البيضاء المختلطة بالشعب المرجانيّة الميتة التي لفظتها الأمواج، وغابة كثيفة من الحشائش وأشجار جوز الهند والموز والمانجو والبابايا، وبحر ممتدّ إلى الأفق. بحر صافٍ شفّاف، كما تحبّ أن يكون، مغرٍ بالسّباحة.. والتأمّل. وقد فضّلت الثانية.. ليس على طريقة اليوغا، بل على طريقتك القديمة. افترشت منشفتك، وجلست في وضعية مريحة، مستندا إلى حقيبتك الصغيرة التي حوت متاع اليوم: وجبة غداء حضّرتها مضيّفتك بتفانٍ، آلة تصوير، قارورتي ماء، قناع الغوص وقصبة التنفّس.

إنه لا يختلف كثيرا عن الشّاطئ على الضفّة الأخرى حيث خلّفت

فندقك، لكن لا بشر هنا ولا معمار. أغمضت عينيك، ومتّعت سمعك بصوت الهدوء.. هدير الأمواج التي تضرب الشاطئ عند قدميك ونعيق النّوارس. تمدّدت هناك زهاء السّاعة.. تصغي إلى ما تهمس به الطبيعة في أذنيك من أسرار. أنت الآن حيّ بن يقظان آخر. وحيد على جزيرة نائية، والعالم يفتح ذراعيه بترحاب، ينتظر أن تلقي ذاتك في أحضانه، تكتشف خفايا الحياة المتوارية وراء حجاب.

لبست القناع ووضعت قصبة التنفّس في فمك وغطست. استمتعت ساعة أخرى بالفرجة على الأسماك الملوّنة التي تسبح تحتك، تفرّ من رائحتك الآدميّة وتختبئ في جحورها، ثمّ تطلّ بعد قليل في توجّس وفضول. عالم عجيب وساحر عند أطراف أصابعك، وأنت وحدك.. وحدك تماما، لا أحد يشاركك متعتك، ولا أحد تحدّثه في نهاية النّهار عن بهجة يومك. انقبضت عند ذلك الخاطر، فعدت إلى الشّاطئ. جفّفت نفسك وقد هبطت معنويّاتك فجأة.

جمعت حاجاتك، ثم ربطت منشفتك إلى جذع شجرة جوز الهند، وابتعدت في اتّجاه الغابة.

مشيت طويلا، في طريق متعرّجة غير ممهّدة تشقّ الدّغل، محاولا أن تحافظ على الاتّجاه نفسه. كانت الغابة أكثر اتّساعا من توقّعاتك. قدّرت أنّك قد تقطع الجزيرة طولا من شاطئ إلى آخر خلال ساعة واحدة. لكنّك تائه الآن ولا تعلم كم من الوقت يفصلك عن الجانب الآخر. راقبت ساعتك، كانت ثلاث ساعات تفصلك عن موعدك مع الرّيّان. إذا رجعت الآن، ستكون أمامك ساعتان إضافيّتان، ومملّتان.. أمّا إذا تابعت المسير، فقد تكتشف شيئا مدهشا ما على الجانب الآخر؟ قدّرت أنّ بإمكانك المجازفة لنصف ساعة أخرى. إذا لم تصل إلى الشاطئ، ترجع.

بعـد دقائـق قليلـة، جذبـت انتباهـك صخـور ملسـاء مرصّفـة بشـكل غريـب. توقّفـت لتأمّـل ثـلاث صخـرات متوازنـة بعضهـا فـوق بعـض، عـلى نقـاط ارتـكاز غـير بديهيّـة البتّـة. لـم يكـن تماسّـها عـلى الجوانـب المسـطّحة، بـل مـن جهـة النتـوءات الأكـثر حـدّة. أخرجـت آلـة التّصويـر عـلى عجـل، والتقطـت صـورة لمـا حسـبته أعجوبـة مـن عجائـب الطبيعـة النّـادرة. ثـمّ مـددت يـدك بحـذر لتلمـس الصّخـرة العليـا، فانهـار التـوازن الهـشّ عنـد قدميـك! أطلقـت صيحـة حـسرة ونـدم، بعدمـا أفسـدت أعجوبتـك المكتشـفة.. ثـمّ مـا لبثـت حسرتـك أن انطفـأت حـين انتبهـت إلى مجموعـة صخـور أخـرى عـلى بعـد أمتـار قليلـة، أربعـة هـذه المـرّة، متراكمـة هـي أخـرى في تـوازن مذهـل. مـددت بـصرك أبعـد وأبعـد.. ففاجأتـك المجموعـة الهائلـة للأبـراج الصخريّـة المتوازنـة، مختلفـة الأحجـام والارتفاعـات! جلـت حـول الموقـع في انبهـار، والتقطـت صـورا مـن زوايـا مختلفـة، وأنـت تفكّـر في التفسـيرات الممكنـة. ربّمـا كان أحدهـا برجـا طبيعيّـا، قلّـده زوّار الجزيـرة العابـرون واحـدا تلـو الآخـر، حـتّى امتـلأت المسـاحة المجـاورة بالأشـكال الصّخريّـة؟ فتّشـت عـن تواريـخ أو أسـماء محتملـة سـجّلها الـزوّار عـلى جانـب الطّريـق الترابيـة أو نحتوهـا عـلى الصّخـور.. دون جـدوى. بحثـت عـن إشـارات أو علامـات تـدلّ عـلى سلّم زمـنيّ مـا، بـلا فائـدة. واصلـت مشـيك في الاتّجـاه الـذي تمتـدّ عـبره أبـراج الصّخـور، حـتّى شـممت رائحـة دخـان! خلـف الحشـائش المرتفعـة، ظهـر أمامـك فجـأة كـوخ صغـير مـن الخـيزران!

– مرحبا بالزّائر!

قبـل أن تـدرك حقيقـة الأمـر، ظهـر رجـل قصـير سـتّينيّ أصلـع الـرّأس عنـد المدخل.

– هذا يوم جميل.. السّمك جاهز إن كنت جائعا.

كان يتكلّم إنجليزية طليقة بلكنة محليّة خفيفة. رددت التحيّة في دهشة، ولبثت واقفا عند العتبة في ارتباك. في الدّاخل، لم يكن هناك سوى حصير من الخيزران لشخص واحد، وموقد بدائي تشوى عليه سمكتان متوسّطتا الحجم، وصندوق -من الخيزران أيضا- ممتلئ بحبّات جوز هند ومانجو وأناناس وبابايا؛ الأشجار الوحيدة التي تنمو على الجزيرة. في الركن البعيد، كان هناك صندوقان كبيران مغلقان، لا شكّ أنّهما يمثّلان خزانة الرّجل وحافظة متاعه.

- شكرا.. معي غدائي.

تذكّرت وجبتك التي أحضرتها معك، والتي لم تكن قد تناولتها بعد. كنت تنتظر بلوغ الشاطئ الآخر لتأخذ قسطا من الرّاحة وتأكل. راودك فجأة إحساس بالشّفقة على الرّجل الذي يعرض عليك وجبته المتواضعة، وربّما يكون قد مضى عليه زمن طويل منذ تناول طعاما نظيفا آتيا من وراء البحر. أخرجت صندوقك على الفور، وقلت في لهجة ودودة:

- ربّما نتقاسم وجبتينا؟

ألقى الرّجل نظرة فاحصة على شطيرة الدّجاج وقطع البطاطس المقليّة والسّلطة، ثمّ هزّ رأسه في ترحاب. أخذت سمكة من شوائه، وراقبته في فضول وهو يتناول أصابع البطاطس ويتذوّقها ببطء وتمهّل، تاركا مسافة بين القضمة والقضمة. كان يأكل بهدوء أشبه بالخشوع، دون لهفة أو تهافت. أنهى قطع البطاطس، ثمّ ردّ إليك الصّندوق شاكرا، فعلّقت في استغراب:

- لم تأكل الشيء الكثير!

- أخشى أنّ معدتي لم تعد تستسيغ أنواعا كثيرة من الطعام. لكنّني لم أجد من الأدب أن أردّ دعوتك.

في الأثناء، كنت قد أنهيت سمكتك.

– لا آكل عـادة أكـثر مـن سـمكة واحـدة. لكنّـني علمـت بقدومـك اليـوم.. فشـويت سـمكة إضافية.

– علمت بقدومي؟!

حسـبت لوهلـة أنّ الرّجـل اتّفـق مـع الربّـان أو ربّمـا تواصـل مـع صاحبـة الفنـدق، لكنّ ظنّـك تبخّـر حـين هـزّ العجـوز رأسـه مؤكـدا وهـو يضيـف شـارحا.

– أنـا في تواصـل مسـتمرّ مـع الطبيعـة.. وهـي تخـبرني بمـا يسـتجدّ في الجزيـرة.

– الطبيعة أخبرتك؟

– نعـم، السّـمكة الـتي اصطدتهـا نبّـأت عـن غطسـك قـرب الشـاطئ الجنـوبي.

– لكنّك اصطدتها قرب شاطئ الشّمال، فكيف عرفت؟

– الأسـماك تتواصـل فيمـا بينهـا، ألا تعلـم؟ وقدومـك اليـوم هـو الحـدث الأهـمّ الـذي شـغل مجتمـع الأسـماك في الشّـعاب المحيطـة بالجزيـرة.

ضحكت باستخفاف، لكنّ مضيّفك بدا جادّا تماما.

– إذا بقيـت هنـا أكـثر.. فربّمـا أعلّمـك كيـف تتواصـل مـع الطّبيعـة بـدورك.

لـم تعلّـق. إنّمـا ألقيـت نظـرة سريعـة عـلى سـاعتك. كانـت تشـير إلى الثانيـة بعـد الظهـر. إذا انطلقـت الآن، فسـيكون بوسـعك اللّحـاق بموعـدك مـع الرّبّـان.

– لكنّ الوقت ينفد منك.. وها قد حان موعد رحيلك.. يا للخسارة!

كان العجوز يقول ذلك في أسف، وهو يجمع بقايا الطّعام ويتحرّك في أرجاء الكوخ مولّيا إيّاك ظهره. فكّرت، لا شكّ أنّها خسارة بالنّسبة إليه، أن ترحل بهذه السّرعة، وقد وجد أخيرا من يجاذبه أطراف الحديث بعد دهر من الصّمت. ربّما تكون أسراره مجرّد خدعة لاستبقائك؟ لكنّ ذلك لم يزعجك البتّة. هذا رجل يرغب في صحبتك، وأنت لا تمانع الجلوس إليه والاستماع إلى بعض التّخاريف المسلّيّة! ماذا هناك لتفعله في فندقك وقد يكون أكثر أهميّة من هذا؟

- سأعود في الغد!

لوّح بكفّه دون أن يلتفت، كأنّما لا يكترث لوعدك.

- ماذا تريد أن أحضر لك من الضّفّة الأخرى؟

- فقط ارحل!

رقّ قلبك للهجته الجافّة وجفائه المفاجئ.

- أراك غدا!

هتفت وأنت تسرع مغادرا، وتركض في اتّجاه الشّاطئ الجنوبيّ.

مساء، وأنت تستلقي في سريرك بالفندق الصّغير، فكّرت بالجزيرة المهجورة التي لم تكن مهجورة فعلا، وفي ساكنها الوحيد الذي يترقّب الزوّار ويعدّ لهم الشّواء. كانت هناك أسئلة كثيرة تودّ أن تطرحها عليه حين تراه مجدّدا.. كيف انتهى به الأمر هناك وحيدا، ولماذا يبقى؟ ولماذا يصنع أبراج الصخّور وكيف؟ وما هي أسراره المزعومة وطرق تواصله مع الطّبيعة؟

في الصّباح، جمعت في حقيبتك بعض الأدوات التي توقعت أن تسعد العجوز الإندونيسي المنعزل: قطعة صابون من الفندق، إبرة خياطة وبعض الخيوط، إناء بلاستيك صغير، قوارير مياه فارغة وبعض قطع الملابس التي قرّرت أنّ بإمكانك الاستغناء عنها. في

طريقك إلى الميناء حيث ينتظرك القارب نفسه، توقّفت في السّوق، وانتقيت بعض قطع الفاكهة التي توقّعت أنّها لا تنمو على الجزيرة المهجورة. أخذت أيضا بعض الحلوى، علبة ملح، منشفة، وبعض الحبال. حزمت هداياك الصّغيرة ومضيت مبتسما.

لم يكن من العسير الوصول إلى كوخ العجوز هذه المرّة. استقبلتك ابتسامته الواسعة عند المدخل وهو يقول في حماس:

– لقد أحسنت بالعودة. كنت لتفوّت على نفسك الشيء الكثير!

تفحّص الهدايا التي أحضرتها في اهتمام، ثمّ قال في تحفّظ رغم امتنانه الظاهر:

– لم يكن عليك أن تكلّف نفسك هذه المشقّة.

بعد أن جمعها وخبّأها بحرص في أحد صناديق الخيزران خاصّته، قال وهو ينفض كفّيه ويضيف بلهجة جادّة:

– تستحقّ مكافأة.. ما رأيك في استكشاف كنز الجزيرة الأوّل؟

كنز الجزيرة؟ تساءلت في نفسك ساخرا إن كانت هناك سفينة قديمة محمّلة بالذّهب قد غرقت قرب الجزيرة، أو مدينة أطلنتيس ما مخفيّة في أعماق الغابة منذ دهور؟

قال بعد أن انطلقتما على الطّريق:

– لعلّك زرت شلالات بالي ولمبوك؟

لا يزال مشهد شلال لمبوك الهادر حاضرا في وجدانك وقد شكّل متعة لا تضاهى منذ يومين.

– حسنا.. سآخذك إلى شلال يفوقها جمالا وهيبة!

هكذا إذن. هذا هو الكنز. لم تكن تتوقّع الكثير بأيّة حال. لكنّ حتّى هذا لا يبدو مقنعا. إن كانت الجزيرة تحوي شلالا بهذه

العظمـة، فـإنّ أحدهـم كان ليكتشـف الأمـر بطريقـة مـا ويجعلـه قبلـة سـياحيّة تـدرّ أمـوالا طائلـة، كمـا هـو الحـال مـع كلّ المـزارات الطبيعيّـة في المنطقـة!

– ما اسم الشلال؟

– هذه جزيرة لا اسم لها.. وشلالها لا اسم له أيضا!

هززت رأسك متفهّما، فأضاف على الفور:

– يمكنــك أن تلقــي عليهــا الاســم الــذي يناســبك. هــذه الجزيــرة جزيرتــك. أنــت كولومبــس اليــوم!

ضحكت في استمتاع وراقت لك الفكرة.

– إذن، فلتكن جزيرة مالك!

هزّ رأسه يؤمّن على قولك.

– مالك هو اسمي.

لـم يبـد عليـه الاهتمـام ولا الفضـول. تسـاءلت حينهـا، كـم مـرّة تكـرّر المشـهد في حيـاة العجـوز؟ كـم سـائحا سـاذجا عـاد إلى بلـده وهـو يعتقـد أن جزيـرة في أرخبيـل إندونيسـيا قـد صـارت تحمـل اسـمه؟ كـم اسـما تعاقـب عـلى الجزيـرة خفيـة، لتظـلّ مهجـورة وبـلا اسـم في نظـر كلّ زائـر جديـد؟ لكـنّ الأمـر لـم يكـن ذا أهميّـة إطلاقـا. وحدهـا اللحظـة الرّاهنـة تحمـل أهميّتهـا. هـذا العجـوز الإندونيـسيّ يبـدو مثـل دليـل سـياحيّ محـليّ يقـصّ سـيرة المـكان. لكنّـه يـترك لـزوّاره نسـج الحكايـة، ليكونـوا أبطالهـا رغـم إدراكهـم زيفهـا.

– ماذا عن الشلال؟ هل ستطلق عليه اسما؟

فلتجـاره في لعبتـه. لا بـأس. غمرتـك موجـة رومانسـية مفاجئـة، فقلـت عـلى الفـور:

- فليكن شلال سارة!

توقّفت مصدوما. كنت تقصد ريم بالتّأكيد. وكيف يمكن أن تقصد غيرها وهي كلّ ما يشغلك في صحوك ومنامك؟ لكنّها زلّة لسان لعينة. محوت الأفكار السّخيفة بسرعة، واستعدت صفاء ذهنك. تمثّلت ريم بابتسامتها المشرقة والتفاتتها الخلاّبة. إن كانت الجزيرة مالكا، فكنزها هو ريم.

حثثتما السّير عبر الأدغال، تارة تعبران جدولا وأخرى تتسلّقان هضابا قليلة الارتفاع، حتّى تبيّن لك هدير المياه المتدفّقة قبل أن يتراءى الشلال المتواري خلف الأجمات الكثيفة، بعد نصف ساعة من السّير. توقّفت عاقدا حاجبيك أمام مجرى الماء، ورفعت رأسك إلى مهبط الشلال. لم يكن ارتفاعه يزيد على الأمتار العشرة. هل يقارن بشلال تيو كيليب؟ قطعا لا! لا من حيث الارتفاع ولا الشكل ولا الغزارة. غمرتك الخيبة، والتفتّ إلى العجوز في عتاب. لكنّه غمزك وهو يواصل المسير:

- اتبعني!

سار حتّى وقف تحت المياه الباردة المتدفّقة. فتح ذراعيه وأغمض عينيه واستسلم لسياط الماء العنيفة تضرب رأسه. سألت فجأة وكأنّما أدركت شيئا:

- هل هي مياه مقدّسة؟

كنت في مرحلة سابقة قد اكتشفت أنّ الإندونيسيّين يعتبرون معظم منابع المياه الطبيعيّة مقدّسة، الباردة منها والحارّة، فيتبرّكون بها ويقيمون الطّقوس الخاصّة. أجاب دون أن يفتح عينيه:

- هل هي كذلك؟ هذا شلالك، هل نسيت؟ أنت من سمّاه، وأنت أدرى بمزاياه!

كان يصرخ حتّى يصلك صوته المغمور بالهدير. خضت عبر البركة واقتربت من موضعه، فتحرّك حين شعر بوجودك، وقال بابتسامة:

– هذا الشلال مميّز.. لأنّه شلّالك أنت وحدك.. لا أحد يزاحمك فيه.. شكرا لأنّك سمحت لي هذه المرّة بالاستمتاع بمياهه العذبة!

ثمّ تنحّى جانبا وسار في اتّجاه الضفّة، لتبقى وحدك تحت خيوط الماء المنهمرة. فتحت ذراعيك، واستقبلت البرودة اللاذعة التي غمرتك، رفعت رأسك، مغمضا عينيك، شربت رشفات من الماء الذي بلل شفتيك. لقد سبق لك أن سبحت في مياه الشلالات الأخرى أيضا، لكنّ الإحساس لم يكن بذلك النّقاء وتلك القوّة. لقد كان العجوز محقّا. هنا لا أحد يزاحمك. ليس هذا مزارا سياحيّا يتدافع حوله النّاس، ليغطس كلّ منهم في الماء لثوانٍ أو ربّما دقائق قليلة. هذا كنز مدفون في عمق الطبيعة، ولا بشر يصل إلى هنا غيركما.

يختفي إحساسك بما حولك وأنت تنغمس أكثر في العذوبة والبرودة. جلست لتنغمس حتّى كتفيك، ويبقى رأسك يتلقّى الدّفقات. وفي لحظة لم تدرك مدى دقّة توقيتها، انقطع وتر ما كنت قد أحكمت شدّه، فانفجرت باكيا!

أنت تقعي تحت سيل مياه الشلال قارسة البرودة، وأنهار حارّة تجري على وجنتيك.

يخطر ببالك فجأة دعاء استفتاح الصّلاة الذي لطالما تلوته عن ظهر قلب، بوجدان غائب: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب.. اللهم نقّني من الخطايا كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدّنس.. اللهم اغسل خطاياي بالماء والثّلج والبرد».. وتتخيّل خطاياك وهي تُغسل بماء الشّلال، تتساقط عنك لتذوب في الحوض وتنجرف مع المجرى. لو كان لك يوما أن ترسم

صـورة بليغـة لمعـاني الدّعـاء، لمـا كان لـك أن تـأتي بصـورة أشـدّ بلاغـة مـن مشـهد الشـلال يجلـدك ويغسـل بدنـك، حـتّى تعـود مثـل الثـوب الأبيـض.

فتحـت عينيـك بعـد أمـد لا تـدري مـداه. كان رأسـك قـد غـدا ثقيـلا، بعـد أن ضربتـه الميـاه المنحـدرة مـن شـاهق مـا شـاء لهـا أن تـضرب. كان سـكون الطبيعـة يخيّـم عـلى المـكان مـن حولـك. اختفـى العجـوز الإندونيـسيّ، وكأنّمـا يفـي بوعـده بـأن يكـون الشـلال لـك وحـدك اليـوم. سـحبت نفسـك مـن المـاء بصعوبـة، وخطـوت في اتّجـاه الضفّـة، يتضـادّ إحساسـك الغريـب بالخفّـة مـع ثقـل ثيابـك المشـبعة بالمـاء.

جفّفـت نفسـك، ثـمّ سرت متثاقـلا، وأنـت تلتفـت مـن حـين لآخـر، لتلقـي نظـرة إضافيـة عـلى مشـهد شـلال «ريـم» العظيـم. خـارج الأجمة، كان العجـوز في انتظـارك. لـم يكـن عليـه أن يسـأل ليـدرك مـدى تأثّـرك بالتّجربـة. رمقـك في شـفقة وهمهـم:

- يا بنيّ.. أنت في وضع سيّئ للغاية!

-٩-

عـدت في اليـوم الثالـث، عـلى القـارب نفسـه، وقـد غـدت الجزيـرة المهجـورة -غـير المهجـورة حقيقـة- كلّ مـا تفكّـر فيـه. لـم تكـن في حاجـة إلى الوحـدة بقـدر حاجتـك إلى الصّحبـة المناسـبة. والعجـوز البـوذيّ المنعـزل كان صاحـب المرحلـة.

– منذ متى وأنت هنا؟

– خمسة عشر عاما! تنقص أو تزيد.. فقد فقدت الاهتمام بالتقويم الزّمني منذ فترة.

– ولماذا اخترت العزلة؟

– أنا أحبّ النّاس.. لكنّني أحبّ نفسي أكثر!

افترّ ثغره عن ابتسامة شقيّة تخالطها مرارة جليّة.

– كنت معلّما للأطفال، في زمن ما، وقد أحببت مهنتي. لكنّني كنت بوذيّا وسط أغلبيّة مسلمة. النّاس هنا لا يهتمّون بدينك طالما كنت في شأنك، لكنّهم كانوا يخشون على أطفالهم منّي.

– هل كنت تعلّم الأطفال الفلسفة البوذيّة؟

– كنت أفتح عيونهم على أسرار الحياة وفلسفتها!

ثمّ أضاف وهو يقف في عزم:

– تعال.. سأعلّمك اليوم كيف تتواصل مع الطّبيعة!

كنت تنتظر أن يفعل، منذ وعدك في زيارتك الأولى. تبعته إلى الأجمة التي اكتشفتها منذ يومين، حيث أبراج الحجارة المرصوفة على جانب وادٍ قليل العمق.

- انتق حجارتك!

خطوتما داخل الوادي، وجمعتما عددا من الحجارة الصّقيلة والخشنة مختلفة الأحجام، ثمّ جلست إلى الأرض مقلّدا إيّاه. وضع قطعة أولى أمامه، ثمّ أمسك بالقطعة الثّانية بين كفّيه بشكل مائل. أخذ نفسا عميقا، ثمّ قال:

- قوّتك كلّها في أطراف أصابعك.. تتحسّس الحجر، تقدّر مركز ثقله وتبحث عن نقطة الارتكاز المناسبة. لا تخطئ، أنت لا تتحدّى الجاذبيّة! أنت تتّحد مع الطبيعة، تصبح أنت وهي والحجارة في كفّك واحدا.. حين تصل إلى مرحلة التّوازن.

بعد دقائق قليلة، كان البرج مشيّدا. صخرة ضخمة مثل حبّة بطيخ ناضجة تقبع في توازنٍ تامّ فوق أخرى صغيرة بحجم بيضة! بدا الأمر يسيرا وهو ينفّذه ببساطة.

- يمكنك أن تجرّب بدورك.

هززت رأسك، ثمّ استدعيت تركيزك وسحبت شهيقا وأنت تنغمس في المهمّة. وضعت حجر الأساس وتأكّدت من ثباته، ثمّ التقطت قطعة أخرى أصغر حجما. لن تتسرّع، ستتقدّم خطوة خطوة. أملت الحجر بزاوية معقولة، وقدّرت أنّك عثرت على مركز الثّقل. أفلتّ الحجر، فتدحرج عند قدميك. ابتسم الرّجل وقال وهو يقوم من مجلسه ثمّ يبتعد:

- سأتركك تحاول.

ستحاول. كثيرا. وسيتدحرج الحجر في كلّ مرّة. قد يثبت للحظات، يتأرجح ويتمايل، ثمّ ينهار. ستشعر بالعبثيّة والسّخف وأنت تجلس لوقت لا تدرك مداه على الأرض، تحاول إتقان فنّ لم يخلق من أجلك!

هـا أنـت مثـل حـيّ بـن يقظـان، تكتشـف قانـون الجاذبيّـة. تنطلـق مـن البديهيّـات.. هـذه الحجـارة موجـودة، لأنّـك تمسـك بهـا بـين يديـك، تشـعر بملمسـها الخشـن بـين أصابعـك. إنّهـا تسـقط لأنّـك لـم تعـثر بعـد عـلى نقطـة الارتـكاز المناسـبة لهـا. هـذا سـبب وتلـك نتيجـة. جميـع قوانـين العلـم تبـنى عـلى العلاقـة بـين السّـبب والنتيجـة. العلـم يتعامـل مـع الأشـياء والقوانـين الـتي تحكمهـا.. مـع مـا يمكـن ملاحظتـه وقياسـه. لـو أنّ بـين يديـك ورقـة وقلمـا وبعـض الأدوات ومراجـع الفيزيـاء لأمكنـك حسـاب مركـز الثقـل وإسـقاطه عـلى سـطح الحجـر السـفليّ. العجـوز البـوذيّ عـرف كيـف يفعـل ذلـك بـدون حسـاب، بـل بالتّجربـة. إنّـه حـيّ بـن يقظـان حقيقـي! لكـنّ العلـم لا يقـدر عـلى التّعامـل مـع الغيـب أو مـع الإلـه، أو مـع مـا قبـل الزّمـان ومـا خـارج المـكان.. ومـع ذلـك، فالعقـل الإنسـانيّ -عقـل حـيّ بـن يقظـان- قـادر عـلى إدراك وجـود الإلـه!

تـشرد بأفـكارك بعيـدا.. بعيـدا عـن الحجـارة والأبـراج المتوازنـة. يـداك تعمـلان بـلا توقّـف وعقلـك يسـبح في وضـع بـين المنـام واليقظـة.

حـيّ بـن يقظـان، كان شـخصيّتك الفلسـفيّة المفضّلـة منـذ صغـرك. ذلـك الطّفـل الـذي نشـأ وحيـدا في جزيـرة منعزلـة، تعلّـم بالتّجربـة والملاحظـة، أنّ الحيوانـات لديهـا خاصّيـة غـير جسـمانيّة تميّزهـا عـن الجمـاد والنّبـات، فـإذا فارقتهـا جمـدت وفقـدت مـا يحرّكهـا، وأنّ تلـك الخاصيّـة هـي حقيقـة الحيـوان وجوهـره.. مـا تعرفـه بالنفـس. وأنّ للموجـودات خالقـا أوجدهـا، وأنّ هـذا الخالـق الأوّل لـم يوجـده أحـد، فهـو «واجـب الوجـود».. وقـرّر أن يعتـني بالجسـد الـذي وهـب لـه، فيطعمـه ويطهّـره، وأن يتشـبّه بالإلـه الـذي خلقـه فيكتسـب صفـة العلـم، وأن يتأمّـل في مـا يحيـط بـه مـن مخلوقـات ويـدرك تجليّـات الخالـق فيهـا، فيمجـدّه ويسـبّح بحمـده!

حـيّ بـن يقظـان أدرك جوهـر الوجـود دون حاجـة إلى وحـي.. بـل

لعلّ الفكر الدّيني لازم الإنسان منذ القدم. لا توجد جماعة بشريّة مهما تكن بدائيّة ليست لديها أفكار عن موجودات أو كيانات تعلو فوق الطبيعة. الفراعنة حنّطوا موتاهم ودفنوا كنوزهم معهم استعدادا لحياة بعد الموت. لكنّ خيال الإنسان قد يشطح بعيدا في مواجهة ما لا يدركه عقله. ليس كلّ البشر حيّ بن يقظان! والدّليل على ذلك كلّ الأساطير القديمة التي تمثّل الآلهة على هيئة بشريّة وحتّى حيوانيّة. وحين أصبح العقل البشريّ أكثر نضجا، أدرك عبث تصوّراته الأسطوريّة، فتقدّم نحو الفلسفة. وحتّى الفلسفة، مع أنّها قدّمت تصوّرات معقولة مع فلاسفة كثر، فإنّها أغرقت الكثيرين في بحار من الحيرة والاغتراب، ولم تقدّم إجابات شافية عن تحديد هويّة الإنسان ومعنى الحياة والغاية من الخلق...

أنت تعلم أنّ الإنسان ليس في حاجة إلى دين لإدراك وجود الله! هناك رغبة فطريّة لدى الإنسان في اعتناق دين ما.. أمّا دور العقل، فهو تقييم صحّة المضامين الدّينية. وقد تعدّدت الديانات مع اختلاف الحضارات وتدرّج الوعي والنضج، مشتركة في إيمانها بالخالق، متنوّعة في تحديد مقدّساتها وشعائرها. وقد عبّر جورج برنارد شو عن علاقة الأديان ببعضها بقوله: يوجد دين واحد، وصل إلينا في أكثر من مائة إصدار!

هل يتواصل الإله مع البشر فيرسل إليهم من يخبرهم بوجوده، ويعلّمهم كيف يعبدونه؟ لو أنّه لا يفعل، فهل يهتدون إلى عبادته بفطرتهم وتأمّلهم، كما فعل حيّ بن يقظان؟ لكن ليس البشر جميعا حيّ بن يقظان! والخزعبلات الدّينيّة التي رأيتها في فاراناسي دليل قاطع على ذلك! وهناك قرابة مليار من البشر يؤمنون بالهندوسيّة! لو أنّ الإله يترك مخلوقاته على سجيّتها، فإنّ معظمها سيضلّ السّبيل لا محالة...

ثبت الحجر!

أخـذت تتأمّـل حجريـك اللذيـن يعلـو أحدهمـا الآخـر في تـوازن مدهـش. لقـد نجحـت!

ظهر العجوز فجأة كأنما كان يراقبك طيلة الوقت:

– هـذا رائـع.. لقـد أمضيـت شـهرا أتـدرّب سـاعات طويلـة كلّ يـوم حـتى أنجـزت برجـي الأوّل! لا شـكّ أنّ بداخلـك طاقـة روحيّـة هائلـة!

ابتسـمت. بـل في داخلـك عاصفـة فكريّـة هوجـاء. كـم مـضى عليـك في تأمّلاتـك الوجوديّـة المؤرقـة؟ لا تـدري! لكنّـك جدّفـت بعيـدا، وأسرفـت في التفكـير.

أخرجـت آلـة التّصويـر، والتقطـت صـورة تذكاريّـة لحجـرك المتـوازن. هـذا إنجـاز يسـتحقّ التّوثيـق. لكـنّ حجريـن فقـط لا يصنعـان برجـا مدهشـا. هـل تثبّـت حجـرا آخـر؟ التقطـت قطعـة ملسـاء لامعـة، وقرفصـت مجـدّدا. حركـت الحجـر بـين يديـك بخفّـة خبـير يقـدّر الكتلـة ويختـبر الحـوافّ أيّهـا أصلـح للارتـكاز، ثـمّ أخـذت نفسـا عميقـا ومـددت ذراعـك لتضيـف إلى الـبرج طابقـا. أبعـدت كفّيـك في حـذر.. الحجـر مسـتقرّ في مكانـه! بـدا أنّـك تمكّنـت بسرعـة مذهلـة مـن فـنّ حسـبته لا يناسـبك منـذ سـاعة!

فجأة، ترنّح برج الحجارة، ثمّ انهارت كلّها على الأرض!

ضحكـت، رغـم الخيبـة. يلزمـك كثـير مـن التّدريـب. لا بـأس بمحاولتـك الأولى.

– لا تسـتعجل.. سـتروّض الحجـارة إن أنـت دأبـت عـلى المحاولـة.. والأهـمّ أنّـك سـتروّض الطّاقـة الـتي بداخلـك، سـتجد مسـارها الطّبيعـيّ وتنسـاب عـبر أصابعـك حـين تلامـس الحجـر.

– هل تصلّي؟

- عفوا؟

لماذا يسألك الهندوس والبوذيّون عن الصّلاة بلا توقّف؟

- رصف الحجارة صلاة بالنّسبة لي. أصل إلى أعلى درجات الخشوع وأتخلّص من المشاعر السّيئة، حين أستغرق في تأمّل قانون التّوازن العجيب.. أشعر أنّ الإله يحدّثني عن معجزة خلقه، ويضع في كفّي قبسا من مقدرته اللّامتناهية...

حين رجعت إلى غرفتك بالفندق ذلك المساء، كان سؤال صغير يلحّ عليك: لو أنّك كنت حيّ بن يقظان، في جزيرة نائية، هل كنت تتمنّى أن يهبط عليك الوحي؟ أن يخاطبك الإله، يطمئنك إلى وجوده بالقرب منك، أنّه يراك ويسمع نجواك، وأنّك ستلقاه قريبا؟ هل كنت لترجو أن يعلّمك صلاة تخاطبه من خلالها، بطريقة ترضيه، وتزيح عن كاهلك حملا ثقيلا من الطاقات السّلبيّة المكبوتة؟

-١٠-

تستقرّ على متن طائرة الخطوط «الصّين الجّنوبيّة» المتّجهة إلى «غوانغزو» وتلقي نظرة يملؤها الحنين من النافذة الصّغيرة إلى جوارك. تظهر لك السّماء زرقاء صافية تتفرّق في صفحتها كتل قطنيّة خفيفة، ومن تحتها مشاهد طبيعيّة ضبابيّة، كنت تمرح عبرها لأسبوعين حافلين. تودّع إندونيسيا، شلالاتها وجزرها، سهولها وهضابها، بحرها وشواطئها، العجوز البوذيّ وحجارته، وتمضي إلى بلد آخر حلمت ريم يوما بزيارته.

- إندونيسيا بلد رائع!

التفتَّ إلى جار مقعدك. كان شابًا أشقر كثّ اللّحية والشارب، يبدو عائدا من رحلة استجمام طويلة ببشرته التي تركت عليها الشّمس آثارها البيّنة وقميصه المزركش مفتوح الياقة. أومأت موافقا، فأضاف وهو يصافحك:

- دانيال.

أحسست بوخزة خفيفة في صدرك حين سماعك للاسم. أنت تذكر بالتّأكيد دانيال وراشيل، الزّوجين البريطانيّين اللذين صاحباك في رحلة «التحوّل» في فلسطين المحتلّة! تلقّيت كفّه بجفاء غير مقصود، لكنّه كشف عن البرودة الدّاخلية التي اعترتك. تمالكت نفسك ما استطعت ورسمتُ ابتسامة مرحّبة.

كان دانيال الجديد يصغرك بسنوات قليلة، وبدت لكنته الكنديّة واضحة. أخبرك أنّه كان يعمل محاسبا في موطنه. افترقت عنه رفيقته منذ ستّة أشهر، فاكتأب طويلا، ثمّ أخذ إجازة مفتوحة من العمل، وانطلق بحقيبة ظهر في رحلة حول العالم. أمضى شهرين في جنوب

شرق آسيا.. ماليزيا، سنغفورة، تايلند وإندونيسيا.. والآن ينوي قضاء شهر ونصف في الصّين.

- هل تحبّ الكونغ فو؟

كنت قد مارست الكاراتيه لسنوات ستّ خلال إقامتك في الرّياض، وأخذت بعض دروس الكونغ فو أثناء دراستك للطبّ في تونس. الرّياضات القتاليّة جزء لا يتجزّأ من تكوينك الجسديّ والعقليّ، إيمانا منك وممّن ربّوك بأنّ (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير). ابتسمت وأنت تردّ:

- نعم.. لقد مارسته في وقت مضى، حين كنت أكثر شبابا.

ضحكتما، ثمّ سألك دانيال مجدّدا:

- هل ستمضي وقتا طويلا في الصّين؟

- أسبوعين.

- فكّر في زيارة أكاديميّة شاولين للكونغ فو، على جبل كونيو! أنا ذاهب إلى هناك. سأمضي شهرا أتدرّب.. الكلفة لا تزيد على ثمانمائة دولار لقاء التّدريب والإقامة والمعيشة والتّنقل...

ابتسمت وأنت تتذكر تجربتك الماضية مع اليوغا. يمكنك أن تفعلها مرّة أخرى، تترك برنامج الرّحلة وتغيّر وجهتك؟

- لعلّك تزور الأكاديميّة وتلقي نظرة؟ يمكنك أن تجرّب لبضعة أيّام ثمّ تقرّر إن كنت تودّ البقاء أطول.. فكّر في هذا.

وضع بين يديك بطاقة عليها عنوان الأكاديميّة وأرقام التّواصل، إلى جوار رسم لمحارب كونغ فو بزيّ برتقاليّ فاقع، يقف على رجل واحدة، ويرفع الأخرى عاليا بشكل عموديّ. هززت رأسك، ثمّ خبّأت البطاقة في حقيبتك وقد أضمرت قرارا حاسما. لن تفعل. ما من

فضـول يدفعـك إلى تـرك مسـارك والانضمـام إلى معسـكر التّدريـب ذاك. أنـت تعـرف جيّـدا مـا هـو الكونـغ فـو. انتهـى.

رغـم استئناسـك بصحبـة دانيـال الشّـابّ طيلـة سـاعات الرّحلـة الخمـس، كانـت الذّكـرى الـتي طفـت عـلى السّـطح تنـكأ جراحـا قديمـة لـم تندمـل. كنـت مسـتعجلا للمـضيّ في طريقـك، الانغمـاس في مغامرتـك الصّينيّـة ونسـيان الخواطـر المزعجـة!

تفارقـت ودانيـال عنـد قاعـة اسـتلام الأمتعـة. كان عليـه أن يسـتقلّ طائـرة أخـرى إلى بيكـين، ومـن ثـمّ ينتقـل إلى أكاديميّتـه القتاليّـة. أمّـا أنـت فتستكشـف جنـوب البـلاد قبـل عاصمتهـا. سـتمضي أسـبوعا تتجـوّل في أنحـاء مقاطعـة «غيلـين»، «أرض التنـين».

أحسسـت بمزاجـك يتحسّـن بشـكل واضـح، منـذ غـادرت «مدينـة المـوت» وتوغّلـت في «أرض الإلـه» جنـوب الهنـد. ثـمّ جـاءت الجزيـرة الإندونيسـيّة المهجـورة لتهبـك تجربـة روحانيّـة صافيـة وفريـدة. وهـا أنـت تصـل إلى قطعـة أخـرى مـن الجنّـة لتواصـل رحلـة شـفاء لجـراح روحـك.

أمضيـت أسـبوعك الأوّل في انسـجام تـامّ مـع الطّبيعـة الخلّابـة. تسـتيقظ صباحـا عـلى هديـل يمامـة بيضـاء وادعـة بنـت عشّـها عنـد نافذتـك، فتسـتحضر أبياتـا شـجيّة قالهـا «أبـو فـراس الحمـداني» الأمـير الشـاعر، وهـو أسـير في زنزانـة بقلعـة في أرض الـرّوم، إثـر حـرب خاضهـا.. وقـد نُاحـت حمامـة خـارج قضبـان نافـذة زنزانتـه. فتأمـل الفـارس بـين معاناتـه في الأسر، وهـو لا يعبـأ بآلامـه ويتحمّلهـا دون نـواح.. وبـين حالهـا وهـي طليقـة تنـوح:

أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا   تَعَـالَيْ أُقَاسِمْكِ الهُمُومَ تَعَـالِي
تَعَالَيْ تَرَيْ رُوحًا لَدَيّ ضَعِيفَةً   تَرَدّدُ في جِسْمٍ يُعَـذّبُ بَـالي

أيَضْحَكُ مأسُورٌ وَتَبكي طَـلِيقَةٌ ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالِ؟

ثـمّ تتنـاول إفطـارا خفيفـا طازجـا مـن منتجـات المـزارع القريبـة -بيـض وعسـل وحليـب وفواكـه- وتنطلـق لتقـود درّاجـة هوائيّـة عـبر الرّيـف الصّينـيّ. تحـاذي مجـرى النّهـر ثـمّ تهبـط الأوديـة، تمـرّ بالحقـول والغابـات والهضـاب والجسـور والسّـواقي، وتلقـي نظـرة مشرفـة مـن علٍ عـلى القـرى المتناثـرة عـبر أمـواج الخـضرة المشرقـة.

في منطقـة «يانغشـو»، ركبـت طوفـا مـن الخـيزران، أخـذ يتهـادى عـبر مجـرى نهـر «لي» وينزلـق فـوق السّـدود التسـعة الـتي تتخلّـل المسـار، واحـدا إثـر الآخـر. بينمـا يجـذّف البحـار المنتصـب عنـد رأسـك بعصـاه الباسـقة، ترفـع عينيـك المأخوذتـين إلى مشـهد القمـم المـدوّرة المكسـوّة رداءً مـن عشـب. عـلى مـدّ بـصرك الحسـير تتـوالى قبـاب خـضراء بهيّـة، مثـل قامـات مائلـة تحـدّ النّهـر وتحـدّد مسـاره. في كتبهـم الشـعبيّة القديمـة، يصـف الصّينيّـون ذلـك المنظـر المهيـب للتـلال الجيريّـة الشّـاهقة الـتي نحتتهـا يـد الطّبيعـة بتعاقـب دورات الانحـلال والتصلّـب، بـ«لؤلـؤة الصّـين» أو «أجمـل مشـهد طبيعـي تحـت السّـماء»!

ثـمّ انطلقـت باتّجـاه الشّـمال قليـلا، لتشـاهد شرفـات الأرز الـتي شـيّدت في شـكل «عمـود فقـريّ لتنـين عمـلاق»! في منطقـة «لونـغ شـانغ» سـترى بعينيـك مسـاحات شاسـعة مـن حقـول الأرز، تصعّـد إلى قمـم الجبـال. تبصرهـا مـن الأسـفل مثـل درجـات عريضـة تمهّـد التـلّ وتصنـع منـه سـلّما سـهل الارتقـاء، لتسـتقبل المنبسـطات المتتاليـة مشـاتل الأرز، وتتحـوّل الجبـال الوعـرة إلى حقـول! وتبصرهـا مـن أعـلى، فتبـدو درجـات السـلّم المغمـورة بمـاء السّـقيا مثـل مرايـا صقيلـة لامعـة تعكـس لـون السّـماء! لقـد رأيـت حقـول الشـاي عـلى التّـلال الهنديّـة، وشرفـات أرز أخـرى في إندونيسـيا.. لكنّـك لـم تـر مشـهدا بروعـة العمـود الفقـري لتنـين صينـيّ!

سيروي لك الدّليل السّياحي قصّة تلك الحقول المدهشة. في عصر أسرة «يوان» الحاكمة، كانت مجموعات من الأقلّيات العرقيّة لقوميّات «تشوانغ» و«ياو» مطاردة من السّلطة، فتحصّنت بتلك المنطقة الجبليّة النائية ولاذت بها. ثمّ كان عليها أن توفّر أقواتها وتضمن معيشتها، فشرع الفلاحون الشجعان في صقل الجبال وزراعتها. لم يخطر ببال الأجداد الذين صنعوا شرفات الأرز أن حكمتهم وقوّة إرادتهم وعملهم الشّاق ستنتج مشهدا ساحرا بهذا الشكل. ستمرّ مئات السّنوات قبل أن تنقلب تلك المنطقة المنعزلة إلى مزار سياحيّ يفخر به الصّينيون!

على قارعة الطّريق، رأيت نساء «الياو» بأزيائهنّ التقليديّة السّوداء والحمراء، يحملن سلال الفاكهة المعروضة للبيع، ويتباهين بشعورهنّ السّوداء شديدة الطّول، مثل «ذات الشعر الذّهبي»!

- هل أنت متزوّج؟

سألك الدّليل مداعبا. ثمّ أخبرك أنّ تلك النّساء يقصصن شعورهن مرتين في حياتهن: مرّة عندما يبلغن الثامنة عشرة، ومرّة أخرى عندما يتزوّجن. ستميّز العزباوات بشعرهن الملفوف والمغطّى بمنديل أسود، بينما تقوم النّساء المتزوّجات بلفه على شكل كعكة أعلى الرّأس.

غادرت غيلين محمّل الذّاكرة بمشاهد حالمة، واستعددت لأسبوع ثانٍ كاتم للأنفاس في ظلّ المدنيّة الحديثة! عدت إلى غوانغزو لتمتطي طائرة أخرى تأخذك إلى بيكين. حالما غادرت بهو المطار ووجدت نفسك في الشّارع، صدّق أنفك حدسك! كانت بيكين في ذلك الوقت تنافس المدن الصنّاعيّة الكبرى على مركز الصّدارة من حيث مستوى تلوّث الهواء. السّماء الرّماديّة الكالحة وذرّات الغبار العالقة في فتحات

أنفك الحسّاسة كانت تنبئك بأنّك مقبل على أيّام سوداء خانقة!

حين وصلت إلى الفندق، تذكّرت دانيال -بشكل مريح هذه المرّة! شعرت بإحساس مألوف، وأنت تدرس ذاك الخاطر الملحّ. أن تغيّر مسارك مرّة أخرى وتختار المجهول أصبح هو المعتاد في رحلتك هذه. ولم تندم على قرارك بالابتعاد عن مخططات السّياحة التقليديّة في كلّ مرّة. لقد كانت الرّسائل الخفيّة في انتظارك بتقدير عجيب. وقد كنت تبتسم في نفسك وأنت تفكّر فيما قد تعيشه من مغامرات استثنائيّة، إذا ما استجبت إلى ذاك الصّوت الهامس في أذنك. كان بإمكانك التفرّج على معالم بيكين المميّزة خلال يومين حافلين، ثمّ تفرّغ بقيّة وقتك لزيارة صديقك الجديد في أكاديميّة الكونغ فو. بدا ذلك التّدبير مرضيا، ممّا مكّنك من ترتيب محطّاتك المرتقبة في العاصمة الصّينيّة دون تذمّر.

بحثت بجدّ عن البطاقة التي ألقيتها في حقيبتك بإهمال منذ أسبوع، حتّى عثرت عليها. تأمّلت رسم الرّاهب المقاتل مرّة أخرى، ثمّ اتّصلت بالرّقم المدوّن. أجريت مكالمة مقتضبة مع موظّفة ذات لكنة عسيرة الفهم، لكنّها تدرك ما أنت طالبه. تكرّر بشكل آليّ تعليمات محدّدة:

- غدًا.. غدًا. محطّة القطار المركزيّة. السّاعة الخامسة مساءً.

كان الفندق الذي نزلت به عبارة عن قصر سابق لمسؤول سامٍ، في عصر أسرة «تشينغ» الحاكمة، تحوّل منذ عقود قليلة إلى نزل تستقبل غرفه، المؤثّثة على نحو تقليديّ أصيل، الزوّار من مختلف أنحاء العالم. يقبع البناء في نهاية زقاق ضيّق في حيّ قديم من مركز العاصمة، غير بعيد عن «المدينة المحرّمة»، وما يحيط بها من متاحف وحدائق. ديكوره الأحمر الدّافئ يعتمد أساسا على خشب

الصّندل الذي صنعت منه كلّ قطع الأثاث والأبواب وأعمدة السّقف البارزة واللّوحات الزّيتيّة الباهتة. وكانت رائحة نفّاذة لبخور غريب تعبق في فضاء غرفتك. فتحت النّافذة العتيقة، تنشد تغيير الهواء، ثمّ ما لبثت أن أغلقتها حين تذكّرت التلوّث بالخارج!

خرجت بعد الظّهر لزيارة «المدينة المحرّمة»، فهالك الزّحام الشّديد عند المداخل وفي السّاحات والممرّات. آلاف الصّينيين والأجانب يتدافعون لإلقاء نظرة على قاعات القصور وباحاتها، كأنّما يثأرون من نظام الإمبراطوريّة.. فقد كان دخولها فيما مضى محرّما على العامّة، وحكرا على العائلة الحاكمة وخدمها!

مررت بغرف كثيرة، تتسع أو تضيق حسب الاستعمالات المخصّصة لها في ذلك الزّمن الغابر، وحدّقت بلوحات عديدة، تربّع فيها أباطرة مختلفون، بملامحهم الجامدة وعيونهم الضيّقة، وملابسهم الباذخة. وقفت أمام لوحة جداريّة ضخمة، تمثّل إمبراطورا ما، بثوبه الفضفاض الأحمر وحزامه الذهبيّ العريض، يقف على منصّة العرش، وأمامه صفوف من الرّعيّة، ساجدين!

انتبهت فجأة إلى أنّك مذ وطئت قدماك الصّين، لم تقف على مظاهر تديّن كما فعلت في الهند وإندونيسيا. لم تلمح في أيّ من المدن والقرى التي زرتها معابد أو كنائس أو مساجد! لا أيقونات ولا صلبان ولا تماثيل ترحّب بك على أبواب المطاعم والمتاجر، ولا صلوات تتلى في أيّ وقت من النّهار. عدت إلى التّحديق في اللّوحة، تبحث عن الجواب بين ثناياها. هل استبدل الصّينيّون عبادة الآلهة بعبادة الحاكم؟

تسرح وأنت تتأمّل المشهد. تلك الحركة التي تعلن الخضوع والتّسليم التّامّين، تجعلك تتساءل.. هل هناك بشر في العالم

يستحقّ أن تسجد له؟ ملك أو إمبراطور؟ عالم أو راهب؟ نفسك الأبيّة تأنف أن تتدنّى بها إلى منزلة مماثلة! تلك الأيادي الممدودة إلى الأمام، والجباه الملاصقة للأرض، والظهور المحنيّة في انكسار وتذلّل.. تعيد إلى ذاكرتك مشاهد سجود أخرى. تتوالى الصّور في رأسك في سرعة خاطفة.. صلواتك التي لم تتوقّف عنها منذ تعلّمت كيف تصلّي في سنّ السّادسة، سريعة مرتبكة أحيانا، ومطمئنة خاشعة في أحيان أخرى، سجودك الطّويل في ليالي رمضان، مبتهلا وذارفا العبرات في الحرم المكيّ، تعلّقك بأعمدة المقام في مسجد عائلتك في تستور.. ثمّ تتوقّف عند مشهد خارج الزّمان والمكان، شغلك تفكيرا في عهد بعيد وآخر قريب.. الملائكة يسجدون لآدم! يمكنك في تلك اللحظة أن تستوعب عصيان إبليس ورفضه السّجود. بقليل من المنطق، ما الذي يدعو كائنا فخورا ومعتدّا بذاته إلى السّجود أمام مخلوق آخر، ضعيف وقليل الحيلة؟

أمر مباشر من كيان أقوى وأعظم وأعلى!

يقول للشيء: «كن».. فيكون!

تدوّي الإجابة في رأسك مثل الصّاعقة. أمر من الإله الأعظم يجعل الملائكة يسجدون لبشر من طين، وإبراهيم يهمّ بذبح ابنه، والطّير الممزّق إلى أشلاء يتجمّع من جديد ويطير إلى مناديه، والجبال تخشع وتتفتّت، والموتى يهبّون من مرقدهم أحياء...

أنت لم تعد تؤمن بكلّ ذلك. لقد سقطت قدسيّة الأديان في عينيك منذ أمد، ولم تستعد سلطتها على فؤادك بعد. لكنّك تسترجع كلّ تلك القصص التي تعتبرها الآن «تراثا ثقافيا» نشأت عليه. لقد تمردّت على وصاية الشّيوخ والرّهبان والكهنة، واخترت أن تكون في تواصل مباشر مع الخالق دون وساطة. هكذا تقنع نفسك. لكن

أين أنت من العبادة الآن؟ هل تؤمن بالقرآن؟ هل تؤمن بالرّسل والوحي؟ وماذا عن اليوم الآخر.. والقدر خيره وشرّه؟

تنقبض عند ذكر المعضلة التي أفقدتك صوابك وقذفت بك في متاهة الأسئلة. توقن أنّ مارد القمقم قد أفلت من عقاله، منذ مصادفة لقائك بدانيال آخر على متن الطائرة! أنت تعرف في داخلك أنّك لن تستعيد طمأنينتك وثقتك بإيمانك حتّى تفكّ الشيفرة المستعصية. لأنك تؤمن الآن بقوّة، أنّ عدوّ الحقيقة ليست الأكاذيب.. بل القناعات! لكنّك غير مستعدّ بعد للغوص مجدّدا في محيط الشكوك ذاك.

أخذت كفايتك من اللّوحات والتماثيل والزّخارف الفنيّة، ثمّ خرجت. تمشّيت عبر الحدائق، وسرت على غير هدى عبر دهاليز المتاحف، ثمّ انتهيت إلى الفندق.

دلفت إلى مصعد البناية المشيّد حديثا بالنّسبة إلى عمر القصر. طالعت وجهك في المرآة الجانبيّة. كنت مجهدا، يبدو ذلك جليّا للعيان. لقد هرمت يا مالك! أيّامك يسحب بعضها بعضا في سعي حثيث إلى الأربعين. وخط الشيب فوديك وأطراف لحيتك مبكّرا. لولا أنّك أخذت تحلقها منذ سنتين لكنت انتبهت، لكنّ ظروف السّفر قادتك إلى إهمال شكلك، فنبتت الشّعيرات في ذقنك وتكاثفت. وهذه التّجاعيد الطّفيفة عند زاوية عينيك، إنّها شاهد على ليالي سهاد طويلة وأرق مزمن، من فرط يقظة عقلية مستمرة، تجعلك في توتر مقيم. أنت تدرك جيّدا أنّ ثمن اليقظة هو التوتر، لكنّك من الحكمة بما يكفي لتدفع راضيا هذا الثمن. مرّرت أصابعك بين خصلاتك السّبطة، كما تفعل عادة حين تتحمّس وتهمّ بأمر تحبّه، وجرّبت أن تبتسم لنفسك. أنت تحتاج مزيدا من الحماس في حياتك.

ثـمّ انتبهـت إلى صورتـك معكوسـة عـلى مـرآة ثانيـة خلفـك. مالـك آخـر يقـف وراءك، وآخـر خلفـه، يليـه آخـر. وقفـت متأمّـلا في الانعـكاس المتكـرّر إلى مـا لا نهايـة حـتّى شـعرت بالـدّوار. ترسـل المـرآة للأخـرى صـورة فتعكسـها الثّانيـة، مثـل كـرة طاولـة تتقاذفانهـا باسـتمرار، حـتّى تصبـح متناهيـة البعـد. تحـرّك ذراعـك أمـام المـرآة، فتتحـرّك انعكاسـاتك الكثـيرة بشـكل مربـك. تسـتمرّ مذهـولا مثـل طفـل يكتشـف لعبـة جديدة. يتوقّـف المصعـد وينفتـح مصراعـاه، ثـمّ يغلقـان، ويسـتأنف مسـاره صعـودا ونـزولا. يجـاورك نـزلاء آخـرون للفنـدق، يتوقّفـون عنـد طوابقهـم وينصرفـون، وأنـت تـراوح مكانـك، مسـتغرقا كليّـا في تجربتـك الفريـدة.

يسـتيقظ الفيزيـائيّ الشّـغوف في داخلـك، وأنـت تسـترجع تفاصيـل شـاهدتها منـذ شـهور برفقـة ريـم، في وثائقـيّ عـن نظريّـة الأوتـار الفائقـة والأكـوان المتوازيـة.

تفـترض نظريـة «الكـون المـرآة» وجـود كـون مـوازٍ -أو أكـثر- تكـون جزيئاتـه متماثلـة تقريبـا مـع الموجـودة في كونـنا.. لكنّهـا تتـصرّف بشـكل مختلـف! لا يمكـن لأيّ مـن هـذه الجزيئـات أن تنتقـل مـن عالـم إلى آخـر، وهـذا مـا يفـسّر عـدم قدرتنـا عـلى إدراك هـذا الكـون المـرآة. ومـع ذلـك، يُعتقـد أن النيوترونـات يمكـن أن تعـبر مؤقتًـا الحـدود الفاصلـة بـين الكونـين، في شـكل ذبذبـات.. ممّـا يفـسّر بشـكل أنيـق معضلـة «المـادّة المظلمـة» لـدى الفيزيائيّـين، أو «الكتلـة النّاقصـة»، فهـذا يعـني أنّهـا جـزء مـن الكـون المـوازي!

إنّ نظريـة النسـبية العامـة -قانـون الجاذبيّـة- تـشرح القوانـين الـتي تحكـم الأبعـاد متناهيـة الكـبر.. وميكانيـكا الكـمّ تفـسّر تلـك الـتي تحكـم الأبعـاد متناهيـة الصّغـر. يعمـل هـذان النموذجـان بشـكل مثـالي ويتـم التحقـق منهمـا تجريبيًّـا بدقـة لا تصـدّق بشـكل منعـزل.. المشـكلة هـي أن النّظريتـين غـير متجانسـتين!

لا شيء يمكن أن يكون مؤكدًا وفقًا لفيزياء الكم. يمكننا فقط التنبؤ بمدى احتمال أن يتصرّف نظام من الجسيمات بطريقة معيّنة. كان عدم اليقين هو ما اختلف أينشتاين معه.. لم يستطع قبول ذاك المستوى من العشوائية في الطبيعة، فأمضى نصف عمره يحاول إثبات ما لا يمكن إثباته. كان إيمانه العقديّ ما كبّله. وقد أبدى رأيه في جملة شهيرة: «أنا مقتنع بأنّ الله لا يلعب النّرد مع الكون»!

لكنّ غيره من العلماء، أدرك قصور النظرّيات المتوفّرة وانكبّ على استنباط غيرها. وتعدّ نظرية الأوتار واحدة من أقدم المحاولات التفسيريّة لجعل فيزياء الكم والجاذبية متوافقتين. تصف النظرية المادّة على أنّها كيانات مهتزّة أحادية البعد. هذه القطع متناهية الصّغر تسمى أوتارا. الطريقة التي يهتز بها الوتر ستخلق بروتونا، أو إلكترونا، أو نيوترينوا.. المشكلة: هي أنّ نظرية الأوتار لا تعمل في أبعاد المكان والزمان المعتادة -ثلاثة أبعاد للفضاء والبعد الزمني- بل تحتاج إلى عشرة أبعاد!

ولإضافة مزيد من التعقيد، بناءً على مبدأ الوضع الاهتزازي، هناك (عدد عشرة مرفوعة قوة خمسمائة) طريقة لإضافة أبعاد إضافية، ما يعني أنّ هناك $١٠^{٥٠٠}$ تنويعات محتملة لنظرية الأوتار! وبالتالي عدد لا حصر له من الاحتمالات لأكوان مختلفة!

انبثقت فكرة مجنونة في ذهنك وابتلعتك في غياهبها.

تحُاول أن تتمثّل وأنت تطالع مرآتك كيف يمكن أن يمتلك كلّ كيان صورا لا نهاية لها في أكوان موازية، مثل انعكاساتك المتكرّرة على مرآتين متقابلتين. تسرح بخيالك.. هل هناك نسخ لانهائيّة منك أنت، مالك، في عوالم كثيرة؟ أحدها يعيش إيمانه بنفس العمق القديم والتّسليم اللّامشروط، وأحدها اختار الإلحاد عقيدة لا يرجع

عنهـا.. وآخـر لـم يسـافر قـطّ إلى فلسـطين المحتلّـة، لـم يلتـق دانيـال وراشـيل، وتـزوّج سـارة منـذ زمـن! تفكّـر، هـل يمكـن أن يكـون قـدرك نسـيج خياراتـك وقراراتـك، بينمـا تعيـش نسـخك الأخـرى قدرهـا المتعلّـق بخياراتهـا؟ هـل تنبثـق الأكـوان المتوازيـة أحدهـا مـن الآخـر وتتكاثـر، مثـل خلايـا تنقسـم، مـع كلّ تشـعّب للخيـارات الحـرّة؟

تـشرق شـموس سـاطعة تبهـرك بنورهـا، وتهـتزّ بنشـوة عميقـة تغمرك. تشـعر بحمـل ثقيـل يـنزاح عـن كاهلـك، وأنـت ترسـم مفهومـا للقضـاء والقـدر يرضيـك ويشـفي غليلـك. إنّـه العـدل، منتهـى العـدل، أن تتحمّـل نتائـج قراراتـك مهمـا كانـت.. في حـين تظهـر للنّـور نسـخة أخـرى منـك في عالـم مـوازٍ اتّخـذت قـرارا معاكسـا، وتتحمّـل نتائجـه!

بـتّ تلـك اللّيلـة قريـر العـين وقـد غمـرك الارتيـاح، وعرفـت النّـوم العميـق الّـذي حرمـت منـه منـذ زمـن.

سـور الصّـين العظيـم كان وجهتـك في يومـك الثـاني والأخـير في بيكـين. لا يمكنـك أن تـزور الصّـين وتتجاهـل إحـدى عجائبهـا المعماريّـة، ناهيـك عـن ترؤسـه قائمـة عجائـب الدّنيـا السّـبع.. مـع أنّ جبـال غيلـين كانـت «الأعجوبـة» الحقيقيّـة الـتي سـحرتك! استيقظت في وقـت مبكّـر، لتنضـمّ إلى وفـد سـياحيّ مختلـط، سـاعدك موظّـف الفنـدق عـلى تدبّـر أمـره، وتمـضي إلى الضّاحيـة الشـماليّة للعاصمـة.

كانـت هنـاك مواقـع عـدّة مـن السّـور مفتوحـة للـزّوار، أوّلهـا قريـب مـن العاصمـة، وهـو الجـزء الـذي تفانـت الدّولـة في ترميمـه واسـتصلاحه حـتّى يسـتعيد متانـة بنيانـه القديـم ويكـون السـير عـبره يسـيرا ومريحـا، ولذلـك فهـو قبلـة السّـيّاح المحلّيـين. أمّـا ثانيهـا فيقـع عـلى مبعـدة سـاعتين، وهـو في حالـة ممتـازة أيضـا لكنّـه مناسـب لبعـض التسـلّق لارتفاعـه عـبر الهضـاب، ويسـتهوي السّـيّاح الأجانـب أكـثر نظـرا لقلّـة الزّحـام. وهنـاك أقسـام عـدّة أخـرى ينبغـي قطـع سـاعات للوصـول إليهـا، وهـي وعـرة في معظمهـا، تهدّمـت بعـض جوانبهـا ولـم تصلهـا يـد الإصـلاح بشـكلّ كليّ. وهـي المفضلّـة لـدى المغامريـن وناشـدي الإثـارة. اختـار وفـدك الموقـع الثّـاني بالإجمـاع.

كنـُت تعتقـد في داخلـك أنّ سـور الصّـين سـيكون مجـرّد ظاهـرة سـياحيّة فارغـة أخـرى. لقـد تعلّمـت مـن محطّـات رحلتـك السّـابقة أنّ كلّ مـا يتهافـت عليـه الجمهـور رخيـص ومسـتهلك! لطالمـا نفـرت نفسـك مـن الجمهـور. إنّـه القطيـع الـذي ليـس بيـده سـوى التكـرار والمحـاكاة. أليـس ألـدّ أعدائـك ثقافـة القطيـع، ومـوروث القطيـع، وأخـلاق العبيـد

لـدى القطيـع؟

لقـد عرفـت أروع الاندهاشـات في بقـاع قفـرة لا يقربهـا بـشر، ومججـت الزّحـام عنـد أيقونـات الحضـارات المتوّجـة! لـم تكـن تعلـم أنّ تجربتـك مـع جبـال الصّـين سـتتواصل، حـتّى وأنـت تقصـد منشـأة معماريّـة صنعتهـا يـد الإنسـان.

الجبـال في الصّـين مختلفـة عنهـا في بـلاد العالـم الأخـرى. ليسـت مثـل جبـال الألـب الـتي تبـدو قالبـا صلبـا تعلـوه قمـم بـارزة مثـل نتـوءات حـادّة، تكسـوها الثّلـوج عـلى مـدار السّـنة.. وليسـت مثـل شـعاب مكّـة الـتي يبـدو الجبـل منهـا كومـة حجـارة مفتتـة رغـم شـموخها. كنـت كلّمـا مـررت بهـا في طريقـك إلى العمـرة بـرّا، خطـرت ببالـك الآيـة الكريمـة: (لَـوْ أَنزَلْنَـا هَـذَا الْقُـرْآنَ عَـلَى جَبَـلٍ لَّرَأَيْتَـهُ خَاشِـعًا مُّتَصَدِّعًـا مِّـنْ خَشْـيَةِ اللَّـه). فكأنّمـا تلـك هـي الجبـال المعنيّـة، تفتّتـت وبقيـت متماسـكة مكانهـا!

أمّـا جبـال الصّـين فهـي فريـدة مـن نوعهـا، ويختلـف بعضهـا عـن الآخـر. لقـد سـحرت نظـرك القمـم الجيريّـة المكـوّرة المكلّلـة بالعشـب في «يانغشـو» وأدهشـتك شرفـات الأرز المعلّقـة عـلى جوانـب الأوديـة السّـحيقة في «لونـغ شـانغ».. وهـا هـي مرتفعـات «موتيانيـو» تخلـب لبّـك وأنـت تركـب عربـة القطـار الهـوائيّ -التليفيريـك- في اتّجـاه الجـزء العلـويّ مـن السّـور الشّـاهق. هـذا بحـر آخـر مـن القمـم ذات الكسـاء النّبـاتي النـضر عـلى مـدّ البـصر! كان حاجـز الحجـارة، الـذي شـيّد منـذ أكـثر مـن ألفـي عـام عـلى مسـافة قدرهـا ألفـان وأربعمائـة كيلومـتر، ليحمـي عاصمـة الإمبراطوريّـة مـن اجتياحـات الشـعوب الشّـمالية مـن المغـول والـترك، يشـقّ طريقـه بـين أمـواج الغابـات والأعشـاب بسلاسـة، حـتّى أنّ العـين لا تحسـبه دخيـلا عـلى الصّـورة الطّبيعيّـة الرّائقـة.

سرعـان مـا انفصلـت عـن مجموعتـك حالمـا لمسـت قدمـاك حجـارة

الممرّ العتيق أعلى السّور. حثثت الخطى نحو الجزء المرتفع الذي يواصل تسلّق التّلال ويتعرّج خلالها. سرت لدقائق، حتّى وصلت إلى أحد أبراج المراقبة النّائية الموزّعة بكثافة على امتداد ذاك الجزء من السّور. ارتقيت الدّرجات حتّى شرفة المشاهدة العلويّة، وملأت عينيك من المشهد. من موقعك المميّز ذاك، كان بإمكانك أن تبصر امتداد المنشأة العسكريّة العظيمة مثل شريط أفعوانيّ ملتوٍ، يصعد التّلال وينزل الوديان، لكيلومترات وكيلومترات كثيرة لا يسعك حصرها!

نزلت من السّور في مزاج جيّد. لم يكن يومك الثّاني في بيكين مضيعة للوقت في نهاية الأمر! بل لعلّك قد استعدت الكثير من الحماس الذي افتقدته منذ حادثة ريم. وأنت تمنّي نفسك بجرعة مكثّفة منه في الأيّام المقبلة.

عدت إلى الفندق حيث تركت حقيبة سفرك، واستقللت سيّارة أجرة إلى المحطّة المركزيّة. ستصل قبل السّاعة الخامسة كما تقتضي التعليمات. على رصيف المحطّة الخارجيّ، لمحت الرّاهب الذي كان بانتظارك بثيابه البرتقاليّة المميّزة، ولافتة كرتونيّة تحمل اسم «أكاديميّة شاولين للكونغ فو». كانت حافلة صغيرة متوقّفة في شارع جانبيّ، لتقلّك وبقيّة المتدرّبين إلى مقرّ الأكاديميّة.

غفوت بعد ركوب الحافلة بدقائق معدودة. حين فتحت عينيك، كانت المركبة قد غادرت منطقة بيكين العمرانيّة من مدخلها الجنوبيّ، وأخذت تهتزّ عبر الطّريق الرّيفيّة المتعرّجة في اتّجاه قمّة جبل «كونيو». تلفتّ حولك، فرأيت الرّاهب الكهل يحتلّ المقعد الأمامي، وهو الدّليل المكلّف بتوصيلك إلى مركز التّدريب، بالإضافة إلى ثلاثة متدرّبين آخرين، شابّان وكهل أشيب، قد غرق كلّ منهم في نوم عميق. بينما كانت بقيّة المقاعد شاغرة.

توقّفت الحافلة فجأة، في نهاية الطّريق المهيّأة، وأعلن السّائق أنّ أوان النّزول قد حان. ترجّل الجميع، وحمل كلّ مسافر حقيبة ظهره العريضة وتبع الدّليل عبر مسار ترابيّ يصعّد خلال الجبل، في حين وقفت لبرهة تتأمّل حقيبة متاعك المجرورة التي لم تكن ملائمة للظرف القائم!

تحوّل شغفك بالجبال فجأة إلى لعنة. كانت الشّمس قد مالت إلى المغيب، وأخذ لون السّماء يتحوّل إلى السّواد تدريجيّا. كنت تشعر بالحنق وأنت ترفع حقيبتك فوق رأسك تارة وتسحبها تارة أخرى، وتتقدّم بصعوبة خلال الأحراش الشّائكة، حتّى مبنى أكاديميّة الكونغ فو المتواري في عمق الغابة المظلمة. تآمرت عليك الطّبيعة بكلّ جوانبها. كان المطر قد هطل في اللّيلة الفارطة، وأصبحت التربة على الطّريق موحلة ولزجة. حين وصلت أخيرا عند مدخل الأكاديميّة، كان حذاؤك قد ازداد كتلة طينيّة ثقيلة ومؤذية.

كنت تقف في باحة المقرّ، في حيرة، لا تدري ما تفعل بشأن حذائك المتّسخ وحقيبتك الملطّخة بالوحل، حين رأيت المتدرّبين يغادرون قاعات الدّرس ويتفرّقون في انتظار موعد العشاء. كان الرّاهب الذي قادك حتّى المدخل قد اختفى على الفور مع مرافقيه الثّلاثة، بينما تلكّأت وأنت تعاين الأضرار التي لحقت متاعك.

– لقد جئت!

رغم الإضاءة الخافتة في السّاحة، ميّزك دانيال، وهرع إليك مرحّبا. استقبلك بذراعين مفتوحتين مثل صديق قديم تربطك به عرى مودّة عميقة. أضاءت قسماتك وأنت تبادله الحضن الدّافئ ثمّ ابتسمت وأنت تصحبه إلى الدّاخل، بعد أن مكّنك من نعال خفيفة تخصّه. قال وهو يقودك عبر ممرّ المهجع:

- لقد هطلت الأمطار بغزارة في اليومين الماضيين.. كانت الطّريق سالكة حين وصلت الأسبوع الماضي.. والآن يضطرّون إلى السّير عبر معبر مختصر يشقّ الغابة.

كان يتحدّث عن الشّاحنة التي تزوّد الأكاديميّة بالمؤونة من القرية المجاورة بشكل يوميّ. كان على المتدرّبين عبور الغابة جيئة وذهابا لتفريغ حمولتها بعد أن سدّت كتل الحجارة المتساقطة من القمّة الطّريق الرّئيسيّة. دلفتما إلى الحجرة. كانت ضيّقة وبسيطة، كما كانت حجرة نومك في مركز اليوغا، وقد كانت تحوي سريرين يعلو أحدهما الآخر، خزانة ومكتبا، بالإضافة إلى حمام ومغسلة.

- لقد رحل شريكي في الغرفة منذ يومين ولم يعوّضه أحد بعد. لقد جئت في الوقت المناسب.. يمكننا أن ننزل في الغرفة ذاتها.

استمرّ دانيال يتّخذ القرارات عنك، وكأنّ استجابتك لدعوته كانت صكّ توكيل شامل بشأن بقيّة عطلتك في الصّين. لكنّك لم تعترض ورضيت بالسّرير العلويّ الشّاغر. اغتسلت وغيّرت ثيابك التي طالها أثر السّفر، ثمّ استمعت إلى رفيقك وهو يشرح لك كلّ شيء فيما يتعلّق ببرنامج التّدريب اليوميّ.

خلال فترة التّدريب القصيرة -من أسبوع إلى شهر واحد- يمكنك تعلم تاريخ ونظريات كونغ فو الشاولين، حركات اللّكم والرّكل الأساسيّة، شكلا أو اثنين من أشكال «قبضة شاولين» أو -حسب مستوى مهارة المتدرّب- كيفيّة استعمال سلاح أساسي واحد مثل العصا أو السّيف، مبادئ الملاكمة الصّينية من خلال سجال بين شخصين، أبجديّة الماندرين ومبادئها الأساسية، الفلسفة الطاوية، فنون الخطّ، الوخز بالإبر والتّدليك! أمّا إذا استمرّ التّدريب شهرا أو أكثر، فسيصبح الطالب غالبا قادرا على تكسير قطعة آجر بيد عارية!

بـدا البرنامـج واعـدا للغايـة. سـألت دانيـال الـذي كان قـد شرع يتـدرّب منـذ عـشرة أيّـام:

– كيف هو تقدّمك؟

قفـز فجـأة واتّخـذ وضعيّـة الدّفـاع بشـكل مباغـت رافعـا قبضتيـه المكوّرتـين أمـام وجهـه وهتـف:

– هل تنازلني؟

لوّحـت بكفّيـك متضاحـكا وأعلنـت الاستسـلام، فضحـك بـدوره ثـمّ قـال وهـو يتثـاءب:

– لقـد خرجـت للتـوّ مـن حصّـة الفلسـفة، أنـت تـدري كـم تكـون مملّـة! لقـد جئـت مـن أجـل القتـال، وأظنّـي أبـلي بـلاءً حسـنًا.. لكـنّ تقدّمـي في اللّغـة الصّينيّـة وفـنّ الخـط ووخـز الإبـر، فلنقـل.. محـدود!

ضحكتما من جديد ثمّ بادرته وأنت تطالع مطويّة البرنامج:

– هل ستكون قادرا على كسر قطعة الآجر قبل رحيلك؟

– قد أفاجئك وأفعل قبل رحيلك أنت!

غمـزك وابتسـامة اعتـداد ترتسـم عـلى شـفتيه. بـدا ذلـك مبـشّرا. فكّـرت أنّ عليـك تحديـد هـدف لأيّامـك الخمسـة في الأكاديميّـة! تحطيـم الآجـر؟ لقـد فعلـت ذلـك مـرّات وأنـت تسـتعدّ لاختبـار الحـزام الأسـود للكاراتيـه! لكـنّ عقديـن مـن الزّمـن يفصلانـك عـن آخـر عمليّـة تكسـير مارسـتها. فـنّ الخـطّ؟ هـذا شيء تجيـده وتتميّز فيـه! لقـد كانـت كتابتـك العاديـة تبـدو عـلى الـدّوام مثـل مخطوطـة تاريخيّـة متقنـة، سـواء كانـت بالحـروف العربيّـة أو اللّاتينيـة! مـرّة أخـرى، لقـد توقّفـت عـن الكتابـة منـذ دخلـت حياتـك وسـائل الاتّصـال والرّقـن الإلكترونيـة. مـع ذلـك، أنـت تريـد تجربـة شيء جديـد، يحملـك إلى مسـتوى أعـلى مـن التحكّـم في قدراتـك الجسـديّة والعقليّـة. فكّـرت في ثلاثـة مشـاريع تسـتهويك: تعلّـم

اللّغـة الصّينيّـة، اسـتعمال السّـيف، والوخـز بالإبـر!

كنــت قــد جرّبــت منــذ ســنوات حمــل السّــلاح الآليّ في رحلــة فــرارك عــبر لبنــان. تذكــر تلــك الأيّــام بابتســامة حالمــة. لــم تكــن التّجربــة الأنجـح أو الأمثـل، لكنّهـا شـحنتك بمشـاعر كثيفـة وحاشـدة. لقـد قـرّرت حينهـا أنّـك لـم تخلـق لحمـل البندقيّـة الآليّـة، لكـنّ السّـيف قـد يكـون سـلاحك المناسـب. محاربـو الكونـغ فـو المهـرة يعتـبرون سـلاحهم امتـدادا لأجسـادهم، لا يختلـف التّلويح بـه في الهـواء عـن تحريـك الـذّراع بسلاسـة!

أمّـا الوخـز بالإبـر، فهـو فـنّ قديـم ورهيـب، يقـع في مـكان مـا في أوّل خـطّ الزّمـن الـذي يمثّـل تاريـخ مهنـة الطـبّ الـتي تمارسـها. لا شـكّ أنّـك سـتصبح أكـثر مهـارة في جراحـة العظـام إذا أدركـت سرّ مسـارات الطّاقـة الدّاخليّـة في الجسـم، وكيفيّـة التّحكّـم بهـا.

واللّغــة الصّينيّــة لطالمــا بــدت لــك آسرة برموزهــا الشّــبيهة برســوم راقصـة وغامضـة! تعلّـم أبجديّتهـا المعقّـدة يبـدو تحدّيـا مسـلّيّا لقدراتـك الذّهنيّـة الفائقـة الـتي وجهتهـا بالكليـة منـذ سـنوات إلى مهمتك المقدسـة: البحـث عـن الحقيقـة المطلقـة.

لكن هل تكفي أيّامك الخمسة لتنجز شيئا ممّا عزمت عليه؟

تركـت متاعـك في غرفـة دانيـال، ثـمّ مضيـت للقـاء مديـر الأكاديميّـة. كان عليـك إجـراء اختبـار روتيـنيّ يحـدّد مـدى مهارتـك في فنـون القتـال، ويفصـلُ بشأن الفرقـة الـتي ينبغـي أن تنضـمّ إليهـا. كنـت قـد اسـتعدت قـدرا لا بـأس بـه مـن لياقتـك ومرونتـك بعـد أسـبوع اليوغـا، والسّـباحة الحـرّة عـلى شـواطئ بـالي، فكنـت جاهـزا لاسـتئناف الفنـون القتاليّـة.

رغـم الوقـت المتأخّـر، اسـتقبلك الرّاهـب العجـوز بابتسـامة دمثـة، ثـمّ أشـار إليـك بالجلـوس، وقـرع جرسـا داخليـا عـلى مكتبـه. مـرّت

لحظات من الصّمت المحرج، تأمّلت خلالها أثاث المكتب المتواضع ومضيّفك القصير برأسه الأصلع المكوّر ولحيته الرّماديّة الطّويلة التي يربطها أسفل ذقنه، وعينيه الخفيّتين مثل شقّين وسط وجهه، وشفتيه المعلّقتين في وضع الابتسام، قبل أن يدخل طرف ثالث: المترجم! على خلاف الهنود والإندونيسيين، لم يكن الصّينيّون في معظمهم يتقنون اللغات الأجنبيّة. وقد واجهتك صعوبات جمّة طيلة رحلتك في الرّيف الجنوبيّ لتبلّغ مخاطبيك مرادك بإنجليزيّة مصحوبة بلغة الإشارات، ورهبان الشاولين لا يختلفون في ذلك عن مواطنيهم!

وقف المترجم بالقرب من المدير، وقد كان شابّا في العشرينيات، يبدو أقرب إلى طالب جامعة خجول، وأخذ يترجم كلام الرّاهب:

– حين تطلع الشّمس، يمكنك أن تمارس تمارين «التاي تشي» مع الآخرين، وقبل تناول وجبة الفطور، سيعقد اختبار للمتدرّبين الجدد، بعدها سيتقرّر إلى أيّ مجموعة تنضمّ.

بدأ يومك الأوّل في أكاديميّة شاولين مبكّرا -بشكل يذكّرك إلى مدى بعيد بأسبوع معسكر اليوغا الذي تفصلك عنه الآن ثلاثة أسابيع كاملة- مباشرة بعد الشروق. توافد المتدرّبون من المهاجع، وقد ظهرت علامات النّعاس على محيّا الكثيرين. التّدريب القاسي طيلة النّهار والاستيقاظ مع شعاع الشّمس الأوّل مرهق لا شكّ. اكتظّت السّاحة بنحو خمسين متدرّبا من مختلف الشّرائح العمريّة وشتّى الجنسيّات، بعض الإناث وأغلبيّة ساحقة من الذّكور. المشهد الصّباحيّ ذاته من معسكر اليوغا يعيد نفسه، مع اختلاف شكليّ: متدرّبو الكونغ فو ملتزمون بزيّ «الكيمونو» الموحّد. تبادلت إيماءات وابتسامات مع وجوه مختلفة ترحّب بقدومك في صمت، ثمّ انتظم الجميع في صفوف متباعدة استعدادا لحصّة «التاي تشي».

بعد قليل، ظهر مدير الأكاديميّة العجوز وتصدّر الجمع. وقف طويلا، مغمض العينين، جامعا قبضتيه عند وسطه ومباعدا بين قدميه في وضعيّة الاستعداد. تلفتّ حولك، فرأيت الآخرين يقلّدونه. لبثت منتبها، تترقّب ما سيلي. ثمّ شرع المعلّم في تنفيذ تمارين «التاي تشي». أخذ يفرد ذراعيه أوّلا كأنّه يتمطّى، ثمّ ضمّ كفّيه إلى صدره كأنّه يحتضن جسدا وهميّا، قبل أن تنزلق يداه المبسوطتان على جسده إلى الأسفل. تعاقبت الحركات بطيئة ورشيقة، لكنّها منضبطة ودقيقة، مثل راقص باليه في مهمّة قتالية! أخذت تتبعه، متحرّيا المزامنة مع حركاته وسكناته ومراعيا لتفاصيل كلّ وضعيّة والتفاتة، موازيا بين الاسترخاء والقوّة. بعد بضع دقائق، كنت قد انسجمت في «الرّقصة»، وأصبحت جزءًا من الجسد الجماعي الذي ينساب في تناغم، مثل تدفّق تيّار ماء رقراق، في فضاء السّاحة الذي غمرته أشعّة صباحيّة دافئة. يستمرّ التسلسل في حيويّة رغم النّعومة الظاهرة، تحرّك كفّيك دائريّا، ثمّ تتقدّم خطوة، وترجع إلى الوراء، تدفع حاجزا وهميّا، تزيح كتلة لا مرئية، وتجذب حبلا خياليّا...

سرعان ما أدركت ما أنت بصدده. كانت حصّة تأمّل عبر الحركة! بالتّناقض مع تأمّل اليوغا السّاكن والسّلبيّ، كان تأمّل التاي تشي مبنيّا على اجتماع الاسترخاء العقلي مع الحضور الجسديّ. تتواصل الإيماءات النّاعمة، سلسة ومحكمة.. وتغمرك سكينة داخليّة مريحة ومخدّرة. أنت تسبح في الهواء، رغم ثبات قدميك على الأرض. تحوم حول الجبل، وتحلّق.

حين انتهت حصة التاي تشي، التي استمرّت حوالي ساعة، كنت تشعر بالارتياح يغمرك. أدركت على الفور أنّ بدء اليوم التدريبيّ الطويل بتلك الممارسة المنعشة أمر مدروس وحكيم!

بعد أن انصرف الجميع إلى قاعة الطّعام، لم يبق غيرك ورفاق

رحلـة الأمـس الوافديـن مـن بيكـين. كان مديـر الأكاديميّـة في انتظاركـم برفقـة مترجمـه الشـابّ.

– التـاي تـشي رياضـة قتاليّـة «داخليّـة»، إنهـا تركّـز عـلى البعـد العقـليّ والروحـيّ، عـلى عكـس فنـون الدّفـاع عـن النفـس الخارجيـة.. مثـل الكاراتيـه. الحـركات الـتي نمارسـها تمثّـل لغـة جسـدية.. هدفهـا تحقيـق الانسـجام بـين الجسـد والـرّوح، عـلى غـرار نظريّـة الـين -طاقـة الأرض- واليانـغ -طاقـة الـرّوح- أسـاس الفلسـفة الصّينيّـة.. يكـون التركـيز عـلى التكامـل واتّحـاد الأضـداد.. عـلى الرغـم مـن بـطء الحركـة، فإنّنـا نكـرّس القـوّة والمرونـة والحيويـة، ولكـن أيضًـا الهـدوء والاسـترخاء...

كنـت تهـزّ رأسـك في حمـاس مـع كلّ كلمـة، تـكاد تقفـز مـن مكانـك لتشـدّ عـلى يـد المعلّـم وتحدّثـه عمّـا عشـته منـذ قليـل، وعـن المعـاني الـتي أدركتهـا خـلال تجربتـك الوليـدة مـع «التـاي تـشي». كنـت متيقّنـا بـأنّ سـاعة البكـور تلـك سـتصير موعـدك اليومـيّ المفضّـل، تمامـا كمـا كانـت سـاعة انتظـار الـشّروق في شرفـة مـنزل جـدّك بتسـتور، في عهـد سـاحق البعـد!

بعـد خطـاب المديـر التعريفـي لفنـون الكونـغ فـو والثقافـة الـتي تنضـوي تحـت مظلّتهـا، جـاء موعـد الاختبـار. كانـت مسـألة بسـيطة وسريعـة. وقـف مـدرّب مـن مـدرّبي الأكاديميّـة، وطلـب مـن كلّ وافـد تنفيـذ جملـة مـن الحـركات متفاوتـة الصّعوبـة. بعضهـا يعتمـد عـلى القـوّة، وآخـر عـلى الخفّـة والمرونـة أو التّـوازن. ابتسـمت، وأنـت تتابـع المختبريـن الذيـن سـبقوك، يفقـدون توازنهـم أو يلفّـون قبضاتهـم بشـكل خاطـئ، يرفعـون أرجلهـم أقـلّ مـن المطلـوب أو يعتـذرون عـن تأديـة الحركـة. حـين جـاء دورك، وقفـت في اعتـداد، ثـمّ نفّـذت الحـركات برشـاقة وصلابـة، وكأنّـك تسـتعيد سـنوات مجـدك الغابـرة وتحـرّك جـذوة قـد خمـدت داخلـك بتعاقـب سـنين الخمـول! كنـت راضيـا عـن نفسـك،

وكذلـك كان المـدرّب، فانضممـت دون صعوبـة إلى المسـتوى المتقـدّم للمتدرّبـين المحترفـين.

لكـنّ الأمـر انقلـب إلى الضـدّ في الاختبـارات الفنيّـة! كنـت ضمـن المبتدئين في الماندارين والخـطّ الصّيـني. أمّـا الوخـز بالإبـر، فهـو درس موحّـد لـكلّ المسـتويات.

انضممـت أخـيرا إلى دانيـال عـلى مائـدة الإفطـار. التهمـت لقيمـات سريعـة وأنـت تنبّئـه باقتضـاب بشـأن اختبـارك، ثـمّ انـصرف كلّ منكمـا إلى تمرينـه.

خـلال الأيّـام الـتي تلـت، كنتمـا تلتقيـان خـلال أوقـات الطّعـام، وفي دروس اللغـة والفنـون، ومسـاءً حـين تنطفـئ الأنـوار بالخـارج، تتسـامران حـتّى يحـين موعـد النّـوم الإجبـاريّ في الأكاديميّـة: التاسـعة والنّصـف. كنتمـا تضحـكان كثـيرا، وترويـان نـوادر عـن يوميكمـا الحافلـين، وقـد اكتشـفت بـشيء مـن الدّهشـة أنّ الكنديّـين يمكـن أن يكونـوا ظرفـاء وأصحـاب نكتـة! كان تقاربـك ودانيـال، بالإضافـة إلى الزّخـم الـذي حققتـه ممارسـة الرّياضـة بشـكل مكثّـف، يصنعـان بمزاجـك الأعاجيـب. مـرّ دهـر مـذ اشـتعلت حماسـة بذلـك القـدر. كنـت تنهـي يومـك منهـكا، مليئـا بالكدمـات، لكـنّ روحـك متوثّبـة ومنتعشـة! تمنّيـت لـو تتمـدّد الأيّـام الخمسـة لتصـير شـهرا، أو شـهرين.. أو سـنة كاملـة. لـم تكـن لتمانـع الانعـزال عـلى قمّـة جبـل صيـنيّ بقيّـة عمـرك، لـو أنّـك تضمـن لنفسـك السّـكينة والطمأنينـة!

– التـاي تـشي.. إنّ هـذه الرّياضـة مذهلـة حقّـا! إنّهـا لا تبـدو كذلـك ظاهريّـا.. لكنّهـا تغـيّرك مـن الدّاخـل، مثـل مجـرى مـاء ينحـت مسـاره عـبر الجـدول بقـوّة ناعمـة!

كنـت ممـدّدا عـلى سريـرك العلـويّ، وقـد انطفـأت الأنـوار كافّـة في

الأكاديميّـة وخلـد سـاكنوها إلى النّـوم. يسـتمع إليـك دانيـال بجفـون مثقلـة، وأنـت تقـارن ربّمـا للمـرّة العـاشرة بـين تقنيـات اليوغـا والتـاي تـشي. كنـت تفتخـر بكونـك جرّبـت تقنيـات التأمّـل المختلفـة وصرت نوعـا مـا خبـيرا بمـا ينـاسـب مزاجـك منهـا وأوقـات يومـك.. السّـكون مقابـل الحركـة. قـال دانيـال بصـوت ناعـس:

- أليسـت لديكـم في الـشّرق الأوسـط ممارسـات مشـابهة؟ التأمّـل عـن طريـق الـدّوران؟

ضحكت، وأنت تسأل في دهشة:

- الدّوران؟!

- لقـد رأيـت ذلـك مـرّة في شريـط وثائقـي.. فرقـة دينيّـة تمـارس التأمّـل، يرتـدي مريدوهـا فسـاتين بيضـاء وعمامـات، ويـدورون حـول أنفسـهم مرافقـين ترانيـم دينيّـة...

الصّوفيّـة! زويـت مـا بـين حاجبيـك في تفكـير. لقـد سـافرت إلى بقـاع العالـم البعيـدة، لتكتشـف تقنيـات التأمّـل لـدى الشّـعوب الأخـرى. لكنّـك فعـلا لـم تطّلـع عـلى ثقافـة قومـك بهـذا الصّـدد. كان دانيـال محقّـا. حـتّى تكتمـل تجربتـك، كان عليـك أن تقـترب مـن تلـك الفرقـة الـتي لطالمـا اعتبرتهـا ذاتـك القديمـة مهرطقـة!

خـلال تلـك الأيّـام، تعلّمـت مهـارة القتـال بالسّـيف، ليـس بإتقـان منقطـع النّظـير، لكـن بشـكل يدعـو إلى الفخـر، اسـتحققت عليـه تبريـكات المدرّبـين والزّمـلاء. كانـت تدريباتـك بسـيف خشـبيّ خفيـف وغـير مـؤذ. تمسـك بإحـكام بمقبضـه وتلـوّح بـه في حـركات رشـيقة ودقيقـة. بـدا كأنّـك مارسـت المبـارزة منـذ زمـن طويـل، وأنّـه السّـلاح الـذي خلـق مـن أجلـك! وأنـت تخـبّ عـلى الحصـير مـن طـرف قاعـة التّدريـب إلى طرفهـا الآخـر، تتخيّـل نفسـك فارسـا مغـوارا، يمـزّق الأعـداء ويلحـق بهـم الهزائـم.

تستيقظ جوانب نائمة من كيانك، كأنّك تنفخ على رماد روحك فتحيي جمرة كادت تخمد إلى الأبد.

لم يكن النّجاح حليفك في تجربة الوخز بالإبر بنفس القدر، فقد كانت الحصص قليلة ونظريّة. لكنّك ألممت بالمبادئ الأساسيّة، وربّما تقرّر يوما تعلّم الفنّ على يد إخصّائيّ في باريس. أمّا الماندارين، فقد فشلت فيه فشلا ذريعا! كان وقتك ينفد، والرّموز تتراقص أمام عينيك متشابهة ومتداخلة، فقد كانت الحصّة مسائيّة بعد العشاء، في وقت تكون فيه طاقتك في أدنى مستوياتها! حتّى قرّرت الانسحاب، بعد يومين، وآثرت أن تشحن بطّاريّاتك بشيء من التأمّل في الوقت الذي ينصرف فيه الجميع إلى الدّرس، وتخلو السّاحات من الروّاد.

رغم محاولاته الحثيثة، لم يفلح دانيال في كسر قطعة الآجر التي غدت تلازمه في صحوه ويحتضنها حتّى أثناء نومه! إنّه مصرّ على أن تشهد بنفسك مجده يتحقّق، لكنّ الوقت ينفد منه بسرعة.

في ليلتك الأخيرة في الأكاديميّة، تربّعت وحيدا في الباحة الخلفيّة كعادتك. كان القمر قد أوشك أن يكون بدرًا. ربّما تكتمل استدارته بعد ليلة أو ليلتين.. لكنّك لن تكون هناك لتشهد اكتماله من قمّة جبل كونيو! ستكون على أرض أخرى، وتحت سماء أخرى.

مددت بصرك، تملأ عينيك من مشهد الجبال المظلمة التي ألقى عليها القمر شعاعا باهتا. لقد كانت رحلتك إلى الصّين تحت عنوان الجبال. وقد كانت الجبال ذات رمزيّة دينيّة منذ القدم. سفينة نوح رست على جبل «الجوديّ»، وهاجر سعت بين جبلي «الصّفا» و«المروة»، وبنو إسرائيل رُفع فوقهم جبل «الطور»، ومحمّد بن عبد الله نزل عليه الوحي في غار حراء، في جبل «النور».. واحتمى من ملاحقيه القرشيّين في جبل «غار ثور»، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إنّ

الله معنـا!

تسـتحضر فجـأة وجـه سـارة، نظرتهـا الحانيـة وأنـت تحدّثهـا بأمـرك في مكتبـة الكليّـة، وهمسـها الحـازم المسـتحثّ: لا تحـزن إن الله معنـا!

ترفـع عينيـك مـرّة أخـرى إلى قمّـة جبـل كونيـو المحاذيـة، تفـرّ مـن الذّكـرى. في أعـلى منبسـط مـن الجبـل يمكـن السّـعي إليـه بعـد الأكاديميّة، يقبـع بنـاء معبـد بـوذيّ عتيـق، يطـلّ عـلى الباحـة حيـث تجلـس مـن عـلٍ. تتذكّـر المعابـد الكثـيرة الـتي رأيتهـا في رحلاتـك الأخـيرة، في أعـالي الجبـال، وعـلى الصّخـور الوعـرة، كأنّ العبـادة لا تصلـح إلّا في البقـاع النّائيـة! لقـد تـرك مـوسى قومـه وجلـس يناجـي ربّـه أربعـين ليلـة عنـد الجبـل.

تضطـرب أنفاسـك، وتيمّـم بـصرك شـطر الجبـال الشّـامخة قبالتـك. يجـفّ لعابـك وينعقـد لسـانك. كـم مـضى عليـك مـن دهـور مـذ خاطبتـه آخـر مـرّة؟ لقـد ظـلّ قـرارك الأخـير بعبـادة خالقـك عـلى طريقتـك معلّقـا. كـم مـرّت بـك مـن ليـالٍ عجـافٍ لـم تفلـح فيهـا في مناجاتـه رغـم محاولاتـك؟ هـل نسـيت كيـف تكـون خلـوة العبـد بربّـه؟ أم أنّـك لا تعـرف سـبيلا غـير الطّـرق القديمـة الـتي نفرتهـا؟

لقـد كنـت يومـا حـيّ بـن يقظـان عـلى جزيـرة مهجـورة، فهـل يسـعك هـذه اللّيلـة أن تكـون مـوسى؟ تهمـس بصـوت خافـت لا يسـمعه غـيرك، رغـم السّـكون المخيّـم حولـك، لكنّـك تـدرك يقينـا أنّـه يحـصي حركاتـك وسـكناتك، ولا يفوتـه شيء مـن خلجاتـك. تخـرج حروفـك مرتبكـة باهتـة، مثـل زفـرة طويلـة متعبـة:

- يا ربّ، يا إلهي.. يا خالقي.. أيّا كان اسمك.. أرني أنظر إليك!

تقلّـب نظـرك في المشـهد الرّاكـد حولـك. لا جبـال تـدكّ ولا أجسـاد تخـرّ مصعوقـة. هـل لديـك أمـل بـأن تـرى مـا لـم يـره أحـد؟ سـحبت رجليـك إلى المهجـع مرغمـا. كان عليـك تجهـيز حقيبتـك. سـترحل في أولى سـاعات الصّبـاح، لتلحـق بطائـرة في بيكـين تقلّـك إلى إسـطنبول.

-١٢-

وصلت إلى الأراضي التّركيّة بنيّة مبيّتة وواضحة. لقد سافرت إلى أراضي الهندوس والبوذّيين وتعلّمت عنهم ممارساتهم الرّوحانيّة دون أحكام مسبقة، وقد آن الأوان لتفعل الشيء نفسه مع المسلمين! لن يضرّك ذلك في شيء. أنت الآن منفتح على الثّقافات الكونيّة كافّة.. ستتبع الدّليل إلى حيث يقودك. لكنّ دليلك الآن ليس عقليا أبدا، بل هو صوت قلبك.

نزلت في فندق مميّز، ككلّ اختيارات ريم، في منطقة «سلطان أحمد» المركزيّة. كانت الواجهة الزّجاجيّة لغرفتك بالطّابق الخامس تطلّ على معالم المدينة الأشهر: المسجد الأزرق، ومتحف آياصوفيا. أمّا قاعة الطّعام في الطّابق السّادس والأخير، فتحوي شرفة خارجيّة تسمح برؤية بحر مرمرة القريب وأسقف الدّور الحمراء، والقباب الكثيرة المنتشرة بقدر انتشار المساجد!

كنت متعبا بعد رحلتك الجويّة الطّويلة من بيكين، فتناولت وجبة عشائك في غرفتك، ثمّ اتّصلت بموظّف الاستقبال. كنت تريد حجزا لعرض «الدّراويش الدّوارين»، الذي وجدت إعلانا له في كتيّب الإرشاد السّياحيّ. كانت هناك عروض يوميّة، في قاعة «هاجو باشا» على السّاعة السّابعة مساءً. لكنّ الإقبال شديد على ذلك العرض التركيّ التقليديّ من قبل الأجانب والأتراك على حدّ سواء. لم تجد مقعدا شاغرا لعرض الغد، لكنّك على قائمة الانتظار لليوم التّالي. ستتّصل بك الموظّفة في الغد لتأكيد الحجز إذا ما ألغى أحدهم حجزه.

استيقظت وأنت لا تزال مرهقا في صباح اليوم الثاني. كانت

عضلاتك تئنّ، بعد أن حرمتها من جرعة التّمارين اليوميّة المكثّفة نهار أمس. أو لعلّها قد شرعت تتعافى من الإنهاك الشّديد الذي عرّضتها إليه خلال إقامتك في أكاديميّة الكونغ فو.. لم تكن واثقا. احتسيت فنجان قهوتك في شرفة المطعم، وأنت تتابع في شرود النّوارس التي تحلّق في سماء المدينة، وتستمتع بمداعبة الشّمس الدّافئة لبشرتك. ثمّ خرجت تتمشّى في أنحاء الحيّ القديم.

تجاهلت الجامع الأزرق على يمينك، واتّجهت يسارا، إلى آياصوفيا. شيء ما في داخلك ما زال يتمنّع، رغم قرارك بقبول ثقافة «الآخر» مهما كانت. لكنّ الأمر يختلف حين يكون «الآخر» هو أنت ذاتك! ستصل إلى تلك المرحلة قريبا، لكنّك ستسير على مهل. كانت الكنيسة القديمة، التي غدت مسجدا ثمّ متحفا، محطّتك التّاريخيّة الأولى. سرت في تؤدة على الأرضيّة الرّخاميّة العتيقة، تتأمّل القباب والأقواس والفوانيس الذّهبيّة المعلّقة. هنا تلتقي النّوافذ المرتفعة ذات الزّجاج الملوّن -المميّزة للكنائس- والنّقوش العربيّة -التي تعرف بها المساجد.

خلال بقيّة النّهار، زرت «الكاتدرائيّة الصّهريج»، وهي بناء تحت الأرض، استخدم كخزّان ماء ضخم في العصر البيزنطيّ. نزلت الدّرج الحجريّ وعبرت الأروقة المظلمة ذات الإضاءة الخافتة التي أقيمت فوق الخزّان، تستمع إلى وقع أقدامك على البلاط، وتتأمّل الخيالات المرتسمة على سطح الماء. ثمّ مشيت حتّى قصر «طوبكابي» المهيب. تفرّجت على قاعات الحرملك والسلملك، سقوفها الخشبيّة المزخرفة وجدرانها المكسوّة بالخزف الملوّن، وتجوّلت عبر السّاحات والحدائق المطلّة على مضيق البوسفور.

كانت الشّمس قد اقتربت من المغيب، حين رجعت أدراجك إلى منتزه «سلطان أحمد». جلست على مقعد خشبيّ، تتأمّل وفود

السـيّاح الأجانـب والأتـراك، حـول النّافـورة الموسـيقيّة الملوّنـة، وعـلى الأرض المعشوشـبة، ثـمّ انتهـت نظراتـك عنـد القبـاب الزّرقـاء الشّـاهقة والصّومعـات السّـت للجامـع الأزرق. وقفـت بـلا تـردّد وتركـت العنـان لسـاقيك، تقودانـك بـلا إرادة منـك إلى باحـة الجامـع. كانـت الفكـرة تلازمـك طيلـة النّهـار، وقـد صرت الآن مسـتعدًا للمواجهـة.

فكّـرت في نفسـك ساخرا، مـا الـذي سـيتغيّر هـذه المرّة؟ لقـد وقفـت منـذ شـهور أمـام الكعبـة! أمـام بيـت الله الـذي يحـجّ إليـه مسـلمو العالـم.. ولـم تشـعر بـشيء! فما بالـك بجامـع غريـب لا قصّـة تربطـك بـه ولا علاقـة؟

لكنّـك أهملـت جزئيّـة صغـيرة. أنـت نفسـك قـد تغـيّرت! مالـك الـذي غـادر باريـس منـذ شـهر ونصـف غاضبـا ثائـرا، ليـس هـو مالـكا الـذي يعـبر الممـشى في هـذه اللّحظـة بخطـوات رزينـة ومطمئنّـة.

دلفـت عـبر البوّابـة الجانبيّـة المفضيـة إلى الحديقـة العامّـة، ثـمّ مشـيت عـبر الفنـاء الرّخامـيّ. كانـت آخـر المجموعـات السّـياحيّة تغـادر المبـنى بإرشـاد مـن حـرّاس الجامـع، بينمـا يتوافـد أفـراد متفرّقـون وعائلات مسـلمة مـع أطفالهـا مـن البوّابـات المختلفـة. رفعـت رأسـك تحـاول الإلمـام بالـصّرح الشّـاهق بنظـرة شـاملة. مـن حيـث تقـف، يمكنـك إبصـار أربـع مـن الصّوامـع الضّيقـة المرتفعـة إلى عنـان السّـماء، بالإضافـة إلى الجـزء العلـويّ مـن القبّـة الرّئيسـيّة الضّخمـة بتناظرهـا التّـامّ.

فجأة تعـالى صـوت أذان المغـرب صادحـا في الفضـاء، بصـوت عـذب رخيـم، وأنـت تقـف في الفنـاء. أحـاط بـك النّـداء الشـجيّ مـن كلّ جانـب، وردّدت الجـدران الحجريّـة صـداه، لـتردّه إليـك بسـخاء مكثّـف، حـتّى خلتـه يتخلّلـك وينفـذ إلى داخلـك. كان هنـاك شيء مـا مميّز بخصـوص ذاك الجامـع.. تضافـر الصّـوت السّـاحر مـع الإضـاءة الذّهبيّـة النّاعسـة

للفتك بمقاومتك. سرت في جسدك رجفة باردة، وأنت تسترجع ماضيا بعيدا ومهيّجا للدّمع. مرّ ببالك جامع المرسى، والإمام الشابّ الذي كنت تصليّ وراءه في سنوات الكليّة الخالية، سنوات القبض على الجمر! حبست دموعك، ومضيت إلى الدّاخل.

كانت الأبواب المخصّصة للسيّاح قد أغلقت مع انتهاء مواعيد الزّيارة، ولم تبق إلا البوّابة الرّئيسيّة الخاصّة بالمصلّين. لم تفكّر كثيرا، وانضممت إلى وفود المصلّين. خلعت حذاءك، ووقفت على السّجاد الأحمر، عند الصّفوف الأخيرة. في الخلف، تصلّي النّساء وراء ساتر خشبيّ، بينما يركض أولاد في صخب ومرح. رفعت بصرك تتأمّل الجدران، ونوافذها ذات الزّجاج الفينيسيّ الملوّن. كانت شديدة الشّبه بنوافذ الكنيسة المجاورة! يبدو الطّراز المعماريّ للبناء مثل مزيج بديع للنّمط البيزنطيّ المسيحيّ والفنّ العثمانيّ الإسلاميّ، ممّا يجعله واحدا من أكثر المنشآت تفرّدا في العالم. وفي الأركان الأربعة، تنتصب أعمدة سميكة دائريّة، مثل أرجل فيل عملاق، ترتكز إليها القبّة المهيمنة على قاعة الصّلاة. وعلى الوجه الدّاخليّ للقباب، ميّزت قطع الخزف الزّرقاء القادمة من «نيقية»، والتي وهبت للمسجد الذي بناه «السلطان أحمد الأول» اسم «الجامع الأزرق».

جلست في سكون، وأصغيت إلى تلاوة الإمام، دون أن تشارك في الصّلاة. كان يقرأ مطلع سورة الأنبياء بصوت جهوريّ. وقد أنصتّ بكل جوارحك في عجب ودهشة، كيف تستقيم تلاوة فصيحة ومتقنة على لسان أعجميّ؟! كانت قراءة مجوّدة ومؤثّرة، من أجود ما سمعت في حياتك، وأنت الذي تتلمذت على أيدي أشهر المشايخ والحفّاظ، وتردّدت كثيرا على مساجد الحرمين!

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ* مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ* لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ* قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ).

وجدت للكلمات جرسا خاصّا، كأنّك تسمعها للمرّة الأولى. شعرت برهبة شديدة وغبت في تأمّل عميق.. وكأنّه الشّعور الذي انتاب عمر بن الخطّاب حين تناول الصّحيفة من أخته وابن عمّه، وقرأ مطلع سورة طه لأوّل مرّة فهزّت روحه بعنف!

كان مطلعا قويا يهز الغافلين هزّا. الحساب يقترب وهم في غفلة. وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار. إنّها صورة للنفوس الفارغة التي تلهو في أخطر المواقف.. وتهزل في مواطن الجدّ.

وهؤلاء الذين تصفهم الآيات كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستورا للحياة ومنهاجا للعمل وقانونا للتعامل.. باللّعب! ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة! لكنّهم على موات قلوبهم، لا يملكون أن يمنعوا أنفسهم من التّأثّر بالقرآن.. فيلجؤون إلى مقاومته بالتّعلّات. فقالوا إنّه سحر، وإنّه أحلام مجنونة، وإنّه شعر، وإنّه افتراء! ثمّ يخلصون من الحرج بطلب معجزة من الخوارق التي جاء بها الأوّلون. ولقد جاءت المعجزات من قبل، فلم يؤمن بها سائر المكابرين، فحقّ عليهم الهلاك.

كنتُ لا تزال متحيّرا بشأن الوحي. كيف يختار الله عباده الذين يتوجّه إليهم بخطابه دون غيرهم، وكيف ترفض نسبة كبيرة من البشر ذاك التّفضيل.. كأنّ كلّ فرد منهم يقول في نفسه، لماذا لم يأتني الوحي مباشرة؟ لماذا لم يخاطبني الإله بنفسه وأرسل الرّسل؟

لكنّك تدرك في قرارة نفسك أنّ هبوط الوحي على كلّ فرد سيؤدّي

إلى جنـون البـشر كافّـة! التّواصـل المبـاشر مـع الخالـق ليـس متاحـا للمخلوقـات. بنيتهـا النّفسـيّة والعقليّـة لا تسـمح لهـا بتحمّـل التجـلّي الإلهـيّ. كلّ القصـص المأثـورة عـن الاتّصـال الإلهـي بالبـشر تؤكّـد ذلـك. أولـم يسـقط مـوسى مصعوقـا حـين تجـلّى ربّـه للجبـل؟ أولـم يرجـع محمّـد مرتعـد الأطـراف، يقـول: «زمّلـوني زمّلـوني.. دثّـروني دثّـروني»؟ مـع أنّ هبـوط الوحـي كان بوسـيط، فكيـف بالتّواصـل المبـاشر؟ لذلـك اختـار الله لتلـك المهمّـة الشّـاقة رجـالا متفوّقـين عـن غيرهـم، وزادهـم بسـطة في العلـم والجسـم.

تـدرك أنّ البـشر متفاوتـون في القـدرات العقليّـة. بعضهـم أهـل للقيـادة، والبعـض الآخـر أصلـح للعلـم أو الحـرف أو الأدب.. وقليـل هـم مـن يمسـكون بزمـام الفنـون كلّهـا. أمّـا العامّـة فغالبـا مـا تشـغلهم أمـور معيشـتهم عـن التّأمّـل والتفكـير في معضـلات الوجـود والغيبيّـات. تستسـلم لتلـك الحقيقـة الصّارخـة. إنّهـم يحتاجـون إلى مـن يأخـذ بأيديهـم ويرشـدهم.. وذاك هـو دور الرّسـل. إنّ للّـه حكمـة بالغـة في إرسـالهم. يخـبرون العامّـة عـن الإلـه، ويعلّمونهـم كيفيّـة عبادتـه.

يـأتي كلّ رسـول قومـه، وهـم يعرفونـه ويدركـون صدقـه وسـلامة طويّتـه.. ولـو جاءهـم غريـب لأنكـروه ونبـذوه. وقـد اقتضـت حكمـة الله أن يكـون الرّسـل مـن البـشر -لا مـن الملائكـة- يتلقـون الوحـي فيدعـون بـه. ولـو كان الرّسـل مـن غـير البـشر لا يأكلـون الطعـام، ولا يمشـون في الأسـواق، ولا يعـاشرون النسـاء، ولا تعتلـج في صدورهـم عواطـف البـشر وانفعالاتهـم لمـا كانـت هنـاك وشـيجة بينهـم وبـين النّـاس.

حـين انتبهـت مـن اسـتغراقك، كانـت الصّـلاة قـد قضيـت وانـصرف المصلّـون، فوقفـت تهـمّ بالخـروج بـدورك. لكـنّ رجـلا في منتصـف الأربعينيـات اقـترب منـك مبتسـما. حيّـاك بتحيّـة الإسـلام، ثـمّ خاطبـك بالانجليزيـة:

- رأيـت أنّـك لـم تصـلّ.. ففكّـرت أنّـك ربّمـا تتعـرّف عـلى الإسـلام وتفكّـر في اعتناقـه؟

ابتسـمت وأنـت تكتـم سـخريتك، رغـم التأثّـر الـذي كنـت فيـه منـذ وهلـة، ثـمّ قلـت:

- شيء من هذا القبيل.

- هـل تريـد أن أعرّفـك إلى بعـض الشّـيوخ، إن كانـت لديـك استفسـارات يـردّون عليها؟

- شكرا.. لست مستعدّا لذلك بعد.

- إذا غـيّرت رأيـك، تعـال لزيارتنـا في المدرسـة. هنـاك دروس تقـدّم للأجانـب عـن الصّوفيـة يومـي الاثنـين والخميـس...

اسـتثار الاقـتراح فضولـك حـين تطـرّق إلى الصّوفيـة. دوّنـت العنـوان باهتمـام ووعدتـه بالتفكـير في الأمـر، ثـمّ انصرفـت راضيـا. لقـد صـار أمـرا مفروغـا منـه في نظـرك. كلّ لقـاء لـك في تلـك الرّحلـة كان ضمـن خطّـة إلهيّـة مسـطّرة، وكان عليـك أن تسـتقبل الفـرص الـتي تتـاح لـك بالحفـاوة الـتي تسـتحق.

صبـاح الغـد، مـررت عـلى مكتـب الاسـتقبال قبـل خروجـك للتّجـوال الصّباحـيّ. حيّتـك الموظّفـة بابتسـامة دمثـة، وأكّـدت حجـزك المسـائيّ لعـرض الدّراويـش الدوّاريـن، فانصرفـت مطمـئن البّـال.

ركبـت القطـار الكهربـائيّ حـتّى محطّـة «إمينونـو». تمشّـيت عـبر ممرّات سـوق التّوابـل المسـقوفة لبعـض الوقـت، مستنشـقا الرّوائـح النفّـاذة للبهـارات والأعشـاب، ومتذوّقـا الحلويّـات التركيّـة الأصيلـة، ثـمّ قطعـت المسـافة الـتي تفصلـك عـن جـسر «غالاتـا» مشـيا. مـررت عـلى عـدد مـن مطاعـم الأسـماك في الطابـق السـفليّ للجـسر، قبـل أن تنتقـي أحدهـا مـن أجـل وجبـة غدائـك. جلسـت في الجلبـة الـتي لا تحبّهـا، في ركـن داخـليّ

للمطعم المطلّ على مضيق البوسفور، واخترت صنفا من السّمك المشويّ. جلست متذمّرا، وأنهيت طعامك على مضض. لم يكن بإمكانك الاستمتاع بالجلسة، مع كمّ العابرين الذين يحجبون عنك مشهد النّهر.

عدت أدراجك إلى رصيف الميناء، بعد أن أتخمت بالأكلة الدّسمة، ووقفت تطالع جدول مواعيد الرّحلات البحريّة. ما زالت أمامك بضع ساعات قبل بدء العرض، يمكنك أن تقضيها في جولة عبر البوسفور، على متن سفينة مكشوفة السّطح. اقتنيت تذكرة ووقفت مع المنتظرين.

حين وصلت السّفينة، تدافع المسافرون للصّعود إلى سطحها. كان من العسير العثور على مقعد في الطابق الأعلى قريبا من الحاجز الخلفيّ بشكل يسمح بتأمّل الماء وضفاف النهر. المزيد من الهرج والزّحام كانا في الموعد. لبثت واقفا عند أحد الأعمدة، سارحا ببصرك عبر معالم المدينة التي تلوح لك هلاميّة تحت شعاع الشمس، بينما بدت صفحة النّهر لامعة برّاقة، وتنهّدت.

يحملك مشهد السّفينة فجأة إلى التّفكير في سفينة نوح. تتخيّل المركب الضّخم الذي آوى المخلوقات كلّها، من كلّ زوجين اثنين حتّى يحفظ استمرار النّسل بعد الطّوفان. يخطر ببالك ابن نوح الذي أوى إلى جبل ظنّ أنّه سيعصمه من الطّوفان. لقد كذّب نبوّة والده، وهو من ربّاه ونشّأه. في حين صدّق أبو بكر محمّدا دون تفكير، حتّى سمّي الصّدّيق!

وهل كان إنكار ابن نوح لنبوة أبيه، ودعواه للتوحيد عن كره وحقد لأبيه؟ قطعا لا.. كان يكن له الحب والودّ، وإلا لما نادى نوح ربه، شافعا لابنه (ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق) وهو يعلم

أنـه غـرق كافـرا (يـا بـنيّ اركـب معنـا ولا تكـن مـع الكافريـن).

كان إنـكار ابـن نـوح لأنـه لـم يقبـل مفهـوم التّسـليم بإيمـان دونمـا قناعـة.. فكّـرت بـأنّ الله يضـع في البـشر درجـات متفاوتـة مـن الاسـتعداد لتقبّـل المفاهيـم الدّينيّـة.

ثم قفزت إلى عقلك جدلية أخرى.

مـا دام الله هـو العـدل المطلـق.. فلمـاذا لـم نأخـذ جميعـا كبـشر الفرصـة الـتي أخذهـا إبليـس في معرفـة الله واليقـين بوجـوده وملكوتـه الأعـلى؟ وكيـف يتسـاوى مصـير إبليـس وعنـصره مـن الشـياطين مـع مـن لا يؤمنـون مـن البـشر بـالله والنبـوات، رغـم أن إبليـس رأى وسـمع بـل وجـادل الله بذاتـه، وعـاش بـين الملائكـة ورأى الملكـوت الأعـلى؟ فهـل فرصتنـا ككائنـات بشريـة في الوصـول للحقيقـة وسـط كل هـذا الخليـط مـن العقائـد والأديـان، تتسـاوى مـع مـا أتيـح لإبليـس مـن فرصـة معايشـة الحيـاة بالتواصـل المبـاشر مـع الله والملائكـة؟ أليـس الله يقـول: (قـل هل يسـتوي الذيـن يعلمـون والذيـن لا يعلمـون). وهـا هـو يسـاوي في العقـاب بـين الذيـن يعلمـون والذيـن لا يعلمـون.. فكيـف يسـتقيم مفهـوم العـدل الإلهـي؟ أليـس انخـراط جميـع البـشر في سـباق نحـو الجنّـة بمعطيـات مختلفـة وصفـات عقليّـة ونفسـيّة متباينـة فيـه ظلـم؟

وقفت فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها، وقالت بابتسامة عذبة:

- مقعد من أجلك يا عمّ!

ابتسـمت في مزيـج مـن الحـرج والامتنـان والاسـتنكار. منـذ مـتى أصبحـت «عمّـا»، تـترك لـك المقاعـد في المواصـلات؟ لعـلّ اللّحيـة غـير المهذّبـة والشّـيب قـد أضافـا إلى سـنوات عمـرك حفنـة أخـرى! كان المقعد القريـب مـن الحاجـز الجانـبيّ مغريـا، فقبلـت العـرض رغـم انزعاجـك الأوّل. مـن موقعـك الجديـد، تبـصر بوضـوح سرب طيـور بيضـاء تطـير

منخفضة بالقرب من السّفينة، وتهبّ نسمة منعشة تدغدغ فؤادك.

أنت تريد أن تؤمن بشدّة بوجود حياة بعد الموت، بالثّواب والعقاب، بالجنّة والنّار! لا يمكن لصراعك النّفسي وبحثك المضني أن يسفرا عن لاشيء.. أن تنتهي إلى جثّة متعفّنة تتحلّل وتندثر! وهل يقبل عقلك الواعي أن يكون البديل لمفهوم «الخلود» -رغم ما يثيره لديك من ارتباك منطقي- هو مفهوم «العدمية» وما يلقيه في نفسك من رعب، وشعور بالدّونية لقيمة حياتك الحالية؟ ابتسمت -رغم معاناتك من مأساوية الفكرة- حين قفز إلى ذهنك: (أتستبدلون الذي أدنى بالذي هو خير).

تنتبه إلى ضحكات قريبة منك. كانت الفتاة قد استقرّت الآن في حضن والدتها، تشاركها المقعد بعد أن تبرّعت بمكانها، تتعانقان وتتشابك أيديهما في ألفة ومحبّة. يغمرك مشهد ذلك الحضن العائليّ بالدّفء، ويذكرك فجأة بحديث نبويّ.. (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)!

الخالق الذي هو أعلم من عباده باستعداداتهم، لا شكّ يأخذها بعين الاعتبار عند الحساب! العدل الإلهيّ لا يكمن في معاملة البشر جميعا بنفس المعايير، ولكن في محاسبة كلّ واحد تبعا لظروفه التي خلقه بها.. هل تراه تكبّد العناء حتّى وصل، أم أنّ الطّريق كانت يسيرة ممهّدة؟ يتسلّل إليك الاطمئنان مع خيوط الشّمس التي تدغدغ بشرتك، وتستعيد كلمات معبّرة للشيخ الألباني كنت تردّدها في سالف أيّامك: (إنّ الطّريق إلى الله طويلة، ونحن نمضي فيها كالسّلحفاة. وليس الغاية أن نصل إلى نهاية الطّريق، ولكنّ الغاية أن نموت على الطّريق).

كان البهو غاصّا بالزوّار حين وصلت إلى مركز «هاجو باشا». عدد

لا بأس به من الأجانب حضروا لاكتشاف وجه مشوّق آخر للثقافة التركية التقليدية، بالإضافة إلى الزّوّار المحلّيّين. مبنى المركز الثّقافيّ الذي شيّد منذ أكثر من خمسة قرون، كان في يوم ما حمّاما تركيّا عامّا في العصر العثمانيّ، تزيّنه القباب والأقواس العالية، ومن ثمّ رُمّم واستصلح، لتبقى حجارته العتيقة شاهدة على الحضارات المتعاقبة التي مرّت بتلك الجدران. أمّا الرّقصة اللّولبيّة الشّهيرة، فهي تقليد يتجاوز عمره ثمانمائة عام، وقد غدت تلك الأمسية الموسيقيّة اليوم واحدا من أكثر العروض شعبية في العاصمة التّركيّة.

كان الحفل الذي يستمر ساعة واحدة، يُسبق بعرض مصوّر عن حياة «مولانا جلال الدّين الرّومي»، مؤسّس الطريقة المولاوية في القرن الثالث عشر الميلادي، مع توزيع كؤوس الشّاي الدّافئ، ثمّ زيارة لمتحف متعلّقاته الشّخصيّة والأدوات المستخدمة في التّقاليد الصّوفيّة. قبل بدء العرض، وقف أحد المنظمين ليؤكّد على أنّ الجلسة ليست عرضا مسرحيّا، بل هي طقوس دينيّة مقدّسة.. لذلك وجب احترام الدّراويش كما يستحقّون.

بعد أن استقرّ الحضور على المقاعد الموزّعة حول حلبة الرّقص الخشبيّة، لبثت في انتظار متشوّق. مرّت دقائق طويلة قبل أن يأخذ الدّراويش في التّوافد من مدخل جانبيّ. دلفوا واحدا إثر الآخر متسربلين بأردية سوداء، تعلو رؤوسهم طرابيش مرتفعة من اللّبد، ووقفوا منتظمين في صفّ واحد. رفعت عينيك إلى الشّرفة الوسطى المطلّة على القاعة. كان الموسيقيّون يأخذون أماكنهم بدورهم، ثمّ ما لبث العزف أن بدأ معلنا انطلاق جلسة «السّماع المولويّة». لم تكن تبصر الفرقة الموسيقيّة بوضوح من مقعدك بالطابق الأرضيّ، لكنّك ميّزت دون عناء إيقاع القانون وهمسات النّاي ترافقها قرعات خفيفة على الدفّ، حين تسلّلت نغمات تركيّة كلاسيكيّة لتعطي

إشـارة البـدء للدّراويـش.

تحرّكـوا في خطـوات وئيـدة، مطأطـئي الـرّؤوس، وتوزّعـوا حـول القاعـة، بقيـادة «شـيخهم» الـذي وقـف في موقـع مركـزيّ، يرافقـه سجّاد مـن الفـرو الأحمـر متّجـه إلى القبلـة. أخـذوا يسـيرون عـلى الإيقـاع، ينحـني بعضهـم للآخـر في احـترام، ثـمّ يواصـل السّـير في دائـرة، ثـمّ يتوقّفـون لثانيتـين قبـل الاسـتئناف مـرّة أخـرى.

بعـد حـين، نـزع الدّراويـش الأرديـة لتظهـر أثوابهـم البيضـاء المميزة، تنّـورة طويلـة منسـدلة إلى أسـفل الكعبـين، وسـترة فضفاضـة ذات أكمـام، ونطـاق عريـض يشـدّ الخـصر. تتعانـق أذرعهـم متشـابكة إلى الكتفـين، مسـتعدّين لبـدء الطّقـس.. ثـمّ يشرعـون في الـدّوران مغمـضي العيـون، في اتّجـاه معاكـس لـدوران عقـارب السّـاعة، بخطـوات ثقيلـة مدروسـة. ثـمّ يفكّـون أذرعهـم، يرفـع كلّ منهـم الكـفّ اليمـنى في اتّجـاه السّـماء ليتقبّـل بـركات الرّحمـان، في حـين تتجـه اليـسرى الـتي يتعلّـق نظـره بهـا إلى الأرض في حركـة واهبـة معطـاءة.. ويميـل الـرّأس كأنّمـا يثقلـه الطّربـوش. تـزداد الموسـيقى حماسـة ويشـتدّ معهـا نسـق دوران الدّراويـش، وترتفـع التّنـورات الواسـعة مثـل نواعـير هـواء تنفـخ حولهـا نسـيما منعشـا.

لـم يكـن هنـاك تصميـم دقيـق للرّقصـة الجماعيّـة، بـل بـدا كلّ درويـش مسـتغرقا في رقصتـه منفصـلا عـن رفاقـه، وعـن العالـم. إنّهـم يـدورون، لأنّهـم يريـدون ذلـك أو يحتاجونـه، مثلمـا تـدور الكواكـب حـول نفسـها وحـول الشّـمس، ومثلمـا تـدور الإلكترونـات حـول نـواة الـذّرّة.. بعـد برهـة، أيقنـت أنّهـم لا يرقصـون مـن أجـل الجمهـور، ولا يضعـون اعتبـارا لوجـوده، كلّ منهـم غائـب في ملكـوت آخـر لا يُـدرك.. وأنّ الحاضريـن في الحقيقـة محظوظـون بفرصـة مشـاهدة تلـك الطّقـوس! لذلـك شـعرت بالاسـتياء حـين شرع بعـض الأجانـب في التّصفيـق. أحدهـم لـم يفقـه شـيئا ممّـا يجـري أمامـه!

راقبت في انتباه دورانهم الصّامت وحركات الأيدي والرّؤوس الصّغيرة والمحكمة، بينما تطير التّنورات مثل أمواج عملاقة. كانوا متوازنين بشكل مبهر، محافظين على محورهم حتى لا يشعرهم الدّوران بالدّوار أو الغثيان. تلمح أحذيتهم السّوداء وأقدامهم عندما يمرّون إلى جوارك. بينما تستقرّ قدم بثبات على الأرض، ترتفع الثّانية بشكل متقاطع لتدفع جسد الدّرويش في مسار لولبيّ.

يتواصل الدّوران سريعا، ربّما عشرون أو ثلاثون لفّة في الدّقيقة. لفّات ليست من أجل الحضور، بل لله وحده. بعد فترة، تستشعر تحوّل الرّقص إلى صلاة. وأنّك بشكل ما صرت جزءا من تلك الصّلاة!

فكّرت أنّهم ربّما يتدرّبون على تلك الحركات الدّائريّة المذهلة منذ طفولتهم بلا كلل أو ملل، مثل لاعبي الجمباز، حتّى يتغلغل مفهوم التّوازن في أعماقهم، ويصير الواحد منهم جرما كونيّا يحترف الدّوران! هذا يختلف عن اليوغا والتاي تشي. تساءلت، هل هناك معسكرات لشهر واحد لتعليم الدّوران المتوازن على الطّريقة الصّوفيّة؟

حدثتك نفسك التّائهة إعجابا بالمشهد، هل يجسّد هؤلاء الراقصون في قداسة شعورية تجربة الشاعر الذي قال:

دَواؤُكَ فيكَ وَما تُبصِرُ	وَدَاؤُكَ مِنكَ وَما تَشعُرُ
أَتَزعُمُ أَنَّكَ جُرمٌ صَغيرٌ	وَفيكَ اِنطَوى العالَمُ الأَكبَرُ
فَأَنتَ الكِتابُ المُبينُ الَّذي	بِأَحرُفِهِ يَظهَرُ المُضَمَرُ
وَما حاجَةٌ لَكَ مِن خارِجٍ	وَفِكرُكَ فيكَ وَما تُصدِرُ

في النّهاية، يدخل «شيخ الدّراويش» الحلقة، فيصطفون أمامه وينحنون. يرخون أرديتهم السّوداء على أكتافهم من جديد، بينما يصدح ذكر رخيم من المنصّة بأسماء الله الحسنى، لينتهي بالصّلاة

على النبيّ الخاتم. كنت تفهم تقريبا كلّ ما يقال، فقد كانت العبارات قريبة من العربيّة في معظمها، وتقدّر الخشوع الذي يبديه الدّراويش والمنشدون.. بينما كان بعض الأوروبيّين الشقر يهزّون رؤوسهم في استمتاع كأنّهم يصغون إلى مغني أوبرا!

حين عدت إلى غرفتك، بعد أن تأمّلت الدّراويش يلفّون ويلفّون لساعة كاملة، كانت فكرة واحدة تلحّ عليك.. أن تجرّب بنفسك! وقفت وسط الغرفة، رفعت ذراعيك وخطوت على مهل، تقلّد ما رأيته خلال السّهرة. لفّة أولى، ثمّ ثانية.. بدا الأمر ممكنا. لفّة أخرى، ثمّ رابعة.. ثمّ سقطت على السّرير!

كان اليـوم الاثنـين. عنـوان المدرسـة الصّوفيّـة مـدوّن عـلى هاتفـك، وجلسـة السّـماع زادتـك فضـولا لتعـرف المزيـد. لـم يكـن المبـنى يبعـد عـن فندقـك سـوى شـارعين. تمشّـيت حـتّى وصلـت إلى المـكان المقصـود. عـلى البوّابـة، كان جـدول الـدّروس معروضـا باللّغتـين التركيّـة والانجليزيّة. الـدّرس يبـدأ على السّـاعة السّادسـة.. وسـاعتك تشـير إلى الرّابعة وخمسـين دقيقـة. هممـت بالعـودة أدراجـك، لكنّـك لمحـت حركـة بالدّاخـل خلـف البـاب المـوارب، فقـرّرت الدّخـول.

كانـت هنـاك سـيّدة لطيفـة ترتـدي الحجـاب الإسـلاميّ خلـف مكتـب الاسـتقبال، بينمـا وقـف رجـلان يتحدّثـان. كانـا يرتديـان العباءات السّـوداء الـتي رأيتهـا منـذ يومـين عـلى الدّراويـش الدّوّاريـن وعماماتهـم الصّوفيّـة المرتفعـة. راقبتهمـا لثـوانٍ في فضـول، قبـل أن تبـادرك السّـيّدة:

- هل يمكن أن أخدمك بشيء؟

تظاهـرت بالجهـل وسـألت عـن حصّـص الـدّروس الـتي تقـدّم للأجانب عـن الصّوفيّة.

- الحصّـة تبـدأ خـلال سـاعة واحـدة. يمكنـك الانتظـار بالدّاخـل واحتسـاء بعـض الشّـاي.

أشـارت إلى مقاعـد واطئـة عنـد المدخـل، ومائـدة مربّعـة عليهـا دلّـة شـاي تـركيّ. أومـأت شـاكرا وجلسـت، بينمـا كانـت عينـاك تتابعـان الرّجلـين باهتمـام. كانـت حركاتهمـا بنفـس السّـكينة الـتي لمحتهـا خـلال العـرض، يتكلّمـان بصـوت هـادئ لا يـكاد يسـمع، ينحـني أحدهمـا للآخـر ويضـع كفّـه عـلى صـدره، ثـمّ يبتعـد كلّ منهمـا في اتّجـاه، بخطـوات خفيفـة.

كان سلوك الدّراويش في الحياة العاديّة لا يختلف عنه خلال جلسة السّماع، كأنّما هي امتداد لوجودهم، لا طقس خاصّا يفصلهم عن الواقع.

تذكّرت بأسى سيرتك القديمة. لا أثر للازدواج الذي عرفته أنت في ملامح الدّراويش.. هو وجه واحد يقابلون به العالم.

– مرحبا بك، لقد وصلت مبكّرا.

التفتّ إلى الرّجل الكهل الذي وقف أمامك. كان شيخا معمّما ببدلة عصريّة. صافحك بابتسامة، ثمّ رفع كفّه إلى صدره كما يفعل الدّراويش، قبل أن يبادر إلى الجلوس قبالتك. عرّف بنفسه بكلمات قليلة. كان القائم على نشاط المركز، فكّرت بأنّه لم يشأ أن يعبّر عن مهمّته بكلمات رنّانة مثل «مدير» أو «مشرف» على سبيل التّواضع، فازددت اهتماما. تحدّثتما لبعض الوقت، عن زيارتك لإسطنبول وانطباعك عن عرض الدّراويش الدّوّارين، ثمّ سألته في لهفة:

– هل هناك سبيل إلى تعلّم الطّريقة الصّوفيّة؟

– هل أنت مسلم؟

تردّدت. ثمّ أجبت بتلعثم:

– أنا مؤمن، وأبحث عن الطّريق للوصول إلى الله!

ابتسم الدّرويش ثمّ قال:

– هذا جيّد.. لكن، لا يمكن لزائر عابر أن يتعلّم طريقتنا ببساطة. تحتاج سنوات وسنوات تتدرّج خلالها عبر مراتب تهذيب النّفس وتزكيتها، لتصبح واحدا منّا.

أصابتك الخيبة. كنت مستعدّا لترك كلّ شيء وإمضاء الأشهر السّتة المقبلة في معتكف صوفيّ! لا اليوغا ولا التاي تشي -رغم ما

تركتاه في نفسك من بالغ الأثر- تنافسان الحالة الرّوحيّة التي تتلبّس الدّراويش.

- كلّ شهر أو اثنين، يظهر سائح أجنبيّ ويطلب تعلّم «الرّقص» الصّوفي! هؤلاء السّذّج يعتقدون أنّ الصّوفيّة نوع من العروض، مثل الرّقص الشرقيّ!

ضحك الشيخ، وشعرت بالحرج. إنّك تبدو الآن واحدا من أولئك السّذّج في نظر الشيخ الدّرويش! ثمّ استمعت إليه وهو يحدّثك عن مقاصد الصّوفيّة.

تعني كلمة الدرويش حرفيًا «المدخل» ويُعتقد أنّ الدّروشة بمفهومها العمليّ مدخل من هذا العالم المادي للعالم الرّوحي السّماوي. أمّا لفظ «صوفيّ» فهو عربيّ غالبا، لكنّ المعاصرين اختلفوا في أصله. منهم من يرى أنّه نسبة إلى الصّوف، وهو لباس الزّهاد والعبّاد الذين يتركون زينة الدّنيا إلا ما يقيم الأود ويستر العورة. ومنهم من يرى اشتقاقه من الصّفاء، وهي الحالة النّفسيّة الغالبة على أهل الطّريقة. وثالث ينسبه إلى كلمة «سوفيا» اليونانيّة، التي تعني الحكمة.

- لكنّني أميل إلى الرّأي الذي يقول أنّ التصوّف منسوب إلى أهل الصّفة، من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لمشابهتهم إيّاهم في الانقطاع لله تعالى والتجرّد له والاكتفاء بالقليل...

أمّا الدّوران حول النّفس فهو نوع من التأمّل أو المناجاة، يسعى الدّراويش من خلاله إلى الوصول إلى مرحلة الكمال.. بكبح شهوات النّفس وترقيق القلب وإرهاف الحواسّ. يعتبرون دورانهم حول أنفسهم تناغما مع حركة الكون، حيث ينظم الدّوران بنية الوجود، من الأحجام متناهية الصّغر إلى تلك الأكبر جرما.. فتنشأ الصّلة بين

الرّاقص والكون.

جلسة السّماع ذاتها مقسّمة إلى أربعة مقاطع، يتميّز كلّ منها بنسق موسيقيّ مختلف. المقطع الأوّل هو ولادة الحقيقة، الثاني يعبّر عن نشوة مشاهدة روعة الخلق، والثالث هو تحوّل النّشوة إلى حبّ، خضوع تامّ وتواصل مع الله. وأخيرا يأتي الرّابع تمثيلا لتفهّم الدّرويش لمصيره وعودته للنهوض بهمّته في الكون!

الموسيقى الصّوفيّة التي تدغدغ الحواسّ ليست أبدا لهوا من أجل المتعة والطّرب، بل أداة لتنقية القلب! لقد قام الرومي وأتباعه بدمج الموسيقى في طقوسهم لأنّهم يؤمنون بأنّ الموسيقى ترتقي بالرّوح إلى عوالم أخرى، حيث يمكنها سماع أنغام متسلّلة من أبواب الجنة!

ثمّ أخذ الشّيخ يشرح رمزيّة كلّ حركة في طقس السّماع. الأزياء التي يرتديها الدراويش الراقصون ترمز لعناصر مختلفة في شكلها ولونها. الثياب البيضاء تمثّل الكفن، والعباءة السّوداء كناية عن القبر.. وفي كلّ مرّة ينزع الدّرويش العباءة ويشرع في الدّوران، فإنّه يعيش ولادة روحيّة جديدة ويخطو نحو طقس التّطهير. ذراعاه المتقاطعتان على صدره ترمزان إلى وحدانيّة الله، وحين يفتحهما ويفردهما على الجانبين ويشرع في الدّوران من اليمين إلى اليسار، فهو يعانق العالم بأسره. كفّه اليمنى المتّجهة إلى السّماء، ترمز إلى جاهزيته لاستقبال هبات الله، لتعبر الطّريق عبر القلب وتنثرها الكفّ اليسرى المتّجهة إلى الأسفل على إخوانه في الإنسانيّة. الانحناءات الطّويلة بين الدّراويش هي تحيّة من «روح إلى أخرى».. فهذا ما يكون عليه الدّراويش خلال طقس السّماع. أرواحا مجرّدة.

– يقول الرّومي: «سرّ يدور داخلنا يجعل الكون يدور. الرّأس لا

يشـعر بالقدمـين، والقدمـان مـكان الـرّأس. لا يهـمّ. إنّهـم يواصلـون الـدّوران».

أمّا في حياتهم اليوميّة، فهم قوم مسالمون طيّبون ومتعفّفون. لا يغالون في ردود أفعالهم ولا يرفعون أصواتهم عند الحديث. وعند التحيّة، يضعون كفّهم اليمنى على صدورهم وينحنون قليلا، بمعنى «أنت في قلبي». وحتّى حين يصافح أحدهم الآخر، فإنّ لديهم طريقة عجيبة. يمسك أحدهم كفّ الآخر ويقبّل ظهرها، علامة الاحترام المتبادل و«المساواة في الوجود». كلّ حركة تبدر عنهم تنمّ عن رمزيّة عميقة تجذّرت في سلوكهم على مدار سنوات من التّدريب الصّارم.

– وما الذي يشعر به الدّرويش حين يدور؟

– ليست هناك نشوة جنونيّة ناتجة عن طقس الدّوران.. إن كنت تقصد هذا! لكنّ الدّرويش، من خلال تدريباته على التحكّم في التّوازن، يصل إلى مرحلة وعي فائق بجسده.. تجعله يترقّى إلى عوالم فوقيّة.

رفعت حاجبيك في اهتمام، فواصل الرّجل:

– هناك مراحل ثلاث للترقّي في الطريق إلى الله.. وهي: العلم، الرؤية والوصال.

هتفت في دهشة:

– الرُؤية؟!

ضحك الشّيخ بلطف ثم أخذ يشرح:

– نحن لسنا خيرا من موسى عليه السّلام، ومن ادّعى رؤيته لله بعيني رأسه في يقظته، فهو كاذب.. لكنّنا لا نراه، لا لامتناع الرّؤية، بل لعجز في أبصارنا.. مثل المحدّق في الشّمس، لا يملك رؤيتها،

لأنّ أشـعّتها تبهـره! لكنّنـا نـراه بعـين القلـب. المشـاهدة تعـني المدانـاة والمحـاضرة والمكاشـفة.. وهـي تعـبّر عـن مشـاهدة القلـب ودوام وقوفـه وانتصابـه بـين يـدي الله تعـالى لمَّـا آمـن بـه حـتى كأنـه رآه رأي العـين.

– وما الوصال إذن؟

– هـو الانقطـاع عمّـا سـوى الحـقّ، وليـس المـراد بـه اتّصـال الـذّات بالـذات لأنّ ذلـك إنّمـا يكـون بـين جسـمين وهـذا التوهّـم في حقـه تعـالى كفـر! الوصـال يلزمـه انفصـال عـن الخلـق والشـهوات والمدنّسـات، ومـن لـم ينفصـل لـم يتّصـل.. وأدنى الوصـال مشـاهدة العبـد ربّـه تعـالى بعين القلـب، أي أنّ السّـالك يعلـم يقينـا في قلبـه أنّـه هـو الله الـذي هـو حـاضر معنـا وناظـر إلينـا وشـاهد علينـا.. وأمّـا إذا كان بعـد رفـع الحجـاب والكشـف، عنـد تجـلّي الـذّات، فإنّـه يرتقـي إلى مقـام الوصـال. والسّـالك يبـدأ في مقـام المحـاضرة ثـم المكاشـفة ثـم المشـاهدة. فالمحـاضرة لأهـل علـم اليقـين والمكاشـفة لأهـل عـين اليقـين والمشـاهدة لأهـل حـقّ اليقـين...

سـكتّ، وفي داخلـك حـسرة وتعطّـش وتـوق لبلـوغ تلـك المراتـب الرّفيعـة الـتي لا ينالهـا إلا المجتبـون المختـارون، حـتّى دمعـت عينـاك. حـين شـعر الشّـيخ بصدقـك قـال:

– التصـوّف يـا بـنيّ ليـس حكـرا عـلى الدّراويـش.. يمكنـك أن تكـون سـالكا عـلى الطّريـق إلى الله أينمـا كنـت وكيفمـا كانـت مشـاغلك. إنّمـا ضـع نصـب عينيـك هـذه المبـادئ المختـصرة: الإخـلاص شرط في العمـل، والزّهـد ركـن في الطريـق، والخلـوة والصّمـت مطلوبـان. وخـير العلـم مـا كان موضوعـه الـذّات العليـة، إذ هـو دالّ بأولـه عـلى خشـية الله تعـالى وبوسـطه عـلى معاملتـه وبآخـره عـلى معرفتـه والانقطـاع إليـه.

غـادرت المركـز بعـد أن اسـتمعت إلى محـاضرة دامـت سـاعة ونصـف

السـاعة عـن تاريـخ التصـوّف ومبادئـه. كان المحـاضر شـابًا لا تبـدو عليـه علامـات الدّروشـة، لكنّـه يتكلّـم الإنجليزيّـة بطلاقـة، ويلقـي الـدّرس مثـل أيّ معلّـم يعايـن النّظريّـات مـن خـارج الصّنـدوق لا مـن داخلـه! وأنـت كنـت تريـد بشـدّة أن تكـون داخـل الصّنـدوق. لقـد أشـعرك الحديـث مـع الشّـيخ الدّرويـش بألفـة شـديدة، فتمنّيـت أن تجاذبـه أطـراف الحديـث لوقـت أطـول، لـولا أن قاطعكمـا دخـول بقيّـة الطـلّاب.

كنـت غائـب الذّهـن خـلال المحـاضرة كلّهـا. وكانـت كلمـات الدّرويـش تـتردّد في رأسـك طـوال الوقـت. علـم اليقـين، وعـين اليقـين، وحـقّ اليقين! أيـن أنـت مـن اليقـين؟

حـين خرجـت مـن قاعـة الـدّرس، رأيتـه يقـف عنـد مكتـب الاسـتقبال، وبـين يديـه رزمـة كتـب. بـادرك بابتسـامة لطيفـة، كأنّمـا هـو بانتظـارك.

– هـذه بعـض المؤلّفـات مـن أجلـك. أرجـو أن تسـاعدك عـلى تحقيـق الصّفـاء.

اسـتلمت الحمولـة بامتنـان، ثـمّ وضعـت كفّـك اليمـنى عـلى صـدرك وأحنيـت رأسـك تـردّ تحيّتـه بمثلهـا.. أنـت في قلـبي.

دخلـت غرفـة الفنـدق متحمّسـا. كانـت بـين يديـك مـادّة نظريّـة كافيـة لتمهّـد طريقـك إلى سـلّم التصـوّف. وأنـت ترغـب بشـدّة في ولـوج ذلـك العالـم ومعانقتـه. قلّبـت الكتـب بـين يديـك لبرهـة، متأمّـلا في عناوينهـا. ثـمّ انتقيـت مـا بـدا لـك مناسـبا لقضـاء السّـهرة. وضعتـه عـلى المنضـدة، وجهّـزت لنفسـك كـوب شـاي دافئ، ثـمّ اسـتويت عـلى السّريـر مسـتعدّا للمسـامرة.

قبـل البـدء، فكّـرت في تفقّـد هاتفـك. كان مغلقـا معظـم الوقـت، ولـم تتسـنّ لـك فرصـة فتحـه منـذ غـادرت بيكـين. مـا إن أضـاءت الشّاشـة والتقـط الجهـاز إشـارة الإرسـال، حـتّى ظهـرت رسـالة أمـام عينيـك..

رسالة من ريم!

توقّفت أمام الرّسالة المغلقة مصعوقا، ثمّ ما لبثت أن تمالكت نفسك. فكّرت أنّها قد تكون رسالة مسجّلة، مثل تلك التي وصلتك قبل رحيلك! خيّرت الحذر على الأمل. أوليس الأمل أسوأ الشرور، لأنّه يطيل أمد العذابات؟ سحبت نفسا عميقا وضغطت على الزرّ ليظهر نصّ الرّسالة:

«بنيّ، هذه والدة ريم. لقد وجدت رقمك على هاتفها، ففكّرت بالاتّصال. أدرك مدى اهتمامك لأمرها رغم غيابك، لذلك رأيت أن أعلمك بهذا. لقد توقّفت رئتا ريم عن العمل منذ يومين. واليوم انهارت كليتاها، وخفقات قلبها تتباطأ بشكل ملحوظ. إنّ كلّ ما يربطها بالحياة الآن هي تلك الآلات التي تبقيها بيننا، بينما تنسحب روحها قليلا قليلا. لقد اتّخذت قرارا صعبا بفصلها عن الأجهزة لترحل بسلام. لعلّك تريد وداعها قبل ذلك».

الفصل العاشر

- عودة -

-١-

طرت مثل سحابة نفخت فيها ريح عاصف. جمعت حاجياتك في سرعة البرق، وغادرت الفندق دون تفكير. وصلت إلى مطار أتاتورك قبيل العاشرة مساءً، قصدت مكتب الخطوط التركيّة واشتريت تذكرة للرّحلة المقبلة، ثمّ جلست تترقّب متقلّبا على الجمر. هل تعود محمّلا بالحكايات مثقلا بالتّجارب، ولا تجد ريم لتروي على مسامعها مغامراتك؟ ألم تقم بتلك الرّحلة من أجلكما معا؟ ما الذي غنمته الآن وقد رحلت في غيابك؟

حاولت الاتّصال برقمها كثيرا دون فائدة. كان الهاتف مغلقا على الدّوام. عدت إلى الرّسالة وتمعّنت في تاريخها. كانت قد وصلت منذ أربعة أيّام! أتكون قد تأخّرت؟ أتكون قد انشغلت عنها بنفسك حتّى غابت إلى الأبد؟ دفنت وجهك بين كفّيك وانخرطت في بكاء مرير. كان الانتظار مرّا. وألم الفقد قاسيا. كنت تأمل معجزة، والمعجزات سلاح ذو حدّين، إمّا أن تجدّد إيمانك أو أن تدفعك إلى شفير الجنون. والمعجزة التي تأملها ولا تأتي، تسلبك كلّ شيء، حتّى ثقتك في الأشياء الصغيرة الممكنة.

أربع ساعات، مدّة الرّحلة بين إسطنبول وباريس. تليها ساعة عند مكاتب الجوازات واستلام الحقائب. ثمّ ثلاثة أرباع السّاعة حتّى تصل إلى المستشفى. السّاعة تشير إلى الخامسة فجرا، وأنت تجهل ذلك. فقدت إحساسك بالزّمن، أو لعلّ كلّ الأوقات تتساوى، في حياة لا ريم فيها. تعبر ممرّات المستشفى ركضا، فلا تسمع إلا وقع خطواتك وصوت انسياب عجلات حقيبتك على الأرض الرّخاميّة.

اقتحمـت القسـم، وهرولـت في اتّجـاه سريـر ريـم. توقّفـت بغتـة بفرامـل خفيّـة، وأنـت تطالـع وجههـا الشّـاحب وعينيهـا المسـدلتين.

كانت لا تزال هناك. لكنّها ما عادت هناك.

هـذا الشّبح الرّاقـد عـلى سريـر المستشـفى يشـبه ريـم إلى حـدّ كبـير.. لكنّـه لا يحمـل شـيئا مـن نضارتهـا وشـقاوتها ودفء روحهـا. جلسـت إلى جوارهـا في إعيـاء والتقطـت كفّهـا الهزيلـة. حدّقـت في الأصابـع النّحيلـة الـتي غـدت عظامـا دقيقـة وبـارزة تغلّفهـا بـشرة هشّـة بيضـاء. اغرورقـت عينـاك بالدّمـع. لقـد غبـت عنهـا لسـبعة أسـابيع.. لتجدهـا عـلى تلـك الحـال المزريـة. يتنامـى إليـك أزيـز إلكـترونيّ متواصـل يصـدر عـن الأجهزة الـتي تزوّدهـا بالمحلـول المغـذّي والهـواء وتراقـب نبضـات قلبهـا. هـذا كلّ مـا يبقيهـا عـلى قيـد الحيـاة.

أسـندت رأسـك إلى جانـب السّريـر، ودون أن تشـعر أو ترغـب، غفـوت. كنـت مرهقـا ومنهـارا حـتّى الثّمالـة. اسـتيقظت عـلى وقـع خطـوات الطّاقـم الطـبيّ داخـل الغرفـة. وصـل الطّبيـب المتابـع لحالـة ريـم، وبرفقتـه عـدد مـن الإخصّائيـين ووالدتهـا أيضـا. ابتسـمت حـين رأتـك:

- لقد جئت!

كنـت لا تـزال مشوّشـا. تذكّـرت الرّسـالة فجـأة. لقـد نسـيت أمرهـا. صدمتـك لرؤيـة ريـم عـلى تلـك الحـال وسرورك ببقائهـا عـلى قيـد الحيـاة أذهـلاك عمّـا عداهمـا.

- لقد حان الوقت!

أعلن رئيس القسم بصوت خالٍ من أيّ انفعال.

- أيّ وقت؟

كانت نبرتك عدوانيّة ومتحفّزة. أجابت والدتها بهدوء:

- لقـد انتهـى الأمـر يـا بـنيّ.. هـل رأيـت مـا آلـت إليـه الصّغـيرة المسـكينة ؟

كانـت عـلى مشارف البـكاء، لكنّهـا تحافـظ عـلى سـكينتها بثبات تحسـد عليه .

- أرجو منك أن تخطو خارجا، ولا تعطّل العمليّة!

تنهمر العبرات سخيّة على وجنتيك.

- هل يمكنني وداعها؟

- لديك خمس دقائق.

أتاك ردّه جافّا حاسما.

أنـت تغـلي، بـركان يفـور داخلـك.. لكنّـك مكبّـل الذّراعـين، تلفّـك حبـال مـن وهـم. تحـاول أن تقـاوم فكـرة النّهايـة، لكنّـك تستسـلم لهـا دون عنـاء، أوليسـت حـال ريـم دلالـة عليهـا.. تلـك النهايـة؟ تـدرك أنّـك هنـاك لوداعهـا للمـرّة الأخـيرة لا أكـثر. لقـد تقبّلـت الأمـر، خـلال سـاعات السّـفرة مـن إسـطنبول، بـل عـلى امتـداد الرّحلـة ذاتهـا. كانـت ريـم تغـدو شيئا فشـيئا مجـرّد ذكـرى جميلـة وعابـرة في وجـودك. وأنـت مسـتعدّ الآن لإنهـاء المرحلـة.

لا لسـت مسـتعدّا! وكيـف يكـون الاسـتعداد ممكنـا لـوداع لا لقـاء بعـده؟

تهاجُمـك الأسـئلة القديمـة.. أيـن تذهـب روح ريـم الآن إذا مـا فارقـت جسـدها؟ هـل تحتضنهـا أرواح أخـرى وتحنـو عليهـا فـلا تعيـش غربـة في عالـم الـبرزخ؟ كيـف تلقـى الإلـه الـذي كفـرت بـه؟ هـل يؤاخذهـا لإعراضهـا عنـه وعزوفهـا عـن عبادتـه؟

تهمس في وجع، علّ روحها المرفرفة قريبا تصغي إلى مناجاتك:

- لقد كنّا على خطأ يا حبيبتي.. هناك خالق للكون. ولعلّك الآن ماضية لملاقاته.

يعتصر الألم فؤادك. ماذا لو رحلت بدورك قبل أن تدرك الحقيقة؟ ريم لم تملك وقتا كافيا، باغتها الموت وهي في ريعان الشّباب وأوج العطاء.. لكنّك تملك فرصة إضافيّة.

- نفدت المهلة.

على الجانب الآخر من السّرير، تجلس الأمّ المكلومة في شجن، تنحني هامسة في أذن صغيرتها بالشّهادتين! ثمّ تتلو على مسامعها آيات من حفظها. ترفع عينيها إليك وتبتسم. نفدت المهلة. تتراجع في استسلام، بينما يملأ الفريق الطّبيّ الغرفة. حانت ساعة الصّفر. يلقي صوت بارد أجوف التّعليمات، فتنطفئ الأجهزة واحدا إثر الآخر. ثمّ ينطلق صفير حادّ مستمرّ من آلة مراقبة القلب، ويظهر خطّ مستقيم ثابت على الشّاشة.. علامة توقّف الزّمن.

- ساعة الوفاة.. العاشرة وست دقائق.

هل يتوقّف الزّمن حقا؟ لقد توقّف بالنّسبة إليك في تلك اللّحظة. ترى العالم يستمرّ من حولك، لكنّك متجمّد في موضعك.

- تعازيّ الحارّة دكتور مالك!

صافحك الطّبيب المتابع لريم بجديّة جنائزيّة، بينما سلّمته كفّا باردة مرتخية. تلمح سريرها يخرج من الغرفة مدفوعا على عجلات إلى ثلاجة الموتى، وقد غطّى لحاف أبيض وجهها وسائر جسدها. أنت أيّها الطّبيب المقيم أدرى بمآل الجثث الباردة.

خرجت من المستشفى، تجرّ حقيبتك وأذيال حسرة وضياع. لقد انتهى كلّ شيء. دلفت إلى شقّتك، واستلقيت على السّرير. لبثت ممدّدا هناك زمنا لا يعلمه إلا الله. كيف مرّت بك تلك الأيّام؟ لعلّك لا تذكر

تفاصيلها ولا تعي ما عشته فيها. يمرّ بك الزّمن، وأنت عالق قسرا في لحظة رحيل ريم.

كان يفترض بك أن تكون في تركيا ذلك الأسبوع، لذلك لم ينتبه أحد إلى مصيبتك. تخلّفك عن المستشفى كان طبيعيا، وعلاقاتك مع الرّفاق كانت متردّية بطبعها. حين أفقت من سكرة الحزن، اغتسلت وغيّرت ثيابك وغادرت شقّتك نحو وجهة واضحة. كانت لافتة «حانة الزّمن الجميل» تومض بإغراء عند آخر الشّارع. كنت قد انقطعت عن الشّرب منذ لقائك بريم ولم يبق في شقتك أيّ مخزون من مشروباتك الذهبيّة المفضّلة، واتّخذت عادات غذائيّة مثاليّة صحيّة خلال رحلتك. لكنّك الآن في حاجة إلى النّسيان والغياب.

عدت إلى إدمان الشّرب. تعبّ من الكؤوس طيلة السّهرة وحتى ساعات الصّباح الأولى، وتنام حتّى منتصف الظهيرة مثل القتيل. نهارك ليل وليلك نهار. ثمّ انتبهت إلى تغيّبك عن العمل وأنّ الإجازة قد انتهت منذ يومين، حين وصلك تنبيه من المستشفى! لكنّك لم تغيّر سلوكك أبدا. ذهبت متأخّرا وثملا في يومك الأوّل. وقفت عند الاستقبال تعاكس الممرّضات بأسلوب فجّ، ثمّ اقتحمت العيادات واحدة إثر الأخرى، باحثا عن سمّاعة صدر طبية، قبل أن تتذكّر أنّك لا تحتاج واحدة!

كان عرضا مخزيا ومخجلا، لولا أنّك كنت فاقدا للإحساس. بعد نصف ساعة، جاء رئيس القسم الذي أتاه النبأ وهو في اجتماع بإدارة المستشفى. عنّفك بلهجة حازمة، وأمرك بالمغادرة على الفور. لكنّ ذلك لم يحرّك فيك شيئا. هززت كتفيك استهانة، ثمّ انسحبت وعلى شفتيك ابتسامة غبيّة وهذيان كثير بلغات متداخلة. كانت مشاعرك قد تبلّدت وما عاد تقدير الآخرين من عدمه يحرّك فيك شيئا.

ومساء اليوم ذاته، شربت حتّى غاب عقلك، فقصدت المستشفى بدل العودة إلى شقّتك! دخلت في السّاعة الثالثة صباحا على مناوبة الطّوارئ، زائغة نظراتك، مترنّحة خطواتك ومنفلت لسانك! أخذك الزّملاء إلى غرفة الاستراحة، حيث غططت في نوم عميق حتّى الصّباح. ورغم محاولتهم التّغطية على هفواتك وتجاوزاتك، فقد اكتشف رئيس القسم أمرك مرّة ثانية!

استيقظت بطنين في رأسك على صراخ الرّئيس الهائج. كان موقفه أكثر صرامة هذه المرّة.

– لن يمرّ الأمر هكذا.. سأحوّلك إلى مجلس التّأديب!

أحاط به أطبّاء القسم الذين يعرفون مدى تميّزك في عملك ويدركون حساسيّة الوضع الذي تمرّ به رغم جهلهم حقيقته. قالت زميلة إسبانيّة متعاطفة:

– إنّه يمرّ بظروف شخصيّة قاسية!

فانفجرت أنت ضاحكا. ما الذي تعرفه تلك الحمقاء عن ظروفك؟ رفعت صوتك وشتمتها دون تردّد، فاحتقن وجهها، وانسحبت من الغرفة. بينما أعلن رئيس القسم:

– أنت مفصول لمدّة أسبوع! إن لم تتمالك نفسك خلال هذه الفترة فلن أتردّد في فصلك من البرنامج بشكل نهائيّ!

حين انتبهت من سكرتك بعد الظهر، أدركت مدى سوء وضعك.

هل رجعت إلى خانة الصّفر؟

وأين تقع خانة الصّفر تحديدا؟ قبل بحثك أم بعده؟ في مكان ما بين الإيمان والإلحاد؟ على مسافة متساوية بين القناعات الفكريّة المختلفة؟ إذن أنت لست هناك! لعلّك كنت على الهامش تماما، حيث لا أرقام ولا خانات!

أنـت لـم تعـد مهتمّـا. لـم تعـد تفكّـر. لا شيء يشـغل عقلـك الألمعيّ ويجــبره عــلى التّنقيــب والتّمحيــص. لا شيء يحــرّك وجدانــك ويشــدّه للارتقــاء إلى عوالــم علويّــة. كلّ العــادات الــتي اكتســبتها في رحلاتــك تلاشــت دفعــة واحــدة، وكلّ الطّاقــة الجبّــارة الــتي تولّــدت داخلــك مــن التأمّــل والتدبّــر في خلــق الله تبخّــرت بــين يــوم وليلــة.

مــن يــراك كان يــدرك منــذ اللّحظــة الأولى أنّــك إنســان فــارغ، تمــشي محــنيّ الظهــر منكّــس الــرّأس، مثــل جنــديّ مهــزوم ينســحب مــن ســاحة المعركــة. غــير أنّ ســاحة معركتــك هــي حياتــك ذاتهــا.

صــار كلّ شيء بغيضــا مــن حولــك. معالــم باريــس الــتي تذكّــرك بأمســيات السّــبت برفقــة ريــم، ونــشرات الأخبــار الــتي تبحــث في وجــوه مراســلاتها عــن شــبيهتها، وصباحــات الأحــد البــاردة بــدون قهــوة تعدّهــا بيديهــا، ومســاءات طويلــة لا تقصّرهــا مكالمــات تكــون هــي عــلى طرفهــا الآخــر. كيــف يســتمرّ قطــار الحيــاة وكأنّ نــزول ريــم في محطّــة ســابقة لا يؤثّــر؟ لقــد كانــت هــي قــوّة التــوازن الــتي تبقــي كيانــك متماســكا، لــذا مــن المحتّــم عليــك الانهيــار!

كان أسبوع الفصــل يــكاد ينتهــي، ولا شيء ينبئ بتحسّــن ممكــن للوضع. كانــت قــد ظهــرت عليــك أعــراض اكتئــاب حــادّ. أرق شــديد وفقدان شــهيّة، لــلأكل ولــكلّ شيء آخــر، وأفــكار ســوداويّة قاتمــة. حلــم الطــبّ لــم يعــد يحمّســك، وكلّ مــا قاتلــت مــن أجلــه في السّــنوات الماضيــة أصبــح بــلا معــنى.

لأوّل مــرّة منــذ شــهور، أمســكت الهاتــف وتحدّثــت إلى والدتــك. كنــت تفــرّ منهــا غالبــا، ومــن استفســاراتها وشــكوكها الــتي لا تنتهــي. لا تصــدّق أنّــك بكيــت في ذاك الاتّصــال حــتّى أصابهــا الهلــع. اعترفــت بصــوت موجوع مثــل طفــل يســتغيث:

- أنا متعب يا أمّي!

لقد صارت الحياة عبئا عليك. أنت مرهق من التنفّس والأكل والمشي والكلام. وهل تستقيم حياة بهذا الشّكل الموغل في الألم؟

- سوف تأتي إلى الرّياض!

قرّر والدك بصرامة. وقد انقدت باستسلام تلك المرّة.

كنت قد أنهيت -بمعجزة ما- متطلّبات السّنة الثانية من التّخصّص، وأصبح متاحا لك الانتقال إلى مستشفى أجنبيّ لإتمام تدريبك العمليّ. لذلك تركت والدك يقرّر من أجلك. لقد قاومته من قبل من أجل سارة، ثمّ خوفا من انفضاح عزوفك عن الدّين، ثمّ لتعلّقك بريم.. أمّا الآن، فلم يعد أيّ من ذلك يبقيك على الأراضي الفرنسيّة. ثمّ ماذا لو اكتشف والداك ضياعك؟ تعلم أنّ خيبتك الدّينيّة أشدّ تأثيرا عليهما من خيبة دراسيّة أو مهنيّة. سيقصم الخبر ظهريهما ويطعن روحيهما. لكنّك لا تفكّر في هذا الآن. لا تحسب العواقب ولا تقدّر النتائج. إحساسك البليد غير قادر على التّعاطف.

شغلك التّجهيز للسّفر وإنهاء المعاملات الإداريّة في الأسابيع التي تلت. تقدّمت بطلب إجازة مفتوحة من المستشفى، إلى أن تفرغ من الإجراءات الطّويلة. أنت لا تعلم ما الذي ينتظرك في الرّياض، ولا تأمل أن تختلف الأمور كثيرا. لكنّ ثلاثة دوافع تحرّكك. أنت تفرّ من ذكرياتك وريم، ومن الخمر التي تتوافر في باريس بغزارة وتعزّ في المملكة السّعوديّة، وتشتاق إلى حضن العائلة. وهي دوافع كافية.

بعد أسبوعين من تلقّيك صفعة الطّرد من المستشفى، خفّت حاجتك إلى السّكر، وأصبحت أقدر على البقاء يقظا لأمد أطول. كانت ريم قد رحلت منذ شهر تقريبا. وكنت قد تماسكت نوعا ما، وأصبحت أكثر استعدادا لمواجهة الحياة. عمليّة الانتقال قد تستغرق

شـهورا، وأنـت قـد أهـدرت معظـم مدّخراتـك عـلى مصاريـف الرّحلـة! أعادتـك حاجـات العيـش الأساسيّة إلى الواقـع. بعـد انقطـاع راتبـك، كان عليـك أن تجـد مـورد رزق تسـدّد منـه إيجـار الشّـقة وتنفـق منـه عـلى طعامـك وشرابـك ونزواتـك!

تجـرّأت عـلى الاتّصـال بإيرينـا. توقّعـت دهشـتها. مضـت سـنة أو تزيـد عـلى السّـهرة الأخـيرة الـتي جمعتـك بهـا. وقـد أدركـت بغريـزة أمومـة مـا لديهـا أنّـك قـد عـدت ولـدا تائهـا يحتـاج إلى إرشـاداتها! كنـت تعلـم أنّهـا تعمـل في عيـادة مسـائيّة بعـد دوام المستشـفى. لـم تكـن تطمـع في وظيفـة في تخصّصـك بجراحـة العظـام، فأنـت لـم تنـه تكوينـك النظـريّ والعمـليّ بعـد، لكـن إن كانـت تحتـاج مسـاعدا أو ممرّضـا أو كاتبـا، فأنـت أكـثر مـن مناسـب. بـل إنّ تلـك الوظيفـة تعـدّ إهـدارا لإمكاناتـك العظيمة!

استمعت إليك في اهتمام وأنت تشرح وضعك، ثمّ قالت في حزم:

– تعال مساء الغد!

وأملت عليك العنوان.

وأنـت تمـضي إلى عيادتهـا، تسـاءلت، لمـاذا لـم تقصـد أيّـوب أو محسـن؟ كنـت تعلـم أنّ كليهمـا لديـه مـن العلاقـات والصّـلات مـا يفـي بالغـرض. لكنّـك آثـرت إيرينـا. لأنّ رأيهـا فيـك لا يهمّـك. لا يهمّـك مـا قـد تظنّـه بنجاحـك مـن فشـلك، جنونـك مـن عقلـك. لكنّـك لـم تـرد أن تعـترف لنفسـك، لقـد كان رأي الفرسـان يهمّـك في نهايـة المطـاف.

حـين وصلـت إلى العيـادة، فتحـت لـك سـكريتيرة شـابّة، قادتـك إلى غرفـة انتظـار شـبه خاليـة. جلسـت تتأمّـل اللّوحـات الجداريّـة الباهتـة وأكـوام المجـلّات الشـعبيّة الرّخيصـة عـلى المنضـدة، وتفكّـر فيـم إن كنـت قـد اتّخـذت القـرار الصّـواب. حـين جـاء دورك، دخلـت. كانـت إيرينـا متألّقـة كعادتهـا. اسـتقبلتك بابتسـامتها الأنثويّـة الطّاغيـة، ثـمّ

قالـت:

– كما ترى، ليس العمل كثيرا غالبا، ولديّ مساعدة كافية...

لم تستوعب ما تقصده. لماذا طلبت منك المجيء إذن؟

– إن كنـت يائسـا إلى درجـة كبـيرة ومسـتعدا لقبـول أيّ وظيفـة.. ربّمـا يمكنـك تنظيـف العيـادة بعـد الـدّوام -إنّهـا ليسـت عيـادتي الخاصّـة، بـل هنـاك طبيبـان آخـران يشـغلانها في أوقـات مختلفـة مـن النّهـار- وشراء اللّـوازم الـتي نحتاجهـا.. الشـاش والقطـن، القهـوة والحليـب والسّـكر.. وسـيدفع كلّ منّـا حصّـة مـن راتبـك.

رمقتـك بتلـك النّظـرة الطّويلـة السّابرة. ربّمـا كان يجـدر بـك أن تشـعر بالإهانـة؟ ربّمـا كان يفـترض بـك أن تقـف عـلى الفـور في ثـورة واسـتهجان؟ لكنّـك لـم تفكّـر في كلّ ذلـك، بـل شـغلك تقييـم عقـلاني للعـرض. كانـت العيـادة محـدودة المسـاحة. مكتـب وصالـة انتظـار ومدخـل يحـوي مكتـب اسـتقبال منزويـا، بالإضافـة إلى حمّـام ومطبـخ صغيريـن. فكّرت أنّ عمليّـة التّنظيـف لـن تسـتغرق أكـثر مـن سـاعة إلى سـاعتين يوميّـا. سـألت:

– كم سيكون الرّاتب؟

– أربعمائة وخمسين يورو.

لـم يكـن ذلـك ليغطّـي إيجـار الشـقّة وحـده، رغـم أنّـك مـا زلـت تتقـاضى مسـاعدات الدّولـة الخاصّـة بالطلبـة. لكنّهـا سـاعة واحـدة في اليـوم، مـن التّاسـعة إلى العـاشرة مسـاءً أو أكـثر بقليـل! تحـضر بعـد أن ينـصرف الـكلّ، فـلا يـراك أحـد. سـيترك لـك هـذا سـاعات النّهـار كلّهـا لتصحـو متأخّـرا كمـا تريـد، وتنهمـك في معاقـرة الحـزن كمـا تشـاء. سـتكون متفرّغـا لتوديـع باريـس الـتي عرفـت سـنوات حبّـك ونجاحـك وعربدتـك وبحثـك وضياعـك وشـقائك، كمـا يليـق بهـا! ستتقشـف في معيشـتك، تبيـع بعـض الأشـياء الزّائـدة عـن الحاجـة، وتـصرف مدّخراتـك حـتّى آخـر

سنتيم.

قلت بعد تفكير عميق:

- قبلت.

قرأت الصّدمة على ملامحها.

- مالك، ما الذي حلّ بك؟

لقد عرفتك مترمّتا ومنفلتا، حيّيا ووقحا، لكنّها لم ترك يوما إلا عزيز النّفس، فأين ذهب مالك القديم؟ لقد رحل وحلّ محلّه رجل بارد ميّت الإحساس.

كان بركان حزنك قد خمد، بعد أن أحرق كلّ شيء في الأيّام الأولى. استعدت شيئا من رصانتك القديمة، وقليلا من الحياة الاجتماعيّة السّطحيّة. وجدت لك نشاطا جديدا تشغل به فترة العصر، حتّى يحين وقت الخمرة. صرت تتردّد على مقهى شعبيّ في الحيّ العربيّ. كلّ أمسية، يجتمع نفر من العجائز يلعبون النّرد والورق، أبو مازن وأبو محمّد وأبو صالح وشابّ دخيل بينهم اسمه نادر. صاروا فرسانك الأربعة الجدد.. مع البون الشاسع بين الفريقين! رفاق المقهى ليسوا أصدقاء حقيقيّين، بل لعلّهم لا يملكون أدنى مقوّمات الصّداقة. لم يكن هناك من قاسم مشترك يجمعكم. أبو مازن مهندس سوريّ متقاعد وأبو محمّد عسكريّ مصريّ سابق، بينما كان أبو صالح بقّال الحيّ. أمّا نادر فهو مدرّس عربيّة جزائريّ ومهاجر غير شرعيّ. لكنّهم صاروا بشكل ما رفاق المرحلة!

كنت تجلس إليهم لساعات، ويتطوّع أحدهم كلّ مرّة لدعوتك على المشروبات التي تحتسونها طيلة الجلسة، فلا تمانع. وغالبا ما تكون لك الغلبة في ألعاب الورق والطّاولة، فتكتفي ببضع جولات على سبيل المتعة، ثمّ تنسحب لتكون متفرّجا بقيّة الأمسية، فلا

تهـين مضيّفيـك أو تتسـبّب في سـأمهم مـن صحبتـك إذا أنـت اسـتأثرت بالفـوز دونـا عنهـم. ولعلّـك في تلـك الفـترة نزلـت مـن برجـك العاجـيّ وأخـذت تهتـمّ بمـا يشـغل النّـاس في الشّـوارع، وفي ضواحـي باريـس بشـكل خـاصّ. لـم تكـن الجلسـات تخلـو مـن تناقـل لأخبـار الحـيّ.. آفـة المخـدّرات الـتي تفتـك بالشّـباب، والجماعـات المتطرّفـة الـتي تحـاول اجتذابهـم، وأحاديـث السّياسـة بشـكل عـام.

ولمّـا كان نـادر الثّلاثيـنيّ أقـرب الحاضريـن إليـك سـنّا، فقـد كان يجلس حـذوك ويرنـو إليـك في إعجـاب معظـم الوقـت.. يسـتمع إلى آرائـك الـتي تبـدو في عينيـه حكمـة صافيـة، ويومئ بشـكل مسـتمرّ. ولنـادر ذاك قصّـة عجيبـة ربّمـا يكـون لهـا أن تنافـس قصّتـك في إغرابهـا. أفـضى إليـك بعـد أسـابيع قليلـة مـن انضمامـك إلى شـلّة المقهـى، بأنّـه يحمـل قنبلـة موقوتة في رأسـه! نظـرت إليـه في اسـتخفاف، وقـد حسـبته يبالـغ. فطفـق يحدّثـك بماضيـه. حـين كان يافعـا، إبّـان العشريّـة الجزائريّـة السّـوداء، تلقّـى طلقـا غـير مبـاشر مـن سـلاح عسـكريّ، أصابـه في مؤخّـرة رأسـه. والأدهـى أنّـه لـم يكتشـف إصابتـه إلّا بعـد عقـود، بعـد أن عـبر المتوسّـط عـلى مـتن رحلـة مجازفـة كادت تتسـبّب في غرقـه. أصيـب بارتجـاج دماغـيّ أثنـاء رحلـة العبـور الخطـرة، فكشـفت صـورة الأشـعّة الـتي خضـع لهـا عـن وجـود رصاصـة تقبـع هنـاك في سـكون تـامّ! تلـك الرّصاصـة كانـت تهـدّد حياتـه إن هـو أخرجهـا.. وتهدّدهـا إن هـي ظلّـت في رأسـه!

ولمّـا كان رفاقـك الجـدد مختلفـين مـن حيـث خلفيّاتهـم فإنّـك لـم تحـاول أن تناظرهـم في أمـور الدّيـن والعقيـدة كمـا كنـت تفعـل مـع رفاقـك القدامـى، ولمّـا كنـت راغبـا في الحفـاظ عـلى غموضـك دون إطلاعهـم عـلى خفايـا ماضيـك، فقـد كانـت الفلسـفة المجـال المناسـب لتقارعهـم في سـاحته، وتكتشـف رؤيتهـم السّـطحيّة البسـيطة للقضايـا العميقـة الـتي شـغلتك في السّـنوات الأخـيرة. كنـت تلقـي عـلى مسـامعهم

واحـدة مـن المسـائل السفسـطائيّة القديمـة الـتي أعيـت كبـار الفلاسـفة وتصغـي في اسـتمتاع إلى لغطهـم حولهـا. سرعـان مـا وجـدت مـلاً جديـدًا تخطـب فيـه، فتلقـى أطروحاتـك الإعجـاب والاستحسـان.

وذات مـرّة، طرحـت عليهـم معضلـة حقيقـة الزّمـن. جلسـت عـلى مقعـدك في المقهـى في اعتـداد مثـل أسـتاذ يختـبر طلبتـه، وقلـت:

– ما هو الزّمن؟

تبادلوا نظرات متسائلة، ثمّ أدلى أبو محمّد بدلوه:

– إنّه الوقت الذي يمضي.. ويأخذ معه أعمارنا!

ندّت عنهم زفرات حسرة وأمّنوا على قوله. ثمّ أضاف البقّال:

– إنّه ما تقيسه السّاعات!

أمسكت بطرف الخيط وسألت على الفور:

– ولكـن مـا هـي السّـاعة؟ أليسـت آلـة لقيـاس البعـد الزّمـني؟ هـل يمـرّ الزمـن لأنّ السّـاعات لا تتوقّـف عـن التقـدّم.. أم أنّ السّـاعات لا تتوقّـف لأنّ الزّمـن يمـرّ؟

قال أبو مازن وقد كان ذا خلفيّة علميّة:

– الزّمـن يمـرّ سـواء تقدّمـت السّـاعات أم توقّفـت، وقـد كان يمـرّ حـتّى قبـل اخـتراع السّـاعات.. الزّمـن ناتـج عـن دوران الأرض حـول نفسـها، ودورانهـا حـول الشّـمس.. فهـي أشـياء مضبوطـة بمقـدار زمـنيّ ولا تختلـف!

هززت رأسك في استحسان ثمّ استطردت:

– حـين نتحـدّث عـن الزّمـن، نشـير إلى لحظـة مـا عـلى خـطّ الزّمـن بالحـاضر، المـاضي أو المسـتقبل.. لكـنّ أيّ لحظـة مهمـا كان موقعهـا، فهـي في وقـت مـا تكـون في المسـتقبل، ثـمّ تصبـح في الحـاضر، وأخـيرا تغـدو

من الماضي! مما يعني أنّ الزّمن متناقض في نهاية الأمر.. وبالتّالي غير حقيقيّ! فكيف تكون الأشياء التي تعدّ مفاهيمها متناقضة حقيقيّة؟

هتف نادر:

- الحاضر حقيقة، لأنّنا هنا.. نتحدّث الآن!

أجابه أبو محمّد على الفور:

- وكلماتك قد غدت في الماضي الآن! الماضي ليس إلّا ذكريات في رؤوسنا.. بينما المستقبل مجرّد توقّعات. فكيف تكون حقيقة؟

قال أبو مازن:

- هناك أشياء ملموسة تدلّنا على الماضي، غير الذّكريات.. الحفريّات والقطع الأثريّة التي نجدها في المتاحف، كتب التاريخ وغيرها.. بينما لا يصبح المستقبل حقيقة إلّا حين نصل إليه، فيكون حاضرا!

قلت موضّحا:

- هذا صحيح، من وجهة نظرنا البشريّة المحدودة. لكن من وجهة نظر فيزيائيّة، الماضي حقيقيّ والمستقبل أيضا.. إنّها أبعاد الكون الفيزيائية. أينشتاين اعتبر الزّمن بعدا رابعا، بالإضافة إلى أبعاد المكان الثلاثة. فإذا ما أردت أن ألتقي أحدكم مثلا، فمن الضّروري أن أحدّد الأبعاد الأربعة.. المكان والزّمان. وإلّا فإنّ اللقاء لن يحصل. إذا ذهبت إلى موقع آخر من الأبعاد -نفس المكان قبل ساعتين- فلن أجد أحدكم!

أومؤوا موافقين، بينما واصلت تشرح:

- المكان يمكن أن يكون متنوّعا، ولا شيء يمنعه من ذلك. يمكن أن أغلق هذه القبضة على الفراغ التامّ، بينما أقبض باليد الأخرى على هواء مشبع بثاني أكسيد الكربون من أرجيلة أبو محمّد! هاتان

قبضتـان متجاورتـان، لكنّهمـا مختلفتـان كلّيـا. لكـنّ الزّمـن ليـس كذلـك.. هنـاك علاقـة وثيقـة بـين نقطتـين متتاليتـين عـلى خـطّ الزّمـن. في الحقيقـة، ليـس هنـاك شيء اسـمه خـطّ الزّمـن! لأنّ الزّمـن متضافـر مـع المـكان لا ينفصـل عنـه، فكأنّهمـا نسـيج متداخـل. أرأيتـم لـو أنّـني جلسـت هنـا سـاعة لا أغـادر مقعـدي، فهـل أنـا ثابـت حقيقـة؟

قال أبو صالح:

- نعم، أنت ثابت.

بينما اعترض أبو مازن:

- لست كذلك.. لأنّ الأرض تدور!

هتفت في استحسان:

- نعـم، هـو ذاك! حـتّى لـو تجمّـدت مـكاني سـاعة، فـإنّ حركـة الأرض تسـتمرّ، والمجـرّة، والكـون كلّـه! إذن مـا يبـدو لنـا حركـة للزّمـان دون المـكان هـو في الحقيقـة وهـم.. فهمـا لا ينفصـلان! وبمـا أنّنـا ننتقـل بحرّيـة مـن موقـع في المـكان إلى أيّ موقـع آخـر.. فهـل يمكننـا أن نفعـل الـشّيء نفسـه في الزّمـن؟

أجابوا بصوت واحد:

- لا، طبعا لا.

- لكـن لمـاذا؟ أليـس الزّمـن بعـدا هـو الآخـر؟ فلمـاذا يبـدو التنقّـل عـبره عسيرا؟

ران عليهم صمت حائر، فاستطردت:

- هنـاك قوانـين كونيّـة مـا تجعلنا محبوسـين في اللّحظـة الرّاهنـة، نمضي في اتّجـاه زمـنيّ واحـد.. ولكـن يومـا مـا، حـين تصـل المعرفـة البشريّـة إلى مسـتوى متقـدّم، سـيصبح التنقّـل عـبر الزّمـن ممكنـا!

ضحك نادر وقال:

- حين نخترع كبسولة الزّمن! كم أودّ أن أكون حاضرا في ذلك الوقت!

ابتسمت ثمّ أردت أن تشاغبهم، فقلت:

- تخيّلوا معي لو أنّ الوقت يتباطأ أو يتوقّف، فما الذي سيحصل؟

سأل نادر:

- مثل الأبطال الخارقين الذين يملكون القدرة على إيقاف الزّمن؟

أطلق أبو صالح صفيرا طويلا ثمّ قال:

- كم سيكون هذا رائعا! أن يتجمّد الآخرون، بينما أتجوّل بحرّيّة.. أدخل قصر الإيليزيه والرّئيس متسمّر في مكانه، وأفعل ما يحلو لي!

ضحكوا في صخب، فتركتهم يتندّرون لبعض الوقت قبل أن تعلن في تهكّم:

- فيزيائيّا، هذا سخيف جدّا. لأنّ إيقاف الزّمن، يعني توقّف موجات الضوء فلا يكون بوسعك رؤية شيء من حولك، وتوقّف ذرّات الهواء، فتشكّل حاجزا صلبا تصطدم به إذا حاولت المشي.. بل لا يمكنك حتّى التنفّس، لأنّ كلّ شيء ساكن في مكانه، فلا هواء يدخل رئتيك أو يخرج! في الحقيقة، توقّف الزّمن يعني العدم. وإذا ما توقّف الزّمن بالنّسبة إلى كلّ العالم، فلن يكون هناك تأثير على الإطلاق، لأنّه لا أحد يشعر بتوقّف الزمن أو مضيّه في هذه الحالة!

حدّقوا فيك مبهوتين لبرهة، ثمّ ما لبثوا أن عادوا إلى صخبهم ونكاتهم الجريئة. بينما سرحت في أفكارك.

الزّمن، إنّه أحد مكوّنات الوجود.. مخلوق من مخلوقات الله! البشر لا يمكنهم إدراك ذلك البعد. لأنّهم سجناء اللّحظة الرّاهنة.. الحاضر! لكنّ الأمر مختلف بالنّسبة إلى الخالق. هو خارج نطاق

الزّمان والمكان، وهو قادر على الإحاطة بكلّ الأبعاد دفعة واحدة. لا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل! فقط خارطة للكون في كلّ لحظاته، مثل شرائح متراصّة بعضها إلى جوار بعض، في نسيج متلاحم للزّمان والمكان...

تتساءل، متى خلق الله الزّمان؟ قبل خلق الكون أم بعده؟ قبل كتابة القدر في اللّوح المحفوظ أم بعدها؟ لكنّ السّؤال ذاته يبدو سخيفا. كيف يمكنك الحديث عن ترتيب أحداث الخلق، إذا كان الزّمن ذاته أحد المخلوقات! لا معنى للحظات الزّمنيّة حين يتعلّق الأمر بالذّات الإلهية السّامية. لكنّ عقلك لا يتّسع للمعرفة التي تسعى إلى بلوغها.. وتستمرّ في المكابرة.

- أحلى كأس شاي للدّكتور مالك!

تبتسم، حين يصل النّادل ويدور عليكم بالمشروب الحلو، وتلقي بأسئلتك المضنية إلى أقبية الوعي المظلمة.

استمرّ الوضع على تلك الحال زهاء الأشهر الثلاثة، حتّى جاءت الموافقة الرّسميّة من مستشفى الملك خالد الجامعيّ بالرّياض، واستلمت من وظيفتك القديمة خطابا يثبت التحاقك ببرنامج التخصّص لمدّة سنتين. كنت جاهزا للسّفر، مترقّبا له.

تجرّأت، وزرت كلّيّة الطبّ والمستشفى الجامعيّ، كمن يقف على الأطلال. وقفت في السّاحة طويلا، تنازع نفسك على ولوج المبنى وتصدّها. ما الذي جئت تبحث عنه تحديدا؟ وماذا لو رأيتها؟ هل تحاول تجربة تأثيرها عليك، بعد كلّ هذا الوقت؟ أم تودّعها هي الأخرى.. وداعا لا لقاء بعده؟ لقد ودّعت ريم كما يليق، لكنّ وداع سارة ظلّ مبتورا وجارحا.

كانت تستحقّ منك أفضل من ذلك. ما زالت تلك الفكرة تعذّبك.

ذرعت السّاحة جيئة وذهابا، وراقبت قسم طبّ الأطفال من بعيد زهاء السّاعتين، ثمّ انسحبت دون أن تراها. أنت لا تملك شيئا تقوله في حضورها. لا طاقة لك بتحمّل نظراتها المعاتبة أو اللاّئمة أو الحانقة. لكنّك أردت أن تلقي عليها نظرة أخيرة.. هل يمكن لذكرى وجهها المشرق أن تغطّي على بشاعة رحيل ريم؟ لا تدري كيف تستقيم تلك المعادلة! لكنّك عدت منكسرا. سترحل إلى غير رجعة، وستظلّ صفحتك الأخيرة في كتاب سارة ملطّخة بالسّواد.

ثمّ زارك الفرسان الأربعة ذات مساء على غير موعد، بعد أن وصلهم الخبر بطريقة ما. ليس فرسان المقهى المستجدّين، بل رفاق الصّبا والشّدائد والتّجارب. ربّما عرف أيّوب من بعض الزّملاء، وربّما اتّصلت عائلتك بحاتم. أنت لا تدري ولا تسأل. أنت غير قادر على إبداء الجفوة أو الاهتمام. كتلة من اللامبالاة كنت. حتّى أمام عناقهم الحارّ، ووداعهم المؤثّر، بقيت جامدا كالصّخر. لكنّك تبرّمت في داخلك. ما الذي جاء بهم؟ أنت منقطع عنهم منذ شهور طويلة. لقد تركت مناظرتهم ونقاشهم وأعلنت بوضوح أنّك راضٍ عن وضعك الجديد، فما الذي يرمون إليه تحديدا؟

قال أيّوب في عتاب:

- هل أردت الرّحيل دون أن تخبر أحدا؟ حتى باسم الصّداقة القديمة يا أخي! لولاك ما عرف أحدنا الآخر. يشقّ علينا أن تعاملنا كغرباء، رغم كل ما مررنا به سويّا!

كان محقّا. لقد تحمّلوك، وغلظتك وسخطك وبرودك ونزواتك. لم تكن أنت لتتحمّل نفسك.. لكنهم فعلوا. حتّى وأنت تصافح أكفّهم وهم ينصرفون عنك للمرّة الأخيرة، لم تعترف لنفسك بمدى خسارتك.

نِعم الأصدقاء كانوا.. وبئس الرّفيق كنت.

-٢-

وصلت إلى الرّياض، مثل غريب لم ينتمِ إلى المكان يوما. هنا نشأت وتشرّبت العلم وحفظت القرآن. هنا ترعرعت وشببت عن الطّوق وعشت مراهقتك وبداية شبابك. لكنّ كلّ شيء يبدو مختلفا اليوم. أنت نفسك مختلف يا مالك، فلعلّك ترى انعكاس حالك على البنايات والشّوارع والوجوه العابرة؟

كان من المنطقيّ أن تستقرّ حذو الأهل في الفترة الأولى، تطفئ نار الشّوق وتستزيد من دفء الأجواء العائليّة التي صارت نادرة ومتباعدة نظرا لتغرّبك الطويل. جعلت منك والدتك مركز اهتمامها الأوّل، وعدت في نظرها طفلا صغيرا يحتاج إلى كثير رعاية ووفير عناية. تطعمك بيديها وتراقب حركاتك وسكناتك، تجزع لشحوب سحنتك وتنطلق أساريرها كلّما غادرت غرفتك وشاركتها الجلسة في شرفة الدّار المكشوفة.. تجلس لساعات أنت وهي، تتحدّثان في أيّ شيء وكلّ شيء، تضحكان وتتسلّيان، كأنّك تعوّضها عن فترات الغياب الممتدّة، وتنهل من معين عطفها وحنانها. وقد استسلمت لأوامرها ونواهيها لأسبوعين، استرددت خلالهما أنفاسك وصفى ذهنك.

أما والدك، فكان قد تقاعد من عمله في شركة البترول منذ سنوات. لكنّه شأنه شأن رجال الدّعوة والفكر لم يكن يستقرّ في المنزل إلا قليلا، ويشغل وقته بالمجالس وحلقات العلم وتحفيظ القرآن في مسجده المفضّل منذ عقود. وكان يرنو إليك بتلك النّظرة الصّامتة في ذهابه وإيابه، فتقرأ في مقلتيه خيبته وخذلانه. ولده النّابغة الذي تنبّأ له الكلّ بمستقبل واعد، يرجع من غربته حليق الوجه غائم العينين!

وكان لا يفتأ يقترح عليك كلّما عنّ له:

– ألا يجدر بك أن ترى طبيبا ما؟

ربّاك والداك على الشدّة، لا على الحبّ. لذلك كانت علاقتك بهما متباعدة رغم الاحترام والودّ. لم تكن قريبا منهما كما يجدر بك أن تكون. ولدت لأبوين متديّنين، بل شديدي التديّن، مثل أنتوني فلو. كان والده كاهنا مسيحيّا.. وكان والدك رجل دعوة إسلاميّة. لكنّك لم تتنكّر للدّين مثله في وقت مبكّر. ربّما لأنّك كنت بدورك من حرّاس العقيدة الغلاظ الشّداد. كنت حريصا على الواجبات غيورا على المقدّسات، مولعا بالحدود والضّوابط، جزعا من المحرّمات والشّهوات. هل تنقم عليهما بسبب تربيتك الصّارمة وتعليمك الدّينيّ الجادّ؟

تدرك الآن أنّ عباداتك كانت تقليدًا لمن تجلّهم من رجال العائلة.. والدك وخالك، وسعيا لنيل حبّهما ورضاهما. صغيرا، كنت تحرص على صلاتك بين الرّجال ليقال نضج، وتحفظ القرآن والمتون ليقال عبقريّ.. وحين كبرت، تصدّرت في المجالس ليقال خطيب، واستعرضت معارفك في الفقه والحديث ليقال عالم.

وقد قيل!

فلماذا تلومهما إذن؟

لقد فعلت كلّ شيء من أجل ذاتك، فلا تتّهم أحدا بالتّجنّي عليك!

كانت رقابة الأهل في المملكة نعمة عليك. وقد أدركت بعد أيّام قليلة أنّك فررت من صخب شهواتك التي حرّرتها باريس، ولذت بأحضان المجتمع المحافظ الذي يحميك من نفسك! كنت بحاجة إلى وازع خارجيّ يجبرك على التّماسك.

بعـد أسـابيع قليلـة، خرجـت إلى المستشـفى لأوّل مـرّة، لتسـتلم وظيفتـك الجديـدة. اسـتقبلك الدكتـور نديـم المغـربي، رئيـس قسـم جراحـة العظـام بمستشـفى الملـك خالـد الجامعـي، وقـد كان كهـلا في بدايـة الخمسـينيات، مـصريّ الجنسـيّة. اعتـذرت عـن تأخّـرك متذرّعـا بالمعامـلات الإداريّـة، ثـمّ تحدّثتمـا قليـلا عـن أوروبـا الـتي كانـت مـكان دراسـته أيضـا منـذ عقديـن. كان خرّيـج جامعـة في مدينـة مانشيسـتر البريطانيّـة.

– لقد استبشرت بك خيرا يا مالك.

فاجـأك بتصريحـه غـير المتوقّـع وابتسـامته المحتفيـة. فعاهـدت نفسـك في تلـك اللّحظـة عـلى العمـل بجـدّ حـتّى تكـون في مسـتوى الثّقـة الـتي وُضعـت فيـك، وأن تبـدأ عهـدا جديـدا مـن الاسـتقامة والتّفـاني، وتطـوي صفحـة باريـس ونزواتهـا.

انتقلـت بعـد ذلـك إلى شـقّة خاصّـة، متعلّـلا بـضرورة القـرب مـن المستشـفى والجامعـة. كانـت أوضاعـك قـد اسـتقرّت، واستسـلمت لنسـق حياتـك الجديـدة. صرت تقـضّي معظـم وقتـك في المستشـفى. وإذا مـا انتهـت مناوبتـك، جلسـت في مكتبـة الجامعـة، تلتهـم المراجـع والمقـالات العلميّـة. فـإذا مـا رجعـت مسـاءً إلى شـقّتك، طلبـت عشـاءً جاهـزًا تتناولـه أمـام نـشرة الأخبـار، ثـمّ تـأوي إلى سريـرك منهـكا. وفي نهايـات الأسـبوع، تمـارس الرّياضـة في نـادي الجامعـة.. السّـباحة وكـرة الطاولـة. ثـمّ تـزور والديـك، وتقـضي برفقتهمـا الأمسـية وجـزءًا مـن السّـهرة.

لـم تحـاول تكويـن صداقـات جديـدة، ولـم تسـمح لأحـد بتجـاوز حـدود الزّمالـة المهذّبـة معـك، مـع الحفـاظ عـلى مسـاحتك الشّـخصيّة. كنـت قـد صرت مالـكا آخـر في تلـك الأيّـام.. شـخصا لا تهمّـه آراء الآخريـن، لا يحـاول إثـارة الإعجـاب ولا يخـوض أيّ نقاشـات يثبـت فيهـا رأيـه أو

يحـاول تغيـير قناعـات مـن حولـه. كان نوعـا مـن التّصالـح مـع وضعـك، والسّـلام الدّاخـليّ الـذي يغلّـف كتلـة القلـق الـتي دفنتهـا في أعماقـك.

وقد تمكّنت من العيش على تلك الشّاكلة لسنتين.

سنتان كنـت خلالهمـا مثـالا للطبيـب المقيـم الجـادّ. كنـت تحـبّ مـا تعمـل، وقـد فضّلـت أن تهـب مهنتـك كلّ وقتـك المتـاح. لـم تكـن تـتردّد في النّيابـة عـن زملائـك حـين تسـتدعي الحاجـة، فتصـل فـترة عمـل بأخـرى دون تذمّـر، لتسـمح لهـذا بحضـور مناسـبة عائليّـة ولتلـك برعايـة طفـل أصابتـه الحمّـى. أمّـا أنـت، فـلا علاقـات ولا روابـط أسريّـة تحبسـك عـن أداء مهمّتـك. لذلـك، فقـد كان رصيـدك لـدى الزّمـلاء يتنامـى، وخاصّـة عنـد رئيـس القسـم الـذي لـم يكـن يفوتـه تواجـدك شـبه الدّائـم بالمبـنى!

في تلـك الفـترة، لـم تكـن تجاهـر بمعتقـدك، كمـا كنـت تفعـل في باريـس. لـم يكـن مـن الحكمـة أن تفصـح عـن انبتاتـك عـن عـادات المجتمـع والسّـمت السّـائد فيـه، مراعـاة لسـمعة عائلتـك أوّلا، وتجنّبـا لصدامـات أنـت في غـنى عنهـا ثانيـا. لكنّـه كان مـن اليسـير للمدقّـق في أمـرك أن يلحـظ تخلّفـك الدّائـم عـن الصّـلاة الجماعيّـة.. لكنّـه ليـس شـأنك وحـدك، فكثـيرون هـم المصلّـون المؤخّـرون لصلواتهـم! ثـمّ إنّ مهنـة الطّـبّ بشـكلّ خـاصّ تسـتدعي منـك الحضـور في أوقـات الصّـلاة في قاعـات الطّـوارئ أو غـرف العمليّـات.. لكنّـك لـم تشـاهد مـرّة واحـدة وأنـت تتوضّـأ مثـلا، أو تدخـل غرفـة الاسـتراحة لتـؤدّي صـلاة فائتـة.

مـا الـذي كنـت عليـه حقيقـة في تلـك الفـترة؟ لـم تكـن تحـاول أن تفكّـر بالأمـر.. لـم تعـد تريـد أن تتبـع دليـلا أو حجّـة. تركـت هوايتـك القديمـة والأثـيرة، الفلسـفة. ورضيـت بالخمـول التّـام. هـل كان ذلـك عـلى سـبيل الاستسـلام، أم نوعـا مـن المكابـرة؟ لعلّـه مزيـج عجيـب مـن الاثنـين. استسـلام للحـزن، وعجـز عـن إبصـار الحقيقـة بشـكل مبـاشر.

أنت تخشى اتّباع الدّليل هذه المرّة، لأنّ ما يخبرك به عن مصير ريم يرعبك. لكنّك تشيح بوجهك في غباء، متغاضيا عن مصيرك أنت!

ثمّ جاء رمضانك الأوّل في الرّياض. نازعتك نفسك بين النّفاق والمجاهرة. ثمّ رأيت أن تستمرّ على نفس النّسق. أنت لا تنافق بقدر ما تراعي مشاعر زملائك ومرضاك الصّائمين! وأنت تراعي شيبة والدتك وكبر سنّها وتخشى عليها من الصّدمة. كنت تمتنع عن الأكل والشّرب طيلة النّهار، حتّى حين تكون منفردا في شقّتك -من باب التعوّد- وتجلس إلى مائدة الإفطار كلّما وجدت نفسك مع الصّائمين، وأنت صائم حقيقة -دون نيّة أو ثواب- لا ينالك من صومك غير الجوع والعطش!

ثمّ بعد بضعة شهور، شرع الدّكتور نديم يتقرّب منك بشكل مريب. بدأ الأمر حين دعاك ذات مرّة لتناول الغداء برفقته، في مطعم المستشفى. أنت لا تنكر إعجابك بالرّجل، لمهنيّته الفائقة أوّلا، ثمّ لدماثة خلقه، وحسن معاملته لك. ومع أنّك تعوّدت الوحدة، ورفضت كلّ مبادرات الصّداقة، فإنّك لم تملك أن تعتذر هذه المرّة. لأنّه رئيسك المباشر أوّلا، ثمّ لتقديرك الشخصيّ للرّجل المحترم والطّبيب الماهر الذي كانه.

جلستما متقابلين أمام المائدة، ثمّ سألك دون مواربة:

– ما هو سرّك الذي تحاول إخفاءه عن الجميع يا مالك؟

شلّتك الصّدمة. هل كان أمرك مكشوفا تماما رغم محاولات التّورية؟!

ضحك أمام سحنتك الشّاحبة وعلامات التوتّر التي علت ملامحك، ثم قال:

– حين كنت في مثل سنّك أو أقلّ قليلا، كنت أباشر العمل في

المستشفى في مانشيستر.. وذات مساء، كنت في مناوبة الطّوارئ، حين دخل رجل مسطول بكسر في ذراعه! كانت بحوزته لفافات حشيش، وكان يترنّح ويهذي بكلام غير مفهوم. كنت مع زميلين لي في القسم يومها، أحدهما بريطاني والآخر إسبانيّ.. بعد أن اهتممنا بحالته، انسحبنا نحو غرفة الاستراحة.. وكان البريطاني يتصرّف بتكتّم غريب، ثمّ أخرج فجأة إحدى لفافات الرّجل التي كانت قد وقعت على الأرض! أشعلها وعرض علينا أن نجرّب معه. حاولت الامتناع، لكنّه أصرّ على أن أكون جزءًا من الخطّة حتّى لا أفشي السّرّ.. والحقيقة أنّ الفضول غلبني، فأخذت نفسا من اللّفافة.. ثمّ غادرت الغرفة على الفور، وقد انتابتني رغبة في التّقيّؤ! وحين رجعت، كان الزّميلان يضحكان بهستيريا ويغنّيان ويتقلّبان على الأرض!

شاركته الضّحك، ثمّ استطرد نديم محذّرا:

- هذا سرّ لم أبح به لأحد قبلك.. ولا حتّى لزوجتي! أنت كاتم جيّد للأسرار، أليس كذلك؟

أومأت برأسك موافقا وقد ازداد استغرابك.. بينما أضاف:

- والآن دورك.. واحدة بواحدة!

أطرقت طويلا، وفكّرت.. هل يكون من الحكمة أن تصارحه بما تخفيه؟

حين طال صمتك، وجدته يقول في إشفاق وتفهّم:

- لا بأس، إن لم تكن مستعدّا اليوم، فسنتحدّث مرّة أخرى!

ثمّ سارع بتغيير الموضوع، وانتقل من شأن إلى آخر حتّى أنهيتما غداءكما.

فكّرت كثيرا بعد ذلك. هل كنت بحاجة إلى المساعدة؟ ليس تماما. أنت راضٍ عمّا آلت إليه الأمور. لكنّك تفتقد الصّحبة، والأخوّة

الصّادقـة، والفضفضـة مـن حـين إلى آخـر، وأن تـرى نفسـك في مـرآة عيـني شـخص آخـر، يسـتمع إليـك ولا يدينـك. وكنـت تحسـب أنّ لـدى الدكتـور نديـم مقوّمـات الصّديـق الـذي ينقصـك.

قـرّرت إن هـو كـرّر السّـؤال أن تفـضي إليـه بـكلّ مـا كابدتـه منـذ وطئـت قدمـاك أرض تونـس وحـتّى عودتـك إلى الرّيـاض مـن جديـد. تجهّـزت لحديـث طويـل تـروي فيـه قصّـة حياتـك، حـتّى جـاءت الفرصـة، بعـد شـهر كامـل مـن الدّعـوة الأولى. جلسـتما متقابلـين، وأمامكمـا أطبـاق الغـداء، ولـم يحـاول هـذه المـرّة أن يسـتدرجك. لكنّـك كنـت مسـتعدّا، فانطلقـت تتحـدّث دون اسـتئذان. تعـرّي سـوأتك وتكشـف عـن المسـتور. وحـين انتهيـت، كان يحـدّق فيـك في إمعـان وذهـول. ضحـك أخـيرا في حـرج ثـمّ قـال:

– أوه، أشعر أنّ قصّة اللّفافة كانت سخيفة جدّا مقارنة بهذا!

ضحكـت بـدورك، في شيء مـن الخيـلاء. نعـم، مـا عشـته أنـت وحـدك يعـادل تجـارب عـشرات البـشر العادّيـين الذيـن لـم تختـبر الحيـاة حقيقـة معدنهـم بعـد! ثـمّ تنتبـه مـن ضلالـك.. ومـا حقيقـة معدنـك أنـت؟ حديـد صلـب خـام لا تصهـره درجـات الحـرارة الـتي تقـلّ عـن ألـف وخمسـمائة درجـة مئويـة؟ ربّمـا.. لكنّـك لسـت ذهبـا يـزداد بريقـا ولمعانا، فقـد لطّخـت التّجربـة قلبـك بالسّـواد!

لـم تختلـف معاملـة الدّكتـور نديـم تجاهـك بعـد حديـث الصّراحـة ذاك. بـل لعلّـك شـعرت بمزيـد حنـان ورفـق مـن طرفـه. وقـد ضايقـك ذلـك نوعـا مـا وخيّـب أملـك. كنـت تتوقّـع ردّ فعـل مختلفـا.. شـيئا مـن النّقـاش مثـلا؟ بعضـا مـن سـلوك فرسـانك الأربعـة؟ لكـنّ نديـم فضّـل تجاهلـك، كأنّـه يعلمـك أنّ إيمانـك مـن عدمـه يخصّـك وحـدك؟

ثـمّ جـاء شـهر رمضـان ثـانٍ لـك في الرّيـاض. وتلقّيـت دعـوة غريبـة،

مـع ثلّـة مـن الزّمـلاء عـلى الإفطـار في مـنزل الدّكتـور نديـم! حاولـت التملّـص مـن الحضـور، لكنّـه ألـحّ عليـك بشـكل محـرج، وأشـار إليـك وهــو يغـادر المبـنى، أمـام كلّ أطبّـاء القسـم:

– سأكون بانتظارك يا مالك!

لـم يكـن بوسـعك إلّا الرّضـوخ. لكنّـك كنـت تتسـاءل في حـيرة، مـا الـذي ينويـه بالضّبـط؟ إنّـه يعلـم أنّـك ربـوبيّ، لا تصلّي ولا تصـوم.. فمـا الـذي يرمي إليـه بدعوتـه تلـك؟

وصلـت بعـد أذان المغـرب ببضـع دقائـق. قـدّرت أن يكـون مضيّفـك وزوّاره قــد أدّوا الصّـلاة ويتحلّقـون حــول مائــدة الإفطــار، وقــد كان. قرعـت الجـرس، ففتـح لـك نديـم بنفسـه. صافحـك بحـرارة ثـمّ قـادك إلى المجلـس الخارجـيّ المنفصـل عـن بقيّـة غـرف المـنزل. انضممـت إلى آخريـن حـول مائـدة عامـرة بأصنـاف كثـيرة مـن المطبـخ المـصريّ. ثـمّ دارت كـؤوس الشّـاي والكعـك مـنزليّ الصّنـع.. ولمـا حـان موعـد صـلاة العشـاء والقيـام، هممـت بالانـصراف، لكـنّ نديـم تأبّـط ذراعـك وقـال بصـوت عـال:

– انتظر يا مالك، أحتاجك في شأن خاصّ...

بينمـا انـصرف الآخـرون، غـادرت برفقـة مضيّفـك مشـيا عـلى الأقـدام إلى وجهـة لا تعلمهـا، لكنّـك مذعـن منسـاق. حـتّى وصلتمـا أمـام مسـجد السّـكن الجامعـيّ. التفـتّ إليـه في ارتبـاك، فقـال بلهجـة جـادّة:

– ما رأيك في أن تفتح قلبك وتجرّب؟

تجرّب؟ أولم تجرّب من قبل؟

لـو كان صاحـب المبـادرة أيّ شـخص آخـر، لكنـت عنّفتـه دون تـردّد وانصرفـت عـلى الفـور غاضبـا. لكنّـه الدّكتـور نديـم، رئيـس قسـمك. قلـت في حـرج:

- لا أستطيع!

- لـن تخـسر شـيئا.. إذا شـعرت بالضّيـق، يمكنـك الانـصراف وقتمـا تشـاء.

استسـلمت إلى ذراعــه تقــودك حــتّى الصّفــوف الأماميّــة للمصلّــين. وجـدت نفسـك محاطـا بأسـاتذة الجامعـة، يتصافحـون ويبـارك أحدهـم للآخـر، ويقدّمـك الدّكتـور نديـم عـلى أنّـك تلميـذه المفضّـل. ثـمّ جـاء الإمـام وهـو شـابّ يماثلـك سنّا أو يزيـد قليـلا، فصافـح الجميـع بـدوره، قبـل أن يتّخـذ موقعـه. همـس نديـم:

- الشّيخ عقيـل زميـل لنـا في كلّيّـة طـبّ الأسـنان.. وهـو حافـظ لكتـاب الله، وذو علـم شرعـيّ واسـع.

ابتسـمت رغمـا عنـك، وأنـت تسـتحضر شـكل طبيـب الأسـنان الشّـاب الـذي صلّيـت خلفـه لسـنوات في جامـع المـرسى، فغمرتـك الذّكـرى بـدفء عجيب.

ثمّ أقيمت الصّلاة.

مـا إن شرع الإمـام في تـلاوة الفاتحـة، حتّى سرت قشـعريرة في جسـدك. كان صوتـه شـجيّا عذبـا يسـتدعي الخشـوع ويسـتجلب الدّمـع. ثـمّ أخـذ يقرأ:

(أَمَّـن يُجِيـبُ الْمُضْطَـرَّ إِذَا دَعَـاهُ وَيَكْشِـفُ السُّـوءَ وَيَجْعَلُكُـمْ خُلَفَـاءَ الْأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَّـعَ اللَّـهِ قَلِيـلًا مَّـا تَذَكَّـرُونَ * أَمَّـن يَهْدِيكُـمْ فِي ظُلُمَـاتِ الْـبَرِّ وَالْبَحْـرِ وَمَـن يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُـشْرًا بَـيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ أَإِلَـٰهٌ مَّـعَ اللَّـهِ تَعَـالَى اللَّـهُ عَمَّـا يُشْرِكُـونَ * أَمَّـن يَبْـدَأُ الْخَلْـقَ ثُـمَّ يُعِيـدُهُ وَمَـن يَرْزُقُكُـم مِّـنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَّـعَ اللَّـهِ قُـلْ هَاتُـوا بُرْهَانَكُـمْ إِن كُنتُـمْ صَادِقِـينَ).

تسـمّرت مكانـك، وأصغيـت بـكلّ جوارحـك. تسـتعيد مشـهد جامـع سـلطان أحمـد في إسـطنبول وآخـر عهـدك بالتّـلاوة المؤثّـرة الـتي تحييـك

مـن الممـات، فتعيـش حالـة الوجـد ذاتهـا، كأنّـك تلمـس صحـف القـرآن النّديّـة تلقـي عليهـا نظـرة لأوّل مـرّة، فتهـتزّ أركان ذاتـك المكابـرة مـن الأعمـاق.

ركـع الجميـع ولـم تركـع. فشـدّك نديـم مـن كـمّ قميصـك حـتّى تفعل ولا تلفـت الأنظـار إليـك، فأحنيـت ظهـرك وأنـت لا تـزال في حالـة ذهـول، تتداعـى في وجدانـك كلّ المشـاعر الغامـرة الـتي تذوّقتهـا ذلـك اليـوم، وأنـت تنصـت إلى المقـرئ الـتّركيّ. أتكـون قـد خزّنـت تلـك «الحالـة» في ذاكرتـك في وضـع سـبات شـتويّ حـتّى جـاء مـا يوقظهـا؟

أنهيـت صـلاة العشـاء دون أن تسـتوعب شـيئا ممّـا يجـري حولـك. كنـت تسـجد وترفـع وتقـف وتركـع مثـل آلـة عميـاء. ثـمّ التقطت أنفاسـك، وعـدت إلى التّركـيز مـع التّـلاوة. كان جـزء خـاوٍ مـن روحـك يمتـلئ. رغـم كلّ شيء، كنـت تفتقـد تلـك الرّوحانيّـات الـتي تـلازم شـهر رمضـان، صيامـه وقيامـه، ثـمّ التهجّـد سـاعة السّـحر. كنـت في ظمـأ شـديدٍ، وقـد وجـدت نفسـك فجـأة أمـام نبـع جـارٍ شرابـه عـذب، يتدفّـق مـن شـفتي الإمـام الشـابّ.

ثمّ جلس في استراحة بين ركعات التّراويح، وأخذ يخطب:

- سـنخصّص هـذه الجلسـة القصـيرة لتـدارس أسـماء الله الحسـنى.. فهـي بـاب معرفـة الله، وسـبب صـلاح القلـوب.. فهـي تقـوّي جانـب الخـوف والمراقبـة وتعظـم المحبّـة والرّجـاء في القلـب، وتزيـد في إيمـان العبـد.. والمعرفـة سـبب لنيـل محبّـة الله.. فاللّـه يُحـب مـن أحـبّ أسـماءَه الحسنى! وهـي تـورث صـدق اليقـين والتـوكل.. فمـن عـرف غِـنى الله وفقـر خلقـه، وقـدرة اللّـه وعجـز خلقـه، وقـوة اللّـه وضعـف خلقـه، عـرف مقـدار افتقـار الخلـق لغـنى الله، وضعفهـم لقوّتـه، وتواضعهـم لعظمتـه، وذلتهـم لعزّتـه، تبـارك وتعـالى.

أصغيت باهتمام ولهفة. لم يكن يقول كلاما تجهله، لكنّ روحك تتوق إلى تلك الأيّام الخوالي، التي تناجي في ظلمة لياليها خالقك، فتدمع عيناك.. لقد جفّت مقلتاك لأمد طويل، حتى نسيت كيف يكون البكاء بين يديه.

- ونستهلّ اليوم مع اسم الله «التوّاب».. ونحن في مطلع هذا الشّهر المبارك الذي تضاعف فيه الحسنات، فليس هناك ما هو أفضل من أن نستقبله بالتّوبة عن الذّنوب.. والتّوبة تفيد معنى الرّجوع، والتّواب بمعنى يقبل توبة عباده. وفعّال من صيغ المبالغة مثل مشّاء لكثير المشي. فهو التوّاب الذي ييسّر أسباب التوبة لعباده مرّة بعد مرّة بما يظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته.. وإذا كانت التوبة معناها الرّجوع والعودة، فإن الله تعالى كثير العودة بأشكال الإحسان على عباده، فهو يوفقهم بعد الخذلان، ويعطيهم بعد الحرمان، ويخفف عنهم أنواع البلاء، ومن توبته يقابل الدّعاء بالعطاء، والاعتذار بالغفران، والتوبة بمحو الحوبة...

استمرّ الدّرس بضع دقائق، لبثت خلالها منتبها مشدودا إلى شفتيه، حتّى قام الشيخ إلى الصّلاة مرّة أخرى. ثمّ أخذ المصلّون يتململون، وينسحبون بعضهم وراء الآخر. فاغتنمت الفرصة لتنسلّ من مكانك في هدوء قبل أن يلحظ نديم تأثّرك.

ما الذي تغيّر؟ لازمك السّؤال طيلة يوم غدٍ. كأنّ قلبك قد أفاق بعد غيبوبة طويلة، ورجع إلى نقطة توقّفه منذ سنتين، خلال رحلة تركيا. كنت على أبواب الإيمان في تلك الآونة! لقد كنت على وشك التّسليم، لولا خبر ريم الذي هدّم كلّ ما بنته داخلك رحلة التأمّل العابرة لبلدان أربع. والآن، تريد أن تستأنف الرّحلة.. على متن تلاوة مؤثّرة وموعظة تجلو الغمام عن حقيقة معرفتك بخالقك.

-٣-

سأصلّي وراءه اليوم أيضا!

أضمرتها في نفسك، وأنت تروح وتجيء بين أروقة المستشفى وقاعات الفحص. وحين رأيت نديم، حيّيته بابتسامة فاترة وفررت من أمامه كي لا يسألك.. فلم تكن بيدك إجابات بعد.

وصلت متأخّرا متعمّدا إلى المسجد، حتّى لا يلمحك أحد معارف الأمس وأنت تدخل أو تخرج. جلست في الصّفوف الأخيرة، واستمعت إلى تلاوة الشّيخ النّديّة، ثمّ إلى درسه القصير، عن اسم الله الغفور. ثمّ تسلّلت مرّة أخرى في صمت قبل أن تقضى صلاة التّراويح.

تردّدت على مسجد السّكن الجامعيّ كلّ ليلة من الأسبوع الأوّل لرمضان. تتعرّف إلى ربّك الرّحمان، الخالق، الشّكور، الرزّاق.. وقد حسبت أنّ نديم لم ينتبه لحضورك ولم يراوده الشكّ بشأنك. ولعلّه قد نسي أمرك والتفت إلى مشاغله، لولا أنّه فاجأك بدعوة جديدة على مائدة إفطاره في نهاية الأسبوع!

وصلت مثل المرّة الأولى، متلكّئا. وحين دخلت المجلس الخارجيّ، فوجئت بشغور المكان، إلّا من الشيخ عقيل وصاحب المنزل! حيّيت الشّيخ في احترام، وأفطرت مطرقا في خجل لا تدري مأتاه.. وكأنّ حضور الشيخ أكثر ممّا تطيق من كرم مضيّفك! وبعد أن فرغتم من أطباق الحمام وصينية البطاطس والمحشي، التفت إليك نديم وقال محرّضا:

- الشّيخ أمامك، فاسأل ما تريد!

نقلت بصرك بينهما في تردّد، ثمّ أطلقت العنان لمارد الأسئلة

المسـجون بالقمقـم منـذ سـنوات!

سـألت عـن الحكمـة مـن الخلـق، وعـن بيـت أبي العـلاء المعـرّي الـذي لازمـك كثـيرا في فـترة ضياعـك، فقـال الشّـيخ عقيـل:

- لمـا كان الله حكيمًـا، فـلا بـد أن تكـون لـه غايـات ومقاصـد لأفعالـه عمومـا، ومـن خلـق البـشر بشـكل خـاصّ.. قـال تعـالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُـمْ عَبَثًـا وَأَنَّكُـمْ إِلَيْنَـا لَا تُرْجَعُـونَ). ولمـا كان الله غنيّـا عـن كلّ شيء، فـإنّ الغايـة بالتّأكيـد تخـصّ البـشر. قـال تعـالى: (إِنَّ اللَّـهَ لَغَـنِيٌّ عَـنِ الْعَالَمِـينَ). وخَلْـقُ البـشر لإلحـاق الـضرر بهـم هـو ظلـم قبيـح، ولمـا كان الله عـادلًا، فيسـتحيل أن يكـون قصـده الإضرار بمخلوقاتـه. إذن فـلا بـدّ أن يعـود الخلـق عـلى البـشر بالنّفـع.. أوليـس الوجـود خـيرًا مـن العـدم، والحيـاة خـيرًا مـن الجمـود؟ والجـزاء في الآخـرة المصحـوب بتكريـم وتعظيـم خـيرٌ مـن التّكـرار.

- إذن لمـاذا لـم يخيّرنـا الله بـين الحيـاة والعـدم؟ فربمـا كان الإنسـان ليرفـض الخضـوع للاختبـار الدّنيـويّ، وهـو حقّـه، فلمـاذا أجـبره الله عليه؟

- يخبرنـا الوحـي بـأنّ الله قـد خيّرنـا بالفعـل. قـال تعـالى: (إِنَّـا عَرَضْنَـا ٱلْأَمَانَـةَ عَـلَى ٱلسَّـمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَـالِ فَأَبَـيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا ٱلْإِنسانُ إِنَّـهُۥ كَانَ ظَلُومًـا جَهُـولًا)، (وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّـكَ مِـن بَـنِي آدَمَ مِـن ظُهُورِهِـمْ ذُرِّيَّتَهُـمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَـلَى أَنفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِرَبِّكُـمْ قَالُـوا بَـلَى شَـهِدْنَا أَن تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّـا كُنَّـا عَـنْ هَـذَا غَافِلِـينَ). وقـد أجمـع المفـسّرون عـلى معـنى الآيـة، أنّ الله أخـرج جميـع بـني آدم، وعددهـم بالمليـارات كمـا نعلـم، مـن ظهـر آدم عـلى هيئـة الـذرّ -أي مثـل النّمـل الصّغـير- ثـم سـألهم ألسـت بربّكـم؟ قالـوا بـلى، فقالـت الملائكـة: شـهدنا أن تقولـوا يـوم القيامـة إنّـا كنّـا عـن هـذا غافلـين. وقـد يقـول قائـل: ولكـنّي لا أذكـر تعـرّضي لهـذا التّخيـير ولا أذكـر أني شـهدتُ

أمام الملائكة بأن الله هو ربّي! ذلك أنّ الله أعاد البشر جميعا إلى ظهر آدم، ليخرج كلّ منهم في وقته إلى الدّنيا ويدخل هذا الاختبار بعد أن مُسحت تلك الحادثة من ذاكرته، إلا أنّه وضع لنا علامات في الطريق، وترك فينا فطرة الشّعور بألوهيته، وأرسل لكلّ أمة رسولا...

استمرّ يحدّثك عن قصّة الخلق التي تعرفها، وعن معاني الحياة والوجود. ولبثت تنصت في اهتمام رغم الرّيبة التي تنازعك. لكنّك كنت مشدودا إلى كلمات الشّيخ، تستعذب الحديث إليه. لم تكن طريقته تشبه في شيء ما تعوّدت عليه من الشّيوخ الصّارمين الواعظين.. ولم يكن يطالعك بشفقة من يحاول ردّ شاة شاردة إلى الحظيرة الآمنة. كنت تشعر بالارتياح أخيرا. فبرحمة من الله لان لك جانبه، ولو كان فظّا غليظ القلب لانفضضت من حوله. كأنّه «رسولك» الخاصّ، يبلّغك برسالة خاتم الأنبياء، منتهجا نهجه متّبعا سبيله.

انتهت الجلسة مع أذان العشاء، فرافقت مضيّفك وصاحبه إلى المسجد دون تعنّت. أنت ترغب في ذلك بكلّ جوارحك، أن تصاحب الرّجل مدّة أطول، تصغي إلى ترتيله وشروحه. ابتسم نديم وهو يشدّ على كتفك في حماس:

- أظنّ أنّنا لم ننته بعد.. كلاكما مدعوّ عندي غدا على الإفطار!

أومأت في استسلام وامتنان. كنت مستعدّا للإصغاء، تائقا إلى الخلاص.

وما أن جمعتكما الجلسة في الغد، حتّى بادرت على الفور. كنت قد فكّرت في الأسئلة التي تحتاج ردودا شافية. معضلة وجود الشّرّ!

- إن كان غرض الخلق إسعاد البشر، فلماذا يبتلينا الله، فيمرضنا، ولا يرزقنا، ولا ينصرنا، ولا يجيب دعاءنا، ولا يهدينا؟!

ابتسم الدّكتور عقيل وقال:

– هناك أنواع ثلاثة من الشّرور علينا أن نميّز بينها.. أوّلها أسبابه طبيعيّة، متعلّقة بنواميس الكون. فقد شاءت حكمته تعالى أن يخلق كونا بنواميس صارمة، وضوابط دقيقة. فمن يضع يده في النّار سيحترق بالتأكيد، ولا يعدّ هذا عقابًا أو ابتلاءً، بل هو نتيجة حتميّة لقانون كونيّ. وإن نزل مؤمن وكافر البحر، فسيغرق من لا يجيد السّباحة، دون أدنى مراعاة لتقواه، (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا). حتّى الكوارث الطّبيعيّة، فهي تحدث نتاج تحوّلات صغيرة ومتواصلة في بنية الكرة الأرضية.

أخذ نفسا ورشفة ماء، ثمّ استطرد:

– وثانيها من صنيع الإنسان نفسه.. إنّ الله لم يقتل الأطفال في الحروب والمجاعات، وإنما قتلهم الطغاة والبغاة. والله لم يمرض ذاك، بل الطعام أو الهواء الملوّث هو الذي أمرضه. والله لم يهزم ذاك الجيش، وإنما هُزم لنقص عدّته وعتاده أو لقلّة خبرته. وهكذا حين نتتبّع معظم مصائب الدّنيا نجدها تحدث نتاج أسباب دنيويّة ومادّيّة وبشريّة. حتّى معظم الكوارث في عصرنا تعود إلى الاحتباس الحراري، ونشاط الإنسان الصّناعيّ والاستهلاكيّ! وقد صرّح الله تعالى بمسؤوليّة البشر عن شرور الدّنيا بقوله: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ).

– إذن لماذا لا يتدخل الله ليمنع الشرّ؟

– هذا يأخذنا إلى الصّنف الثالث.. الاختبارات. خلق الله بشرًا بإرادة حرّة وكونًا منتظمًا ثابت القوانين ليتحقّق الاختبار الدّنيويّ. لكنّ زاد كلّ منّا في وجه الاختبار مختلف. بعضنا خُلق فقيرا والآخر غنيّا، بعضنا صحيحا قويّ البنية وبعضنا هشّا ضعيفا.. هي أرزاق مختلفة، وليست شرّا محضا، ليبتلينا أنشكر أم نكفر. ما الذي نفعله

بنعمه علينا وكيف نوظّفها.. ما مدى صبرنا ورضانا!

سكت برهة ثمّ أضاف:

- تخيّل معي، لو اختار إنسان ارتكاب الشرّ، فتدخّل الله ليمنع شرّه! هل سيبقى للكون أو الحياة معنى أو وظيفة؟ وكيف سيكشف عن الأشرار والأخيار إذن؟ أما عن إقامة العدل، فيوم الحساب يعود الحق المنتهَك إلى أصحابه ويجازى كلّ حسب عمله، فهو يوم استحقاق وعِوض.. استحقاق الصالحين الخيّرين لثوابهم، واستحقاق الظالمين لعقابهم. وعِوض الجميع عن آلامهم. قال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا).

ثمّ أضاف مبتسما:

- ثم إن الخير والشر نسبيّان، والبعض قد يعتاد على الخير، إلى أن يشعر به شرّا، مثل أهل سبأ (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا).. أو من ينتحر لكثرة الغنى والشهرة والمال! وكل شرّ تراه في الدّنيا يقابله خير في موضع آخر.. قد نحيط به علما، وقد لا نحيط به، وهذا مردّه إلى اكتمال حكمة الله وعلمه (فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا). وكثير من الأمور ظاهرها شرّ في البداية، ثم ينكشف الشرّ عن خير عظيم، والأمثلة من قصة يوسف عليه السلام دلائل على ذلك، وقصّة موسى والخضر عليهما السّلام أيضا...

لم يكن يقول كلاما لا تعرفه. أنت تدرك كلّ تلك المعطيات، منذ زمن بعيد! أم تراه غشي قلبك كنان فلا تفقه، وفي أذنيك وقر فلا تسمع، وبينك وبين الله حجاب؟ ليس يحمل إليك اكتشافا جديدا أو نظريّة مستحدثة. لكنّك تجد صدى لعباراته داخلك، كأنّه يزيح ستارا كان يحول بين قلبك وبين ما تعرفه من حقّ! بل لعلّ أسلوب خطابه مثّل الفارق كلّه.. كانت كلماته بسيطة وواضحة، وأفكاره منطقيّة

سلسة، تحترم العقل ولا تهينه.

أنصتّ في انتباه واهتمام، تتشرّب الكلمات وتحتفي بها. لقد كانت رحلتك الطّويلة في شعاب الشكّ خيرا بالتّأكيد، مهما بدت شرّا في شتّى مراحلها. أنت ممتنّ لكلّ ما عشته. تشعر بأنّ كلّ خطوة خطوتها في بحثك كانت ضروريّة، لينتهي بك المطاف أخيرا في تلك الجلسة أمام عقيل.

قلت في حسرة:

– لماذا لا تحدّثون النّاس في خطبكم بهذه الأمور التي تطمئن قلوبهم؟ هذه الأسئلة الوجوديّة المضنية، إنّها تعشّش في نفوس المراهقين مثلما تراود كبار الفلاسفة! فمن كان ذا تربية دينيّة صارمة، فإنّه سيصرف نفسه قسرا عن تلك التّساؤلات الملحّة، لكنّها ستظلّ تنخر داخله وتزعزع إيمانه.. وأمّا من كان ذا حصيلة هشّة فإنّه سيرتمي ببساطة في أحضان الإلحاد، كما يحصل مع أعداد غفيرة من شباب المسلمين! ولا يسلم إلّا من يُسكت عقله بطريقة أو بأخرى ويردعه عن التّفكير.. أرأيت الطّفل إذا سأل أبويه كيف أتى إلى الوجود؟ إن هما زجراه ونهراه عن السّؤال في تلك المسائل التي تفوق إدراكه فإنّه سينصرف عنهما ويبحث عن المعرفة من مصادر أخرى. بينما إن حدّثاه بأسلوب علميّ مبسّط واحترما عقله، فإنّه سيركن إليهما وسيعود إليهما لاحقا ليحكّمهما في كلّ ما يعترضه من مسائل مستعصية. وهذا ينطبق على شباب الأمّة وعلمائها أيضا.. إذا جاءك صبيّ يسأل في الغيبيّات، فإذا نهرته واكتفيت بالإجابة الجاهزة «لحكمة لا يعلمها إلّا الله»، فإنّه سيضيع حتما، ولعلّه يفضّل إجابات الملحدين المبنيّة على العشوائيّة والصّدفة!

في الجلسة الثّالثة، كنت أنت من يمسك بزمام الحديث. فتحت

قلبك للمرّة الأولى، منذ أربع سنوات. تحدّثت باستفاضة عن فترة بحثك. لقد كنت ذا منهجيّة علميّة، وتقدّر بشكل خاصّ التّحليل المنطقيّ والتسلسل العقلانيّ للأفكار. لكنّك اصطدمت بآراء بعض علماء السّلف، وفيها يعترضون على سعي البعض -من أمثالك- إلى البحث في العلاقة بين السّبب والنّتيجة.. بين البيولوجيا والفيزياء المادّيّة والمشاعر والرّوحانيّات. إنّهم يعتبرون مجرّد التطرّق إلى تلك المسائل انتقاصا من إطلاق القدرة الإلهيّة ونقصا في كمال التّوحيد! وأنت تعتبر العقل هبة ربّانيّة لا يجدر بك ركنها وتعطيلها، بل أنّ في إعمالها تعظيما لكرم الله وما فضّل به الإنسان عن باقي المخلوقات. فكان أنّ تسبّب ذلك في نفورك من كتب التّراث الإسلاميّ كافّة!

قلت في مرارة:

- لقد أجمعوا على أنّ الله يخلق الفعل دون سبب، يقولون «أنّ السّكين لا تقطع، ولكنّ الله يُحدث القطع عند حدّ السّكين!». وكأنّهم يقولون: أمسك قطعة خشب واقطع بها، لأنّ السّكين لا تقطع لذاتها!

ابتسم عقيل وقال:

- أنت على حقّ. لقد تخاذل المسلمون عن الأخذ بالأسباب رغم تأكيد الإسلام على احترام السّنن الكونيّة.. حتّى وصل العالم الإسلاميّ إلى هذا الوضع المتردّي. وقد أكّد الإمام الغزالي عند تعرّضه إلى قضية فاعليّة الأسباب أنّ الله وضع في الأسباب القدرة على الفعل، حتّى صار الصّواب أن نؤمن بأنّ السّكين تقطع، بالرّغم من أنّ القطع يتمّ بقدرة الله في كلّ مرّة! إنّ إنكار فاعليّة الأسباب لدى المؤمنين يشبه إلى حدّ كبير موقف بعض فلاسفة الإلحاد، إذ يرون أنّ الكون لا يخضع لقوانين، وأنّ ما نراه من التزام للكون بنظام معيّن. إنّما هو بحكم العادة! فكيف يتماثل هؤلاء وهؤلاء!

هتفت في حماس:

– هو ذاك! لقد اطّلعت على جلّ ما كتب في التّراث الإسلاميّ عن فلسفة الوجود وحقيقة العقل الإنسانيّ والعلم، فوجدت أسلوبها مكرّرا.. مثل خطباء المساجد تماما! إنّهم يتحدّثون في قضايا الأمّة أو في مسائل علميّة، ويفرطون في ترصيع كلامهم بالآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة.. لا يهمّ إن انتهوا إلى تحريف العلم وإنكار المسلّمات العقليّة، في سبيل الانتصار للدّين! إنّهم لا يدركون أنّ هذا الأسلوب هو المسؤول أساسا عن اعتزال الكثيرين للدّين. ولا تنطبق هذه الإشكاليّة على وعّاظ المساجد وشيوخ الفضائيّات وحدهم، بل على علماء المسلمين أيضا. لقد أصبح الإعجاز العلميّ في القرآن هاجسا بالنّسبة إلى الكثيرين.. إنّهم مستعدّون لتحريف العلم وليّ أعناق الحقائق لتتماشى مع فهمهم السّطحيّ للقرآن! لا مانع لديهم من تعديل أو إغفال نظريّات علميّة وابتكار غيرها للدّفاع عن هذا الفهم.

كنت متخنا بالمرارة مثقلا بالغيظ. لقد كنت جادّا في بحثك عن الحقيقة صادقا في سعيك، لكنّ اصطدامك بذاك الأسلوب السّطحيّ المنفّر جعلك تفقد الثّقة في الفكر الدّينيّ، حتّى صرت تلقي جانبا بما تقرأ إذا ألفيته مشبعا بالاستدلالات القرآنيّة. كنت ترى أنّ الكاتب يعزف على أوتار العاطفة الدّينيّة ليقنعك بفحوى أطروحته، ولا يهتمّ بالمضمون أو بالأسلوب العلميّ.

أضفت في أسى:

– أخشى أنّ العالم الإسلاميّ يكرّر دون وعي منه مأساة الكنيسة في العصور الوسطى، في أوروبا. لقد هيمن الفكر الدّيني على العلم، حتّى اتّهم غاليليو بالهرطقة، لأنّه أثبت دوران الأرض حول الشّمس،

فأنكرت عليه محاكم التّفتيش تقديم نظريّة معاكسة لتأويلها لنصوص الكتاب المقدس!

أصغى إليك عقيل باهتمام ثمّ أردف:

– وهل يبرّر ذلك أن نترك الدّين وراء ظهورنا، كما يفعل فاقدو الثّقة في الفكر الدّيني؟ لو كان الدّين رفاهيّة فكريّة، لأمكن ذلك. لكنّ الألوهيّة حقيقة، والدّين منهج حياة، والوحي ينبّئنا بوجود حساب وجزاء بعد الموت!

احتدّت لهجتك وأنت تهتف:

– أنت تطلب من النّاس أن يتّخذوا الدّين منهج حياة لأنّهم سيحاسبون بعد الموت؟ أليس الأولى أن يؤمنوا قبل كلّ شيء بأنّ هناك حسابا بعد الموت؟ أليست المشكلة الأساسيّة مع الأديان هي طرحها لغيبيّات لا يقبلها العقل البشري؟

استمرّ يحاججك بهدوء وثبات أعصاب:

– لقد أعلن العلماء عجزهم عن إيجاد تفسير للوجود.. إلّا بالتسليم بوجود خالق موجد للكون! ونظريّاتهم القائمة على العشوائيّة أثبتت غباءها وسطحيّتها. لذلك فالعلم الآن يقف على عتبات الميتافيزيقا. لم يعد بإمكانه تقديم إجابات متكاملة عن حقيقة الوجود دون اللّجوء إلى الفلسفة والدّين!

– أمّا إذا كان الاختيار بين الفلسفة والدّين، فأعتقد أنّ الباحثين عن الحقيقة سيفضّلون طريق الفلسفة التي بوسعهم تتبّع أدلّتها المنطقيّة.. بينما يعدّ الدّين حقل ألغام بمقدّساته ومحظوراته وحرّاسه الأشدّاء من وعاظ وخطباء! لقد غدا الدّين مؤسّسة اجتماعيّة متكاملة الأركان، يخضعها هؤلاء لرؤيتهم الضيّقة ويفرضون تأويلاتهم في وصاية تامّة على عقول أتباعهم، كأنّ الوحي يتكلّم لغتهم وحدهم!

- لكنّ الفلسفة عجزت عن الإلمام بتلك الغيبيّات التي هي مفتاح فهم الوجود.. لقد أعلنت أنّها فوق طاقتها وخارج نطاقها. ولم يبق لهذه المهمّة إلّا الدّين! صار محتّما علينا نفض ما تراكم على المعتقدات الدّينيّة من جهل وتعصّب.. ولن يكون ذلك إلّا بوضع الدّين في منزلته والعلم في منزلته، وتثمين التّلاقي حين يوجد، لا فبركته وفرضه.

كنتما تلتقيان أخيرا في مساحة مشتركة، وكان يقنعك في كلّ مرّة بتسلسل عقليّ منطقيّ. يخاطبك بما تفقه، كأنّه أدرك مفتاح الوصول إلى قلبك، عن طريق سلوك مسار العقل. تابع يقول:

- لا يوجد صدام بين الدّين والعلم مطلقا.. لكنّهما في الوقت ذاته ليسا صنوين كي يوضعا على كفّتين متقابلتين، فترجح كفّة أحدهما. لكلّ منهما مجاله.. العلم يفسّر قدرة الله في الكون من منظور ماديّ بحت، والإيمان هو النّتيجة التي تصل إليها بالدّليل العلميّ. جزء كبير من الإشكال يكمن في وضع العلم في خصومة متوهّمة مع الإيمان، وفي النّزعة المادّية المتعالية التي تدّعي أنّ الإنسان بلغ من المعرفة ما يجعله يستغني بالعلم عن أيّ تفسيرات ميتافيزيقيّة للكون والحياة.

وحين التقيتما مرّة رابعة، تحدّثت طويلا عن كلّ شكوكك الماضية، وخيباتك وآلامك القديمة والمتجدّدة. سألته عن أصل بلواك، رحلتك إلى فلسطين المحتلّة ولقائك بالثّنائيّ اليهوديّ دانيال وراشيل، فقال بصوت هادئ:

- نحن بشر كلّنا، ولسنا زبانيّة جهنّم! وحساب العباد ليس موكولا إلينا، بل الله وحده من بيده تقرير جزاء كلّ نفس. فلا نحكم على هذا بالنّار ولا نقدّم صكوك غفران لمن رضينا عنه! ومن لم تصلهم

رسالة الوحي، أو بَلَغتهم مشوّهة ومحرّفة، كما هو حال ملايين البشر الذين لا يسمعون عن الإسلام إلا أنّه دين إرهاب وظلم، فكيف نعتبر أنّ الحجّة قد قامت عليهم واستكبروا؟ بل يُوكل أمرهم إلى الله في الآخرة، وقد وعد سبحانه بأنّه لا يظلم مثقال ذرة.. ومن تمام عدله ألا يُحاسب هؤلاء كما يحاسب من بلغته الرسالة وقامت عليه الحجة فرفضها، وأن يكون لكلّ فرد حساب خاصّ يراعي عقله وبيئته وظروفه وعوامل أخرى لا نعلمها. فلا يحق لنا أن نجزم بمصير أحد، بل نكتفي بالإقرار بعدل الله ورحمته.. (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ). وهذا ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فقد رُويَ عن ابن عباس قوله: (إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزّلهم جنة ولا نارا)، وأُثر عن أمير المؤمنين علي قوله في قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ: هذه الآية تأتي على القرآن كله).

زفرت، وقد أحسست بثقل يزاح عن صدرك، ثمّ استرسلت. تشجّعت، فعرضت عليه نظريّتك الخاصّة بالقضاء والقدر، والأكوان المتوازية. استمع إليك في اهتمام حتّى انتهيت من شرحك. ثمّ سألك:

- هل تؤمن بأنّ الله الذي خلق الكون عادل لا يظلم مثقال ذرّة؟

- نعم!

- وهلْ تؤمن بأنّه حكيم، ورحيم وأنّه قدير؟

- نعم!

- وأنّه عليم كليّ المعرفة؟ وأنّه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا يخفى عليه من ذلك صغيرة ولا كبيرة؟

- نعم!

- إذن ما حاجتك إلى هذه النّظريّة؟ كأنّك تقول أنّ الله -حاشاه- لا يمكن أن يكون عالما بكلّ أعمالنا وخياراتنا فيكتبها علينا دون أن يكون في ذلك إجبار لنا!

ثمّ أطرق للحظات قبل أن يضيف:

- ثمّ إنّك تحلّ أحجيتك بالاستناد إلى نظريّة علميّة غير مثبتة. وهذه هي خاصّيّة النظريّات، أنّها تنهار إذا ما جاءت نظريّة جديدة تفنّدها! وهذا ينطبق بنفس الشّكل على من يبني إيمانه على الإعجاز العلميّ في القرآن وحده. فإذا ما بدا له تناقض ظاهريّ بين آية قرآنيّة ونظريّة علميّة، خرّ إيمانه على رأسه!

أصغيت في ارتباك وتململ، ثمّ هتفت:

- وما فائدة هذه العقول التي أودعت رؤوسنا، إن نحن لم نستخدمها لإيجاد الإجابات الشّافية؟

- العقل، يا أخي الكريم، لا يستطيع الوصول إلى تفسيرات منطقيّة للغيبيّات، كما أنّه لا يستطيع التّفكير بمنطق خارج التّجربة والحدس والبديهيّات المتأصّلة فيه. الإجابات المعقولة الوحيدة التي يمكننا الرّكون إليها هي تلك التي جاء بها الوحي! وطالما أنّ الوحي لم يخبرنا عن آليات عمل القضاء والقدر فلا ينبغي لفيلسوف ولا عالم أن يضيّعا الوقت في البحث عنها.

- هل يعني هذا أن نُجبر عقولنا على عدم طرح الأسئلة؟

- طبعا لا. فالعقل لا يمكنه التوقّف عن التفكير! ولكن يمكننا أن نضبط أسئلته لتصبح محدودة بحدود قدراته، كي يتمكّن في النهاية من الإجابة عنها. فإذا شككت في وجود «الحكمة الخفيّة» بسبب حيرتك أمام وجود الشرّ في العالم، فيجدر بك تحويل عقلك إلى السّؤال

المبدئيّ: كيف يمكن لهذا الكون المعجز بأدقّ تفاصيله المدهشة أن ينشأ عن صدفة؟ وإذا سلمت بوجود الله وبخلقه للكون، فلا بدّ أن يسلّم العقل بما أخبرنا الله به من غاية هذا الخلق. أمّا التفاصيل الدّقيقة للخلق فلم يُطلعنا الوحي عليها ولم يكلّفنا بالبحث عنها. ومن يدفع بعقله لمحاولة تجاوز حدوده فلن يصل إلى أيّ معرفة يقينيّة، وحتى إذا بلغها بضربة حظ جدلًا فلن يكون بمقدوره أن يبرهن عليها.

سكتَ لبرهة ثمّ أضاف:

– أرأيت لو كنت بحّارا، وقيل لك أنّ البحر هائج وخطر ولا يمكنك خوضه بقاربك الصّغير -عقلك- فإنّك ستحرص على تعزيز المركب بآليات الحماية -المعرفة البشريّة المتوفرّة- وستحمل معك بوصلة وطعاما وغير ذلك مما تحتاجه في الحالات الطارئة. أما إذا علمت مسبقا بأن آلاف البحّارة الأبطال قد غامروا في ذاك البحر وضاعوا فيه ولم يرجعوا أبدا إلى اليابسة فمن الجنون أن ترمي بنفسك فيه!

ابتسمت، وأنت تتذكّر البحر الهائج الذي خضته بجنون. لقد كنت أنت ذاك البحّار المغامر لا ريب. لكنّك تجد طريقك رويدا رويدا نحو اليابسة. بينما واصل الشّيخ عقيل:

– والأهمّ هو أنّ هذه المعرفة لن تغيّر شيئا في طبيعة حياتنا وواجباتنا تجاه خالقنا، فنحن جميعا وجدنا أنفسنا داخل «أحجية» هذه الحياة بكلّ ما فيها من شقاء وغموض، واهتدينا بالوحي والعقل إلى غاية وجودنا، فالعاقل منا هو الذي يضع ثقته في الخطة الإرشادية -الوحي- التي وضعها خالق هذه «الأحجية» كي يجتاز اختبارها بنجاح...

سكتّ لدقائق طويلة تهضم ما سكبه على مسامعك من موعظة

حسـنة. ثـم قـرّرت أن تسـأله عـن الطّقـوس الـتي أشـعرتك بالرّاحـة وأعادتـك إلى ضفـاف السّـكينة بعـد أن كنـت تخـوض موجـا متلاطمـا ولا تعـرف لـك مـرسى. سـألته عـن رأيـه في التصّـوف، فقـال:

– التّصوّف الإسلامي القويـم هـو أن يبلـغ المؤمـن درجـة «الإحسـان» الـتي هـي أعـلى الدّرجـات في التوجّـه إلى الله عـز وجـل -بعـد الإسـلام والإيمـان- والـتي يُشـير إليهـا القـرآن الكريـم في قولـه: (والذيـنَ جاهـدوا فِينَـا لَنَهْدِيَنَّهُـمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللهَ لَمَـعَ المُحسـنينَ). ويقـول عنهـا الرّسـول صـلى الله عليـه وسـلم: (الإحسـان أن تعبـد الله كأنَّـكَ تـراه، فـإن لـم تكـن تـراه فإنـه يـراك). وللصّوفيـة طائفـة مـن الأخـلاق الفاضلـة الكريمـة الـتي يحـثُّ عليهـا الإسـلام.. لأنّ عمـاد طريقتهـم هـو التّأديـب والتّهذيـب، وتطهـير الـرّوح، وتصفيـة النفـس. ويمكـن أن نطلـق عليهـم اسـم زهّـاد، إذا كان زهدهـم لا يوقعهـم فيمـا حرّمـه الله تعـالى وإذا كانـوا لا يزيدون في عباداتهـم عمّـا أمـر بـه الله تعـالى، ولا يبتدعـون. وكان مـن الصّوفيـة أئمـة أوائـل، أثـنى عليهـم شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة، وضمهـم مـع أبـو حنيفـة ومالـك والشـافعي وأحمـد، وعدّهـم مـن أئمـة الهـدى الذيـن جعـل الله لهـم لسـان صـدق في الأمـة مـن أمثـال أبـو إسـماعيل الهـروي صاحـب «منـازل السـائرين»، وذو النـون المـصري، والقشـيري صاحـب الرّسـالة، وكلهـم نجـوم زمانهـم فقهـا وورعـا وعلمـا وحكمـة.. ومنهـم مـن حـاد عن الطريـق فقـال بالحلـول والاتحـاد ووحـدة الكـون، مثـل محـيي الدّيـن بـن عـربي! ألا تـرى -رعـاك الله- أنّ الله قـد أنـزل الوحـي ليعلّـم النّـاس الدّيـن، وأحـبّ طقـوس العبـادة إليـه سـبحانه، هـي مـا افترضـه عليهـم.. فمـا رأيـك فيمـن يخالفهـا ويزيـد عليهـا؟

أومأت برأسك مؤيّدا، ثمّ شددت على كفّ الشّيخ شاكرا.

– أشـعر أنّ كلّ قطعـة مـن الأحجيـة قـد أخـذت مكانهـا الصّحيـح في رأسي!

-٤-

التقيت الدّكتور عقيل بعد ذلك مرّات عدّة، وامتدّت بينكما النّقاشات والسّجالات. وكنت تزداد يقينا كلّ يوم. حتّى أفقت في ليلة النّصف من رمضان، وقد غدت رؤيتك واضحة جليّة، ففيم المكابرة؟ تناولت سحورك ثمّ توضّأت وتعطّرت ولبست ثوبا أبيض مكويّا بعناية، وخرجت إلى صلاة الفجر في المسجد القريب من شقّتك.

كنت تشعر بنشوة تهزّك، وأنت تسير في ممرّات المستشفى، تشقّ ابتسامة عريضة وجهك! كنت تريد أن تحدّث أيّ أحد وكلّ أحد عمّا تجده من طمأنينة وصفاء. لقد كنت تجد للإيمان حلاوة على طرف لسانك، مثل حلاوة الرّطب السكرّي الذي تفطر عليه بعد صومك.

– لقد نويت العمرة!

أبلغت نديم ذلك الصّباح. لم تكن تحتاج إذنه، فإجازة العيد تغطّي فترة تغيّبك المزمعة. لكنّك تبشّره، وتفصح عن التّغيير الصّامت الذي لمسه فيك منذ أوّل ليلة صلّيت فيها وراء عقيل. عانقك بحرارة وقال:

– لا تنسني من صالح دعائك!

أحرمت صبيحة السّادس والعشرين من رمضان. وقفت أمام المرآة، تطالع شكلك بالإزار والرّداء الأبيضين في رضا. لقد قطعت عهدك بهما منذ سنوات، وها أنت تجدّد العهد أخيرا. غادرت بسيارتك ميمّما وجهك شطر مطار الملك خالد الدّولي. وضعت سيارتك في المواقف السّفليّة، سحبت حقيبتك الخفيفة وقصدت مكاتب التّسجيل.

بعد ساعتين، كانت الطائرة تحلّق بك إلى جدّة.

قبيل نصف ساعة من موعد الهبوط، أُعلن عبر مكبّرات الصّوت الدّاخليّة للطائرة أنّ الميقات قد اقترب. استويت في جلستك وأخذت ترقب المشهد من علٍ في لهفة المحروم. وفوق الميقات، أبصرت جبالا قاجلة وصحراء موحشة تغطّي مساحات شاسعة تفصلك عن مكّة.. طالعتها بحنين طاغٍ وقد بدت لك في تلك اللّحظة آخذة للألباب، ساحرة للعيون.. لا تنازعها خضرة غناء ولا جنّات وارفة، كم حلّقت فوقها من قبل وطائرتك تهبط في مطار باريس! أخذ قلبك يردّد قبل لسانك في خشوع: لبيك اللهم عمرة.. لا رياء فيها ولا سمعة...

رميت ببصرك أبعد ما يصل إليه طرفك، وكان لسانك لا يفتر، يلهج في حرقة وإخلاص: (لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك). كانت الكلمات -رغم اعتيادك عليها لسنوات في ماضي أيّامك- تزلزل كيانك.. وكأنك تدخل الإسلام لأوّل مرّة. رحت تمسح بطرف رداء الإحرام دموعك الحرّى التي أغرقت لحية استطال شعرها في الأسابيع الفائتة.. فقد أعفيتها منذ أول ليلة في رمضان، وسألت الله بكل حرارة للشيخ عقيل والدّكتور نديم أوفر الجزاء، وابتهلت إليه أن يسعدهما، جزاء صبرهما الجميل على تعنتك وكلّ ما قدماه لك.

حين وصلت إلى مطار جدّة، كانت السّاعة تشير إلى منتصف النّهار تقريبا. طلبت سيّارة أجرة أقلتك إلى مكّة، وبعد ساعة ونصف، كنت تقف في السّاحة الخارجيّة للحرم، قبالة «باب الملك فهد». لقد وقفت تلك الوقفة منذ سنتين ونيف، برفقة حاتم. لكنّك كنت في حال أخرى. تنهّدت، وأنت تمضي إلى داخل الفندق.

اغتسلت وجدّدت وضوءك ثمّ خرجت متشوّقا إلى الحرم. عبرت الأروقة حتّى شارفت بلوغ الصحن، وهناك ظهرت لك الكعبة الشّريفة متزيّنة بردائها الأسود المنقوش بخيوط الذّهب، فاغرورقت عيناك وأنت ترفع كفّيك بالدّعاء: «اللهُمَّ زِدْ هذا البيتَ تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة».

ثمّ شرعت في مناسك العمرة. وقد كانت عمرة مختلفة عن كلّ ما سبقها، فهي عمرة توبة وتجديد إيمان. وكلّما هممت بركن من أركانها، مثلت أمام عينيك عبارات تلفّظت بها جهلًا وعدوانًا يوما ما وأنت تحدّث حاتما. ها أنت تطوف حول حجر، وتسعى بين حجرين، ترنو إلى حجر تتمنّى تقبيله لكنّ الزّحام يمنعك، ثمّ تسجد وتركع أمام حجر، تقوم وتجلس في حركات لا تدرك جلّ غاياتها.. إلّا أنّها تعظيم لشعائر الله!

(وإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ). هذا بيت بناه خليل الله، ليكون بيت الله العتيق في الأرض.. وبين تينك الحجرين، سعت زوجه هاجر وهي ترجو السّقيا، حتّى فجّر الله بئر زمزم تحت قدميها. ألا يكفيك هذا حكمة وغاية؟

وحين فرغت من الشعائر، انزويت في ركن قصيّ وتناولت مصحفا، وأخذت تقرأ. انتبهت فجأة، حين سمعت رجلا ينادي على بعد خطوات منك، فتاة في مقتبل العمر، لعلّها ابنته. سارة. رفعت رأسك وبحثت بعينين ملهوفتين عن صاحبة الاسم، ثمّ ابتسمت وقد ثبت إلى رشدك. سارة؟ هل يمكن أن تجمعكما تصاريف القدر هكذا في الحرم؟ أطلقت تنهيدة طويلة. ما تراه حلّ بها خلال السّنوات الماضية؟ هل تزوّجت؟ أنت لم تحاول قطّ تقصّي أخبارها. قرّرت في

تلك اللّحظة أنّك ستفعل ما إن ترجع إلى الرّياض. ستتّصل بأيّوب، وتسأل عنها. زوجته سميّة ستعرف بالتّأكيد إن كانت قد ارتبطت بأحدهم. انقبضت لذلك الخاطر، فهمست في دعاء:

- يا ربّ، اجمع بيني وبينها بتقديرك وحكمتك.. أنت القادر على كلّ شيء!

ثمّ صرفت تفكيرك عنها وانغمست من جديد.

قضيت بقيّة يومك من صلاة العصر وحتّى أذان المغرب، تتلو آيات من ذكر الله الحكيم. وكنت قد نويت ألّا تقطع التّلاوة إلّا من أجل الصّلاة، وكأنّك تعوّض حرمان روحك من القرآن لسنوات. أزمعت أن تفطر مع جموع المسلمين في الحرم، على التّمر واللّبن وماء زمزم، وتقضي الوقت إلى العشاء في التّلاوة ومراجعة الحفظ.

كانت ظلال الطمأنينة والسّكينة تغشاك، وأنت جالس في موضعك ذاته لساعات طوال. لقد بدأت مراجعة الحفظ منذ بدأ التّغيّر الذي طرأ عليك في الرياض.. ولكن هنا في مكة، فإنّ شعورا آخر يتملّكك. كنت تقرأ الجزء شفاهة في فترة وجيزة من المصحف، ثم تغلقه وتتلو الآيات عن ظهر قلب. كنت في تحدّ مع نفسك.. تريد أن تختم مراجعة القرآن كاملا، قبل عودتك إلى الرياض. تريد أن تستعيد شرف لقب «الذين أوتو العلم»! إنه ليس لقبا بشريا أو منحة من أحد، بل هو لقب إلهي لا يحظى بشرف حمله إلا من يحمل القرآن كاملا في صدره!

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ).

بعد أن أدّيت صلاة الفجر في المسجد الحرام، ومكثت في الذّكر حتى طلوع الشمس، وأدّيت ركعتي الضحى، قفلت عائدا إلى الفندق، لتنال ساعات من النوم تستعين بها على الطاعة. ثم مكثت من

صلاة الظهر في الحرم لم تفارقه، إلى صلاة العصر، وما بين الفرضين أكملت بنهم روحي مراجعة حفظك للقرآن. تابعت في دأب وحماس، حتى دنا وقت أذان المغرب.. ثمّ ختمت بالإخلاص والمعوذتين، وسجدت سجدة شكر طويلة، تلوت معها دعاء ختم القرآن، في امتنان عميق.

سالت دموعك حتى بللت موضع سجودك. كنت تغسل بعبراتك سنوات الخطيئة، وتقترب من الحضور الإلهي.. (واسجد واقترب)، وما أبعد القلب القاسي! كنت تعوّض حرمان روحك الشقيّة وتتطهّر من الإثم.. ولا يطهّر إثم القلب سوى دمع العين. لم تدر كم طالت سجدتك.. لأنك لم ترفع رأسك منها إلا حين صدح المؤذن بصوته النّديّ في جنبات الحرم مكبّرا. أفطرت مع جموع المصلين، وصلّيت المغرب، ثمّ عدت إلى الفندق لتتناول إفطارك في المطعم، فلم تكن قد حصلت على وجبة مشبعة منذ يومين.

لمحتها في ردهة المطعم، تمشي بين والديها وتبادلهما الهمسات والبسمات. هل يهيّأ إليك أنّك تراها، لضعفك وتشوّش ذهنك؟ أم أنّها حقيقة ماثلة أمام ناظريك؟ هل تتخيّل صورتها، كما فعلت في الحرم حين سمعت اسمها؟ أم أنّ الله استجاب إلى دعائك بسرعة؟ تابعتها بعينين مسحورتين، يتعلّق بها بصرك غير مصدّق أنّ الأرض قد طُويت مسافاتها على حين غرّة حتّى باتت سارة على مبعدة أمتار منك!

وَقَد يَجمَعُ اللَهُ الشَتيتَينِ بَعدَما يَظُنّانِ كُلَّ الظَنِّ أَن لا تَلاقِيا

ولعلّها أحسّت بتحديقك -تماما كما فعلت في مدرّج الجامعة في عهد قديم أكل عليه الدّهر وشرب- فاستدارت ناحيتك. كان عليك أن تغضّ بصرك وتنسحب خجلا من كلّ ما يفرّقكما ويزرع الشّوك في ثنايا

الذّاكرة.. لكنّك بادلتها تلك النّظرة المبهوتة والمضطربة لثوانٍ، قبل أن تثوب إلى رشدك، فتهرع مغادرا قاعة الطعام والفندق كلّه.

تقف على الرّصيف المزدحم بالخلق وترفع عينيك في اتّجاه الحرم المكّيّ، يهبّ نسيم منعش يوقظ حواسّك، وتهمس مرتبكا بأنفاس مضطربة.. يا ربّ، أنت حملتها إليّ بعد كلّ هذه السّنوات، بعد أن حسبت لقاءها قد غدا مستحيلا.. لم تجشّمني عناء البحث عنها وتقصّي أخبارها.. فاجعلها من نصيبي!

تدرك في تلك اللّحظات أن ذكراها لم تفارقك قطّ. لقد كانت حاضرة في كلّ مرحلة، تعذّبك بذنب اقترفته تجاهها، وغضب من هوانك في عينيها، وحنين إلى زمن كانت فيه أقرب العالمين إلى وجدانك. سارة. تنبس باسمها في مناجاة، تستعذب رقة الرّاء وهمس السّين. ثمّ حسمت أمرك.

عدت إلى الدّاخل مهرولا، تخشى أن تفوتك الفرصة. دخلت مطعم الفندق، تفتّش عنها في لهفة، حتّى أبصرتها. كانت تجلس إلى مائدة قاصية قرب الواجهة الزّجاجيّة، تتناول إفطارها على مهل. لقد رأتك منذ قليل، ولعلّ صدمتها لا تقلّ عن صدمتك. ترفع شوكتها إلى فمها الصّغير في حركة بطيئة، وتلوك لقمتها بينما تسرح نظراتها إلى الخارج في ذهول. اقتربت، إلى حيث يبدو لك المشهد واضحا، لكنّها لا تراك. تتفرّس في أصابع كفّها اليسرى، ثمّ اليمنى إمعانا في التثبّت. لا دبل على الإطلاق. تعرف أنّها لا تهوى المجوهرات عموما، لكنّها كانت لتضع خاتم خطبة أو زواج لو أنّها -لا قدّر الله- مرتبطة بأحدهم.

اقتربت أكثر، لتصبح في مجال بصر والدها، ثمّ هتفت بعد أن التقت عيونكما:

- عمّي صفوان! يا لهذه الفرصة السّعيدة!

يقـف الرّجـل مبهوتًـا، يصافحـك بابتسـامة فاتـرة. هـذا أمـر متوقّـع حـين يتعلّـق الأمـر بخاطـب تبخّـر منـذ أربـع سـنوات بـلا أيّـة اعتـذارات أو تبريـرات. تسـتمرّ في وصلتـك الأحاديّـة:

- كيـف حالـك وحـال العائلـة؟ أنتـم هنـا للعمـرة؟ هـذا مدهـش.. لـم أتخيّـل أن نلتقـي هنـا.. يـا سـبحان الله!

تلمـح تـردّده وارتبـاك ردّة فعلـه، فتقـرّر الإمسـاك بزمـام الأمـور قبـل أن يفلـت الموقـف منـك. سـحبته جانبـا، وهمسـت في رجـاء:

- هل يمكن أن نتحدّث بعد صلاة التّراويح؟

- حسنا.. إن شاء الله.

اكتفيــت بذلــك الوعــد. صافحتــه مجــدّدا، ثــمّ اســتدرت تحــيّي بانحنـاءة مـن رأسـك والدتهـا، وتسـترق نظـرة خاطفـة إلى وجههـا الشّـاحب وعينيهـا المذعورتـين. سرت مبتعـدا وأنـت تتخيّـل أيّ نـوع مـن الحـوارات السّـاخنة سـيحتدم عـلى مائـدة العائلـة بعـد انصرافـك. اخـترت مائـدة بعيــدة، وجلســت متنهّــدا. تلــك كانــت الخطــوة الأولى. والآن عليــك تحضـير الـكلام المناسـب لموعـدك. رغـم اضطرابـك، كنـت تستشـعر نوعـا مـن الاطمئنـان. إنّ القـدر الـذي سـاقها إليـك في العـشر الأواخـر مـن رمضـان لا يمكـن أن يكـون إلا خـيرا. تـردّد مسـكّنا مـن روعـك: خـيرا بـإذن الله.

انتبهـت إلى أنّـك لـم تضـع شـيئا في طبقـك بعـد. سرت في اتّجـاه بوفيه الخدمـة الذاتيـة. كنـت قـد انتقيـت بعـض الأصنـاف، حـين لمحتهـا تقـف في منتصـف القاعـة، تبحـث بعينيهـا بـين وجـوه روّاد المطعـم. اقتربـت وقـد تعـالى وجيـب قلبـك، وناديتهـا:

- سارة.

لا تـزال علامـات الصّدمـة جليّـة في ملامحهـا. أتـاك صوتهـا العـذب

المحبّـب أخـيرا:

- أنت هنا للعمرة؟

كانـت تسـأل عـن شـأن يُـدرك بديهيّـا. إنّهـا تـرى في هيئتـك أسـباب الطمأنينـة. كلّ شيء فيـك يـدلّ عـلى استقرار أحوالـك وعودتهـا إلى سـابق عهدهـا.. تلـك اللّحيـة الـتي شرعـت في إطالتهـا منـذ بدايـة رمضـان، والقميـص الأبيـض، ثـمّ تواجـدك هنـا في هـذه الأيّـام المباركـة. لكنّهـا مـا زالـت في حاجـة إلى تأكيـد لفظـيّ واضـح. أومـأت برأسـك بابتسـامة خفيفـة، ثـمّ أضفـت:

- لقـد وجـدت نفسـي واهتديـت إلى نـور الحـقّ أخـيرا.. لقـد تطلّـب الأمـر وقتـا طويـلا، أطـول ممّـا يصـبر المـرء عـلى احتمالـه...

غضّـت بصرهـا وقـد أدركـت مـا ترمـي إليـه. لـم تكـن أنـت لتعطـي لنفسـك فرصـة في ذلـك الوقـت أو لتمنّيهـا بأزمـة قصـيرة سريعـا مـا تنفـرج، فضـلا عـن توقّـع انتظارهـا هـي لعودتـك. أنـت لا تعـرف بعـد مـا إن كانـت قـد انتظـرت، أو لعلّهـا سـلتك في غيابـك وعاشـت مـا عشـت مـن تحـوّل القلـوب وربّمـا أكـثر. أمـا هـي فقـد ابتسـمت وهمسـت:

- حمدا لله.. أنا سعيدة من أجلك.

ثـمّ همّـت بالمسـير. اسـتوقفتها في رجـاء، وأنـت تأخـذ بمجامـع شـجاعتك:

- لكنّـي أطمـع في غفرانـك وصفحـك.. وأن تُطـوى تلـك الصّفحـة السّـوداء...

قالت بلهجة جادّة:

- أنت لست في حاجة إلى صفحي.. توبتك إلى الله تجبّ ما قبلها.

لكنّ ذلك لا يكفيك.

- أنت تدركين قصدي يا سارة.. ما حصل في ذلك اليوم...

قاطعتك على الفور:

– لا تحتاج إلى تفسير.. أعلم أنّك لم تكن على طبيعتك في تلك المرّة.

– إذن سامحتني؟

أجابك صمت طويل من طرفها، فاستطردت:

– سأتحدّث إلى والدك بعد الصلاة.. إنّما أردت استئذانك.. سأطلبك منه مجدّدا، وسأقبل بكل شروطه دون جدال!

طالعتك بنظرة منكسرة، تذكرك بما اقترفته تجاهها. يغوص قلبك في صدرك في ألم. تدرك أنّها لم تطو الصّفحة بعد. تحتاج قدرا أوفر من التّفاني والبذل لتمحو بشاعة الذكرى من وجدانها.

- عن إذنك.

ابتعدت هي دون كلمة إضافية، واتّخذت أنت قرارك على الفور. غادرت الفندق على عجل. كانت محلّات الذهب قد استأنفت نشاطها للتوّ بعد استراحة الإفطار. دخلت محلّا فاخرا جذبتك لوحته المضيئة العملاقة. وقفت أمام المعروضات لثوانٍ ثم خاطبت البائع:

- أريد خاتم خطوبة، بماسة عملاقة تملأ العين!

عدّلت على الفور وأنت تفكّر في ذوق سارة المرهف وميلها إلى البساطة.

- لا أريدها كبيرة بشكل مبالغ به.. حجم كافٍ ليرضي والديها، وتصميم ناعم ومميّز ليناسب أناملها الرّقيقة.

بعد تمعّن وتقليب في البضاعة، توقّف اختيارك على خاتم بدا لك مناسبا. قال البائع مهنئا:

- صناعة إيطالية أصلية.. يليق بأميرة بنت أمراء!

وضعت علبة المخمل الحمراء في جيب قميصك، ومضيت إلى الصّلاة بابتسامة راضية، ومنّيت نفسك برضا الأميرة.

عجّلت بمغادرة المسجد بعد انقضاء صلاة التراويح مباشرة، وجلست متوتّرا في بهو الفندق حيث اتفقتما على اللّقاء. مضت دقائق عصيبة قبل أن تلمح والدها مقبلا بمفرده. جلستما متقابلين على مقاعد الاستقبال الوثيرة. كنت قد أعددت كلاما كثيرا، وكنت مستعدّا لكلّ الشّروحات والوعود الممكنة، لكنّ الرّجل باغتك حين ابتدأ الكلام:

- قالت سارة أنّك أصبت بمرض شديد، منذ أربع سنوات.. ولذلك انفصلت عنها فجأة.

شلّتك الصّدمة. لقد حفظت ماء وجهك ولم تفضحك أمام والديها! أومأت في ألم وأجبت بصوت منكسر:

- نعم، لقد كان مرضا طويلا، ولم أحسب حينذاك الشّفاء ممكنا.. لكنّ الله منّ عليّ بالعافية منذ وقت قريب، وما هذه العمرة إلّا شكر لله على نعمته.

هزّ رأسه متفهّما:

- ونعم بالله.

ثمّ سألك في فضول:

- أيّ مرض هذا؟

أجبت دون تردّد:

- داء في القلب!

- حمدا لله على سلامتك يا ولدي! اعذرني على التّدقيق، ولكن

أليس هذا النّوع من الأمراض مزمنا؟ الأعمار بيد الله طبعا، والدّاء والدّواء رهن إرادته.. لكن ماذا إن عاد إليك المرض لا قدّر الله؟ هل ستتركها وتكسر قلبها ثانية؟ لقد رأيت ابنتي الوحيدة تذبل مثل زهرة بائسة انقطعت عنها السّقيا.. ولا أريد أن يتكرّر الأمر أبدا.. أبدا!

ارتفع صوته وهو يلوّح بسبّابته بلهجة قاطعة، فهتفت بصوت متهدّج، وأنت تغالب دموعك:

- لن يحصل ذلك، أعدك!

أطرق الرّجل في وجوم ولفّكما السّكون بعد ذلك. مرّت دقائق من الصّمت قبل أن تخرج علبتك المخمليّة الحمراء. وضعتها على الطاولة أمام والدها، ثمّ قلت:

- أعلم أنّ التفاصيل الماديّة لا تهمّ سارة.. لكن هذا لتدرك مدى جدّيتي.

مدّ الرّجل يده وفتح العلبة. راقبت ملامحه تبحث عن علامات تطمئنك. لكنّه أعاد العلبة إلى مكانها وقال في جمود:

- لو كان الأمر بيدي لأنهيت الأمر هنا في هذه اللحظة، بل لكنت محوت اسمك من ذاكرتها منذ أربع سنوات! لكن...

تعلق قلبك بتلك الـ «لكن».

– لكنّ القرار لها أولا وأخيرا.

أومأت موافقا. ذلك ما تأمله، أن يغلب بداخلها الحنين على المرارة، فتوافق. افترقتما على أن يردّ إليك الجواب في القريب.

حين رأيته في بهو الفندق بعد صلاة الفجر، قال في برود:

– إنّها تحتاج مهلة تفكير.

أومأت في رضا وتسليم.

أمضيت سحابة يومك في المسجد الحرام كعادتك، بين يدي الله وفي رحاب كلماته. فإذا أضناك الجلوس وقفت تطوف وتدعو. ثمّ أدّيت صلاة التراويح، وحضرت ختمة القرآن الكريم.. وبكيت سيولا مع دعاء الختمة الذي يهزّ القلوب الغافلة، ثمّ عدت إلى التّلاوة حتّى التهجّد.. متحرّيا ليلة القدر إلى آخر فرصة.

طلعت عليك شمس التّاسع والعشرين من رمضان، وأنت بعد تترقّب ردّها. وبعد صلاة المغرب بهنيهة. أعلن عن رؤية هلال عيد الفطر. لا صلاة تراويح إذن ولا تهجّد. أفطرت في المسجد على بضع تمرات وانتظرت صلاة العشاء.

بعد الصلاة، خرج النّاس من أبواب الحرم أفواجا. بعضهم مغادر إلى جدّة ومنها إلى دولته، وبعضهم الآخر عائد إلى مدينته داخل المملكة أو إلى كنف بيته في مكة ذاتها. الكلّ يسعى إلى قضاء ليلة العيد بين أحبابه. أمّا أنت فعدت إلى الفندق. مررت بسرعة على قاعة الطعام لإدراك وجبة الإفطار، تأخذ منها ما يشدّ أزرك ويقوّيك على ما عزمت عليه.

عدت إلى غرفتك وقد انتويت أن تقضي أنت أيضا ليلة العيد في كنف من تحب. ستتهجّد الليلة في الحرم.. ستكون في معيّة الله. استرحت لسويعات، ثم استيقظت عند منتصف الليل. اغتسلت وتوضأت وتطيّبت وارتديت ثوبا نظيفا ثمّ غادرت الفندق متيقّظا متحفّزا.

كنت تتهيّأ للقاء أغلى الأحبّة، يحدوك الشوق ويجرفك الحنين. خرجت تسابق الخطى إلى اللقاء. ستقضي الليلة بين يدي الله.. تناجيه، وتشكره على كلّ شيء.

ستشكره على الهداية.. وتثني عليه، وتسأله الثبات.

ستحمده على النّجاة.. حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ستستغفره على كل لحظة جفوة وعصيان.

ستطلب عفوه على قسوة البعاد وظلمة الفؤاد ودنس الخطايا ورجس العناد.

خطت قدماك داخل أروقة الحرم. وكان عدد المعتمرين أقلّ بكثير منه مساء الأمس، فقد غادر أغلبهم. كان صحن الحرم والمطاف هادئا على غير العادة. وكانت روحك منتشية محتفية بتلك السّكينة الأقرب إلى الخلوة. كان النّاس متفرّقين، بين طائف ومسبّح ومصلٍّ، كلّ منهم منشغل بخالقه عمّا سواه. جلست قريبا من الكعبة ورفعت بصرك إلى بنيانها الذي رفع أبو الأنبياء قواعده، يعلو شامخا في مهابة وجلال.. باقيا ما بقي الطائفون والعاكفون والرّكع السّجود.

تداعت في ذاكرتك صور من تجاربك الحديثة مع التأمّل.. معبد اليوغا الخياليّ، موازنة الأحجار في جزيرة نائية، حركات التاي تشي البطيئة والمحكمة، الصّلاة الرّبيّة، والدّوران الصّوفيّ.. ابتسمت. كم كنت ساذجا. كيف خدعتك تلك السّكينة الوهميّة وتركت نفسك للترّهات السّخيفة! لا شيء من كلّ ذلك يماهي ولو قليلا جلستك بين يدي الله، مناجيا إيّاه، في الوقت الأحبّ إليه وفي المكان الأكثر قدسيّة على الأرض.

رفعت كفّيك إلى السّماء، وهمست في خضوع: يا ربّ!

فشعرت بالكلمة تتردّد في صدرك، لتجد صداها بين جنبيك، وتسري موجاتها في كلّ خلاياك، تعبرك من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك.

كرّرتها في حرقة.. يا ربّ!

تخـرج مـن بـين شـفتيك مثـل زفـرة حـرّى، تحصـد في طريقها الأشـواك العالقـة بفـؤادك وتجـرف الأدران الـتي رانـت عـلى قلبـك، تطهّـرك وتمسـح ذنوبك.

يـــا ربّ!

تهطــل الدّمــوع مــن عينيــك ســيولا تحفــر أوديــة عــلى وجنتيــك، وتستشـعر نـور الإيمـان يمـلأ قلبـك، ويسـكبه فيغـرق روحـك، ويفيـض مــن كلّ مســامّك.

رحت تردّد في يقين: الآن أراك.. الآن أراك!

-٥-

للصّائم فرحتان، إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربّه فرح بصومه. ولك فرحة ثالثة بتوبتك. وفرحة رابعة تأمل أن تكون من نصيبك.

كنت متشوّقا للرّدّ متحرّقا لموافقتها. لكنّك مطمئنّ القلب، هادئ الفؤاد. فارقك ما كان يصاحب مثل هذا الشعور من قبل من توتر وقلق وحرمان. أتراه تأثير نضج السنين؟ أم هو شيء آخر لا عهد لك به آنفا؟

السّكينة، إنّها السّكينة! تظلل بجناحيها روحك.. فتذرك مطمئن النفس، هانئ البال، مستقرّ الفؤاد. فارقك الجزع والاضطراب اللّذان لازماك سنوات، فدمّرا كل جميل في روحك. أدركت لحظتها كم جنيت على نفسك في الماضي.

صلّيت العيد في المسجد الحرام واستمعت إلى الخطبة، ثمّ رجعت إلى الفندق، وأنت تبحث بنظراتك عن خيالها حولك. وهل يكون لعيدك معنى إذا لم ترها ولم تعايدها؟ وما بالها تأخّرت عليك بالردّ كلّ هذا الوقت؟ هي أيّام ثلاثة لا أكثر. لكنّها تبدو في عينيك دهرا.

لمحت والدها عند مكتب الاستقبال، فهرولت نحوه. وقفت تنتظرُ ريثما ينهي معاملته، فوصلت كلماته إلى مسامعك دون أن تقصد التجسّس.

– سيّارة إلى المدينة.. على السّاعة الثانية عشرة ظهرا.

تقلّصت ملامحك في دهشة. يرحلون؟ بهذه السّرعة؟ التفت الرّجل ناحيتك أخيرا، فهرعت إليه تصافحه وتهنّئه بالعيد. ثمّ لفّكما

الصّمت، حتّى قال بلهجة جافّة:

- تعال إلى جناحنا في الطّابق العاشر.. بعد ساعة.

أومأت بإذعان دون أن تسأل. رغم ملامحه الواجمة فإنّ الدّعوة بادرة خير لا محالة. خرجت على الفور إلى محلّات المرطّبات القريبة، واقتنيت بعض الحلويات. لا يليق بك أن تزورها خالي الوفاض. عدت إلى غرفتك، غيّرت ثوبك وتعطّرت، ثمّ بقيت تراقب السّاعة حتّى أتى موعدك. كان جناحهم فوقك بطابقين. ارتقيت الدّرج بخطوات واسعة، ثمّ طرقت الباب على استحياء.

فتح لك العمّ صفوان بنفس الوجوم. إنّه لم يغفر لك أبدا، مع أنّه لا يدرك حقيقة فعلتك. فماذا لو عرف؟ شعرت بانقباض في صدرك، وأنت تتبعه إلى الصّالة. دعاك إلى الجلوس، ثمّ اختفى بالدّاخل. لمحت الحقائب مركونة حذو المدخل، استعدادا لسفر قريب. وضعت على المائدة أمامك طبق الحلويّات والعلبة المخمليّة التي رفض الرّجل استلامها في الموعد السّابق.

بعد دقيقتين، خرجت سارة وأمّها. كانت الأمّ مبتسمة محتفية بحضورك.

- عيد مبارك يا خالة.

- عيد مبارك يا بنيّ، تفضّل بالجلوس.

غصت في مقعدك من جديد، بينما تابعت وهي تتّجه إلى المطبخ:

- سأحضّر الشاي.

أنت تجلس الآن قبالة سارة، ترفع عينيك إليها في حياء، تحاول أن تقرأ الجواب على ملامحها.

- عيد مبارك.

تهمس بصوتها الرّقيق المحبّب إلى قلبك، فتنتعش قسماتك وتمدّ يدك إليها بالعلبة الحمراء المغلقة.

– هذه هديّتك.

قلت مازحا وأنت ترقب ردّ فعلها وهي تطالع الخاتم:

– في عاداتنا، يهدي الرّجل زوجته قطعة حليّ يوم العيد امتنانا لصبرها وجهدها في المطبخ طيلة شهر رمضان.. صحيح أنّني لم أجرّب طبخك بعد، لكنّني واثق من مهارتك.

رأيت ثغرها يفترّ عن ابتسامة خجلى، فانطلقت أساريرك. ثمّ ظهر والدها من جديد، واتّخذ مجلسا إلى جوارها. اكتست ملامحك مسحة جديّة وأنت تقول:

– أنا جاهز لكلّ الشّروط يا عمّي.

– أريد أن أعمل!

كانت سارة من بادر على الفور. فانتابك إحساس غريب بالزّمن، كأنّه يرجع بك إلى الوراء.. إلى أربع سنوات خلت. تتمثّل نفسك في جلسة مماثلة، في صالة بيتهم في باريس. وسارة تجادلك بشأن تخصّصها كطبيبة أطفال. يهيّأ إليك أنّ السّنوات التي تلت بأزماتها ومشقاتها كانت كابوسا مزعجا، وقد استيقظت الآن، لتستأنف ذلك الحوار المعلّق. ابتسمت، وقلت في رضا:

– لك ما تريدين.

أضاف والدها:

– سارة أنهت هذه السّنة تخصّصها، وهي تجهّز للرّسالة.

– ما شاء الله، مبارك يا سارة.

أرخت جفنيها في حياء، بينما يواصل عنها:

- وأين تنوي الإقامة؟

- أنـا أقيـم في الرّيـاض الآن يـا عمّـي، فـإن شـاءت سـارة مرافقـتي.. يمكن أن تجـد بسـهولة وظيفـة في المستشـفى الجامعـي الـذي أعمـل بـه، ويمكن أن تلتحـق بمستشـفى خـاصّ. أمّـا إن كانـت تفضّـل باريـس أو أيّ مـكان آخـر في العالـم، فلهـا مـا تشـاء!

دخلت والدتها تحمل طبقا عليه أكواب شاي ساخن وقالت:

- الرّيـاض تبـدو مناسـبة.. إنّهـا قريبـة مـن الحرمـين، ويمكننـا أن نـأتي لزيارتكـم كلّ عـام ونـؤدّي العمـرة.

أومـأت في حمـاس، بينمـا الـتزم العـمّ صفـوان الصّمـت عـلى مضـض. قلـت تطيّـب خاطره:

- أظـنّ أنّ معرفتنـا السّـابقة تقتـضي أن نـسرّع بالـزّواج الآن، أليـس كذلـك يـا عمّـي؟ لقـد أهدرنـا سـنوات ثمينـة مـن أعمارنـا، فمـا رأيكـم أن نعقـد القـران في باريـس بعـد شـهرين؟

- على بركة الله!

لم يكن متحمّسا، لكنّه أبدى موافقته، وذلك يكفي.

- نعتذر منك يا بنيّ، فنحن مغادرون بعد قليل إلى المدينة.

- طبعا يا خالة. أتفهّم ذلك.

وقفـت مكرهـا، وقـد حـزّ في خاطـرك أن تلقاهـا بعـد فـراق مديـد ولا تأخـذ كفايتـك مـن قربهـا. لكنّـك عزّيـت نفسـك بمـا حقّقتـه مـن نجـاح في ذلـك اللّقـاء القصـير. سـتعود الميـاه إلى مجاريهـا والطّيـور إلى أعشاشـها، وستسـتأنف رحلـة بترتهـا سـلفا.

ودّعتهـم وأنـت تغالـب الشّـوق، والجـزع مـن الفـراق مـرّة أخـرى. لكنّـك كنـت مطمئنّـا إلى خطـة القـدر الـتي تسـبق خطتـك. كانـت يـد القـدر تعمـل، وأنـت فقـط شـاهد عليهـا. فلتسـلم زمـام أمـرك راضيـا..

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا). كنت تستشعر بقوّة هذه المعيّة، وهذه العناية.

كلّ شيء بعد ذلك مرّ كلمح البصر. رجعت إلى الرّياض في المساء ذاته لتنبئ عائلتك بالخبر السّعيد. وقد كان خير معايدة تقدّمها لوالديك.. أن يرياك منفرج السّحنة ضاحكا، بعد أن خيّم الحزن على قلبك لأمد طويل. وبعد شهرين، كنت قد شغلت نفسك خلالها بتجهيز الشّقّة بما يليق بساكنتها الجديدة، سافرت إلى باريس كما وعدت، برفقة عائلتك، لتعقد قرانك على سارة.

لم تنس أن تدعو الفرسان الأربعة. وقد رأيت سعادة صادقة تنضح من قسماتهم وقرأت بشرا وحفاوة في عيونهم وهم يعانقونك بعد سنتين من الغياب، وقد عدت مالكا القديم الذي يعرفهم ويعرفونه. ثمّ رفعوك على أعناقهم ورقصوا بك على ضربات الدّفّ، ورموا بك في الهواء فوق الرّؤوس، لتحلّق في جذل، وأنت تستشعر دفقا من الأمان والطمأنينة تغمرك، من معين أخوّة صافية لا ينضب.

كان احتفالا ضيّقا، اقتصر على المقرّبين، وارتدت سارة «قفطانا» تقليديّا أبيض بدت فيه مثل ملاك هبط من السّماء ليملأ قلبك بهجة وحبورا. وحين انصرف المدعوّون إلى الوليمة، جلست تطالعها في حبّ، وأنت لا تصدّق وجودها إلى جوارك، بعد أن فرّقت بينكما مسافات القلب والعقل والجغرافيا.

قالت سارة، وهي ترمقك بابتسامة عذبة:

– ألم أقل لك؟ الله لن يضيّع إيمانك!

ثمّ أضافت ووجنتاها تتورّدان:

– لقد كنت أتتبّع أخبارك عن طريق سميّة، زوجة أيّوب.. وكنت أدعو لك كلّ يوم، بالهداية والرّشاد. وحين وصلت إلى مكّة، ورأيت الكعبة أوّل مرّة، جرى على لساني الدّعاء تلقائيّا وبكيت.. اللهم اهد

مالـكا! لذلـك ظننتـني أهلـوس، حـين لمحتـك في قاعـة الطعـام بعدهـا بأسـبوع واحـد! لـم أصـدّق أنّ الله قـد اسـتجاب أخـيرا لدعـائي...

ابتسمت وأنت تسترجع صورا من الماضي:

– هـل تعلمـين، مـع أنّـني كنـت أكابـر وأرفـض أن أعـترف بسـطوتك عـلى فـؤادي، فقـد كنـت أسـتحضر وجهـك في أشـدّ اللّحظـات غرابـة.. حتّى وأنـا أحـاول التأمّـل في حصّـة يوغـا عـلى جبـل هنـديّ شـاهق، كنـت أتحـدّث إليـك!

ضحكتمـا، ثـمّ قالـت وهـي ترنـو إلى لحيتـك الّـتي خالـط الشّـيب شـعيراتها:

– لقد غزا الشّيب عارضيك.. كبرت يا مالك!

ارتسمت على شفتيك ابتسامة مشاغبة وقلت مداعبا:

– هـل تسـمعين عـن شـاعر ثائـر عـلى الأمويّـين، يدعـى عبـد الله بـن قيـس الرّقيّـات؟

هزّت رأسها نافية، وما كانت على ولعك بالشّعر إطلاقا، وسألت:

– وما الرّقيّات؟

– لقد أحبّ الشّاعر ثلاث نساء وتغنّى بهنّ، وكلّ منهنّ اسمها رقيّة!

ضحكت سارة، بينما رحت تنشدها، من أبيات الشاعر:

بَكَـرَت عَلَيَّ عَـواذِلي ... يَلحَينَنـي وَأَلومُـهُنَّـه

وَيَقُلنَ شَيبٌ قَد عَلاكَ ... وَقَد كَبِرتَ فَقُلتُ إِنَّـه

إِنَّ العَـواذِلَ لُمـنَني ... وَلَن أُطيـع أُمـورَهُنَّه

فيما أُفيدُ مِنَ الغِنـى ... وَاللَهُ سَـوفَ يُهينُـهُنَّه

وَلَقَد عَصَيتُ الناهِـيا ... تِ النـاشِراتِ جُيوبَهُـنَّه

حَتّى اِرعَوَيتُ إِلى الرَشـا ... د وَمـا اِرعَـوَيتُ لِنَهيِـهِنَّه

خاتمة

الرياض في ٢٠ يناير ٢٠١١،

صديقي العزيز مالك،

اسمح لي أن أخاطبك بصديقي، رغم لقائنا الوحيد منذ شهور. ربّما لا تكون صداقتنا بالمعنى التقليديّ للكلمة، فهي أحاديّة الجانب. لكنّني بعد أن عرفت تفاصيل قصّتك وعشت معها خلال الفترة الماضية، أشعر بنوع من الألفة، وأخشى أن تفترق سبلنا ببساطة وقد استأنست بك وانغمست في تجربتك حتّى أذنيّ.

لقد انتهيت من مسودّة الرّواية تقريبا. أرجو أن تراجعها وتوافيني بملاحظاتك إن رأيت فيها ما يحتاج التّعديل أو التّحرير، قبل أن أرسلها إلى دار النّشر.

التقيت منذ يومين صديقنا المشترك، الدّكتور نديم المغربي. أخبرني أنّك قد سافرت إلى تونس أخيرا بعد عقد ونصف من الغربة، مع زوجتك المصون وطفليك الرّائعين. أهنئك على الثورة التونسيّة التي أهدتك فرصة حريّة جديدة، وأبارك لك وصالك مع الوطن وتصالحك مع ماضيك المؤلم.

كنت أفكّر في قرارة نفسي أنّ جراحك لن تبرأ حقيقة، إلّا بعد أن تعود إلى ميدان السّياسة وتثأر لخيبات الأمس وتجدّد انتماءك لقضيّة آمنت بها ولم تنصفك. أتخيّلك الآن تذوب في زخم الثّورة وتجلّياتها، وأنت تخرج في الاحتجاجات، تقود الجموع كما فعلت دائما، تخطب فيهم بصوتك الجهوريّ وتشعل حماستهم. أتخيّلك وأنت تعتصم أمام مباني الوزارات وترفع القضايا واحدة تلو الأخرى، ضدّ من عذّبوك بالأمس، من ظلموك وسلبوك كرامتك، ودفعوا بك إلى شراك اليأس، بل وترافع فيها عن نفسك!

الثّورة تناسبك جدّا يا صديقي، إنّما خلقت لمن هم مثلك.

لقد رأيتك هادئا، تنضح قسماتك بالسّكينة والطّمأنينة، في لقائنا

الوحيـد. لكنّـني رأيتـك في كلّ أحوالـك عـلى الـورق. لعلّـك الآن تلتفـت بعجـب إلى تلـك المواقـف الـتي دفعتـك إلى اليـأس، وحـتّى الرّغبـة بالمـوت، وقـد تجاوزتهـا، وربّمـا تنسـاها في خضـم مشـاغلك الجديـدة؟ ولعلّـك تسـتغرب اليـوم مـن شـعورك السّـابق بالقنـوط وتـري أنّـه كان مبالغـا فيـه؟

لكنّـني، والحـقّ أقـول، أرى أنّـك قـد كابـدت مـن مشـقّات الحيـاة مـا إنّ ثقلـه ينـوء بالعصبـة أولي القـوّة. لكـنّ التحدّيـات كانـت تدفعـك أبعـد وأعـلى في بنـاء ذاتـك، وترميمهـا باسـتمرار رغـم الهـدم المتكـرّر. أليـس مـن رحـم المعانـاة يولـد الأبطـال؟

هل أبوح لك بسرّ صغير؟

لـم يكـن لقاؤنـا في مـنزل د. نديـم صدفـة محضـة. لقـد خطّـط لذلـك مسـبقا، وقـرّر جمعنـا في تلـك الجلسـة، تمامـا كمـا جمعـك مـن قبـل بالدّكتـور عقيـل! لقـد أراد -جـزاه الله خـيرا- أن أسـتمع إلى قصّتـك كلّهـا، وأنشـغل بهـا عمّـا أهمّـني. لقـد فقـدت زوجـتي وولـدي منـذ حـوالي السّـنة، توفّاهمـا الله في حـادث أليـم. وقـد تقوقعـت عـلى نفسـي منـذ ذلـك الوقـت، وعشـت اكتئابـا حـادّا، واعترضـت عـلى قـدر الله الـذي رأيتـه ظالمـا.. وراودني مـا راودك مـن الحـيرة والسّـخط والضّيـاع.

لقـد كانـت قصّتـك حبـل النّجـاة الـذي امتـدّ إليّ بمعجـزة مـا، لأخـرج مـن تلـك الأزمـة السّـاحقة، فأسـتعيد تماسـكي وتـوازني. لقـد كذبـت عليـك حـين تواصلـت معـك في المـرّة السّـابقة. عرضـت عليـك أن أكتـب قصّتـك، ليـس بدافـع أدبيّ صرف، بـل لحاجـة في نفسـي، قضيتهـا، وأنـا أقـرأ أفـكارك وأعيـد صياغتهـا. أتشرّبهـا وأعيشـها، وأقطـع مـدّ الألـم الـذي سيطر عـليّ قبلها .

أعـرف اليـوم أنّ قصّتـك تسـتحقّ أن تنـشر، علّهـا تكـون سـببا في إنقـاذ أرواح كثـيرة أخـرى، كانـت سجينة القنـوط والعـذاب والألـم.

تحياتّي.

صديقك

شكر

إلى د. عمـرو شريـف مؤلـف كتـاب «رحلـة عقـل» الـذي كان لأفـكاره القيّمـة أثـر بالـغ في بنـاء الروايـة.